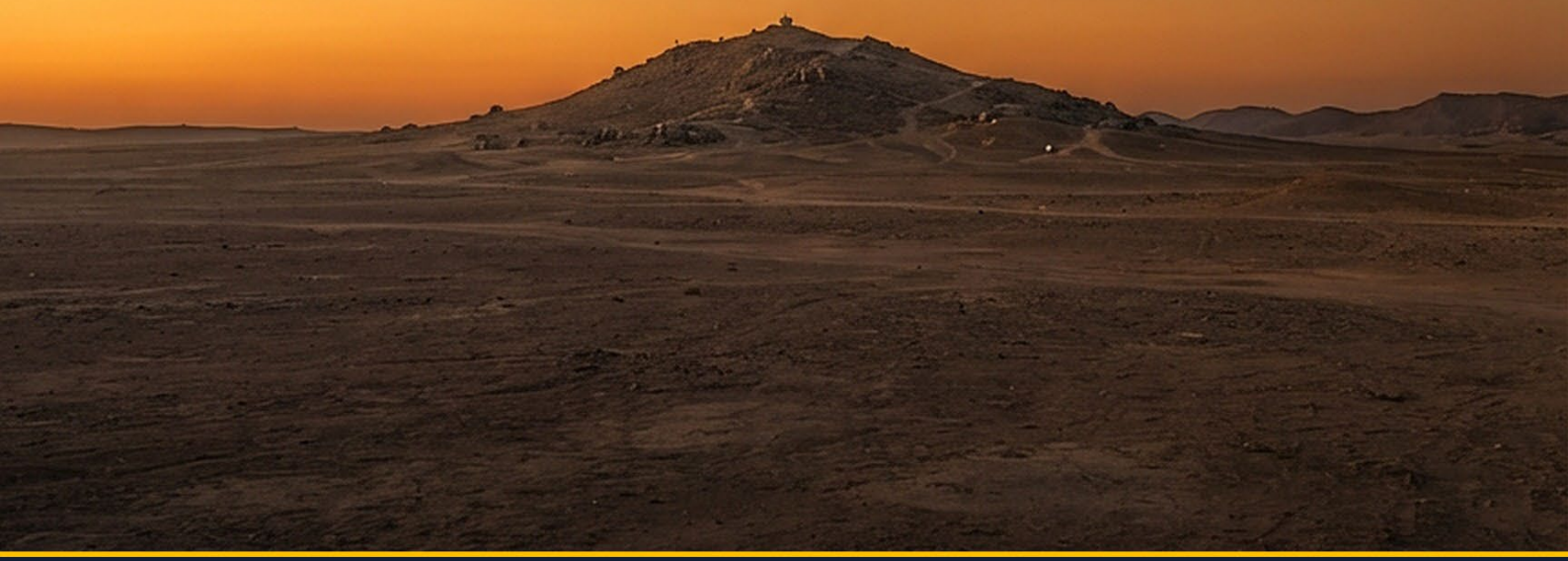
السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ — الْمَجْمُوعَةُ الْكَامِلَةُ

الْمُجَلَّدُ الرَّابِعُ

مِنْ حُنَيْنٍ إِلَى الْوَفَاةِ

الْحَلَقَاتُ ٢٢–٣٠



HJ CHE ALIM HJ CHE HARON

AK (KELANTAN)

quranscience.my

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ Hj Che Alim Hj Che Haron AK (Kelantan) • @QuranScienceMY • quranscience.my

هذا الكتاب الإلكتروني مجّاني للمسلمين — يُمنع بيعه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ — الْمَجْمُوعَةُ الْكَامِلَةُ

الْمُجَلَّدُ الرَّابِعُ

مِنْ حُنَيْنٍ إِلَى الْوَفَاةِ

الْحَلَقَاتُ ٢٢–٣٠: مِنْ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ إِلَى وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ

سورة التوبة (٩): ٢٦

HJ CHE ALIM HJ CHE HARON

quranscience.my | @QuranScienceMY

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ quranscience.my — كتاب إلكتروني مجاني. يُمنع بيعه.

شكر وإهداء

الحمد لله الذي أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودًا لم يروها. والصلاة والسلام على نبيّنا محمّد ﷺ، الذي ثبت على بغلته حين ولّى كثيرٌ من الناس، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أُهدي هذا الكتاب خاصّةً إلى زوجتي الحبيبة،

زهرة محمد لطيف؛

وإلى أبنائي وبناتي الأحبّة،

محمد حافظ، نور هزواني، عبد الحكيم، نور هداية، نور عاقلة ونور عتيقة؛

وإلى أصهاري وكنّاتي،

فضيلة، مالك، حنين، فيريزال وفيروان.

يجمع هذا الكتاب الحلقات من الثانية والعشرين إلى الثلاثين من سلسلة «السيرة النبوية» في مجلّد واحد: غزوة حنين وحصار الطائف، وغنائم حنين والأنصار، وغزوة تبوك، وكعب بن مالك ومسجد الضرار، وعام الوفود، وحجّة أبي بكر والبراءة، وحجّة الوداع وخطبتها، إلى وفاة رسول الله ﷺ. وقد أُبقيت مراجع كلّ حلقة. نسأل الله أن يقرّبنا هذا الكتاب من رسول الله ﷺ، وأن يجعله صدقةً جاريةً لكلّ من أعان عليه وقرأه ونشره.

عن غلاف هذا الكتاب

لا يصوّر غلافُ هذا الكتاب أيَّ إنسانٍ أو حيوان، بل يعرض سهلًا صحراويًّا واسعًا بُعيد غروب الشمس: تلًّا صخريًّا قائمًا وحده في وسط السهل، وسماءً تتحوّل رويدًا من البرتقاليّ الذهبيّ إلى زرقة الليل، وأولى النجوم تبدأ في الظهور.

يذكّرنا التلّ في وسط السهل بعرفة، حيث خطب رسول الله ﷺ في حجّة الوداع ونزلت آية إكمال الدين. وأمّا ضوء الغروب الآخذ في الخفوت فيرمز إلى أيّامه الأخيرة مع أمّته: غربت شمس حياته ﷺ، لكنّ نور الرسالة التي تركها ما زال يضيء إلى اليوم.

الشريط الأزرق الداكن في الأسفل، المؤطَّر بخطوطٍ ذهبيةٍ رفيعة، هو موضع اسم المؤلف. وقد كُتبت عناوين المجلّدات الخمسة لهذه المجموعة بالأسلوب والحجم واللون الذهبي نفسه، لتبدو الكتب الخمسة مجموعةً واحدةً إذا صُفَّت معًا.

المحتويات

الْجُزْءُ ١: الْحَلْقَةُ ٢٢ — غَزْوَةُ حُنَيْنٍ وَحِصَارُ الطَّائِفِ

غزوة حنين وحصار الطائف — مقدّمة
١. بعد فتح مكّة — رسم؛ كتب السيرة
٢. مالك بن عوف ونصيحة دُريد — كتب السيرة
٣. الدروع المستعارة من صفوان — سنن أبي داود ٣٥٦٢؛ كتب السيرة
٤. شجرة ذات أنواط — جامع الترمذي ٢١٨٠؛ الأعراف ٧: ١٣٨
٥. ابتلاء الكثرة — التوبة ٩: ٢٥؛ البقرة ٢: ٢٤٩
٦. الكمين في الوادي — صحيح البخاري ٢٨٦٤؛ رسم
٧. لماذا انهزم الجيش؟ — جدول؛ آل عمران ٣: ١٥٥
٨. «أنا النبيّ لا كذب» — صحيح البخاري ٢٨٦٤
٩. النداء لأصحاب السَّمُرة — صحيح مسلم ١٧٧٥
١٠. قبضة من تراب — صحيح مسلم ١٧٧٧؛ الأنفال ٨: ١٧
١١. السكينة والجنود التي لم تُرَ — التوبة ٩: ٢٦؛ رسم
١٢. ثلاث آيات في حنين — التوبة ٩: ٢٥–٢٧، ٩: ٤٠
١٣. صدق سلمة بن الأكوع — صحيح مسلم ١٧٧٧
١٤. أبو سفيان بن الحارث: ابن العمّ الوفيّ — صحيح مسلم ١٧٧٥
١٥. أمّ سُلَيم وخنجرها — صحيح مسلم ١٨٠٩
١٦. أبو قتادة وسَلَب القتيل — صحيح البخاري ٣١٤٢
١٧. لا تُقتل النساء ولا الأُجَراء — سنن أبي داود ٢٦٦٩
١٨. أوطاس والدِّعاء لأبي عامر — صحيح البخاري ٤٣٢٣
١٩. دُريد بن الصِّمَّة: الفارس الشيخ — صحيح البخاري ٤٣٢٣؛ كتب السيرة
٢٠. الطائف قبل عشر سنين — صحيح البخاري ٣٢٣١
٢١. حصار الطائف — صحيح البخاري ٤٣٢٥
٢٢. تبسّم القائد — صحيح البخاري ٤٣٢٥
٢٣. الذين نزلوا من الحصن — صحيح البخاري ٤٣٢٦؛ كتب السيرة
٢٤. «اللهمّ اهدِ ثقيفًا» — جامع الترمذي ٣٩٤٢؛ كتب السيرة
٢٥. السبي والغنائم — صحيح مسلم ١٠٥٩؛ كتب السيرة
٢٦. أمٌّ تبحث عن ولدها — صحيح البخاري ٥٩٩٩
٢٧. الأمانة في الغنيمة — صحيح البخاري ٣٠٧٣؛ سنن أبي داود ٢٦٩٤
٢٨. الشيماء: الأخت من الرضاعة — كتب السيرة
٢٩. بدر وحنين — جدول
٣٠. مصادر القصّة — جدول
٣١. القبائل في ميدان حنين والطائف — جدول؛ كتب السيرة
٣٢. أعلام غزوة حنين والطائف — جدول
٣٣. أماكن الأحداث بين الأمس واليوم — جدول
٣٤. أحكام من حنين والطائف — جدول؛ سنن أبي داود ٢١٥٧
٣٥. الخطّ الزمنيّ لغزوة حنين والطائف — جدول
٣٦. أسئلة شائعة عن غزوة حنين والطائف — ١٢ سؤالًا
٣٧. الدروس والخاتمة
المراجع — الْحَلْقَةُ ٢٢

الْجُزْءُ ٢: الْحَلْقَةُ ٢٣ — غَنَائِمُ حُنَيْنٍ وَالْأَنْصَارُ

غنائم حنين والأنصار — مقدّمة
١. العودة إلى الجعرانة — رسم
٢. انتظار هوازن — صحيح البخاري ٢٣٠٧
٣. الأعرابيّ الذي جذب الرداء — صحيح البخاري ٣١٤٩، ٢٨٢١
٤. أحكام الغنيمة — الأنفال ٨: ١، ٨: ٤١
٥. المؤلَّفة قلوبهم — التوبة ٩: ٦٠
٦. صفوان: من البغض إلى الحبّ — صحيح مسلم ٢٣١٣
٧. «ما سئل شيئًا قطّ فقال: لا» — صحيح البخاري ٦٠٣٤، ٦
٨. أبو سفيان وحكيم والأشراف — صحيح مسلم ١٠٦٠؛ كتب السيرة
٩. حكيم بن حزام: اليد العليا — صحيح البخاري ١٤٧٢
١٠. شعر العبّاس بن مرداس — صحيح مسلم ١٠٦٠
١١. «فمن يعدل؟» — صحيح البخاري ٣١٥٠
١٢. «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟» — صحيح البخاري ٣١٣٨؛ صحيح مسلم ١٠٦٣
١٣. بذرة الخوارج — صحيح البخاري ٣٦١٠
١٤. صبر موسى — الأحزاب ٣٣: ٦٩
١٥. مقالة الأنصار — صحيح البخاري ٤٣٣١
١٦. سعد بن عبادة: «ما أنا إلّا من قومي» — كتب السيرة
١٧. الخطبة في قبّة الأَدَم — صحيح البخاري ٤٣٣٠
١٨. الهداية والألفة والغنى — آل عمران ٣: ١٠٣؛ الأنفال ٨: ٦٣
١٩. الشِّعار والدِّثار — صحيح البخاري ١٧؛ رسم
٢٠. الأَثَرة: نبوءةٌ ووصيّةٌ بالصبر — صحيح البخاري ٤٣٣٠-٤٣٣١
٢١. دموع الأنصار — كتب السيرة
٢٢. الأنصار في القرآن — الحشر ٥٩: ٩؛ التوبة ٩: ١٠٠
٢٣. وفد هوازن التائب — صحيح البخاري ٢٣٠٧
٢٤. رابطة الرضاعة مع هوازن — سنن أبي داود ٥١٤٤؛ كتب السيرة
٢٥. العدل في ردّ السبي — صحيح البخاري ٢٣٠٧
٢٦. إسلام مالك بن عوف — كتب السيرة
٢٧. العمرة من الجعرانة — صحيح البخاري ١٧٧٨
٢٨. العودة إلى المدينة — كتب السيرة
٢٩. المال والقلب — جدول
٣٠. مصادر القصّة — جدول
٣١. آيات القرآن في المال والعطاء والعدل — جدول؛ صحيح البخاري ٦٩٣٣
٣٢. أصحاب العطايا الكبيرة ومصائرهم — جدول؛ صحيح مسلم ١٠٦٠، ٢٣١٢
٣٣. المؤلَّفة قلوبهم بعد عهد رسول الله ﷺ — جدول المذاهب
٣٤. الجعرانة بين الأمس واليوم — جدول
٣٥. الخطّ الزمنيّ: من حنين إلى المدينة — جدول
٣٦. أسئلة شائعة عن غنائم حنين — ١٢ سؤالًا
٣٧. الدروس والخاتمة
المراجع — الْحَلْقَةُ ٢٣

الْجُزْءُ ٣: الْحَلْقَةُ ٢٤ — غَزْوَةُ تَبُوكَ

غزوة تبوك — المقدّمة
١. بعد عام الفتح — رسم؛ كتب السيرة

٢. أخبار الشام — كتب السيرة
٣. الإعلان الصريح — صحيح البخاري ٤٤١٨
٤. حرّ الصيف وطِيب الثمار — التوبة ٩: ٣٨، ٩: ٤١
٥. جيش العُسرة — التوبة ٩: ١١٧؛ رسم
٦. إنفاق عثمان بن عفّان — جامع الترمذي ٣٧٠١
٧. سباق أبي بكر وعمر — جامع الترمذي ٣٦٧٥؛ كتب السيرة
٨. صدقة الصاع من التمر — التوبة ٩: ٧٩؛ صحيح البخاري ٤٦٦٨
٩. البكّاؤون — التوبة ٩: ٩١–٩٢
١٠. حُمْلان الأشعريّين — صحيح البخاري ٤٤١٥
١١. أعذار المنافقين — التوبة ٩: ٤٢، ٩: ٤٩
١٢. «لا تنفروا في الحرّ» — التوبة ٩: ٨١
١٣. معرفة داء النفاق — صحيح البخاري ٣٣، ٣٤، ٦٥٧؛ صحيح مسلم ٢٧٨٤
١٤. عليّ: بمنزلة هارون من موسى — صحيح البخاري ٤٤١٦
١٥. أبو خيثمة وأبو ذرّ — صحيح مسلم ٢٧٦٩؛ كتب السيرة
١٦. الحِجْر: ديار ثمود — صحيح البخاري ٣٣٧٨؛ الحجر ١٥: ٨٠–٨٤
١٧. «لَا تدخلوا إلّا أن تكونوا باكين» — صحيح البخاري ٤٤١٩–٤٤٢٠
١٨. عين تبوك — صحيح مسلم ٧٠٦؛ رسم
١٩. الجمع بين الصلاتين في السفر — صحيح مسلم ٧٠٦
٢٠. الريح الشديدة وحديقة المرأة — صحيح البخاري ١٤٨١
٢١. الصلح مع أيْلة — صحيح البخاري ١٤٨١؛ التوبة ٩: ٢٩
٢٢. خالد إلى دومة الجندل — صحيح البخاري ٢٦١٦؛ كتب السيرة
٢٣. عشرون يومًا في تبوك — سنن أبي داود ١٢٣٥
٢٤. المؤامرة في العقبة — صحيح مسلم ٢٧٧٩؛ كتب السيرة
٢٥. «إنّما كنّا نخوض ونلعب» — التوبة ٩: ٦٥–٦٦
٢٦. الذين حبسهم العذر — صحيح البخاري ٤٤٢٣
٢٧. «هذه طابة»: العودة إلى المدينة — صحيح البخاري ١٤٨١
٢٨. سورة التوبة: وحي على الطريق — جدول؛ تفسير ابن كثير
٢٩. مؤتة وتبوك — جدول
٣٠. مصادر القصّة — جدول
٣١. أعلام غزوة تبوك — جدول؛ صحيح البخاري ٤٤١٦؛ صحيح مسلم ٢٧٤
٣٢. أحكام من سفر تبوك — صحيح مسلم ٢٧٤؛ جدول
٣٣. قصص صغيرة على الطريق — صحيح مسلم ٢٧؛ كتب السيرة
٣٤. تبوك والحِجْر بين الأمس واليوم — جدول؛ اليونسكو
٣٥. الخطّ الزمنيّ لغزوة تبوك — جدول
٣٦. أسئلة شائعة عن غزوة تبوك — ١٢ سؤالًا
٣٧. الدروس والخاتمة
المراجع — الحَلْقَةُ ٢٤

الجُزْءُ ٤: الحَلْقَةُ ٢٥ — كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَمَسْجِدُ الضِّرَارِ

كعب بن مالك ومسجد الضرار — المقدّمة
١. الثلاثة الذين خُلِّفوا — التوبة ٩: ١١٨؛ رسم
٢. من هو كعب بن مالك؟ — صحيح البخاري ٤٤١٨؛ كتب السيرة
٣. «غدًا أتجهّز» — صحيح البخاري ٤٤١٨
٤. المدينة الموحشة — صحيح البخاري ٤٤١٨
٥. «ما فعل كعب؟» — صحيح البخاري ٤٤١٨

٦. **العودة إلى المسجد** — صحيح البخاري ٣٠٨٨
٧. **بضعة وثمانون عذرًا** — التوبة ٩: ٩٤–٩٦
٨. **ساعة الصدق** — صحيح البخاري ٤٤١٨
٩. **أعظم نعمة بعد الهداية** — صحيح البخاري ٤٦٧٣
١٠. **مرارة وهلال** — صحيح البخاري ٤٤١٨
١١. **بداية الهجر** — صحيح البخاري ٦٢٥٥؛ رسم
١٢. **ضاقت عليهم الأرض بما رحبت** — التوبة ٩: ١١٨
١٣. **كتاب ملك غسّان** — صحيح البخاري ٤٤١٨
١٤. **«اعتزل امرأتك»** — صحيح البخاري ٤٤١٨
١٥. **الليلة الخمسون** — صحيح البخاري ٤٤١٨
١٦. **صوت من جبل سَلْع** — صحيح البخاري ٤٤١٨؛ رسم
١٧. **«خير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك»** — صحيح البخاري ٤٤١٨
١٨. **نزول آيات التوبة** — صحيح البخاري ٤٦٧٨؛ التوبة ٩: ١١٧–١١٨
١٩. **فرح الله بتوبة عبده** — صحيح البخاري ٦٣٠٩؛ صحيح مسلم ٢٧٥٩
٢٠. **«أمسك عليك بعض مالك»** — صحيح البخاري ٢٧٥٧
٢١. **الصدق يهدي إلى الجنّة** — صحيح البخاري ٦٠٩٤؛ التوبة ٩: ١١٩
٢٢. **حكمة الهجر** — زاد المعاد؛ فتح الباري
٢٣. **فوائد فقهية من حديث كعب** — فتح الباري؛ شرح مسلم
٢٤. **لماذا حدّث كعب بضعفه؟** — صحيح البخاري ٦٠٦٩؛ كتب الشروح
٢٥. **الذين اعترفوا بذنوبهم** — التوبة ٩: ١٠٢، ٩: ١٠٦؛ كتب السيرة
٢٦. **بناء مسجد الضرار** — التوبة ٩: ١٠٧؛ كتب السيرة
٢٧. **«لا تقم فيه أبدًا»** — التوبة ٩: ١٠٨؛ كتب السيرة
٢٨. **المسجد الذي أُسّس على التقوى** — صحيح مسلم ١٣٩٨
٢٩. **مسجد قباء والمتطهّرون** — صحيح البخاري ١١٩٣
٣٠. **بنيانٌ على شفا جُرُف** — التوبة ٩: ١٠٩–١١٠
٣١. **مسجدان ونيّتان** — جدول
٣٢. **مصادر القصّة** — جدول
٣٣. **الآيات القرآنية وراء هذه القصّة** — جدول؛ التوبة ٩: ١١٨
٣٤. **أعلام قصّة كعب ومسجد الضرار** — جدول؛ صحيح البخاري ٤٤١٨
٣٥. **هلال بن أميّة وآية اللعان** — صحيح البخاري ٤٧٤٧؛ النور ٢٤: ٦–٩
٣٦. **الهجر: متى يجوز؟** — صحيح مسلم ٢٥٦٥؛ سنن أبي داود ٤٩١٤
٣٧. **التسلسل الزمني لقصّة الثلاثة ومسجد الضرار** — جدول
٣٨. **أسئلة شائعة عن كعب بن مالك ومسجد الضرار** — ١٢ سؤالًا
٣٩. **الدروس والخاتمة**
المراجع — الْحَلْقَةُ ٢٥

الْجُزْءُ ٥: الْحَلْقَةُ ٢٦ — عَامُ الْوُفُودِ

عام الوفود — المقدّمة
١. **عام الوفود** — النصر ١١٠: ١–٣؛ رسم
٢. **لماذا بعد تبوك؟** — صحيح البخاري ٤٣٠٢
٣. **ثقيف تأتي من الطائف** — كتب السيرة؛ سنن أبي داود ٣٠٢٥
٤. **هدم صنم اللات** — كتب السيرة
٥. **بنو تميم من وراء الحجرات** — الحجرات ٤٩: ٤–٥
٦. **«اقبلوا البشرى»** — صحيح البخاري ٤٣٦٥
٧. **أبو بكر وعمر يرفعان أصواتهما** — صحيح البخاري ٤٣٦٧؛ الحجرات ٤٩: ١–٢

٨. ثابت بن قيس: خطيب رسول الله ﷺ — صحيح البخاري ٤٨٤٦؛ كتب السيرة
٩. وفد عبد القيس — صحيح البخاري ٥٣
١٠. خصلتان يحبهما الله — صحيح مسلم ١٧
١١. ضمام بن ثعلبة — صحيح البخاري ٦٣
١٢. ضمام يرجع إلى قومه — كتب السيرة
١٣. نصارى نجران — آل عمران ٣: ٦١
١٤. المباهلة التي لم تقع — صحيح البخاري ٤٣٨٠
١٥. أبو عبيدة: أمين هذه الأمّة — صحيح البخاري ٣٧٤٤
١٦. أهل اليمن أرقّ قلوبًا — صحيح البخاري ٤٣٨٨
١٧. الأشعريّون: «هم مني» — صحيح البخاري ٢٤٨٦
١٨. الطفيل وقبيلة دوس — صحيح البخاري ٢٩٣٧
١٩. أويس القرني: رجل من اليمن عرفته السماء — صحيح مسلم ٢٥٤٢
٢٠. بعث معاذ إلى اليمن — صحيح البخاري ٤٣٤٧
٢١. «يسِّرا ولا تعسِّرا» — صحيح البخاري ٣٠٣٨
٢٢. جرير وذو الخلَصة — صحيح البخاري ٤٣٥٥–٤٣٥٧
٢٣. عليّ إلى اليمن — صحيح البخاري ٤٣٤٩، ٤٣٥٠
٢٤. مسيلمة الكذّاب — صحيح البخاري ٤٣٧٣
٢٥. سواران من ذهب — صحيح البخاري ٤٣٧٣، ٤٣٧٩
٢٦. ثمامة بن أثال — صحيح البخاري ٤٣٧٢
٢٧. عديّ بن حاتم والوعود الثلاثة — صحيح البخاري ٣٥٩٥
٢٨. آداب استقبال الوفود — صحيح البخاري ٨٨٦، ٣٠٥٣
٢٩. أخوّة فوق القبيلة — الحجرات ٤٩: ١٣
٣٠. بعد عام الوفود: فتنة الردّة — صحيح البخاري ١٣٩٩–١٤٠٠
٣١. وصايا لكلّ وفد — جدول
٣٢. مصادر القصّة — جدول
٣٣. جدول الوفود في العامين ٩–١٠ للهجرة — جدول؛ القبيلة والمنطقة والرئيس والمآل والمصدر
٣٤. آيات القرآن حول عام الوفود — جدول؛ النصر ١١٠؛ الحجرات ٤٩؛ آل عمران ٣: ٦١
٣٥. مالك بن الحويرث: عشرون ليلةً في المدينة — صحيح البخاري ٦٣١
٣٦. وفود أخرى في كتب السيرة — طيّئ، كندة، بنو عامر، مزينة؛ روايات السيرة
٣٧. التسلسل الزمني لعام الوفود — جدول
٣٨. أسئلة شائعة عن عام الوفود — ١٢ سؤالًا
٣٩. الدروس والخاتمة
المراجع — الْحَلْقَةُ ٢٦

الْجُزْءُ ٦: الْحَلْقَةُ ٢٧ — حَجَّةُ أَبِي بَكْرٍ وَالْبَرَاءَةُ

حجّة أبي بكر والبراءة — مقدّمة
١. موسم الحجّ سنة تسعٍ للهجرة — رسم؛ كتب السيرة
٢. لماذا لم يحجّ رسول الله ﷺ تلك السنة؟ — كتب السيرة
٣. أبو بكر أميرًا على الحجّ — صحيح البخاري ١٦٢٢
٤. نزول البراءة — صحيح البخاري ٤٦٥٤؛ التوبة ٩: ١–٢
٥. عليٌّ يلحق بالركب — جامع الترمذي ٣٠٩١؛ كتب السيرة
٦. الأذان بمنى — صحيح البخاري ٤٦٥٥؛ التوبة ٩: ٣
٧. يوم الحجّ الأكبر — صحيح البخاري ٣١٧٧
٨. أبو هريرة مؤذّنًا بمنى — صحيح البخاري ١١٨، ١١٩
٩. لا طواف بالبيت عريانًا بعد اليوم — صحيح مسلم ٣٠٢٨؛ الأعراف ٧: ٣١

١٠. تلبية التوحيد وتلبية الشرك — صحيح مسلم ١١٨٥؛ صحيح البخاري ١٥٤٩
١١. الخمس والوقوف بعرفة — صحيح البخاري ١٦٦٤، ١٦٦٥؛ البقرة ٢: ١٩٩
١٢. أربعة أشهر، وعهود تتمّ — التوبة ٩: ٢، ٩: ٤، ٩: ٧
١٣. الآية ٩: ٥ في سياقها — التوبة ٩: ٥؛ التفسير
١٤. «فأجِره حتى يسمع» — التوبة ٩: ٦
١٥. المساجد يعمرها المؤمنون — التوبة ٩: ١٧–١٨
١٦. «فسوف يغنيكم الله» — التوبة ٩: ٢٨
١٧. الأشهر الحرم والنسيء — التوبة ٩: ٣٦–٣٧؛ رسم
١٨. العودة إلى ملّة إبراهيم — إبراهيم ١٤: ٣٥–٣٧؛ الحجّ ٢٢: ٢٦–٢٧
١٩. لماذا لم تفتتح بالبسملة؟ — كتب التفسير
٢٠. أسماء سورة التوبة — صحيح البخاري ٤٨٨٢
٢١. حجّة أبي بكر تمهيد لحجّة الوداع — صحيح البخاري ٣١٧٧
٢٢. منزلة أبي بكر — صحيح البخاري ٦٦٤، ٣٦٥٤
٢٣. العامل على الصدقة والهديّة — صحيح البخاري ٧١٧٤
٢٤. وفاة عبد الله بن أبيّ — صحيح البخاري ١٣٦٦
٢٥. قميص رسول الله ﷺ — صحيح البخاري ١٣٥٠، ٣٠٠٨
٢٦. النهي عن الصلاة على المنافقين — التوبة ٩: ٨٠، ٩: ٨٤
٢٧. نهاية عهد المنافقين — كتب السيرة
٢٨. وفاة النجاشيّ — صحيح البخاري ١٢٤٥، ٣٨٧٧
٢٩. وفاة أمّ كلثوم — صحيح البخاري ١٢٨٥
٣٠. دموع رسول الله ﷺ — صحيح البخاري ١٣٠٣
٣١. مضمون إعلان البراءة — جدول
٣٢. مصادر القصّة — جدول
٣٣. خريطة موضوعات سورة التوبة — جدول؛ التوبة ٩: ١–١٢٩؛ صحيح البخاري ٤٦٧٥، ٤٦٧٩
٣٤. أعلام حجّة السنة التاسعة — جدول؛ جامع الترمذي ٣٧١٩
٣٥. أحكام من حجّة أبي بكر والبراءة — جدول؛ صحيح البخاري ٣١٦٦؛ جامع الترمذي ٩٦٠
٣٦. الأماكن في هذه القصّة — جدول؛ ذو الحليفة، العَرج، منى، عرفة
٣٧. التسلسل الزمنيّ للسنة التاسعة — جدول
٣٨. أسئلة شائعة عن حجّة أبي بكر والبراءة — ١٢ سؤالًا
٣٩. الدروس والخاتمة
المراجع — الْحَلْقَةُ ٢٧

الْجُزْءُ ٧: الْحَلْقَةُ ٢٨ — حَجَّةُ الْوَدَاعِ

حجّة الوداع — مقدّمة
١. الإعلان: رسول الله ﷺ حاجٌّ هذا العام — صحيح مسلم ١٢١٨
٢. أسماء هذه الحجّة — كتب السيرة؛ صحيح البخاري ٤٤٠٢
٣. الخروج من المدينة — صحيح البخاري ١٥٤٥؛ رسم
٤. في ذي الحُلَيفة — صحيح مسلم ١٢١٨
٥. تلبية التوحيد — صحيح البخاري ١٥٤٩
٦. الحجّ المبرور — صحيح البخاري ١٥٢١؛ البقرة ٢: ١٩٧
٧. بحر من البشر — صحيح مسلم ١٢١٨؛ كتب السيرة
٨. بكاء عائشة بسَرِف — صحيح البخاري ٣٠٥
٩. الوصول إلى مكّة — صحيح البخاري ١٥٤٥؛ صحيح مسلم ١٢١٨
١٠. الحجر الأسود وكلمة عمر — صحيح البخاري ١٥٩٧
١١. عند مقام إبراهيم — البقرة ٢: ١٢٥؛ آل عمران ٣: ٩٧

١٢. السعي: «أبدأُ بما بدأ الله به» — البقرة ٢: ١٥٨؛ صحيح مسلم ١٢١٨
١٣. دخلتِ العمرة في الحجّ — صحيح مسلم ١٢١٨؛ صحيح البخاري ١٦٥١
١٤. عليٌّ يقدم من اليمن — صحيح مسلم ١٢١٨؛ صحيح البخاري ١٥٥٧
١٥. يوم التروية — صحيح مسلم ١٢١٨
١٦. مجاوزة مزدلفة إلى عرفة — صحيح مسلم ١٢١٨؛ البقرة ٢: ١٩٩
١٧. الخطبة ببطن عُرَنة — صحيح مسلم ١٢١٨
١٨. يوم أكمل الدين — صحيح البخاري ٤٥؛ المائدة ٥: ٣
١٩. «الحجّ عرفة» — صحيح مسلم ١٣٤٨؛ جامع الترمذي ٨٨٩
٢٠. «السكينة، أيّها الناس!» — صحيح مسلم ١٢١٨؛ صحيح البخاري ١٦٧١
٢١. الليلة في مزدلفة — البقرة ٢: ١٩٨؛ صحيح البخاري ١٦٨١
٢٢. المشعر الحرام ووادي مُحَسِّر — صحيح مسلم ١٢١٨
٢٣. رمي جمرة العقبة — صحيح مسلم ١٢٩٧
٢٤. مئة بدنة هديًا — صحيح مسلم ١٢١٨؛ الحجّ ٢٢: ٣٧
٢٥. الدعاء للمحلّقين — صحيح البخاري ١٧٢٧
٢٦. «افعل ولا حرج» — صحيح البخاري ١٧٣٦
٢٧. طواف الإفاضة وماء زمزم — صحيح مسلم ١٢١٨
٢٨. أيّام التشريق في منى — البقرة ٢: ٢٠٣؛ صحيح البخاري ١٦٣٤، ١٧٥١
٢٩. خطبة يوم النحر — صحيح البخاري ١٧٣٩
٣٠. عمرة عائشة وحيض صفيّة — صحيح البخاري ١٧٨٥، ١٧٥٧
٣١. طواف الوداع — صحيح البخاري ١٧٥٥
٣٢. العودة إلى المدينة وغدير خمّ — صحيح مسلم ٢٤٠٨
٣٣. الإفراد والقِران والتمتّع: كيف حجّ رسول الله ﷺ؟ — جدول؛ صحيح مسلم ١٢٥١، ١٢١١؛ صحيح البخاري ١٥٣٤؛ البقرة ٢: ١٩٦
٣٤. أعلام حجّة الوداع — جدول؛ صحيح البخاري ١٥٤٤؛ صحيح مسلم ١٢٩٨، ١٣٠٥
٣٥. أسئلة الحجيج والتيسير في الحجّ — صحيح البخاري ١٥١٣، ١٢٦٥؛ صحيح مسلم ١٣٣٦، ١٣٣٧
٣٦. مواضع حجة الوداع: بين الأمس واليوم — جدول؛ ذو الحُلَيفة، نَمِرة، مزدلفة، الجمرات
٣٧. الخطّ الزمني يومًا بيوم — جدول؛ ٢٥ ذي القعدة – آخر ذي الحجّة ١٠ هـ
٣٨. أسئلة شائعة عن حجّة الوداع — ١٢ سؤالًا
٣٩. الدروس والخاتمة — جدول
المراجع — الحَلْقَةُ ٢٨

الْجُزْءُ ٨: الْحَلْقَةُ ٢٩ — خُطْبَةُ الْوَدَاعِ

خطبة الوداع — مقدّمة
١. خطَب حجّة الوداع — رسم؛ صحيح مسلم ١٢١٨؛ صحيح البخاري ١٧٣٩
٢. من أين نعرف هذه الخطبة؟ — جدول المصادر
٣. «استنصِتِ الناس» — صحيح البخاري ١٢١
٤. «أيُّ يومٍ هذا؟» — صحيح البخاري ٤٤٠٦
٥. حُرمة النفس — الإسراء ١٧: ٣٣؛ المائدة ٥: ٣٢
٦. حُرمة المال — النساء ٤: ٢٩
٧. حُرمة العِرض — صحيح مسلم ٢٥٦٤
٨. «تحت قدميّ موضوع» — صحيح مسلم ١٢١٨
٩. إبطال دماء الجاهليّة — صحيح مسلم ١٢١٨
١٠. إبطال ربا العبّاس — صحيح مسلم ١٢١٨؛ البقرة ٢: ٢٧٨–٢٧٩
١١. «إنّ الزمان قد استدار» — التوبة ٩: ٣٦؛ صحيح البخاري ٤٤٠٦
١٢. «فاتّقوا الله في النساء» — صحيح مسلم ١٢١٨؛ جامع الترمذي ١١٦٣

١٣. حقّ الزوج وحقّ الزوجة — البقرة ٢: ٢٢٨؛ النساء ٤: ١٩
١٤. فهم التأديب في البيت — صحيح مسلم ٢٣٢٨؛ التفسير
١٥. النسب والوصيّة وحقّ الوارث — جامع الترمذي ٢١٢٠
١٦. الأمانة والدّين والكفالة — جامع الترمذي ٢١٢٠
١٧. كتاب الله: العصمة من الضلال — صحيح مسلم ١٢١٨؛ آل عمران ٣: ١٠٣
١٨. «كتاب الله وسنّتي» — النساء ٤: ٥٩؛ كتب الحديث
١٩. خمسة مفاتيح للجنّة — جامع الترمذي ٦١٦
٢٠. طاعة الأمير الذي يقود بكتاب الله — صحيح مسلم ١٨٣٨
٢١. لا فضل لعربيّ على عجميّ — الحجرات ٤٩: ١٣؛ مسند أحمد
٢٢. المسلم أخو المسلم — جامع الترمذي ٢١٥٩؛ صحيح مسلم ٢٥٦٤
٢٣. «لا ترجعوا بعدي كفّارًا» — صحيح البخاري ١٧٣٩
٢٤. الشيطان والذنوب المحقَّرة — جامع الترمذي ٢١٥٩؛ صحيح مسلم ٢٨١٢
٢٥. كلّ امرئٍ يحمل ذنبه — جامع الترمذي ٢١٥٩
٢٦. «ليبلّغ الشاهد الغائب» — صحيح البخاري ٦٧؛ جامع الترمذي ٢٦٥٨
٢٧. «اللهم اشهد» — المائدة ٥: ٦٧؛ صحيح مسلم ١٢١٨
٢٨. إشارات الوداع — صحيح مسلم ١٢٩٧؛ كتب السيرة
٢٩. ألفاظ مشهورة تحتاج إلى تحقيق — جدول الدرجات
٣٠. خطبة الوداع وحقوق الإنسان — جدول مقارنة
٣١. خلاصة مضمون الخطبة — رسم؛ جدول
٣٢. خطبة الوداع لنا اليوم — المائدة ٥: ٣
٣٣. الخريطة الكاملة لخطبة الوداع: اللفظ والمصدر والدرجة — جدول ستّة عشر لفظًا؛ الآيات المتعلّقة؛ إحالات الفصول
٣٤. رواة خطبة الوداع — جدول؛ سنن أبي داود ١٩٥٦؛ صحيح مسلم ٢٤٠٨
٣٥. فنّ البلاغ في خطبة الوداع — جدول ثمانية أساليب؛ صحيح مسلم ١٢١٨؛ صحيح البخاري ٦٧، ١٧٣٩
٣٦. غدير خم: اللفظ الصحيح وفهمه — صحيح مسلم ٢٤٠٨؛ جامع الترمذي ٣٧١٣؛ صحيح البخاري ٤٣٥٠
٣٧. الخطّ الزمنيّ لخُطَب حجّة الوداع — جدول؛ ٩ ذي الحجّة ١٠ هـ – ربيع الأوّل ١١ هـ
٣٨. أسئلة شائعة عن خطبة الوداع — اثنا عشر سؤالًا
٣٩. الدروس والخاتمة
المراجع — الْحَلْقَةُ ٢٩

الْجُزْءُ ٩: الْحَلْقَةُ ٣٠ — الرَّفِيقُ الْأَعْلَى

الرفيق الأعلى — مقدّمة
١. المدينة بعد حجّة الوداع — رسم؛ كتب السيرة
٢. إشارات الوداع — صحيح البخاري ٣٦٢٤، ٤٩٧٠
٣. توديع شهداء أُحُد — صحيح البخاري ٤٠٤٢
٤. الدعاء في مقبرة البقيع — صحيح مسلم ٩٧٤؛ كتب السيرة
٥. «وا رأساه!» — صحيح البخاري ٥٦٦٦
٦. أثر سمّ خيبر — صحيح البخاري ٤٤٢٨
٧. «أين أنا غدًا؟» — صحيح البخاري ٤٤٤٢، ٤٤٥٠
٨. سبع قِرَب والخطبة الأخيرة — صحيح البخاري ٤٤٤٢
٩. العبد الذي خُيِّر — صحيح البخاري ٣٦٥٤
١٠. منزلة أبي بكر — صحيح البخاري ٣٦٥٤، ٣٩٠٤
١١. «مروا أبا بكر فليصلّ بالناس» — صحيح البخاري ٦٦٤
١٢. الوصيّة في القبور — صحيح البخاري ٤٤٤١
١٣. يوم الخميس — صحيح البخاري ٤٤٣١
١٤. «الصلاة، الصلاة!» — سنن أبي داود ٥١٥٦

١٥. بعث أسامة — صحيح البخاري ٤٤٦٨، ٤٤٦٩
١٦. بكاء فاطمة وضحكها — صحيح البخاري ٣٦٢٣، ٣٦٢٤
١٧. ابتسامة صباح الاثنين — صحيح البخاري ٦٨٠
١٨. السواك الأخير — صحيح البخاري ٤٤٣٨، ٤٤٤٩
١٩. «اللهمّ الرفيق الأعلى» — صحيح البخاري ٤٤٦٣؛ النساء ٤: ٦٩
٢٠. حزن فاطمة — صحيح البخاري ٤٤٦٢
٢١. أظلم يوم — جامع الترمذي ٣٦١٨
٢٢. ذهول عمر — صحيح البخاري ٣٦٦٧
٢٣. «من كان يعبد محمّدًا...» — صحيح البخاري ٤٤٥٤؛ آل عمران ٣: ١٤٤
٢٤. ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ — الزمر ٣٩: ٣٠؛ الأنبياء ٢١: ٣٤
٢٥. البيعة لأبي بكر — صحيح البخاري ٣٦٦٨
٢٦. غسل رسول الله ﷺ — سنن أبي داود ٣١٤١
٢٧. الكفن والصلاة عليه — صحيح البخاري ١٢٦٤؛ كتب السيرة
٢٨. الدفن حيث قُبض — جامع الترمذي ١٠١٨
٢٩. ما تركه رسول الله ﷺ — صحيح البخاري ٢٧٣٩، ٢٩١٦
٣٠. «لا نورث» — صحيح البخاري ٦٧٢٧
٣١. عمره وتاريخ وفاته — صحيح البخاري ١٣٨٧، ٤٤٦٦؛ جدول
٣٢. الصلاة عليه ومحبّته — الأحزاب ٣٣: ٥٦؛ التوبة ٩: ١٢٨
٣٣. الخطّ الزمنيّ لمرضه يومًا بيوم — جدول ١٩ حدثًا؛ صحيح مسلم ٤١٨؛ صحيح البخاري ٤٤٢٩
٣٤. محاولة القيام والصلاة الأخيرة — صحيح البخاري ٦٨٧، ٤٤٢٩، ٤٤٣٩
٣٥. مجموع الوصايا الأخيرة لرسول الله ﷺ — جدول؛ صحيح مسلم ٥٣٢، ٢٨٧٧
٣٦. سنن المرض والموت — جدول؛ صحيح مسلم ٩١٦، ٩٢٠؛ صحيح البخاري ٢٧٣٨، ٥٨١٤
٣٧. روايات مشهورة تحتاج إلى تحقيق — جدول الدرجات؛ صحيح مسلم ٢٠٢
٣٨. أسئلة شائعة عن وفاة رسول الله ﷺ — اثنا عشر سؤالًا
٣٩. الدروس والخاتمة — جدول

المراجع — الحَلْقَة ٣٠

الدعم والتبرّع

دليل الألوان: الإطار الأخضر = آية من القرآن الكريم؛ الإطار الذهبي = حديث؛ الإطار البنّي = من كتب السيرة؛ الجدول الأزرق = مقارنة. أسماء الرواة المسطّرة بالأزرق روابط إلى صفحاتهم في موقع sunnah.com.

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

غَزْوَةُ حُنَيْنٍ وَحِصَارُ الطَّائِفِ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ — الْحَلْقَةُ ٢٢

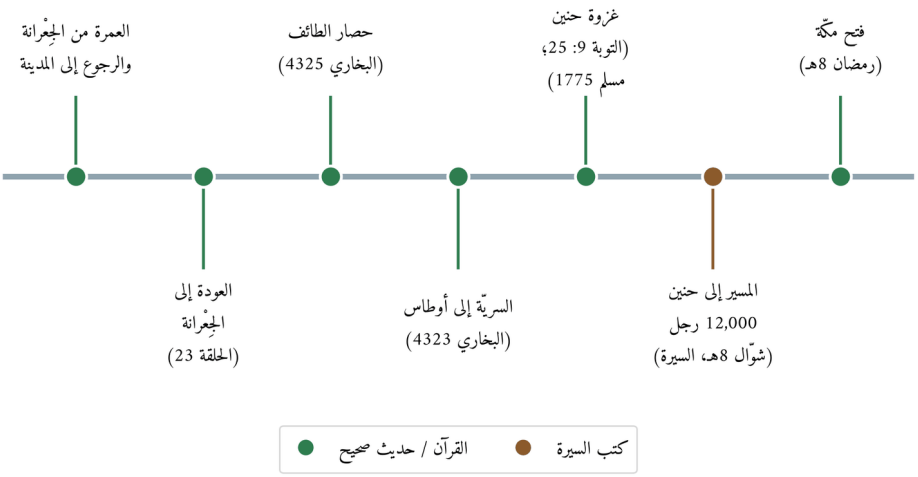
ابْتِلَاءُ الْكَثْرَةِ، وَثَبَاتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالسَّكِينَةُ مِنَ السَّمَاءِ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

غزوة حنين وحصار الطائف

حكت الحلقتان العشرون والحادية والعشرون قصّة **فتح مكّة** — أعظم نصرٍ في السيرة، ويكاد يكون بلا إراقة دماء. غير أنّ ذلك النصر سرعان ما امتُحن؛ فبعد أسابيع قليلة كاد أكبرُ جيشٍ جمعه المسلمون يومئذٍ أن يُهزم في وادٍ ضيّقٍ اسمه **حُنين**.

وتحكي هذه الحلقة الثانية والعشرون **غزوة حنين وحصار الطائف**: كيف أدّى الإعجاب بالكثرة إلى الهزيمة في أوّل الأمر، وكيف ثبت رسول الله ﷺ حين ولّى كثيرٌ من الناس، وكيف أعاد نداءُ العبّاس الصحابة، وكيف أنزل الله **السكينة وجنودًا لم تُرَ**. وهي كذلك قصّة الطائف — المدينة التي رمت رسولَ الله ﷺ بالحجارة قبل عشر سنين.

الخطّ الزمنيّ: من مكّة إلى حنين والطائف



التواريخ وعدد 12,000 بحسب كتب السيرة.

الرسم ١: الخطّ الزمنيّ من مكّة إلى حنين والطائف.

تنبيه: درجة كلّ حديث مذكورة في صندوق الحديث. أمّا أخبار كتب السيرة — كنصيحة دُرَيد بن الصِّمَّة، وأعداد الجيوش، وقصّة الشيماء — فقد وُضعت في الصندوق البنّي «من كتب السيرة»، لأنّ أكثرها مرويٌّ بغير إسنادٍ متّصل أو بإسنادٍ متكلَّمٍ فيه.

بعد فتح مكّة

هزّ فتحُ مكّة جزيرةَ العرب كلّها، وجعلت أكثر القبائل تنتظر لترى إلى أين تميل الريح. لكنّ قبيلتين كبيرتين جنوبَ مكّة اتّخذتا قرارًا مختلفًا: **هوازن وثقيف**.

هوازن حِلفٌ كبيرٌ من قبائل البادية اشتُهر بالرماية. وفي أحد بطونه، بني سعد، استُرضع رسول الله ﷺ عند حليمة السعديّة في صغره. أمّا **ثقيف** فهم أهل **الطائف**، المدينة المحصّنة في المرتفعات الخصبة، منافسةِ مكّة في التجارة والفخر، وسَدَنة صنم **اللات**.

لم يرَ هذان الحيّان في سقوط مكّة علامةً على الاستسلام، بل **خطرًا** يجب التصدّي له فورًا. فقالوا: «قد فرغ محمّدٌ من قومه، وسيأتينا بعدهم؛ فالأولى أن نبدأه بالقتال». فجمعوا جيشًا عظيمًا.

والعبرة: **النصر ليس نهاية الابتلاء**. فبعد كلّ نجاحٍ يأتي ابتلاءٌ آخر – وقد يكون أشدّ. والمؤمن لا يركن إلى النصر، بل يستعدّ ويتوكّل على الله.

مالك بن عوف ونصيحة دُرَيد

قاد جيشَ هوازن شابٌّ في نحو الثلاثين من عمره، **مالك بن عوف النَّصْري**. وقد اتّخذ قرارًا غير مألوف:

من كتب السيرة: النساء والذراريّ والنَّعَم في الميدان

ذكر أهل السيرة أنّ مالك بن عوف أمر بأن يُساق **النساء والذراريّ والإبل والغنم** معهم إلى ميدان القتال، وتُجعل خلف الجيش، وحجّته: أن يقاتل كلُّ رجلٍ عن أهله وماله فلا يفرّ.

وكان في الجيش شيخٌ كبيرٌ أعمى، **دُرَيد بن الصِّمَّة**، المشهور بخبرته في الحرب. فلمّا سمع رُغاء الإبل وثُغاء الشاء وبكاء الصغار سأل عن ذلك، ثمّ قال: «**راعي ضأنٍ واللهِ! وهل يردّ المنهزمَ شيء؟ إنّها إن كانت لك لم ينفعك إلّا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحتَ في أهلك ومالك**». فأبى مالكٌ نصيحته.

هذه القصّة **من روايات كتب السيرة**. والأحاديث الصحيحة (صحيح مسلم ١٠٥٩ وصحيح البخاري ٤٣٣٧) تثبت أنّ هوازن جاءت بنسائها وذراريّها ونَعَمها.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة حنين والطائف؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

وقد صدقت نصيحة دُرَيد؛ فقرارُ مالكٍ الذي وُلد من **الكِبْر والعَجَلة** أوقع نساءَ هوازن وأموالها كلّها في أيدي المسلمين. غير أنّ قصّة مالك بن عوف لم تنتهِ هناك – فقد أسلم بعد ذلك ووُلّي على قومه من جديد (الحلقة ٢٣).

والعبرة: القائد الصالح **يستمع إلى نصيحة أهل الخبرة**، ولو جاءت من شيخٍ ضعيف. وقد كان رسول الله ﷺ نفسه يشاور أصحابه دائمًا، وأمره الله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران ٣: ١٥٩).

الدروع المستعارة من صفوان

استعدّ رسول الله ﷺ سريعًا لملاقاة هوازن. فخرج من مكّة بالعشرة الآلاف الذين جاؤوا معه من المدينة، ومعهم نحو ألفين من أهل مكّة – أكثرهم حديثو عهدٍ بالإسلام، وبعضهم لم يُسلم بعد. وعلى ما في كتب السيرة كان مجموعهم **اثنَي عشر ألفًا**.

ولتجهيز الجيش استعار رسول الله ﷺ **دروعًا من صفوان بن أميّة**، وكان يومئذٍ لم يُسلم. فقال صفوان: «أغَصْبًا يا محمّد؟» فقال: «**بل عاريةٌ مضمونة**» (سنن أبي داود ٣٥٦٢، وصحّحه الألباني).

انظر إلى **عدل رسول الله** ﷺ وهو القائد المنتصر. كان بوسعه أن يأخذ السلاح بالقوّة، لكنّه استعاره بطريقٍ مشروع، وضمن ردّه، من رجلٍ لم يُسلم بعد. وصار هذا الحديث **أصلًا في أحكام العاريّة** في الفقه: فالعاريّة تُحفظ وتُردّ.

واستخلف رسول الله ﷺ على مكّة في غيبته **عتّاب بن أَسِيد** (على ما في كتب السيرة). شابٌّ قرشيٌّ حديث العهد بالإسلام يُعطى أمانةً عظيمة – دليلٌ على الثقة بأهل مكّة الذين دخلوا في الإسلام حديثًا.

شجرة ذات أنواط

وفي الطريق وقعت حادثةٌ صغيرة تحمل درسًا عظيمًا في التوحيد. كان كثيرٌ من الجيش حديثَ عهدٍ بكفر، وبقيت في قلوبهم رواسبُ من الجاهليّة. يحكي أبو واقدٍ الليثيّ رضى الله عنه:

حديث – جامع الترمذي، رقم ٢١٨٠

حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَخْزُومِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سِنَانِ بْنِ أَبِي سِنَانٍ، عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم «سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى : (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

السند رواه الإمام الترمذي: عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، عن سفيان بن عيينة، عن ابن شهاب الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام الترمذي في جامعه، أبواب الفتن، باب ما جاء لتركبنّ سنن من كان قبلكم، حديث رقم ٢١٨٠؛ وأخرجه أحمد برقم ٢١٨٩٧ (بلفظ «إلى حنين»).

الدرجة: صحيح – قال الإمام الترمذي: حسنٌ صحيح؛ وأخرجه أحمد، وصحّحه الشيخ الألباني.

المصدر: https://sunnah.com/tirmidhi:2180

دروسٌ من هذا الحديث

شبّه رسول الله ﷺ طلبهم بطلب بني إسرائيل من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾ (الأعراف ٧: ١٣٨) – تفسير ابن كثير ٧: ١٣٨.

لم يطلبوا عبادة الشجرة، إنّما أرادوا شجرةً **يتبرّكون** بها بتعليق أسلحتهم عليها. ومع ذلك أكّد رسول الله ﷺ أنّ **قولهم مثلُ قول بني إسرائيل**. وهذا يبيّن شدّة حرص الإسلام على سدّ الأبواب المفضية إلى الشرك، وإن بدت صغيرة.

وفي الحديث تحذيرٌ كذلك: «**لتركبنّ سُنن من كان قبلكم**». وقد جعله العلماء تنبيهًا للأمّة لتحذر من الأعمال التي تشبه المعتقدات الباطلة – كالتبرّك بالشجر أو الحجر أو القبور على وجهٍ غير مشروع.

ابتلاء الكثرة

لأوّل مرّةٍ خرج المسلمون للقتال بجيشٍ **أكثر بكثيرٍ** من عدوّهم. كانوا في بدرٍ ٣١٣ رجلًا، وفي أحدٍ نحو ٧٠٠، وفي الخندق ٣٬٠٠٠، وها هم اليوم اثنا عشر ألفًا. فتسلّل شيءٌ من الإعجاب إلى قلوب بعضهم.

من كتب السيرة: «لن نُغلب اليوم من قلّة»

ذكرت بعض كتب السيرة أنّ رجلًا من الجيش قال: «**لن نُغلب اليوم من قلّة**». فساءت هذه الكلمة رسولَ الله ﷺ.

هذه الرواية **يذكرها أهل السيرة والتفسير**، لكنّ إسنادها متكلَّمٌ فيه. والثابت أنّ القرآن نفسه ذكر أنّهم ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة حنين والطائف؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ (التوبة ٩: ٢٥) – تفسير ابن كثير ٩: ٢٥.

وهذه الآية تذكّر بسنّةٍ قرّرها الله منذ زمن: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة ٢: ٢٤٩) – تفسير ابن كثير ٢: ٢٤٩.

علّمت حُنينٌ أنّ **النصر من عند الله لا من الكثرة**. فالعدد الكبير، والسلاح التامّ، والتخطيط المحكم كلّها أسباب؛ فإن تعلّق بها القلب دون الله ﴿لَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾. وهذا الدرس يصدق في حياتنا: فالمال والعلم والمنصب لا تضمن النجاح بغير عون الله.

الكمين في الوادي

دخل جيش الإسلام **وادي حُنين** في غَلَس الصبح. وكان الوادي ضيّقًا تحيط به السفوح والشِّعاب، وقد أكمن مالك بن عوف رماةَ هوازن خلف الصخور وعلى تلك السفوح ينتظرون. ويحكي البراء بن عازب رضى الله عنهما ما وقع:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٢٨٦٤

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ - رضى الله عنهما - أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَمْ يَفِرَّ، إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً، وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا، فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْغَنَائِمِ وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يَفِرَّ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ «أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ».

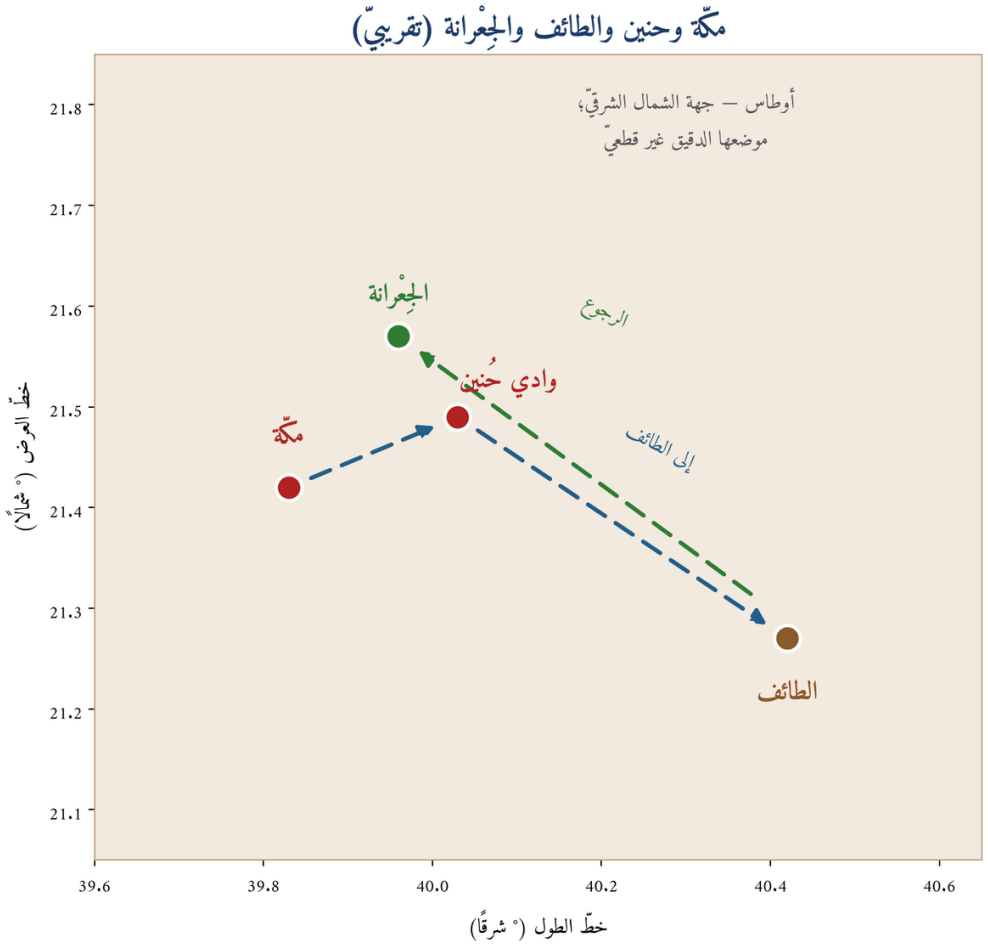
السند رواه الإمام البخاري: عن قتيبة بن سعيد، عن سهل بن يوسف، عن شعبة بن الحجّاج، عن أبي إسحاق السبيعي، عن البراء بن عازب رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابّة غيره في الحرب، حديث رقم ٢٨٦٤؛ وانظر أيضًا ٢٩٣٠ و٤٣١٥-٤٣١٧، وأخرجه مسلم برقم ١٧٧٦.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:2864

دروسٌ من هذا الحديث



الرسم ٢: مكّة وحنين والطائف والجِعْرانة (تقريبيّ).

يبيّن البراء بصدقٍ سببَ الهزيمة في أوّل الأمر: فقد ظفر المسلمون أوّلًا، لكنّهم **أقبلوا على الغنائم** قبل أن يُهزم العدوّ تمامًا، فاستُقبلوا بالسهام. وهذا يذكّر بخطأ الرماة يوم أحد (الحلقة ١٠) حين تركوا الجبل من أجل الغنيمة.

ففزعت الإبل وانعطفت، وانهزمت المقدّمة — وكثيرٌ منهم من أهل مكّة حديثي العهد بالإسلام — في ذعر، وسرى الاضطراب في الجيش كلّه. وفي لحظةٍ تفرّق جيش الاثني عشر ألفًا. وهذه هي اللحظة التي صوّرها القرآن: ﴿**وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ**﴾ (التوبة ٩: ٢٥).

لماذا انهزم الجيش؟

كيف تفرّق في لحظةٍ الجيشُ نفسه الذي فتح مكّة بلا مقاومة؟ ذكر علماء السيرة والتفسير أسبابًا، أكثرها مذكورٌ أو مُشارٌ إليه في القرآن والأحاديث الصحيحة.

السبب	التفاصيل
الإعجاب بالكثرة	مذكورٌ صراحةً في التوبة ٩: ٢٥
التعجّل إلى الغنائم	ذكره البراء (البخاري ٢٨٦٤)
الكمين في الوادي الضيّق	رماة هوازن على سفوح التلال
ظلمة الصبح	دخل الجيش قبل الإسفار (كتب السيرة)
جيشٌ مختلط	كثيرٌ منهم حديثو عهدٍ بالإسلام (مسلم ١٨٠٩)
مهارة العدوّ في الرمي	«وكانت هوازن رُماة» (البخاري ٢٨٦٤)

لاحظ أنّ **السبب الأكبر** الذي ذكره القرآن ليس قوّة العدوّ، ولا الظلمة، ولا طبيعة الأرض — بل **حال القلوب**: الإعجاب بالكثرة. أمّا الأسباب الأخرى فكانت طرقًا جرى بها الابتلاء.

وقد وقع مثلُ ذلك يوم أحد، وقال الله فيمن ولّوا يومئذٍ: ﴿**إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا**﴾ (آل عمران ٣: ١٥٥) — تفسير ابن كثير ٣: ١٥٥.

ثمّ أتبعت الآية: ﴿**وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ**﴾. فالهزيمة الأولى ليست النهاية؛ إنّها **تربية**. تركهم الله يذوقون عاقبة خطأ القلوب، ثمّ نصرهم حين رجعوا إليه. وكذلك في حياتنا: كثيرًا ما يكون الإخفاق أنفعَ معلّم.

«أنا النبيّ لا كذب»

وفي وسط ذلك الاضطراب مشهدٌ لم ينسه الصحابة أبدًا: رسول الله ﷺ **ثابتٌ في مكانه**، على بغلته البيضاء، بل يركضها **نحو العدوّ**، وهو ينادي:

أنا النبيُّ لا كَذِبْ، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ

لماذا ركب **بغلة** ولم يركب فرسًا سريعًا؟ بيّن العلماء أنّ البغلة ليست مركبَ فرارٍ ولا كرٍّ سريع؛ فباختيارها أظهر أنّه **لا ينوي الفرار**. وبذكر اسمه ونسبه بصوتٍ عالٍ وسط الميدان جعل نفسه **هدفًا ظاهرًا** – ليعلم المنهزمون أين قائدهم فيرجعوا إليه.

وقوله «أنا النبيّ لا كذب» يعني أيضًا: **وعدُ الله لي حقّ**، ولن يخذل الله رسوله. وقال البراء في روايةٍ أخرى: «كنّا والله إذا احمرّ البأس نتّقي به، وإنّ الشجاع منّا للذي يُحاذي به» (صحيح مسلم ١٧٧٦).

هذه هي **الشجاعة الحقّة**: ليست انعدام الخوف، بل يقينًا بالله يغلب الخوف. ولا يُمتحن القائد حين يتبعه الناس جميعًا، بل حين يتركونه جميعًا.

النداء لأصحاب السَّمُرة

لم يكن رسول الله ﷺ وحده تمامًا، فقد ثبت حوله نفرٌ من أصحابه وأهل بيته. وكان عمّه **العبّاس** رضى الله عنه آخذًا بلجام البغلة. ويحكي العبّاس نفسه ما جرى بعد ذلك:

حديث – صحيح مسلم، رقم ١٧٧٥

وَحَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ، أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَرْحٍ أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ حَدَّثَنِي كَثِيرُ بْنُ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ قَالَ عَبَّاسٌ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ حُنَيْنٍ فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَلَمْ نُفَارِقْهُ وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ قَالَ عَبَّاسٌ وَ أَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لاَ تُسْرِعَ وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «أَىْ عَبَّاسُ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ». فَقَالَ عَبَّاسٌ وَكَانَ رَجُلاً صَيِّتًا فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ قَالَ فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلاَدِهَا. فَقَالُوا يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ - قَالَ - فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ وَالدَّعْوَةُ فِي الأَنْصَارِ يَقُولُونَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ قَالَ ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فَقَالُوا يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ. فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ». قَالَ ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ «انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ». قَالَ فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى - قَالَ - فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلاً وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا.

السند رواه الإمام مسلم: عن أبي الطاهر أحمد بن عمرو بن السَّرْح، عن عبد الله بن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب الزهري، عن كثير بن عبّاس بن عبد المطّلب، عن العبّاس بن عبد المطّلب رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، حديث رقم ١٧٧٥.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:1775a

دروسٌ من هذا الحديث

مَن أصحاب السَّمُرة؟ هم الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت شجرة السَّمُرة في الحديبية – **بيعة الرضوان** (الحلقة ١٥) – على ألّا يفرّوا. واختار رسول الله ﷺ هذا النداء لأنّه يذكّرهم **بعهدهم مع الله.** فعادوا كعطفة البقر على أولادها – حُنُوًّا وسرعة.

ثمّ صار النداء إلى **الأنصار**، ثمّ أخيرًا إلى **بني الحارث بن الخزرج.** وكلّما خصّ النداء أثار في كلّ جماعةٍ شعور المسؤوليّة؛ ففي الاضطراب يُهمَل النداء العامّ، أمّا النداء باسم القوم فيمسّ القلوب.

قبضة من تراب

فلمّا رجع الصحابة واشتدّ القتال، فعل رسول الله ﷺ شيئًا يذكّر بيوم بدر. يحكي سلمة بن الأكوع رضى الله عنه:

حديث – صحيح مسلم، رقم ١٧٧٧

وَحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْحَنَفِيُّ، حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنِي إِيَاسُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ، غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حُنَيْنًا فَلَمَّا وَاجَهْنَا الْعَدُوَّ تَقَدَّمْتُ فَأَعْلُو ثَنِيَّةً فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ مِنَ الْعَدُوِّ فَأَرْمِيهِ بِسَهْمٍ فَتَوَارَى عَنِّي فَمَا دَرَيْتُ مَا صَنَعَ وَنَظَرْتُ إِلَى الْقَوْمِ فَإِذَا هُمْ قَدْ طَلَعُوا مِنْ ثَنِيَّةٍ أُخْرَى فَالْتَقَوْا هُمْ وَصَحَابَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَوَلَّى صَحَابَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَرْجِعُ مُنْهَزِمًا وَعَلَىَّ بُرْدَتَانِ مُتَّزِرًا بِإِحْدَاهُمَا مُرْتَدِيًا بِالأُخْرَى فَاسْتَطْلَقَ إِزَارِي فَجَمَعْتُهُمَا جَمِيعًا وَمَرَرْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُنْهَزِمًا وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «لَقَدْ رَأَى ابْنُ الأَكْوَعِ فَزَعًا». فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنَ الأَرْضِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ فَقَالَ «شَاهَتِ الْوُجُوهُ». فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلاَّ مَلأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم غَنَائِمَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

السند رواه الإمام مسلم: عن زهير بن حرب، عن عمر بن يونس الحنفي، عن عكرمة بن عمّار، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة بن الأكوع رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، حديث رقم ١٧٧٧.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:1777

دروسٌ من هذا الحديث

وقد وقع مثلُ هذا يوم بدر، وقال الله فيه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال ٨: ١٧) – تفسير ابن كثير ٨: ١٧.

لا يمكن لقبضةٍ من تراب أن تملأ أعين آلاف الرجال بقوّة البشر المعتادة، إنّها **معجزة**: فعل رسول الله ﷺ سببًا صغيرًا، وأتمّ الله النتيجة. وهذا درسٌ لنا: **افعل ما تستطيع**، وإن بدا صغيرًا، وكِلِ النتيجة إلى الله.

السكينة والجنود التي لم تُرَ

بيّن القرآن ما الذي جرى حقيقةً وراء نصر حنين. فبعد الآية التي ذكرت الإعجاب بالكثرة والهزيمة الأولى قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (التوبة ٩: ٢٦) – تفسير ابن كثير ٩: ٢٦.

تأمّل ترتيب الآية: **نزلت السكينة أوّلًا على رسول الله** ﷺ، ثمّ على المؤمنين. كان مطمئنًّا والناس في فزع، فسرت طمأنينته إلى الصحابة الراجعين. ثمّ جاءت **الجنود التي لم تُرَ** – الملائكة. فالنصر يبدأ من داخل القلب.

المراحل الخمس لمعركة حنين



مستخلَص من الأحاديث الصحيحة والتوبة 9: 25–26.

الرسم ٣: المراحل الخمس لمعركة حنين.

ثمّ تفتح الآية التالية باب الرجاء: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ (التوبة ٩: ٢٧). فكثيرٌ ممّن قاتلوا المسلمين في حنين أسلموا بعد ذلك – ومنهم مالك بن عوف نفسه. فالله لا يغلق بابه حتّى في وجه عدوّ الأمس.

والسكينة لنا اليوم أحوج ما نحتاج إليه عند البلاء: عند الفقد والمرض والإخفاق. وهذه الطمأنينة لا تأتي من الظروف الخارجيّة، بل من الصلة بالله – بالصلاة والذكر والتوكّل.

ثلاث آيات في حنين

سورة التوبة من آخر ما نزل من القرآن، وقد ذكرت حنينًا باسمها. وثلاث آياتٍ متتالية (٩: ٢٥-٢٧) تجمع القصّة كلّها بإيجازٍ عميق. فلنتأمّل كلّ جزءٍ منها.

﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ**﴾ تبدأ الآية بالتذكير بالنعمة: بدر، والخندق، وخيبر، ومكّة – كلّها نصرٌ من الله. وبيّن ابن كثير أنّ الآية تذكّر المسلمين بأنّ **تلك الانتصارات من عند الله**، لا من عددهم ولا عُدّتهم.

﴿**وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**﴾ وهذا تصويرٌ دقيق: فوادي حنين واسع، لكنّه في الخوف يضيق كأن لا مهرب منه. وكذلك يشعر الإنسان إذا تعلّق قلبه بغير الله – تضيق عليه الدنيا الواسعة.

﴿**ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ**﴾ والكلمة نفسها – السكينة – جاءت في حادثة الغار يوم الهجرة: ﴿**فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ (التوبة ٩: ٤٠) – تفسير ابن كثير ٩: ٤٠.

كان رسول الله ﷺ في الغار ثانيَ اثنين مع أبي بكر، وكان في حنين بين نفرٍ قليلٍ وسط جيشٍ منهزم. وفي الحالين نزلت **السكينة والجنود التي لم تُرَ** من عند الله؛ فنصر الله لا يتوقّف على العدد – رجلان في غار، أو اثنا عشر ألفًا في وادٍ.

ثمّ تختم الآية الثالثة القصّة بالرحمة: ﴿**ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (التوبة ٩: ٢٧) – تفسير ابن كثير ٩: ٢٧.

صدق سلمة بن الأكوع

في حديث سلمة بن الأكوع أمرٌ عجيب: **اعترافٌ صادق** من صحابيٍّ بضعفه. وكان سلمة من أشجع الصحابة – ففي ذي قَرَد طارد اللصوص وحده راجلًا يرميهم بالنبل. ومع ذلك قال في حنين صراحةً: «**ورجعتُ منهزمًا**»، بل حكى كيف انحلّ إزاره.

فرآه رسول الله ﷺ وقال: «**لقد رأى ابنُ الأكوع فَزَعًا**». لم يعنّفه ولم يُخزه، بل **تفهّم** أنّ خوفه سببًا. وهذه رحمة القائد بأتباعه إذا زلّوا في ساعة الشدّة.

ومثلُ هذا الصدق **أساسُ الثقة بروايات الصحابة**. فهم لم يكتموا ضعفهم ليظهروا أبطالًا؛ وإذا صدقوا في عيوب أنفسهم كنّا أوثق بصدقهم فيما رووه عن رسول الله ﷺ. وقد عدّ أهل الحديث هذا من دلائل **عدالة** الصحابة وأمانتهم.

والعبرة لنا: **الاعتراف بالخطأ ليس ضعفًا**. فمن شجع على الإقرار بخطئه كان أقرب الناس إلى إصلاح نفسه.

أبو سفيان بن الحارث: ابن العمّ الوفيّ

في حديثَي البراء والعبّاس معًا يظهر اسمٌ واحد إلى جانب رسول الله ﷺ: **أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب** رضى الله عنه – آخذًا بلجام البغلة وركابها حين ولّى الناس.

من هو؟ هو **ابن عمّ رسول الله** ﷺ وأخوه من الرضاعة، الذي عاداه عشرين سنةً وهجاه بالشعر. وقبل أسابيع قليلة فقط، في نِيق العُقاب، جاء يعتذر بكلمات إخوة يوسف (الحلقة ٢٠). وها هو في أحرج اللحظات **لا يبرح خطوةً واحدة** عن جانبه.

من كتب السيرة: ثناء رسول الله ﷺ

روى أهل السيرة أنّ أبا سفيان بن الحارث استحيا من ماضيه حتّى إنّه **لم يرفع بصره قطّ** إلى وجه رسول الله ﷺ حياءً منه. وكان رسول الله ﷺ يحبّه، ويُروى أنّه شهد له بالجنّة. ولمّا حضرته الوفاة قال لأهله: «لا تبكوا عليّ؛ فواللهِ ما تنطّفتُ بخطيئةٍ منذ أسلمت».

هذه التفاصيل **من روايات كتب السيرة وتراجم الصحابة**؛ أمّا ثباته في حنين فثابتٌ في صحيحَي البخاري ومسلم.

المرجع:

ابن حجر، الإصابة – ترجمة أبي سفيان بن الحارث.

والعبرة: **الماضي لا يحدّد المستقبل.** فأطول الناس عداوةً صار من أوفاهم. والتوبة الصادقة تغيّر الإنسان من داخله، والوفاء يظهر في أصعب الساعات.

أمّ سُلَيم وخنجرها

وشهدت حنين أيضًا شجاعة امرأة. يحكي أنس بن مالك رضى الله عنه عن أمّه **أمّ سُلَيم** رضى الله عنها:

حديث – صحيح مسلم، رقم ١٨٠٩

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ، اتَّخَذَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ خِنْجَرًا فَكَانَ مَعَهَا فَرَآهَا أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ أُمُّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خِنْجَرٌ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «مَا هَذَا الْخِنْجَرُ». قَالَتِ اتَّخَذْتُهُ إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ. فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَضْحَكُ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنَا مِنَ الطُّلَقَاءِ انْهَزَمُوا بِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ». وَحَدَّثَنِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا بَهْزٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، أَخْبَرَنَا إِسْحَاقُ بْنُ، عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فِي قِصَّةِ أُمِّ سُلَيْمٍ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِثْلَ حَدِيثِ ثَابِتٍ.

السند رواه الإمام مسلم: عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، عن حمّاد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال، حديث رقم ١٨٠٩.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:1809a

دروسٌ من هذا الحديث

كانت الصحابيّات يخرجن في الغزو **يسقين الماء، ويداوين الجرحى، ويُعِنّ الجيش**. وذهبت أمّ سُلَيم أبعد من ذلك: فقد استعدّت **للدفاع عن نفسها** إن هوجمت. وفي اضطراب حنين، حين ولّى كثيرٌ من الرجال، كانت شجاعة امرأةٍ كهذه قدوة.

كانت أمّ سُلَيم امرأةً فريدةً في تاريخ الإسلام. فهي التي قدّمت ابنها **أنسًا** لخدمة رسول الله ﷺ وهو صغير، وكان **مهرها** حين تزوّجها أبو طلحة إسلامَ أبي طلحة نفسه. وضحكُ رسول الله ﷺ من جوابها يدلّ على **تقديره ومودّته** لحماستها.

وتأمّل جواب رسول الله ﷺ حين طلبت أمّ سُلَيم أن يُعاقَب الذين فرّوا: «**إنّ الله قد كفى وأحسن**». لم يعاقب الذين ولّوا من الفزع، لأنّ الله قد أعطى النصر. فالعفو والصبر على حديثي العهد بالإسلام أولى من العقوبة.

أبو قتادة وسَلَب القتيل

وفي يوم حنين أيضًا قرّر رسول الله ﷺ حكمًا جديدًا في الحرب. يحكي **أبو قتادة الأنصاري** رضى الله عنه، فارسُ رسول الله ﷺ المشهور، ما جرى له:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٣١٤٢

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنِ ابْنِ أَفْلَحَ، عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ، مَوْلَى أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَامَ حُنَيْنٍ، فَلَمَّا الْتَقَيْنَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ، فَرَأَيْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلاَ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَدَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَىَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ الْمَوْتِ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَأَرْسَلَنِي، فَلَحِقْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ مَا بَالُ النَّاسِ قَالَ أَمْرُ اللَّهِ، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ رَجَعُوا، وَجَلَسَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ». فَقُمْتُ فَقُلْتُ مَنْ يَشْهَدُ لِي ثُمَّ جَلَسْتُ ثُمَّ قَالَ «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ» فَقُمْتُ فَقُلْتُ مَنْ يَشْهَدُ لِي ثُمَّ جَلَسْتُ، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ مِثْلَهُ فَقَالَ رَجُلٌ صَدَقَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَسَلَبُهُ عِنْدِي فَأَرْضِهِ عَنِّي. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ـ رضى الله عنه لاَهَا اللَّهِ إِذًا يَعْمِدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أُسْدِ اللَّهِ يُقَاتِلُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم يُعْطِيكَ سَلَبَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم «صَدَقَ». فَأَعْطَاهُ فَبِعْتُ الدِّرْعَ، فَابْتَعْتُ بِهِ مَخْرِفًا فِي بَنِي سَلِمَةَ، فَإِنَّهُ لأَوَّلُ مَالٍ تَأَثَّلْتُهُ فِي الإِسْلاَمِ.

السند رواه الإمام البخاري: عن عبد الله بن مسلمة القعنبي، عن مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عمر بن كثير بن أفلح، عن أبي محمّد نافع مولى أبي قتادة، عن أبي قتادة الأنصاري رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب من لم يخمّس الأسلاب، حديث رقم ٣١٤٢؛ وانظر أيضًا ٤٣٢١، وأخرجه مسلم برقم ١٧٥١.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:3142

دروسٌ من هذا الحديث

تعلّمنا هذه القصّة **العدل في توزيع الحقوق**: فكلٌّ يُعطى حقّه بالبيّنة. وتُظهر جرأة أبي بكر في **الدفاع عن حقّ غيره**، وانفتاح رسول الله ﷺ لرأي صاحبه. ثمّ باع أبو قتادة ذلك السلب واشترى به بستانًا – فكان **أوّلَ مالٍ** تأثّله في الإسلام.

لا تُقتل النساء ولا الأُجَراء

حتّى في حَمِيّة القتال لم يأذن رسول الله ﷺ لجيشه بالتجاوز. روى **رَباح بن الربيع** رضى الله عنه أنّ الناس اجتمعوا في غزوةٍ على شيء، فبعث رسول الله ﷺ رجلًا ينظر، فرجع فقال: امرأةٌ قتيل. فقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**». ثمّ بعث رجلًا إلى **خالد بن الوليد** وكان على المقدّمة: «**قل لخالد: لا يقتلنّ امرأةً ولا عسيفًا**» (سنن أبي داود ٢٦٦٩، وصحّحه الألباني)

وذكر أهل السيرة أنّ ذلك كان في غزوة حنين، وكان خالد بن الوليد فعلًا على المقدّمة فيها. ويؤكّد الحديث المبدأ الذي سبق في الحلقة ٢٠: **غير المقاتلين لا يجوز قتلهم**، ومنهم النساء والصبيان والأُجَراء الذين يرعون الماشية أو يحرسون المتاع.

تأمّل حجّة رسول الله ﷺ: «**ما كانت هذه لتقاتل**». فالمعيار في الإسلام ليس دين الإنسان ولا قومه، بل **هل يقاتلنا أم لا**. وقد سبق هذا المبدأُ القانونَ الإنسانيّ الدوليّ الحديث بأكثر من ألف عام.

أوطاس والدعاء لأبي عامر

بعد الهزيمة في حنين تفرّق جيش هوازن ثلاث فرق: فرّت فرقةٌ إلى **الطائف**، وفرقةٌ إلى **نخلة**، وفرقةٌ إلى **أوطاس**. فبعث رسول الله ﷺ سرايا في طلبهم. ويحكي أبو موسى الأشعريّ رضى الله عنه ما جرى للسريّة التي بُعثت إلى أوطاس:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٣٢٣

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاَءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى - رضى الله عنه - قَالَ لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ، فَقُتِلَ دُرَيْدٌ وَهَزَمَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ. قَالَ أَبُو مُوسَى وَبَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ فَرُمِيَ أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ، رَمَاهُ جُشَمِيٌّ بِسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ يَا عَمِّ مَنْ رَمَاكَ فَأَشَارَ إِلَى أَبِي مُوسَى فَقَالَ ذَاكَ قَاتِلِي الَّذِي رَمَانِي. فَقَصَدْتُ لَهُ فَلَحِقْتُهُ فَلَمَّا رَآنِي وَلَّى فَاتَّبَعْتُهُ وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ أَلاَ تَسْتَحِي، أَلاَ تَثْبُتُ. فَكَفَّ فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ ثُمَّ قُلْتُ لأَبِي عَامِرٍ قَتَلَ اللَّهُ صَاحِبَكَ. قَالَ فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا مِنْهُ الْمَاءُ. قَالَ يَا ابْنَ أَخِي أَقْرِئِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم السَّلاَمَ، وَقُلْ لَهُ اسْتَغْفِرْ لِي. وَاسْتَخْلَفَنِي أَبُو عَامِرٍ عَلَى النَّاسِ، فَمَكَثَ يَسِيرًا ثُمَّ مَاتَ، فَرَجَعْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي بَيْتِهِ عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ قَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِهِ وَجَنْبَيْهِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ، وَقَالَ قُلْ لَهُ اسْتَغْفِرْ لِي، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ». وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ ثُمَّ قَالَ «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ». فَقُلْتُ وَلِي فَاسْتَغْفِرْ. فَقَالَ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلاً كَرِيمًا». قَالَ أَبُو بُرْدَةَ إِحْدَاهُمَا لأَبِي عَامِرٍ وَالأُخْرَى لأَبِي مُوسَى.

السند رواه الإمام البخاري: عن محمّد بن العلاء، عن أبي أسامة حمّاد بن أسامة، عن بُرَيد بن عبد الله، عن أبي بُردة، عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أوطاس، حديث رقم ٤٣٢٣؛ وأخرجه مسلم برقم ٢٤٩٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4323

دروسٌ من هذا الحديث

في هذا الحديث مشاهدُ تمسّ القلب. أوّلها **وصيّة أبي عامر الأخيرة**: لم يطلب مالًا ولا ثناءً، بل طلب **الدعاء بالمغفرة** من رسول الله ﷺ. وثانيها **زهدُ رسول الله** ﷺ: فسيّد العرب كلّها ينام على سريرٍ مُرمَلٍ قد أثّر رماله بظهره.

وثالثها **كيف دعا رسول الله** ﷺ **ربّه**: توضّأ أوّلًا، ثمّ **رفع يديه** حتّى رُئي بياض إبطيه – علامة الاجتهاد في الدعاء. ورابعها **فطنة أبي موسى**: لم يدع الفرصة تفوته حتّى طلب الدعاء لنفسه أيضًا. وحريٌّ بنا أن نجتهد في طلب الدعاء من الصالحين، وأن ندعو لإخواننا الذين مضوا.

دُرَيد بن الصِّمَّة: الفارس الشيخ

ذكر حديث أبي موسى باختصار أنّه في أوطاس «**قُتل دُرَيد بن الصِّمَّة**». فمن هو، ولماذا بقي اسمه في الذاكرة؟

من كتب السيرة: الشيخ المحارب من بني جُشَم

كان دُرَيد بن الصِّمَّة **شاعرًا وفارسًا عربيًّا مشهورًا** في الجاهليّة، من بني جُشَم من هوازن. وكان يوم حنين شيخًا كبيرًا جدًّا – تذكر بعض الروايات أنّه جاوز المئة – وأعمى. وقد حُمل إلى الميدان في هودجٍ لمجرّد **خبرته ورأيه**.

وبعد هزيمة هوازن لقيه فتًى مسلمٌ اسمه **ربيعة بن رُفَيع** فقتله. ويُروى أنّ دُريدًا قال له: «إذا أتيت أمّك فأخبرها أنّك قتلت دُرَيد بن الصِّمَّة». فلمّا أخبر ربيعةُ أمَّه قالت: «أما واللهِ لقد أعتق أمّهاتٍ لك ثلاثًا».

هذه القصّة **من روايات كتب السيرة**؛ أمّا مقتل دُرَيد في أوطاس فثابتٌ في صحيح البخاري ٤٣٢٣.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة حنين والطائف؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

ابن كثير، البداية والنهاية – قصّة دُرَيد بن الصِّمَّة.

في قصّة دُرَيد درسان متقابلان. الأوّل: **الحكمة بغير إيمانٍ لا تُنجي**؛ فقد رأى دُرَيدٌ خطأ مالكٍ بوضوح، ثمّ مات هو نفسه على الكفر بعد أن عاش أكثر من مئة سنة. فطول العمر وسعة التجربة لا ينفعان إن لم يقودا إلى الله.

والثاني: **المعروف يُذكر ولو من العدوّ**؛ فقد اعترفت أمّ ربيعة بفضل دُرَيدٍ الذي أعتق نساءً من قومها. والإسلام يعلّمنا العدل في الحكم على الناس، حتّى الاعتراف بمعروف العدوّ. قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ (المائدة ٥: ٨).

الطائف قبل عشر سنين

لجأت فلول هوازن مع مالك بن عوف إلى المدينة المحصّنة **الطائف**. فسار إليها رسول الله ﷺ. ولم تكن الطائف عنده بلدًا غريبًا – ففيها إحدى أمرّ ذكريات حياته.

سألت عائشة رضى الله عنها رسولَ الله ﷺ عن أشدّ يومٍ مرّ به. فعاد بنا جوابه إلى الطائف:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٣٢٣١

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ حَدَّثَنِي عُرْوَةُ، أَنَّ عَائِشَةَ ـ رضى الله عنها ـ زَوْجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

السند رواه الإمام البخاري: عن عبد الله بن يوسف التنّيسي، عن عبد الله بن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضى الله عنها.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، حديث رقم ٣٢٣١؛ وانظر أيضًا ٧٣٨٩، وأخرجه مسلم برقم ١٧٩٥.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:3231

دروسٌ من هذا الحديث

وقعت تلك الحادثة قبل نحو **عشر سنين**، في عام الحزن (الحلقة ٥). وها هو يعود إلى الطائف لا داعيًا مطرودًا، بل قائدًا لجيشٍ عظيم. أتُراه ينتقم؟ ستجيب الفصول التالية – والجواب هو هو كما كان قبل عشر سنين: **الرجاء لا الانتقام**.

حصار الطائف

كانت الطائف مدينةً تحيط بها **أسوارٌ وحصونٌ منيعة**، ومعها مؤونةٌ تكفي زمنًا طويلًا، وأهلها ثقيف رماةٌ مهرة. فحاصرها المسلمون، وتذكر كتب السيرة أنّهم استعملوا **المنجنيق والدبّابة (عربةً خشبيّةً مصفّحة)** لأوّل مرّةٍ في تاريخ الإسلام. لكنّ حصون الطائف لم تُقتحم، وأُصيب كثيرٌ من الصحابة بالنبل من فوق الأسوار.

واختُلف في مدّة الحصار: فكتب السيرة تذكر نحو عشرين يومًا، وفي روايةٍ في صحيح مسلم ذكر أنس رضى الله عنه أربعين ليلة (صحيح مسلم ١٠٥٩). وفي النهاية اتّخذ رسول الله ﷺ قرارًا. يحكي عبد الله بن عمر رضى الله عنهما:

حديث — صحيح البخاري، رقم ٤٣٢٥

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ الشَّاعِرِ الأَعْمَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ لَمَّا حَاصَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الطَّائِفَ فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُمْ شَيْئًا قَالَ «إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا نَذْهَبُ وَلاَ نَفْتَحُهُ ـ وَقَالَ مَرَّةً نَقْفُلُ ـ فَقَالَ «اغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ». فَغَدَوْا فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ فَقَالَ «إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فَأَعْجَبَهُمْ فَضَحِكَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً فَتَبَسَّمَ. قَالَ قَالَ الْحُمَيْدِيُّ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ الْخَبَرَ كُلَّهُ.

السند رواه الإمام البخاري: عن علي بن عبد الله المديني، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن أبي العبّاس الشاعر الأعمى، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، حديث رقم ٤٣٢٥؛ وانظر أيضًا ٦٠٨٦ و٧٤٨٠، وأخرجه مسلم برقم ١٧٧٨.

الدرجة: صحيح — أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4325

دروسٌ من هذا الحديث

لم يكن قرار **الانصراف** عن الطائف هزيمة، بل **حكمة.** فقد رأى رسول الله ﷺ أنّ مواصلة الحصار لا تزيد إلّا القتلى بلا ثمرة، وأنّ الطائف ستأتي إلى الإسلام بنفسها في وقتها. وهذا ما حدث فعلًا: بعد سنةٍ أرسلت ثقيف وفدها إلى المدينة فأسلمت (الحلقة ٢٦).

تبسّم القائد

في حديث ابن عمر عن حصار الطائف درسٌ دقيقٌ في القيادة. فحين اقترح رسول الله ﷺ أوّل مرّةٍ الرجوع **ثقل ذلك على الصحابة** – أرادوا مواصلة القتال وفتح الطائف. فلم يُكرههم رسول الله ﷺ، بل قال: «اغدوا على القتال».

فغدوا فقاتلوا، **فأصابهم جراح**. فلمّا ذاقوا الشدّة بأنفسهم، ثمّ قال مرّةً أخرى: «إنّا قافلون غدًا إن شاء الله»، تلقّوا ذلك بالفرح. **فضحك رسول الله** ﷺ. ضحك من تحوّل قلوبهم – من الكراهة إلى الفرح بالقرار نفسه.

والعبرة لكلّ قائدٍ ووالدٍ ومعلّم: أحيانًا **يحتاج الناس أن يجرّبوا بأنفسهم** قبل أن يقبلوا القرار. فقد أعطى رسول الله ﷺ أصحابه فرصة التجربة، دون أن يعنّفهم أو يحقّرهم، وقابل الموقف **بالابتسامة** لا بالضيق.

وتأمّل قوله: «**إن شاء الله**». فمع أنّه القائد صاحب القرار كان يسند خططه دائمًا إلى مشيئة الله. وهذا هو الأدب الذي علّمه الله في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الكهف ١٨: ٢٣-٢٤).

الذين نزلوا من الحصن

وفي أثناء الحصار أعلن رسول الله ﷺ: أيّما **عبدٍ** في الطائف نزل إلى المسلمين فهو **حرّ**. فاستجاب نفرٌ من العبيد ونزلوا من الحصن.

ومن هؤلاء **نُفَيع بن الحارث**، الذي تدلّى من حصن الطائف **ببَكْرة**، فعُرف بكنية **أبي بَكْرة**. وقد ذكره صحيح البخاري بأنّه «تسوّر حصن الطائف» وأتى النبيّ ﷺ (صحيح البخاري ٤٣٢٦). ثمّ صار صحابيًّا روى أحاديث كثيرة.

من كتب السيرة: الحرّيّة للعبيد

روى أهل السيرة أنّ نحو **ثلاثة وعشرين عبدًا** نزلوا من الطائف، فأعتقهم رسول الله ﷺ جميعًا، ودفع كلّ واحدٍ منهم إلى رجلٍ من الصحابة يمونه ويعلّمه الدين. ولمّا أسلمت ثقيف بعدُ طلبوا ردّهم، فأبى رسول الله ﷺ وقال: «**أولئك عُتقاءُ الله**»

هذه الأعداد والتفاصيل **من روايات كتب السيرة**.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة حنين والطائف؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

ابن حجر، الإصابة – ترجمة أبي بكرة نُفَيع بن الحارث.

تُظهر هذه الحادثة أنّ الإسلام **فتح باب الحرّيّة** حتّى في وسط الحرب. فعبدٌ تدلّى من الحصن ببَكْرة صار صاحبًا لرسول الله ﷺ، وراويًا للحديث، وبقي اسمه في التاريخ. فالإسلام يزن الناس بإيمانهم لا بمكانتهم الاجتماعيّة.

«اللهمّ اهدِ ثقيفًا»

أُصيب كثيرٌ من الصحابة بنبل ثقيف من فوق أسوار الطائف، فطلب بعضهم من رسول الله ﷺ أن يدعو على ثقيف. فماذا كان جوابه؟

من كتب السيرة: «اللهمّ اهدِ ثقيفًا»

روى جابر رضى الله عنه أنّ الصحابة قالوا: «يا رسول الله، أحرقتنا نبالُ ثقيف، فادعُ الله عليهم». فقال: «**اللهمّ اهدِ ثقيفًا**». (جامع الترمذي ٣٩٤٢)

قال الإمام الترمذي: **حسنٌ صحيحٌ غريب**، لكنّ بعض العلماء، ومنهم الشيخ الألباني، ضعّفوا إسناده **لضعفٍ** فيه، لأنّ أبا الزبير رواه بالعنعنة؛ ولذلك وُضع في هذا الصندوق. غير أنّ معناه موافقٌ للحديث الصحيح عن الطائف (صحيح البخاري ٣٢٣١) ولدعائه لدَوْس: «اللهمّ اهدِ دَوْسًا» (صحيح البخاري ٢٩٣٧).

المرجع:

الألباني، ضعيف سنن الترمذي.

سواءٌ أكان بهذا اللفظ أم لا، فإنّ **موقف** رسول الله ﷺ من الطائف واضحٌ في الأحاديث الصحيحة: لم يدعُ عليهم بالهلاك قطّ، بل **رجا لهم الهداية** ولذرّيّتهم. وقد استُجيب ذلك الدعاء: فأسلمت ثقيف بعد مدّةٍ يسيرة، ولمّا ارتدّ كثيرٌ من العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ، **ثبتت ثقيف على الإسلام**.

والعبرة: إذا أوذيت **فادعُ بالهداية لا بالهلاك**. فمن يؤذيك اليوم قد يكون أخاك في الإيمان غدًا.

السبي والغنائم

انتهى قرار مالك بن عوف بسَوق الأهل والأموال إلى الميدان بكارثةٍ على هوازن؛ إذ وقعت **نساؤهم وذراريّهم ونَعَمهم** كلّها في أيدي المسلمين. وروى أنس رضى الله عنه أنّ هوازن جاءت بالصبيان والنساء والإبل والغنم، فجُعلت صفوفًا تُكثَّر بها (صحيح مسلم ١٠٥٩).

من كتب السيرة: عدد السبي والأموال

تذكر كتب السيرة أنّ السبي بلغ نحو **ستّة آلاف نفس**، ومعه **أربعة وعشرون ألف بعير**، وأكثر من **أربعين ألف شاة**، و**أربعة آلاف أوقيّة من الفضّة**. وقد جُمع ذلك كلّه وحُفظ في **الجِعْرانة**، وهي موضعٌ بين مكّة والطائف.

هذه الأرقام من روايات كتب السيرة (ومنها الواقديّ وابن سعد)، ولعلّها تقديريّة.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة حنين والطائف؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

الواقدي، المغازي؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى.

ماذا صنع رسول الله ﷺ بهذا المال الكثير؟ لقد **أخّر قسمته** أيّامًا، رجاء أن تأتي هوازن تائبةً فيُردّ إليها أهلها. أمّا قصّة القسمة في الجِعْرانة – ومنها عطاء أشراف قريش، ووَجْد بعض الأنصار، وخطبة رسول الله ﷺ التي أبكتهم – فتُحكى في **الحلقة ٢٣**.

أمٌّ تبحث عن ولدها

وسط آلاف السبايا من هوازن وقع مشهدٌ صغير جعله رسول الله ﷺ درسًا عظيمًا في **رحمة الله**. يحكي عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنّ سبيًا قُدم على النبيّ ﷺ، فإذا امرأةٌ من السبي **تسعى** وقد تحلّب ثديها، كلّما وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته.

فقال النبيّ ﷺ لأصحابه: «**أترون هذه طارحةً ولدها في النار؟**» قالوا: لا، وهي تقدر على ألّا تطرحه. فقال: «**للَّهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها**» (صحيح البخاري ٥٩٩٩).

ذكر ابن حجر في فتح الباري أنّ السبي في هذا الحديث هو **سبي هوازن** بعد حنين. تخيّل المشهد: بعد معركةٍ شديدة، وسط الحزن والفقد، كان رسول الله ﷺ **يتأمّل أمًّا تبحث عن ولدها** – فجعلها طريقًا يعرّف به أصحابه رحمةَ الله التي لا حدّ لها.

والعبرة: **رحمة الله أوسع من حنان الأمّ**. فأمٌّ فقدت ولدها ترضع كلّ رضيعٍ تجده، فكيف بالله مع عبده الراجع إليه؟ فلا تيأس من رحمة الله مهما بعدت.

الأمانة في الغنيمة

كانت غنائم حنين كثيرة جدًّا – لعلّها أكثر ما غنمه المسلمون حتّى ذلك اليوم. والمال الكثير يحمل ابتلاءً كبيرًا: **إغراءَ الأخذ قبل القسمة**، وهو ما يسمّى في الإسلام **الغُلول** (الخيانة في الغنيمة).

حذّر رسول الله ﷺ من الغلول تحذيرًا شديدًا. روى أبو هريرة رضى الله عنه أنّه قام فيهم خطيبًا فذكر الغلول فعظّمه وعظّم أمره، ثمّ قال: لا أُلفِيَنّ أحدكم يجيء يوم القيامة **على رقبته** بعيرٌ أو فرسٌ أو شاةٌ غلّها، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: «**لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك**» (صحيح البخاري ٣٠٧٣).

من كتب السيرة: وَبَرَةٌ من سنام بعير

روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنّ رسول الله ﷺ بعد حنين أخذ وَبَرَةً من سنام بعير، ثمّ قال: «**يا أيّها الناس، إنّه ليس لي من هذا الفيء شيءٌ ولا هذا – ورفع أصبعيه – إلّا الخُمس، والخُمس مردودٌ عليكم، فأدّوا الخِياط والمِخْيَط**» (سنن أبي داود ٢٦٩٤).

حسّنه الألباني **حديثًا حسنًا**، ولذلك وُضع في هذا الصندوق.

المرجع:
الألباني، صحيح سنن أبي داود.

انظر إلى **أمانة رسول الله** ﷺ. فالقائد الذي يملك أمر آلاف الإبل والغنم يعلن أنّه لا حقّ له ولو في وَبَرَة، إلّا النصيب الذي فرضه الله – وحتّى ذلك النصيب يُنفق على الأمّة. فكلّ من يتولّى أموال الناس – في شركةٍ أو مسجدٍ أو جمعيّةٍ أو دولة – حريٌّ به أن يتذكّر وَبَرَة البعير في حنين.

الشيماء: الأخت من الرضاعة

وكان بين سبي هوازن امرأةٌ كبيرة ادّعت أمرًا عجيبًا: أنّها **أختُ** رسول الله ﷺ من الرضاعة.

من كتب السيرة: الرداء المبسوط

روى أهل السيرة أنّ **الشيماء بنت الحارث**، ابنة حليمة السعديّة، سُبيت وعوملت بشدّة، فقالت: «أنا أخت صاحبكم من الرضاعة». فلمّا جيء بها إلى رسول الله ﷺ أرته **أثر عضّةٍ** في ظهرها – عضّها إيّاها وهو صغير وهي تحمله.

فعرفها رسول الله ﷺ، **وبسط لها رداءه** وأجلسها عليه، وخيّرها: إن أحبّت أقامت عنده مكرّمةً محبّبة، وإن أحبّت رجعت إلى قومها بالعطاء. فاختارت الرجوع، فأعطاها عطاءً جزيلًا.

هذه القصّة **من روايات كتب السيرة** (ومنهم ابن إسحاق والبيهقي)، وإسنادها **متكلَّمٌ فيه**.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة حنين والطائف؛ ابن كثير، البداية والنهاية.
البيهقي، دلائل النبوّة.

ومع أنّ إسناد القصّة متكلَّمٌ فيه، فهي موافقةٌ لخُلق رسول الله ﷺ الثابت: فقد كان **شديدَ الإكرام لأهله من الرضاعة**. وفي الحديث الصحيح أنّ الرضاعة تحرّم ما يحرم من النسب (صحيح البخاري ٢٦٤٥) – أي إنّها رابطةٌ قريبةٌ جدًّا في الإسلام.

والعبرة: **لا تنسَ فضل من أحسن إليك**، ولو في الصغر، ولو بعد زمنٍ طويل. فرسول الله ﷺ، وهو يومئذٍ سيّد العرب، بسط رداءه لأخته من الرضاعة القادمة من بادية فقيرة.

بدر وحنين

ذكر القرآن حنينًا باسمها كما ذكر بدرًا. والمقارنة بين الغزوتين تعطي درسًا واضحًا جدًّا في **مصدر النصر**:

بدر (٢هـ)	حنين (٨هـ)
٣١٣ رجلًا، في قلّةٍ من العُدّة	١٢٬٠٠٠ رجل، في تمام السلاح
شعروا بالضعف واعتمدوا على الله	أعجبتهم كثرتهم
نصرٌ من البداية	هزيمةٌ في أوّل الأمر، ثمّ نصر
اجتهد في الدعاء	ثبت على بغلته
قبضةٌ من حصى رُميت (الأنفال ٨: ١٧)	قبضةٌ من تراب رُميت (مسلم ١٧٧٧)
نزول الملائكة مددًا (الأنفال ٨: ٩)	جنودٌ لم تُرَ (التوبة ٩: ٢٦)
السابع عشر من رمضان	شوّال، بعد فتح مكّة

علّمت الغزوتان حقيقةً واحدة من جهتين: **القلّة لا تمنع النصر إذا اعتُمد على الله، والكثرة لا تضمن النصر إذا اعتُمد على النفس.** ففي بدرٍ تعلّم المسلمون التوكّل في الضعف، وفي حنينٍ تعلّموا التواضع في القوّة.

وفي حياتنا لحظات «بدر» — حين نضعف فلا نعتمد إلّا على الله — ولحظات «حنين» — حين نقوى فننساه بسهولة. والابتلاء الثاني أخطر في الغالب.

مصادر القصّة

رُويت قصّة حنين والطائف في القرآن والأحاديث الصحيحة وكتب السيرة. ويميّز الجدول الآتي بين الثابت والمرويّ:

الحدث	المصدر والدرجة
الإعجاب بالكثرة؛ السكينة	التوبة ٩: ٢٥–٢٦
ذات أنواط	جامع الترمذي ٢١٨٠ (صحيح)
«أنا النبيّ لا كذب»	صحيح البخاري ٢٨٦٤
نداء العبّاس؛ رمي الحصى	صحيح مسلم ١٧٧٥، ١٧٧٧
أوطاس والدعاء لأبي عامر	صحيح البخاري ٤٣٢٣
حصار الطائف	صحيح البخاري ٤٣٢٥؛ مسلم ١٠٥٩
نصيحة دُرَيد بن الصِّمَّة	كتب السيرة
«اللهمّ اهدِ ثقيفًا»	الترمذي ٣٩٤٢؛ إسناده متكلَّمٌ فيه
عدد السبي والأموال	كتب السيرة
قصّة الشيماء	كتب السيرة؛ في إسناده كلام

الإطار الأساسيّ للقصّة — الإعجاب بالكثرة، والكمين، وثبات رسول الله ﷺ، ونداء العبّاس، والنصر بعون الله، وحصار الطائف — **ثابتٌ بالقرآن والأحاديث الصحيحة.** أمّا سائر التفاصيل فنقدّمها بأمانةٍ على أنّها من روايات السيرة.

القبائل في ميدان حنين والطائف

عرّف الفصلان الأوّل والثاني بهوازن وثقيف باختصار. فمن هي على التحقيق القبائل التي اجتمعت تحت راية مالك بن عوف؟ يرتّب هذا الفصل بطونها في جدولٍ واحد. وأكثر هذه التفاصيل من كتب السيرة (ابن إسحاق من طريق ابن هشام، والواقديّ)؛ وما ثبت في الحديث الصحيح ذُكر مصدره.

القبيلة / البطن	المكانة	القائد أو العَلَم	المصدر
هوازن (عامّة)	حِلفٌ كبيرٌ من قبائل البادية من قيس عيلان، في المنطقة الممتدّة شرقيّ مكّة إلى نجد	مالك بن عوف النَّصْري، قائد الحِلف كلّه	كتب السيرة؛ صحيح البخاري ٤٣٢٣ يذكر هوازن
بنو نَصْر بن معاوية (هوازن)	شاركوا	قبيلة مالك بن عوف نفسه	كتب السيرة
بنو جُشَم بن معاوية (هوازن)	شاركوا	دُرَيد بن الصِّمَّة، المستشار الحربيّ الشيخ (الفصل ١٩)	كتب السيرة؛ مقتل دُرَيد: صحيح البخاري ٤٣٢٣
بنو سعد بن بكر (هوازن)	شاركوا	قبيلة حليمة السعديّة والشيماء (الفصل ٢٨)	كتب السيرة
بنو هلال بن عامر (هوازن)	شارك منهم عددٌ قليلٌ فقط	قبيلة أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث	كتب السيرة (ابن إسحاق)
بنو كعب وبنو كلاب (هوازن)	لم يشاركوا	—	كتب السيرة؛ وعدّ دُرَيدٌ غيابهم نذير شؤم
ثقيف — الأحلاف	شاركوا، ثمّ تحصّنوا بالطائف	قارب بن الأسود بن مسعود	كتب السيرة (ابن إسحاق)

القبيلة / البطن	المكانة	القائد أو العَلَم	المصدر
ثقيف – بنو مالك	شاركوا، ثمّ تحصّنوا بالطائف	ذو الخِمار سُبَيع بن الحارث وأخوه الأحمر	كتب السيرة (ابن إسحاق)

من كتب السيرة: قبائل تربطها برسول الله ﷺ

تربط رسولَ الله ﷺ بهوازن صلتان. الأولى صلة الرضاعة: فقد أرضعته حليمة بنت أبي ذُؤيب من بني سعد بن بكر، والشيماء أخته من الرضاعة. والثانية صلة المصاهرة: فأمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها من بني هلال بن عامر، وهم كذلك من بطون هوازن (الحلقة ١٨).

وصلة الرضاعة هذه هي التي احتجّ بها وفد هوازن حين جاؤوا تائبين يسألون ردّ سبيهم (الحلقة ٢٣).

يبيّن هذا الجدول أنّ حنيناً لم تكن حربًا مع قبيلةٍ واحدة، بل مع حِلفٍ كبير. ويبيّن أيضًا أنّ بطون هوازن لم تُجمع كلّها على قرار مالك بن عوف – فقد اختار كعبٌ وكلابٌ ألّا يشاركوا. أمّا ثقيف فقاتلت في حنين، ثمّ انحازت إلى مدينتها المحصّنة الطائف.

العبرة

عدوّ اليوم قد يكون أخا الغد. فبنو سعدٍ الذين قاتلوه في حنين هم أهله من الرضاعة، وما لبثت هوازن وثقيف كلّها أن أسلمت. لم يكن رسول الله ﷺ ينظر إلى الناس بعداوةٍ دائمة، بل كان يراهم إخوةً في الإيمان مرتقَبين.

أعلام غزوة حنين والطائف

يجمع الجدول الآتي أبرز الأعلام المذكورين في هذه الحلقة، مع صلاتهم برسول الله ﷺ أو بغيرهم، وأدوارهم، ومصادر أخبارهم.

الاسم	القبيلة / الصلة	الدور	المصدر
العبّاس بن عبد المطّلب	قريش (بنو هاشم)؛ عمّ رسول الله ﷺ	نادى أصحاب السَّمُرة بصوته الجهير	صحيح مسلم ١٧٧٥
أبو سفيان بن الحارث	قريش (بنو هاشم)؛ ابن عمّ رسول الله ﷺ	أخذ بلجام بغلته	صحيح مسلم ١٧٧٥
أيمن بن عُبيد	ابن أمّ أيمن؛ أخو أسامة بن زيد لأمّه	استُشهد وهو يدافع عن رسول الله ﷺ	كتب السيرة (ابن إسحاق)
أبو عامر الأشعري	الأشعريّون (اليمن)؛ عمّ أبي موسى	قاد السريّة إلى أوطاس؛ استُشهد	صحيح البخاري ٤٣٢٣
أبو موسى الأشعريّ	الأشعريّون؛ ابن أخي أبي عامر	أخذ الراية في أوطاس؛ بلّغ وصيّة أبي عامر	صحيح البخاري ٤٣٢٣
أبو قتادة الأنصاري	الأنصار — الخزرج (بنو سَلِمة)	قتل مشركًا فأُعطي سَلَبه	صحيح البخاري ٣١٤٢
أمّ سُلَيم بنت مِلْحان	الأنصار — الخزرج (بنو النجّار)؛ زوج أبي طلحة، وأمّ أنس	حملت خنجرًا في الميدان	صحيح مسلم ١٨٠٩
سلمة بن الأكوع	أسلم	اعترف بأنّه انهزم أيضًا	صحيح مسلم ١٧٧٧
خالد بن الوليد	قريش (بنو مخزوم)	قاد المقدّمة؛ عُوتب لمّا قُتلت امرأة	سنن أبي داود ٢٦٦٩

الاسم	القبيلة / الصلة	الدور	المصدر
أبو بكرة (نُفَيع بن الحارث)	ثقيف، عبدٌ أُعتق	تدلّى من حصن الطائف ببَكْرة فأسلم	صحيح البخاري ٤٣٢٦
مالك بن عوف النَّصْري	هوازن (بنو نَصْر)	قائد هوازن؛ تحصّن بالطائف؛ ثمّ أسلم (الحلقة ٢٣)	كتب السيرة
دُرَيد بن الصِّمَّة	هوازن (بنو جُشَم)	المستشار الشيخ؛ قُتل في أوطاس	صحيح البخاري ٤٣٢٣؛ كتب السيرة
الشَّيْماء بنت الحارث	هوازن (بنو سعد)؛ أخت رسول الله ﷺ	سبيّةٌ أكرمها رسول الله	كتب السيرة

من كتب السيرة: شهداء حنين والطائف

ذكر ابن إسحاق أربعة شهداء في حنين وأوطاس: أيمن بن عُبيد، ويزيد بن زَمْعة بن الأسود، وسُراقة بن الحارث من الأنصار، وأبا عامر الأشعري. وذكر في الطائف اثني عشر شهيدًا، أكثرهم من قريش والأنصار.

هذه الأعداد من روايات كتب السيرة. والثابت في صحيح البخاري استشهاد أبي عامر في أوطاس (٤٣٢٣)، وكثرة الجرحى من الصحابة في الطائف (٤٣٢٥).

تأمّل ترتيب هذا الجدول: عمٌّ، وابن عمّ، وابن حاضنته، وصحابيٌّ من اليمن، وأنصار، وعدوٌّ سابقٌ من مكّة، وعبدٌ من الطائف. اختلفت قبائلهم وألوانهم وأصولهم، ووقفوا تحت رايةٍ واحدة.

العبرة

في ساعة الشدّة ثبت حول رسول الله ﷺ أقرب أهله وأقدم أصحابه صحبةً. فالإيمان الذي بُني في سنين أثبتُ من الحماسة الطارئة. ومع ذلك فالباب مفتوحٌ دائمًا: فأبو بكرة الذي نزل من حصن العدوّ صار صحابيًّا يروي الحديث.

أماكن الأحداث بين الأمس واليوم

وقعت أحداث هذه الحلقة شرقيّ مكّة وجنوبها الشرقيّ، على الطريق إلى جبال الطائف. ويسرد الجدول الآتي الأماكن المذكورة. وتحديد بعض المواضع القديمة غير قطعيّ، ونذكر ذلك بأمانة.

المكان	الحدث	الحال اليوم	ملاحظة
وادي حُنين	كمين هوازن ونصر المسلمين (الفصول ٦–١١)	وادٍ على الطريق بين مكّة والطائف، شرقيّ مكّة	تحديد موضع المعركة بدقّةٍ غير قطعيّ
أوطاس	سريّة أبي عامر؛ مقتل دُرَيد (الفصلان ١٨–١٩)	وادٍ في ديار هوازن	موضعه الدقيق مختلَفٌ فيه
نخلة	فرّ إليه بعض جيش هوازن	وادٍ بين مكّة والطائف	وهو أيضًا الموضع الذي استمع فيه نفرٌ من الجنّ القرآن (الحلقة ٥)
الطائف	الحصار (الفصول ٢٠–٢٤)	مدينةٌ في جبال الحجاز على ارتفاع نحو ١٬٨٧٩ مترًا عن سطح البحر؛ وطريق الجبل بين مكّة والطائف طوله ٨٧ كم، أُنشئ سنة ١٩٦٥م	ويكيبيديا، «الطائف»
مسجد عبد الله بن عبّاس، الطائف	توفّي ابن عبّاس رضى الله عنهما ودُفن في الطائف (٦٨هـ / ٦٨٧م)	مسجدٌ كبيرٌ وسط مدينة الطائف، بناؤه الحاليّ من سنة ١٩٥٨م	ويكيبيديا، أمّا ربطه بمصلّى النبيّ ﷺ أثناء الحصار فروايةٌ تاريخيّة
الجِعْرانة	جُمع فيها السبي والغنائم؛ عمرة النبيّ ﷺ	ميقات العمرة لأهل مكّة اليوم	تُحكى في الحلقة ٢٣

تشتهر الطائف اليوم بهوائها البارد، وحدائق الورد، والفواكه. فالمدينة التي ردّت رسول الله ﷺ ورمته بالحجارة، ثمّ صمدت لحصاره، صارت مدينةً إسلاميّة تحتضن قبر واحدٍ من أعظم علماء هذه الأمّة – ابن عمّه عبد الله بن عبّاس.

العبرة

الأماكن تحفظ الذكريات، والباقي هو الإيمان. فالطائف التي قست في عام الحزن وامتنعت في عام الحصار صارت أخيرًا أرضًا تُنجب العلم وتحفظه. ولم يذهب دعاء رسول الله ﷺ بهداية ثقيف سُدًى.

أحكام من حنين والطائف

كانت حنين والطائف مصدرًا لكثيرٍ من أحكام فقه الجهاد، وقد سبق شرح بعضها في الفصول الماضية. ويلخّصها الجدول الآتي، ثمّ يليه حكمٌ لم يُذكر بعد.

الحكم	الدليل	الفصل
جواز استعارة السلاح من غير المسلم مع ضمان ردّه	سنن أبي داود ٣٥٦٢	3
تحريم التشبّه بأعمال الشرك ولو بنيّةٍ حسنة	جامع الترمذي ٢١٨٠	4
سَلَب القتيل لقاتله	صحيح البخاري ٣١٤٢	16
لا يُقتل النساء ولا الصبيان ولا الأَجَراء	سنن أبي داود ٢٦٦٩	17
عبيد العدوّ الخارجون إلينا مستسلمين أحرار	صحيح البخاري ٤٣٢٦	23
للإمام أن يرفع الحصار إذا اقتضت المصلحة	صحيح البخاري ٤٣٢٥	21–22
تحريم الأخذ من الغنيمة قبل القسمة (الغلول)	صحيح البخاري ٣٠٧٣؛ سنن أبي داود ٢٦٩٤	27
لا تُوطأ المسبيّة قبل الاستبراء (التحقّق من براءة رحمها)	سنن أبي داود ٢١٥٧؛ صحيح مسلم ١٤٥٦	34

حديث: سبايا أوطاس

روى أبو سعيد الخدريّ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشًا إلى أوطاس، فأصابوا سبايا لهنّ أزواجٌ من المشركين، فكأنّ ناسًا من الصحابة تحرّجوا، فأنزل الله آية النساء ٤: ٢٤ في حكمهنّ.

وفي روايةٍ أخرى لأبي سعيد قال رسول الله ﷺ في سبايا أوطاس: «لا تُوطأ حاملٌ حتّى تضع، ولا غيرُ ذات حملٍ حتّى تحيض حيضة».

الدرجة: صحيح – صحيح مسلم ١٤٥٦؛ سنن أبي داود ٢١٥٧ (وصحّحه الألباني).

تنبيهٌ فقهيّ

تتعلّق هذه الأحكام بنظام أسرى الحرب الذي كان قائمًا في العالم كلّه في ذلك الزمان. فجاء الإسلام فنظّمه، وسدّ كثيرًا من أبواب الظلم فيه، ورغّب في عتق الرقاب كفّارةً وعملًا صالحًا. وقد انتهى ذلك النظام منذ زمنٍ بعيد، وتُدرس هذه الأحكام اليوم جزءًا من تاريخ الفقه.

ويدلّ حديث الاستبراء أيضًا على حفظ الأنساب: فالإسلام لا يسمح باختلاط النسب ولو في حال الحرب. أمّا السَّلَب فقد اختلف فيه العلماء: فمذهب الشافعيّ وأحمد أنّ القاتل يستحقّه مطلقًا، ومذهب أبي حنيفة ومالك أنّه موقوفٌ على إعلان الإمام.

العبرة

الحرب في الإسلام ليست خارجةً عن الأحكام. فالسلاح المستعار يُردّ، والنساء والصبيان يُحمَون، والغنيمة لا تُمسّ قبل القسمة، والأعراض والأنساب تُحفظ. فالشريعة حاضرةٌ حتّى في وسط الميدان.

الخطّ الزمنيّ لغزوة حنين والطائف

أكثر التواريخ الآتية مبنيٌّ على كتب السيرة، وبعضها تقريبيّ.

الوقت	الحدث	المصدر
رمضان ٨ هـ	فتح مكّة؛ هوازن وثقيف تجمعان الجيوش	الحلقتان ٢٠–٢١؛ كتب السيرة
أوائل شوّال ٨هـ	صفوان يُعير الدروع؛ جيش الإسلام يخرج من مكّة	سنن أبي داود ٣٥٦٢؛ كتب السيرة (ابن إسحاق: ٦ شوّال)
في الطريق	حادثة شجرة ذات أنواط	جامع الترمذي ٢١٨٠
نحو ١٠ شوّال ٨هـ، وقت الصبح	الكمين في وادي حنين؛ الجيش يولّي	صحيح البخاري ٢٨٦٤
صبيحة اليوم نفسه	نداء العبّاس؛ قبضة التراب؛ النصر	صحيح مسلم ١٧٧٥، ١٧٧٧
بعد المعركة	هوازن تتفرّق إلى الطائف ونخلة وأوطاس	كتب السيرة
بعد أيام	سريّة أبي عامر إلى أوطاس؛ مقتل دُرَيد؛ استشهاد أبي عامر	صحيح البخاري ٤٣٢٣
شوّال ٨هـ	السبي والغنائم تُرسل إلى الجِعْرانة	كتب السيرة
شوّال ٨هـ	بداية حصار الطائف	صحيح البخاري ٤٣٢٥
أثناء الحصار	أبو بكرة وعبيدٌ آخرون ينزلون من الحصن	صحيح البخاري ٤٣٢٦
بعد نحو ٢٠ يومًا (وفي روايةٍ: ٤٠ ليلة)	رفع الحصار؛ الدعاء بهداية ثقيف	كتب السيرة؛ صحيح مسلم ١٠٥٩
أواخر شوّال – ذو القعدة ٨هـ	قسمة الغنائم في الجِعْرانة؛ العمرة؛ العودة إلى المدينة	الحلقة ٢٣

الوقت	الحدث	المصدر
سنة ٩هـ	وفد ثقيف يأتي مسلمًا	الحلقة ٢٦

العبرة

في نحو شهرين مرّ المسلمون بنصرٍ عظيمٍ في مكّة، وبهزيمةٍ أولى ثمّ نصرٍ في حنين، وبتعذّر فتح الطائف، وبقسمةٍ للمال امتحنت القلوب. وكذلك حياة المؤمن – تتعاقب فيها النعم والمحن، وكلتاهما ابتلاء.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

أسئلة شائعة عن غزوة حنين والطائف

١. كم كان عدد الجيشين؟

بلغ جيش الإسلام نحو اثني عشر ألفًا: عشرة آلاف جاؤوا من المدينة، ونحو ألفين من أهل مكّة (الفصل ٣؛ صحيح البخاري ٤٣٣٧). أمّا عدد هوازن وحلفائها فلم يثبت في حديثٍ صحيح، وتعطي كتب السيرة والتاريخ تقديراتٍ مختلفة، منها نحو عشرين ألفًا.

٢. لماذا ذُكرت حنين باسمها في القرآن؟

لأنّها تحمل درسًا بالغ الأهمّيّة: أنّ الكثرة لا تضمن النصر. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ (التوبة ٩: ٢٥؛ الفصلان ٥ و١٢).

٣. من «الجنود التي لم تُرَ» في التوبة ٩: ٢٦؟

فسّرها المفسّرون كابن كثير بالملائكة الذين أنزلهم الله تأييدًا للمسلمين، كما في بدر. ويؤكّد القرآن أنّ المسلمين لم يروهم (الفصل ١١).

٤. كم استُشهد من الصحابة؟

ذكر ابن إسحاق أربعةً في حنين وأوطاس، واثني عشر في الطائف (الفصل ٣٢). وهذه الأعداد من روايات كتب السيرة.

٥. هل استُعمل المنجنيق في الطائف؟

تذكر كتب السيرة أنّ المسلمين استعملوا المنجنيق والدبّابة في الطائف، وفي بعض الروايات أنّ الطُّفَيل بن عمرو الدوسيّ جاء بالمنجنيق (الفصل ٢١). وهذه التفاصيل من روايات السيرة لا من الحديث الصحيح.

٦. لماذا لم يواصل رسول الله ﷺ الحصار حتّى تُفتح الطائف؟

لأنّ حصونها كانت منيعةً جدًّا، وكثر الجرحى من الصحابة، ولم تكن في المقام مصلحة. فاختار الرجوع (صحيح البخاري ٤٣٢٥)، ودعا لثقيفٍ بالهداية. وبعد سنةٍ جاءت ثقيف بنفسها مسلمة — نصرٌ أعظم بلا إراقة دماء.

٧. من أبو بكرة؟

اسمه نُفَيع بن الحارث، كان عبدًا بالطائف، فتدلّى من الحصن ببَكْرة وأسلم، فكُني أبا بكرة. وقد أُعتق هو ومن نزل معه من العبيد (صحيح البخاري ٤٣٢٦)، ثمّ روى أحاديث كثيرة.

٨. ما صلة رسول الله ﷺ بقبيلة هوازن؟

أرضعته حليمة من بني سعد، وهم بطنٌ من هوازن، والشيماء أخته من الرضاعة. وأمّ المؤمنين ميمونة من بني هلال، وهم أيضًا بطنٌ من هوازن (الفصل ٣١).

٩. هل يستحقّ قاتلُ العدوّ سَلَبه مباشرة؟

أعطى رسول الله ﷺ أبا قتادة السَّلَب (صحيح البخاري ٣١٤٢). واختلف العلماء: هل هو حقٌّ ثابتٌ تلقائيًّا، أم موقوفٌ على إعلان الإمام (الفصل ٣٤).

١٠. لماذا رُبطت آية النساء ٤: ٢٤ بأوطاس؟

لأنّ أبا سعيد الخدريّ روى أنّ الآية نزلت في سبايا أوطاس من ذوات الأزواج (صحيح مسلم ١٤٥٦). وقُرن حكمها بشرط الاستبراء (سنن أبي داود ٢١٥٧؛ الفصل ٣٤).

١١. لماذا دعا رسول الله ﷺ لثقيفٍ بالهداية لا بالهلاك؟

لأنّ غايته هداية الناس لا الانتقام. وهو الموقف نفسه الذي أظهره في الطائف قبل عشر سنين، حين أبى عرض ملك الجبال أن يُطبق عليهم الأخشبين (صحيح البخاري ٣٢٣١؛ الفصلان ٢٠ و٢٤).

١٢. ما مصير سبي حنين وغنائمها؟

جُمعت في الجِعْرانة وقُسمت بعد حصار الطائف. أمّا القسمة، والخطبة في الأنصار، ومجيء وفد هوازن تائبين، فتُحكى في الحلقة ٢٣.

العبرة

تذكّرنا هذه الأسئلة بالتمييز بين القرآن، والحديث الصحيح، وروايات كتب السيرة، وأقوال العلماء. فإطار قصّة حنين والطائف ثابتٌ بالقرآن والحديث الصحيح، أمّا تفاصيل الأعداد والأسماء فنقدّمها بحسب درجتها.

الدروس والخاتمة

حنين والطائف قصّةُ **الابتلاء بعد النصر**. فبعد فتح مكّة امتُحن المسلمون لا بالضعف بل بالقوّة – وخُلّد هذا الدرس في القرآن للأمّة كلّها إلى يوم القيامة.

العبرة	من حنين والطائف
النصر من عند الله	الكثرة ﴿لَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾
صيانة صفاء التوحيد	ذات أنواط: سدّ أبواب الشرك
شجاعة القائد	«أنا النبيّ لا كذب»
الوفاء بالعهد مع الله	رجوع أصحاب السَّمُرة
سكينةٌ من السماء	السكينة تنزل على الرسول والمؤمنين
الصدق في الاعتراف بالضعف	سلمة بن الأكوع
أخلاق الحرب	لا تُقتل النساء ولا الأَجَراء
حكمة الانصراف	الرجوع من الطائف بابتسامة
الدعاء بالهداية	رجاءٌ للطائف لا انتقام

حنين في حياتنا

سيمرّ كلٌّ منّا بـ«حنينه» الخاصّ – لحظةٍ يبدو فيها كلّ شيءٍ منهارًا مع أنّنا نشعر بالقوّة. فلنتذكّر حينئذٍ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح ٩٤: ٥) – تفسير ابن كثير ٩٤: ٥.

لنرجع إلى عهدنا مع الله كما رجع أصحاب السَّمُرة حين نُودوا، ولنثبت كما ثبت رسول الله ﷺ على بغلته، ولنسأل الله **السكينة** – فالنصر يبدأ من طمأنينة القلب.

ونتواصل سلسلة «**السيرة النبوية**» إن شاء الله بـ**الحلقة ٢٣ – غنائم حنين والأنصار**: قسمة الغنائم في الجِعْرانة، والعطاء لتأليف القلوب، ومجيء هوازن تائبين وردّ سبيهم، وخطبة رسول الله ﷺ في الأنصار التي أبكتهم حتّى أخضلوا لحاهم. والله أعلم.

المراجع — الْحَلْقَةُ ٢٢

القرآن الكريم والتفسير

القرآن الكريم، بالرسم العثماني. https://quran.com/ms

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (البقرة ٢: ٢٤٩؛ الأعراف ٧: ١٣٨؛ الأنفال ٨: ١٧؛ التوبة ٩: ٢٥–٢٧؛ الشرح ٩٤: ٥). https://tafsir.app/ibn-katheer/9/25

الحديث الشريف

صحيح البخاري ٢٦٤٥، ٢٨٦٤، ٢٩٣٧، ٣٠٧٣، ٣١٤٢، ٣٢٣١، ٤٣٢٣، ٤٣٢٥، ٤٣٢٦، ٤٣٣٧، ٥٩٩٩. https://sunnah.com/bukhari

صحيح مسلم ١٠٥٩، ١٧٧٥، ١٧٧٦، ١٧٧٧، ١٨٠٩. https://sunnah.com/muslim

جامع الترمذي ٢١٨٠، ٣٩٤٢؛ سنن أبي داود ٢٦٦٩، ٢٦٩٤، ٣٥٦٢. https://sunnah.com

كتب السيرة والشروح

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب غزوة حنين والطائف.

الواقديّ، المغازي؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى؛ البيهقيّ، دلائل النبوّة.

ابن كثير، البداية والنهاية — غزوة حنين؛ ابن القيّم، زاد المعاد.

ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري — كتاب المغازي؛ الإصابة في تمييز الصحابة. النووي، شرح صحيح مسلم — كتاب الجهاد.

صفيّ الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم — باب غزوة حنين.

التاريخ العامّ

ويكيبيديا، «غزوة حنين». https://en.wikipedia.org/wiki/Battle_of_Hunayn

ويكيبيديا، «حصار الطائف». https://en.wikipedia.org/wiki/Siege_of_Ta%27if

ويكيبيديا، «هوازن». https://en.wikipedia.org/wiki/Hawazin

ويكيبيديا، «ثقيف». https://en.wikipedia.org/wiki/Banu_Thaqif

ويكيبيديا، «مالك بن عوف النصري». https://en.wikipedia.org/wiki/Malik_ibn_Awf

ويكيبيديا، «أبو سفيان بن الحارث». https://en.wikipedia.org/wiki/Abu_Sufyan_ibn_al-Harith

ويكيبيديا، «أمّ سليم بنت ملحان». https://en.wikipedia.org/wiki/Umm_Sulaym_bint_Milhan

ويكيبيديا، «أبو بكرة الثقفي». https://en.wikipedia.org/wiki/Abu_Bakra

أحاديث ومصادر إضافية

صحيح مسلم ١٤٥٦ (سبايا أوطاس والنساء ٤: ٢٤). https://sunnah.com/muslim:1456a

سنن أبي داود ٢١٥٧ (استبراء سبايا أوطاس). https://sunnah.com/abudawud:2157

صحيح البخاري ٤٣٢٣ (أبو عامر في أوطاس). https://sunnah.com/bukhari:4323

صحيح البخاري ٤٣٢٥ (حصار الطائف). https://sunnah.com/bukhari:4325

صحيح البخاري ٤٣٢٦ (أبو بكرة ينزل من الحصن). https://sunnah.com/bukhari:4326

صحيح البخاري ٤٣٣٧ (عدد الجيش في حنين). https://sunnah.com/bukhari:4337

ويكيبيديا، «Taif». https://en.wikipedia.org/wiki/Taif

ويكيبيديا، «مسجد عبد الله بن عباس». https://en.wikipedia.org/wiki/Abd_Allah_ibn_al-Abbas_Mosque

ويكيبيديا، «هوازن». https://en.wikipedia.org/wiki/Hawazin

ويكيبيديا، «غزوة حنين». https://en.wikipedia.org/wiki/Battle_of_Hunayn

الْجُزْءُ الثَّانِي

غَنَائِمُ حُنَيْنٍ وَالْأَنْصَارُ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ — الْحَلْقَةُ ٢٣

مَالٌ يُؤَلِّفُ الْقُلُوبَ، وَخُطْبَةٌ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، وَدُمُوعُ الْأَنْصَارِ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

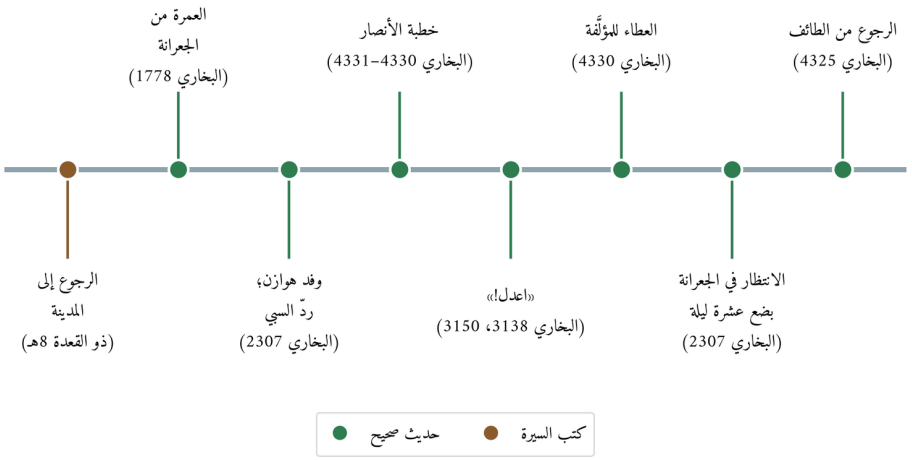
© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

غنائم حنين والأنصار

انتهت الحلقة الثانية والعشرون برجوع جيش الإسلام من حصار الطائف إلى **الجِعْرانة**، حيث جُمع آلاف السبايا وعشرات الآلاف من مواشي هوازن. والآن تأتي ساعةٌ تمتحن القلوب بطريقةٍ أخرى: لا بالسيف والسهام، بل **بالمال**.

تحكي هذه الحلقة كيف قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين: عطايا كبيرة لأشرافٍ حديثي عهدٍ بالإسلام **لتأليف قلوبهم**، واتّهامَ رجلٍ للقسمة بأنّها غير عادلة، ومقالةَ بعض الأنصار الذين وجدوا في أنفسهم، **والخطبةَ في قبّة الأَدَم** التي أبكتهم. وهي كذلك قصّة هوازن التي جاءت تائبة، والكرم الذي ردّ إليها أهلها.

الخطّ الزمنيّ في الجِعْرانة



ترتيب بعض الأحداث تقريبيّ؛ واختلفت الروايات: هل جاءت هوازن قبل القسمة أم بعدها.

الرسم ١: الخطّ الزمنيّ في الجعرانة.

تنبيه: درجة كلّ حديث مذكورة في صندوق الحديث. أمّا أخبار كتب السيرة — ككلمة سعد بن عبادة، وقصّة مالك بن عوف، وتفاصيل العطاء لبعض الأشراف — فقد وُضعت في الصندوق البنّي «من كتب السيرة»، لأنّ أكثرها مرويٌّ بغير إسنادٍ متّصل أو بإسنادٍ متكلَّمٍ فيه.

العودة إلى الجعرانة

الجِعْرانة ماءٌ بين مكّة والطائف، على نحو خمسةٍ وعشرين كيلومترًا شمال شرقيّ مكّة. وفيها جُمعت غنائم حنين وحُفظت أثناء حصار الطائف. فلمّا رجع رسول الله ﷺ من الطائف نزل الجعرانة، فكانت أحداثها من أرقّ ما في السيرة وأشدّه تأثيرًا في القلوب.

تخيّل المشهد: آلافٌ من نساء هوازن وصبيانها، وعشرات الآلاف من الإبل والغنم، وأكوامٌ من الفضّة. إنّه منظرٌ مُغْرٍ لجيشٍ أكثره فقراء. وهو لأشراف مكّة حديثي الإسلام امتحانٌ: أَلِلّهِ إيمانُهم أم للدنيا؟ وهو للأنصار الذين ضحّوا ثماني سنين امتحانٌ لـ**الإخلاص**.

وواجه رسول الله ﷺ هذه الامتحانات كلّها بغايةٍ واحدة: **كسب القلوب**، لا مجرّد قسمة المال. فكلّ قرارٍ اتّخذه في الجعرانة — لمن يعطي، ولمن يمنع، وكيف يبيّن ذلك — درسٌ في **القيادة والعدل والحكمة**.

انتظار هوازن

لم يعجّل رسول الله ﷺ قسمة الغنائم. ففي صحيح البخاري ٢٣٠٧ أنّه **انتظر هوازن بضع عشرة ليلة** بعد رجوعه من الطائف. فلماذا؟

كان يرجو أن **تأتي هوازن تائبةً مسلمة**، فيُردّ إليها أهلها وأموالها. وهذه رحمة رسول الله ﷺ: فمع أنّ هوازن حاربته منذ أيّامٍ وكادت تهزم جيشه، ظلّ يفكّر في مصير نسائها وصبيانها، ويفتح لهم باب الرجوع.

لكنّ الجيش لا يستطيع الانتظار أبدًا. فقد ألحّ كثيرون في القسمة، وأحاط بعضُ الأعراب برسول الله ﷺ يسألونه حتّى اضطرّوه إلى شجرة فخطفت رداءه، فقال: «**أَعْطُونِي رِدَائِي، لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَخِيلًا وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا**» (صحيح البخاري ٢٨٢١)

والعبرة: على القائد أن **يوازن** بين الرحمة بعدوٍّ قد يتوب وحقوق أتباعه. فقد انتظر رسول الله ﷺ قدرًا معقولًا ثمّ عمل، دون أن يغلق باب التوبة.

الأعرابيّ الذي جذب الرداء

يكشف إلحاحُ الناس على الغنائم جانبًا بديعًا من خُلُق رسول الله ﷺ: **الحِلمَ على الجافي**. فكثيرٌ من الجيش كانوا أعرابًا لم يألفوا آداب الحاضرة، فسألوا بغلظة. ويروي أنس بن مالك رضى الله عنه حادثةً تصوّر هذا الخُلُق:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٣١٤٩

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضى الله عنه قَالَ كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.

السند رواه الإمام البخاري: عن يحيى بن بُكَير، عن مالك بن أنس، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، حديث رقم ٣١٤٩؛ وانظر أيضًا ٥٨٠٩ و٦٠٨٨، وأخرجه مسلم برقم ١٠٥٧.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:3149

دروسٌ من هذا الحديث

تخيّل: سيّد العرب كلّها يُجذب رداؤه حتّى يؤثّر في عاتقه، ويُسأل بكلامٍ لا أدب فيه، **فيلتفت إليه ويضحك** ثمّ يعطيه. لا غضب، ولا عقوبة، ولا تعنيف. فقد فهم أنّ الأعرابيّ لم يقصد الإهانة، وإنّما جهل الأدب.

والعبرة لنا: ليس كلّ جافٍ سيّئَ النيّة، فبعضهم نشأ في بيئةٍ مختلفة. **والحِلم والابتسامة** كثيرًا ما يفتحان القلوب أكثر من الغضب. قال الله تعالى في رسوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران ٣: ١٥٩).

أحكام الغنيمة

قبل فهم القسمة في الجعرانة لا بدّ من فهم **أحكام الغنيمة** في الإسلام. ففي غزوة بدر اختلف الصحابة في الغنائم، فأنزل الله تعالى:

﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (الأنفال ٨: ١) – تفسير ابن كثير ٨: ١.

ثمّ بيّن الله قسمتها: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾** (الأنفال ٨: ٤١) – تفسير ابن كثير ٨: ٤١.

فتُقسم **أربعة أخماس** الغنيمة على المقاتلين، ويُدفع **الخُمُس** إلى رسول الله ﷺ يصرفه في المصالح العامّة: قرابته، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. واختلف العلماء: هل كانت العطايا الكبيرة للمؤلَّفة يوم حنين من الخمس أم من أصل الغنيمة؟ وقد ترجم الإمام البخاري لأحاديثها بباب «**ما كان النبيّ ﷺ يعطي المؤلَّفة قلوبهم وغيرهم من الخمس**».

ولم يأخذ رسول الله ﷺ لنفسه شيئًا من هذا الثراء. فكما ذُكر في الحلقة الثانية والعشرين، رفع وبرةً من بعير وقال إنّه ليس له من الغنيمة ولا مثل هذه إلّا الخمس، والخمس مردودٌ على الأمّة.

المؤلَّفة قلوبهم

فلمّا بدأت القسمة أعطى رسول الله ﷺ **عطايا عظيمة جدًّا** لبعض أشراف قريش ورؤساء قبائل العرب، وأكثرهم حديثو عهدٍ بالإسلام، بل كان بعضهم لم يُسلم بعد. ويُعرفون بـ**المؤلَّفة قلوبهم**: الذين يُراد تأليف قلوبهم وجمعها على الإسلام.

وقد ذكر القرآنُ هذا الصنف في مصارف الزكاة الثمانية: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ**﴾ (التوبة ٩: ٦٠) – تفسير ابن كثير ٩: ٦٠.

فلماذا يعطي الإسلامُ المالَ لضعيف الإيمان؟ لأنّ رسول الله ﷺ كان يفهم **طبائع الناس**. فبعضهم يأتي الإسلامَ بالحجّة، وبعضهم بالخُلُق، وبعضهم – ولا سيّما الأشراف الذين فقدوا مكانتهم حديثًا – يحتاج إلى أن **يُكرَم** أوّلًا حتّى ينفتح قلبه. وقد قال في حديثٍ آخر: «**إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ**» (صحيح البخاري ٢٧).

وقد أثبتت النتائج هذه الحكمة؛ فكثيرٌ من مؤلَّفة حنين صاروا بعدُ مسلمين صالحين وجاهدوا في سبيل الله، ومن ذلك قتال الروم وفارس. فلم يكن ذلك المال رشوة، بل **جسرًا** إلى الهداية.

صفوان: من البغض إلى الحبّ

قصّة صفوان بن أميّة أوضح مثالٍ على تأليف القلوب بالعطاء. فقد رأينا في الحلقة الحادية والعشرين أنّه فرّ يوم فتح مكّة، ثمّ رجع بالأمان وطلب مهلةً يتفكّر فيها. وشهد حنينًا قبل أن يُسلم، وأعار دروعه (الحلقة الثانية والعشرون). والآن في الجعرانة:

حديث – صحيح مسلم، رقم ٢٣١٣

وَحَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ، أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَرْحٍ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ غَزَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم غَزْوَةَ الْفَتْحِ فَتْحِ مَكَّةَ ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاقْتَتَلُوا بِحُنَيْنٍ فَنَصَرَ اللَّهُ دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ ثُمَّ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَىَّ فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَىَّ.

السند رواه الإمام مسلم: عن أبي الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح، عن عبد الله بن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب الزهري، عن سعيد بن المسيّب، عن صفوان بن أميّة رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا قطّ فقال: لا، حديث رقم ٢٣١٣.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:2313

دروسٌ من هذا الحديث

ثلاثمائة من الإبل! لم يكن هذا العطاء لصفوان – وهو سيّدٌ من قريش قُتل أبوه ببدر – مجرّد مال، بل كان **تكريمًا** من الرجل الذي طالما عاداه. وأعظم من ذلك أنّ صفوان رأى بعينه أنّ رسول الله ﷺ يعطي عطاءَ **من لا يخشى الفقر**. وهذه صفةٌ لا يملكها ملكٌ من ملوك الدنيا؛ إنّها صفة نبيّ.

وروى أنس رضى الله عنه أنّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: «**أَيْ قَوْمِ، أَسْلِمُوا، فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ**». قال أنس: إن كان الرجل ليُسلم ما يريد إلّا الدنيا، فما يُسلم حتّى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها) صحيح مسلم ٢٣١٢.(

«ما سُئل شيئًا قطّ فقال: لا»

ولم يكن العطاء لصفوان والأشراف أمرًا استثنائيًّا عند رسول الله ﷺ، بل كان جزءًا من **خُلُقه طوال حياته.** وقد لخّصه جابر بن عبد الله رضى الله عنهما في جملةٍ موجزة:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٦٠٣٤

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنِ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ، قَالَ سَمِعْتُ جَابِرًا ـ رضى الله عنه ـ يَقُولُ مَا سُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَنْ شَىْءٍ قَطُّ فَقَالَ لاَ.

السند رواه الإمام البخاري: عن محمّد بن كثير، عن سفيان الثوري، عن محمّد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، حديث رقم ٦٠٣٤؛ وأخرجه مسلم برقم ٢٣١١.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:6034

دروسٌ من هذا الحديث

وقال ابن عبّاس رضى الله عنهما: «**كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودُ ما يكون في رمضان... فلَرسولُ الله أجودُ بالخير من الريح المرسلة**» (صحيح البخاري ٦). ولم يكن جوده لغنًى؛ فكثيرًا ما بات طاويًا، ومرّت الأشهر لا يُوقَد في بيته نار، وإنّما كان جوده عن **يقينٍ برزق الله.**

وبيّن العلماء أنّ معنى «ما سُئل شيئًا فقال: لا» أنّه لم يردّ سائلًا بجفاء؛ فإن لم يكن عنده شيءٌ وعد بالعطاء لاحقًا، أو دعا له، أو سكت سكوتًا رفيقًا. وهذا أدب معاملة السائل: **لا تُخَيِّبه بكلامٍ جارح.**

أبو سفيان وحكيم والأشراف

فمن غيرهم أخذ العطايا الكبيرة في الجعرانة؟ روى رافع بن خديج رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ أعطى **أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أميّة، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس** كلَّ واحدٍ منهم مائةً من الإبل (صحيح مسلم ١٠٦٠.).

من كتب السيرة: أبو سفيان وابناه

روى أهل السيرة أنّ أبا سفيان سأل لابنه **يزيد** فأُعطي مائةً من الإبل، ثمّ لابنه **معاوية** فأُعطي مائةً أخرى، فقال أبو سفيان: «بأبي أنت وأمّي، لأنت كريمٌ في الحرب والسِّلم». وسأل **حكيم بن حزام** مرارًا فأُعطي، فنصحه رسول الله ﷺ بأنّ اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى (الحلقة العشرون).

تفاصيل يزيد ومعاوية من **روايات كتب السيرة**؛ أمّا إعطاء أبي سفيان مائةً من الإبل فصحيحٌ في صحيح مسلم ١٠٦٠.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة حنين وقسمة الغنائم بالجعرانة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

تأمّل قليلًا: **أبو سفيان** قاد قريشًا لحرب الإسلام في أُحد والخندق، **وعيينة بن حصن** قاد غطفان في حصار الخندق، وها هم أولاء يأخذ كلٌّ منهم مائةً من الإبل من الرجل الذي حاربوه. هذه **استراتيجيّة العفو** عند رسول الله ﷺ: أن يحوّل العدوّ صديقًا، لا بالسيف بل بالكرم.

ويذكّر الله أنّ التأليف الحقيقيّ للقلوب من عنده: ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ (الأنفال ٨: ٦٣). فالمال سببٌ، والله هو مقلّب القلوب.

حكيم بن حزام: اليد العليا

ومن أشراف قريش الذين أُعطوا في حنين **حكيم بن حزام**، ابن أخي خديجة رضى الله عنها، وقد مرّت قصّة إسلامه في الحلقة العشرين. وذكر ابن حجر في فتح الباري أنّ مسألته المتكرّرة كانت **عند قسمة غنائم حنين**. ويحكي حكيم نفسه:

حديث – صحيح البخاري، رقم ١٤٧٢

وَحَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ - رضى الله عنه - قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ «يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى». قَالَ حَكِيمٌ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ - رضى الله عنه - يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ - رضى الله عنه - دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا. فَقَالَ عُمَرُ إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَىْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ. فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى تُوُفِّيَ.

السند رواه الإمام البخاري: عن عَبْدان (عبد الله بن عثمان)، عن عبد الله بن المبارك، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيّب، عن حكيم بن حزام رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، حديث رقم ١٤٧٢؛ وانظر أيضًا ٢٧٥٠ و٣١٤٣ و٦٤٤١، وأخرجه مسلم برقم ١٠٣٥.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1472

دروسٌ من هذا الحديث

لم يردّ رسول الله ﷺ مسألة حكيم؛ بل أعطاه ثلاث مرّات. لكنّه بعد العطاء **ربّاه** بنصيحةٍ غيّرت حياته. فالعطاء ليّن قلبه، والنصيحة **أعزّت نفسه**. فتحوّل السيّد الذي يسأل مرّةً بعد مرّة إلى رجلٍ يأبى أن يأخذ من أحدٍ شيئًا، ولو من الخليفة نفسه.

هذا هو **منهج التربية عند رسول الله** ﷺ: سدّ الحاجة أوّلًا ثمّ بناء النفس. فلم يبدأ بالعتاب حين سأل حكيم، بل بعد أن ذاق كرمه دخلت النصيحة قلبه. وهو درسٌ للآباء والمربّين: **القلب الذي كُسب أسهل تربية**.

شعر العبّاس بن مرداس

لم يأخذ الأشراف كلّهم قدرًا واحدًا. فقد روى رافع بن خديج أنّ **العبّاس بن مرداس**، سيّد بني سُلَيم، أُعطي دون المائة من الإبل، فلم يرضَ، وأنشد بين يدي رسول الله ﷺ:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْـ ـدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ؟ فَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ، وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا، وَمَنْ تَخْفِضِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ فأتمّ له رسول الله ﷺ **مائةً من الإبل**) صحيح مسلم ١٠٦٠.(

ولم يغضب رسول الله ﷺ على العبّاس بن مرداس لشعره؛ فقد فهم أنّ **المكانة أمام القوم** عند سيّد القبيلة أمرٌ عظيم، وأنّ العطاء الأقلّ قد يُعدّ إهانة. فأتمّ عطاءه حفظًا لقلبه وقلوب قومه بني سُلَيم الذين شهد كثيرٌ منهم الغزوة مع المسلمين.

والعبرة: القائد الحكيم **يفهم خلفيّة كلّ إنسانٍ ومشاعره**. فما يبدو صغيرًا عند أحدٍ قد يكون عظيمًا عند غيره. والحكمة ليست في العطاء وحده، بل في معرفة **كيف يُعطى وكم يُعطى**.

«فمن يعدل؟»

أثارت العطايا الكبيرة للأشراف ضيقًا في نفوس بعض الناس. وقد سمع عبد الله بن مسعود رضى الله عنه رجلًا يقول كلمةً عظيمة:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٣١٥٠

حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أُنَاسًا فِي الْقِسْمَةِ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ، فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ. قَالَ رَجُلٌ وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ. فَقُلْتُ وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم. فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ».

السند رواه الإمام البخاري: عن عثمان بن أبي شيبة، عن جرير بن عبد الحميد، عن منصور بن المعتمر، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبيّ ﷺ يعطي المؤلَّفة قلوبهم، حديث رقم ٣١٥٠؛ وانظر أيضًا ٣٤٠٥ و٦٠٥٩، وأخرجه مسلم برقم ١٠٦٢.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:3150

دروسٌ من هذا الحديث

كانت تهمة الرجل خطيرة: «**مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ**» – أي اتّهم رسول الله ﷺ في إخلاصه. ومع ذلك جاء جواب رسول الله ﷺ مليئًا بالصبر: لم يعاقب الرجل، بل **تذكّر موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أوذي بأكثر من ذلك فصبر.

وفي رواية أخرى قال ابن مسعود إنّ رسول الله ﷺ **غضب حتّى رُئي الغضب في وجهه** حين سمع تلك الكلمة (صحيح البخاري ٣٤٠٥). فهو بشرٌ يحسّ ويتألّم من التهمة، لكنّه ملك غضبه واختار **الصبر**.

«ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟»

ووقع مثل ذلك مرّةً أخرى في الجعرانة، وهذه المرّة مواجهة. روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٣١٣٨

حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا قُرَّةُ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقْسِمُ غَنِيمَةً بِالْجِعْرَانَةِ إِذْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ اعْدِلْ. فَقَالَ لَهُ «شَقِيتَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ».

السند رواه الإمام البخاري: عن مسلم بن إبراهيم، عن قُرّة بن خالد، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، حديث رقم ٣١٣٨؛ وأخرجه مسلم برقم ١٠٦٣ (بقصّةٍ أطول).

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:3138

دروسٌ من هذا الحديث

وفي رواية صحيح مسلم زاد جابر أنّ الفضّة كانت في ثوب بلال، وكان رسول الله ﷺ يقبض منها فيعطي الناس، فقال الرجل: يا محمّد، اعدل! فقال: «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟**» فقال عمر رضى الله عنه: دعني يا رسول الله فأقتلَ هذا المنافق. فقال: «**مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي**» (صحيح مسلم ١٠٦٣).

تأمّل **الحكمة السياسيّة** عند رسول الله ﷺ: لم يعاقب الرجل مع استحقاقه، خشية أن يُساء فهم ذلك فيَنفِر الناس من الإسلام. فأحيانًا يكون **الإمساك** عن عقوبةٍ مستحقّة أنفعَ للدعوة.

بذرة الخوارج

وسجّل أهل الحديث حادثةً أخرى مشابهة حين كان رسول الله ﷺ يقسم مالًا: قال رجلٌ من بني تميم يُقال له **ذو الخُوَيصِرة**: يا رسول الله، اعدل! فقال: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟» فلمّا استأذن عمر في قتله قال: «**دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**» (صحيح البخاري ٣٦١٠)

وناقش ابن حجر في فتح الباري هل رجلُ الجعرانة وذو الخويصرة رجلٌ واحد أم حادثتان؛ لأنّ رواية أبي سعيد الخدريّ تربط قصّة ذي الخويصرة بقسمة الذهيبة التي بعث بها عليٌّ من اليمن. وعلى كلّ حال **فالموقف واحد**: اتّهام رسول الله ﷺ بعدم العدل، وظنّ المرء أنّه أفهم للعدل من الرسول.

ويرى العلماء في هذا الموقف **بذرةَ الخوارج** – الفرقة التي ظهرت في زمن عليّ رضى الله عنه، فكفّرت الصحابة وسفكت دماء المسلمين، مع شدّة اجتهادها في العبادة. وقد شهد أبو سعيد نفسه أنّه كان مع عليّ حين قاتلهم، ورأى العلامة التي ذكرها رسول الله ﷺ.

والعبرة لزماننا: **كثرة العبادة ليست بالضرورة علامةَ الحقّ** إذا صاحبها كِبرٌ وتسرّعٌ في الاتّهام واحتقارٌ للآخرين. فالعلم الصحيح يورث التواضع، والعلم الذي لا يجاوز الحناجر يورث العنف.

صبر موسى

فلمّا اتُّهم بعدم العدل قال رسول الله ﷺ:«**يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**». فلماذا ذكر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خاصّة؟

يحكي القرآن كيف آذى قومُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيَّهم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا**﴾ (الأحزاب ٣٣: ٦٩) – تفسير ابن كثير ٣٣: ٦٩.

لقد قاد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قومًا كثيري الجدال: طلبوا إلهًا كأصنام غيرهم، وعبدوا العجل، وأبوا دخول الأرض المقدّسة، ورموه بشتّى التهم، فصبر. واقتدى رسول الله ﷺ بأخيه موسى، وعلّمنا أنّ **الأنبياء أنفسهم أوذوا**؛ فلا نعجب إن أُسيء فهمنا ونحن نعمل الخير.

والعبرة: إذا انتُقدتَ ظلمًا **فتذكّر الأنبياء**. فتذكُّر صبر الصالحين قبلنا يخفّف الألم ويقوّي النفس على مواصلة الإحسان.

مقالة الأنصار

وجاء أدقُّ امتحانٍ في الجعرانة من أوفى الناس: **الأنصار**. فقد رأوا الأموال الكثيرة تُعطى لأشراف قريش – قومٍ كانوا بالأمس يحاربون الإسلام – وهم الذين ضحَّوا ثماني سنين لم يُعطَوا شيئًا. يحكي أنس بن مالك رضى الله عنه:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٣٣١

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ نَاسٌ مِنَ الأَنْصَارِ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم مَا أَفَاءَ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ، فَطَفِقَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُعْطِي رِجَالاً الْمِائَةَ مِنَ الإِبِلِ فَقَالُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ. قَالَ أَنَسٌ فَحُدِّثَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِمَقَالَتِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى الأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ غَيْرَهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَامَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ «مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ». فَقَالَ فُقَهَاءُ الأَنْصَارِ أَمَّا رُؤَسَاؤُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، وَأَمَّا نَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ فَقَالُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم «فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ، أَتَأَلَّفُهُمْ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَى رِحَالِكُمْ، فَوَاللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا. فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم «سَتَجِدُونَ أُثْرَةً شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ». قَالَ أَنَسٌ فَلَمْ يَصْبِرُوا.

السند رواه الإمام البخاري: عن عبد الله بن محمّد المُسنَدي، عن هشام بن يوسف، عن معمر بن راشد، عن ابن شهاب الزهري، عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، حديث رقم ٤٣٣١؛ وانظر أيضًا ٣١٤٧، وأخرجه مسلم برقم ١٠٥٩.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4331

دروسٌ من هذا الحديث

تأمّل **صدق فقهاء الأنصار**: لم يكتموا ما قيل، بل بيّنوا بإنصاف أنّ ذوي الرأي منهم لم يقولوا شيئًا، وأنّ القائلين أناسٌ حديثةٌ أسنانهم. وهذا مثالٌ في **نقل الخبر بدقّة** دون زيادة ولا نقصان.

وتأمّل أيضًا كيف عالج رسول الله ﷺ الأمر: **جمعهم وحدهم** في قبّة، لم يدعُ معهم غيرهم. فكان العتاب والبيان في خلوة لا على الملأ، حفظًا لكرامتهم وفتحًا لقلوبهم.

سعد بن عبادة: «ما أنا إلّا من قومي»

من كتب السيرة: «ما أنا إلّا من قومي»

روى أبو سعيد الخدريّ رضى الله عنه أنّه لمّا وجد الأنصار في أنفسهم جاء **سعد بن عبادة** إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إنّ هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعتَ في هذا الفيء». قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: «**يا رسول الله، ما أنا إلّا من قومي**». قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة».

هذه الرواية في **مسند أحمد** وكتب السيرة (ابن إسحاق)، وحسّن إسنادَها بعضُ العلماء. أمّا جمع الأنصار في القبّة فثابتٌ في صحيح البخاري.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة حنين وقسمة الغنائم بالجعرانة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

أحمد، المسند – مسند أبي سعيد الخدريّ.

يدلّ جواب سعد على **صدقٍ نادر**. فقد كان بوسعه – وهو سيّد – أن يتظاهر بمخالفة قومه ليحسن موقعه عند رسول الله ﷺ، لكنّه صارح: هو أيضًا يجد ما يجده قومه. ورسول الله ﷺ **لم يغضب عليه**، بل قدّر صدقه وأمره بجمع الأنصار.

والعبرة لكلّ قائد: **القائد الصالح ينقل مشاعر قومه** إلى من فوقه بصدق، ولا يكتمها. والقائد الأعلى الصالح **يسمع** ويعمل، ولا يعاقب حامل الخبر غير السارّ.

الخطبة في قبّة الأَدَم

في تلك القبّة من أَدَم ألقى رسول الله ﷺ خطبةً من أرقّ الخطب في تاريخ الإسلام. ويرويها عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه، وهو أنصاريٌّ شهدها:

حديث — صحيح البخاري، رقم ٤٣٣٠

حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى، عَنْ عَبَّادِ بْنِ تَمِيمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ، قَالَ لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم يوم حُنَيْنٍ قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي وَعَالَةً، فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي». كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ. قَالَ «مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم». قَالَ كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ. قَالَ «لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا. أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَى رِحَالِكُمْ، لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ».

السند رواه الإمام البخاري: عن موسى بن إسماعيل التبوذكي، عن وُهَيب بن خالد، عن عمرو بن يحيى المازني، عن عبّاد بن تميم، عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه.

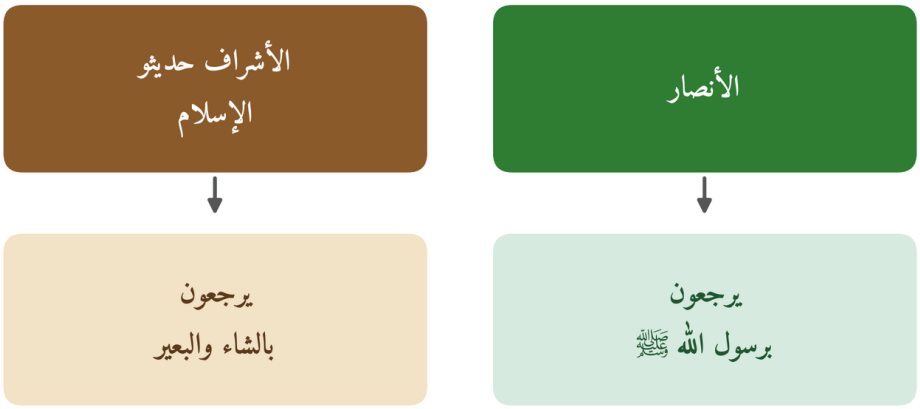
التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، حديث رقم ٤٣٣٠؛ وأخرجه مسلم برقم ١٠٦١.

الدرجة: صحيح — أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4330

دروسٌ من هذا الحديث

«أَلَا تَرْضَوْنَ...؟» (صحيح البخاري 4330)



الرسم ٢: نوعان من «الرجوع» من الجعرانة.

تأمّل بناء الخطبة: **لم يبدأ باللوم**، بل بالتذكير بالنعم: الهداية والأُلفة والغنى. **ثمّ اعترف بفضلهم** بكلماتٍ يستحيون هم أن يقولوها: «لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا». وبيّنت روايةٌ أخرى معناها: أتيتنا مكذَّبًا فصدّقناك، وطريدًا فآويناك.

ثمّ جاء السؤال الذي غيّر كلّ شيء: «**أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ؟**» وفي لحظةٍ تبدّل ميزان القِيَم؛ فصار المال الذي ظنّوه فاتهم صغيرًا أمام ما نالوه: رسول الله ﷺ نفسه.

الهداية والأُلفة والغنى

النعم الثلاث التي ذكرها رسول الله ﷺ للأنصار – **الهداية والأُلفة والغنى** – ليست كلماتٍ فحسب، فلكلٍّ منها تاريخٌ طويل.

الهداية: كان الأوس والخزرج قبل الإسلام يعبدون الأصنام، ومنها مناة التي هُدمت بعد فتح مكّة (الحلقة الحادية والعشرون). **الأُلفة**: اقتتلت القبيلتان أكثر من مائة سنة، وكانت ذروتها يوم بُعاث قبل الهجرة بسنوات. **الغنى**: كانت معيشتهم من قبلُ متواضعة، فوسّع الله رزقهم بالإسلام.

ويذكّر الله بنعمة الأُلفة هذه في القرآن: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ**﴾ (آل عمران ٣: ١٠٣) – تفسير ابن كثير ٣: ١٠٣.

وكلّما ذكر رسول الله ﷺ نعمةً قال الأنصار: «**اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ**». لم يمنّوا بتضحياتهم، بل أقرّوا بأنّ ما نالوه أعظم. وهذا **أدب المؤمن**: أن ينظر إلى فضل الله لا إلى عمله.

الشِّعار والدِّثار

وصوّر رسول الله ﷺ منزلة الأنصار بتشبيهٍ بديع: «**الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ**». فالشِّعار الثوب الذي يلي الجسد، والدِّثار الثوب الذي فوقه. والمعنى أنّ الأنصار **أقرب الناس** إليه.

وقال أيضًا: «**لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ**»، ولو سلك الناس واديًا لسلك وادي الأنصار. وهذا أعلى تكريم: يودّ أن يُعدّ واحدًا منهم لولا شرف الهجرة الأعلى.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ**» (صحيح البخاري ١٧). فحُبّ من أحبّوا رسول الله ﷺ ونصروه من الإيمان.

الأَثَرة: نبوءةٌ ووصيّةٌ بالصبر

وفي آخر الخطبة ذكر رسول الله ﷺ نبوءةً ووصيّةً :«**إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ**»

والأَثَرة: أن يُقدَّم غيرُكم في المال والولايات وتُتركوا. وقد وقع ذلك فعلًا: فبعد عهد الخلفاء الراشدين أُعطيت كثيرٌ من الولايات والمناصب لغيرهم، وكثيرًا ما أُخِّر الأنصار. وقال أنس رضى الله عنه في آخر روايته: «**فَلَمْ يَصْبِرُوا**» – أي شقّ ذلك على بعضهم.

وتعلّمنا وصيّة رسول الله ﷺ مبدأً عميقًا: **الجزاء الحقّ ليس في الدنيا بل عند الحوض**، يوم يلقونه يوم القيامة. فمن ظُلم أو لم يُقدَّر في الدنيا فليصبر وينتظر الجزاء هناك، دون خروجٍ ولا تفريقٍ للأمّة.

دموع الأنصار

كيف تلقّى الأنصار تلك الخطبة؟ في صحيح البخاري أنّهم قالوا: «يا رسول الله، قد رضينا». وتصف روايةٌ أخرى المشهد بتفصيلٍ أكثر:

من كتب السيرة: «رضينا برسول الله قَسْمًا وحظًّا»

في رواية أبي سعيد الخدريّ رضى الله عنه في مسند أحمد وكتب السيرة: لمّا فرغ رسول الله ﷺ من خطبته ودعا: «**اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ**»، **بكى القوم حتّى أخضلوا لحاهم**، وقالوا: «**رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قَسْمًا وَحَظًّا**». ثمّ انصرف رسول الله ﷺ وتفرّقوا.

هذه الرواية حسّنها بعض العلماء؛ وللدعاء للأنصار وأبنائهم أصلٌ في صحيح مسلم (رقم ٢٥٠٦).

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة حنين وقسمة الغنائم بالجعرانة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

أحمد، المسند – مسند أبي سعيد الخدريّ.

لم تكن تلك دموعَ حزنٍ على مالٍ فات، بل **دموعَ فرحٍ ووعي**. ففي دقائق تحوّل القلب الواجد إلى قلبٍ راضٍ كلّ الرضا. تلك قوّة الكلمة الصادقة من القلب المخلص.

ولا يزال سؤال رسول الله ﷺ يتردّد لنا: حين يلهث الناس وراء المال والجاه **هل نرضى أن نرجع بالإيمان وسنّته**؟ ذلك هو النصيب الباقي، والشاء والبعير إلى نفاد.

الأنصار في القرآن

لم يكن رضا الأنصار في الجعرانة أمرًا جديدًا، فقد أثنى الله على صفاتهم في القرآن:

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر ٥٩: ٩) – تفسير ابن كثير ٥٩: ٩.

تصف هذه الآية خُلُق الإيثار: تقديم الغير مع الحاجة. وفي الجعرانة امتُحن هذا الخلق مرّةً أخرى: رأوا غيرهم يُعطى وهم لا يُعطَون. فلمّا سمعوا بيان رسول الله ﷺ عادوا إلى سجيّتهم: الرضا والإيثار.

وأعلن الله رضاه عنهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة ٩: ١٠٠) – تفسير ابن كثير ٩: ١٠٠.

وفد هوازن التائب

وأخيرًا أثمر انتظار رسول الله ﷺ. فبعد القسمة قدم **وفد هوازن** الجعرانة – لا أعداءً هذه المرّة، بل **مسلمين تائبين** – يسألون أن يُردّ إليهم أهلوهم وأموالهم. يروي مروان بن الحكم والمِسْوَر بن مَخْرَمة:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٢٣٠٧

حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ، قَالَ حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، قَالَ حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ وَزَعَمَ عُرْوَةُ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ، وَالْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ، أَخْبَرَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «أَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ. فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ إِمَّا السَّبْيَ، وَإِمَّا الْمَالَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ». وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم انْتَظَرَهُمْ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلاَّ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ قَالُوا فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي الْمُسْلِمِينَ، فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلاَءِ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ بِذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ». فَقَالَ النَّاسُ قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «إِنَّا لاَ نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعُوا إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ». فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا.

السند رواه الإمام البخاري: عن سعيد بن عُفَير، عن الليث بن سعد، عن عُقيل بن خالد، عن ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن مروان بن الحكم والمِسْوَر بن مَخْرَمة رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا وهب شيئًا لوكيل، حديث رقم ٢٣٠٧؛ وانظر أيضًا ٢٥٣٩ و٢٥٨٣ و٣١٣١ و٤٣١٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:2307

دروسٌ من هذا الحديث

من كتب السيرة: حليمة وقوم الرضاعة

روى أهل السيرة أنّ خطيب هوازن **زهير بن صُرَد** قال لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، إنّما في الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك». وذلك أنّ حليمة السعديّة مرضعته من بني سعد، وهم بطنٌ من هوازن. فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ**». وتبعه المهاجرون والأنصار فقالوا: «وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.»

هذه التفاصيل من روايات كتب السيرة (ابن إسحاق)؛ أمّا ردّ سبي هوازن فصحيحٌ في صحيح البخاري ٢٣٠٧.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة حنين وقسمة الغنائم بالجعرانة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

تأمّل قول رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ**». فقد صارحهم بأنّه لا يمكن ردّ السبي والمال جميعًا، لأنّ حقّ الجيش يجب أن يُحفظ، ولم يعدهم وعدًا كاذبًا يرضيهم به. فاختارت هوازن **الأهل**، وفي اختيارها بيانُ القيمة الحقيقيّة في قلوب الناس.

رابطة الرضاعة مع هوازن

لم تكن علاقة رسول الله ﷺ بهوازن علاقة غالبٍ بمغلوب فحسب، فعن طريق **حليمة السعديّة** مرضعته من بني سعد كانت له **رابطة رضاعة** بهذه القبيلة. وقد قضى سنوات طفولته الأولى في ديار بني سعد، في البادية النقيّة الهواء.

من كتب السيرة: رداءٌ يُبسط لامرأةٍ عجوز

روى أبو الطفيل رضى الله عنه أنّه رأى رسول الله ﷺ يقسم لحمًا بالجعرانة، فأقبلت امرأةٌ، ف**بسط لها رداءه** فجلست عليه. قال: فقلت: من هي؟ قالوا: «**هَذِهِ أُمُّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ**» (سنن أبي داود ٥١٤٤)

حكم الشيخ الألبانيّ على هذا الحديث بأنّه **ضعيف**، ولذلك وُضع في هذا الصندوق. واختلف العلماء: أهي حليمة نفسها، أم أخته من الرضاعة الشيماء (الحلقة الثانية والعشرون)؟

المرجع:
الألبانيّ، ضعيف سنن أبي داود.

ومع ضعف إسناده فهو موافقٌ لما ثبت من خُلُق رسول الله ﷺ: **إكرام من أسدى إليه معروفًا** ولو بعد عشرات السنين. وكانت رابطة الرضاعة هذه من أسباب رجائه الشديد أن تأتي هوازن تائبة، ومن أسباب كرمه البالغ حين جاءت.

والعبرة: **لا تنسَ فضل من ربّاك** – الوالدين والحاضنة والمعلّم وكلّ من أحسن إليك صغيرًا. فالمنزلة العالية ينبغي ألّا تُنسينا أصولنا.

العدل في ردّ السبي

كانت طريقة رسول الله ﷺ في ردّ سبي هوازن درسًا فريدًا في **الإدارة والعدل**. فقد صار السبي حقًّا للجيش، ولم يأخذه رسول الله ﷺ منهم قسرًا مع قدرته على ذلك.

الخطوة	التفاصيل
١. تخيير صادق	السبي أو المال، لا كلاهما
٢. عرض الاقتراح	خطب فيهم وبيّن
٣. الرضا	من طابت نفسه فليفعل
٤. التعويض	من لم تطب نفسه يُعوَّض من أوّل فيء
٥. التوثّق عن طريق النوّاب	العُرَفاء يرفعون القرار

والخطوة الخامسة بالغة الأهمّيّة. فمع أنّ الناس هتفوا «قد طيّبنا»، لم يكتفِ رسول الله ﷺ بأصوات الجمع، بل قال: «**إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ**». ثمّ طلب أن يتشاور كلّ فريقٍ مع عريفه، فرفع العرفاء القرار. وبذلك صِين **حقّ كلّ فرد**.

وجعل العلماء هذا الحديث دليلًا على **نظام النيابة** وأهمّيّة **الرضا الحقيقيّ** في الأمور المتعلّقة بحقوق الناس، وقد ترجم له الإمام البخاري في كتاب الوكالة وباب العرفاء. فقبل نحو أربعة عشر قرنًا علّم رسول الله ﷺ أنّ حقّ الفرد لا يُؤخذ بهتاف الأغلبيّة.

إسلام مالك بن عوف

وماذا عن **مالك بن عوف**، القائد الشابّ الذي قاد هوازن في حنين ثمّ تحصّن بالطائف؟

من كتب السيرة: القائد الذي صار صحابيًّا

روى أهل السيرة أنّ رسول الله ﷺ سأل وفد هوازن عن مالك بن عوف، فأخبروه أنّه بالطائف مع ثقيف، فقال: «**أخبروه أنّه إن أتاني مسلمًا رددتُ عليه أهله وماله وأعطيته مائةً من الإبل**»

فخرج مالك من الطائف سرًّا، ولحق برسول الله ﷺ بالجعرانة أو بمكّة فأسلم، فردّ عليه أهله وماله وأعطاه مائةً من الإبل، **واستعمله على من أسلم من قومه**. فكان يقاتل بهم ثقيفًا حتّى ضيّق عليهم، وقال يمدح رسول الله ﷺ: «ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله في الناس كلّهمُ بمثل محمّدِ».

هذه القصّة **من روايات كتب السيرة** (ابن إسحاق).

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة حنين وقسمة الغنائم بالجعرانة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

ابن حجر، الإصابة – ترجمة مالك بن عوف النَّصْريّ.

انظر سعة رحمة رسول الله ﷺ. فمالك بن عوف **قائد العدوّ** الذي كاد يهزم جيش الإسلام، ومع ذلك لم يعفُ عنه فحسب، بل ردّ إليه مكانته. فقد كان رسول الله ﷺ يرى **الإمكانات** في المرء لا أخطاءه فقط؛ فالقائد الذي يقدر على تحريك قبيلته ضدّ الإسلام يقدر على تحريكها لنصرته.

العمرة من الجعرانة

بعد أن انتهى أمر الغنائم لم يرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مباشرة، بل **أحرم من الجعرانة** بالعمرة. وقد عدّها أنس رضى الله عنه من عُمَر رسول الله ﷺ:

حديث – صحيح البخاري، رقم ١٧٧٨

حَدَّثَنَا حَسَّانُ بْنُ حَسَّانٍ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، سَأَلْتُ أَنَسًا ـ رضى الله عنه ـ كَمِ اعْتَمَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قَالَ أَرْبَعٌ عُمْرَةُ الْحُدَيْبِيَةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، حَيْثُ صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ، وَعُمْرَةٌ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، حَيْثُ صَالَحَهُمْ، وَعُمْرَةُ الْجِعْرَانَةِ إِذْ قَسَمَ غَنِيمَةَ أُرَاهُ حُنَيْنٍ. قُلْتُ كَمْ حَجَّ قَالَ وَاحِدَةً.

السند رواه الإمام البخاري: عن حسّان بن حسّان، عن همّام بن يحيى، عن قتادة بن دِعامة، عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العمرة، باب كم اعتمر النبيّ ﷺ، حديث رقم ١٧٧٨؛ وانظر أيضًا ١٧٧٩ و١٧٨٠، وأخرجه مسلم برقم ١٢٥٣.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1778

دروسٌ من هذا الحديث

قال أنس «أربع» ولم تذكر هذه الرواية إلّا ثلاثًا، والرابعة هي التي كانت مع **حجّة الوداع**، كما في روايات أخرى في صحيح البخاري (١٧٧٩-١٧٨٠). وكانت عُمَر رسول الله ﷺ كلّها في **ذي القعدة**.

من كتب السيرة: العمرة ليلًا

روى مُخَرِّش الكعبيّ رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ خرج من الجعرانة **ليلًا** محرمًا، فدخل مكّة فقضى عمرته، ثمّ خرج من ليلته فأصبح بالجعرانة **كبائت**) جامع الترمذي ٩٣٥، وصحّحه الألبانيّ).

قال الترمذي: حسنٌ غريب؛ ولذلك وُضع في هذا الصندوق.

المرجع:

الألبانيّ، صحيح سنن الترمذي.

بعد الحرب والقسمة والتهمة والمقالة والخطبة ختم رسول الله ﷺ ذلك كلّه **بالعبادة.** فلم يُلهه النصر والمال عن الرجوع إلى الله. واليوم لا يزال **مسجد الجعرانة** قائمًا، وهو من المواضع التي يُحرم منها أهل مكّة للعمرة، اتّباعًا لسنّة رسول الله ﷺ.

العودة إلى المدينة

وبعد العمرة رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مع المهاجرين والأنصار – كما وعد في قبّة الأدم تمامًا: رجع الأنصار **برسول الله ﷺ إلى رحالهم.** وعند أهل السيرة أنّه قدم المدينة في أواخر ذي القعدة سنة ثمانٍ للهجرة، بعد أن خرج منها في رمضان، أي نحو ثلاثة أشهر.

واستخلف على مكّة **عَتّاب بن أَسِيد** أميرًا، وترك **معاذ بن جبل** يعلّم أهلها القرآن والأحكام (عند أهل السيرة). فالمدينة التي كانت مركز العداوة صار يقودها شابٌّ مسلم، ويعلّمها أعلم الصحابة بالحلال والحرام.

كانت سنة ثمانٍ للهجرة سنةً فريدة: مؤتة، وفتح مكّة، وحنين، والطائف، والجعرانة. وتغيّرت جزيرة العرب سريعًا. وستأتي السنة التاسعة بامتحانٍ جديد – **غزوة تبوك** في مواجهة الروم في حرّ الصيف – وكذلك **عام الوفود** حين جاءت القبائل من أرجاء العرب تُسلم.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

المال والقلب

قصّة الجعرانة قصّة **العلاقة بين المال والقلب.** ويلخّص الجدول التالي كيف امتُحنت كلّ فئة وكيف أجابت:

الفئة	الامتحان ونتيجته
الأشراف حديثو الإسلام	أعطوا المال ← لانت القلوب (صفوان)
الرجل المتّهِم	لم يُعطَ ← اتّهم بعدم العدل
الأنصار	لم يُعطَوا ← وجدوا في أنفسهم ← رضوا وبكوا
هوازن	فقدت كلّ شيء ← تابت ← رجع الأهل
مالك بن عوف	قائد العدوّ ← أسلم ← رجع سيّدًا
رسول الله ﷺ	أعطى عطاءَ من لا يخشى الفقر، ولم يأخذ لنفسه

ومن هذا الجدول نرى أنّ **المال امتحانٌ ذو وجهين:** فمن أُعطي إمّا أن يقوده إلى الشكر أو إلى الطمع، ومن مُنع إمّا أن يقوده إلى الرضا أو إلى الحسد. ومن أعطى إمّا أن يكون مخلصًا لله أو لمصلحة نفسه.

وقد دلّ الله على الطريق الأفضل: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ**﴾ (التوبة ٩: ٥٩) — تفسير ابن كثير ٩: ٥٩.

مصادر القصّة

قصّة الجعرانة مرويّةٌ بأحاديث صحيحة كثيرة، وتكمّلها روايات السيرة. ويفرّق الجدول التالي بينهما:

الحدث	المصدر والدرجة
انتظار هوازن بضع عشرة ليلة	صحيح البخاري ٢٣٠٧
العطاء للمؤلَّفة قلوبهم	صحيح البخاري ٣١٥٠، ٤٣٣٠؛ مسلم ١٠٦٠
صفوان: من البغض إلى الحبّ	صحيح مسلم ٢٣١٣
«اعدل!»	صحيح البخاري ٣١٣٨؛ مسلم ١٠٦٣
خطبة الأنصار	صحيح البخاري ٤٣٣٠، ٤٣٣١
ردّ سبي هوازن	صحيح البخاري ٢٣٠٧
العمرة من الجعرانة	صحيح البخاري ١٧٧٨
كلمة سعد، دموع الأنصار	مسند أحمد، حسّنه بعضهم
إعطاء يزيد ومعاوية	كتب السيرة
إسلام مالك بن عوف	كتب السيرة

الإطار الأساسيّ للقصّة — العطاء للمؤلَّفة، وتهمة الجور، وخطبة الأنصار، وردّ سبي هوازن، والعمرة من الجعرانة — **ثابتٌ بالأحاديث الصحيحة.** وما سوى ذلك ننقله بأمانة على أنّه من روايات السيرة.

آيات القرآن في المال والعطاء والعدل

ذُكرت في هذه الحلقة آياتٌ من القرآن في مواضع متفرّقة، ويجمعها هذا الفصل في جدولٍ واحد مع آيةٍ لم تُناقش بعد: التوبة ٩: ٥٨. ويبيّن العمود الأخير صلة كلّ آيةٍ بأحداث الجعرانة: أهي مذكورة في حديثٍ صحيح، أم مجرّد صلةٍ موضوعيّة.

الآية	المضمون باختصار	الصلة بالجعرانة
الأنفال ٨: ١	الأنفال لله والرسول	أصل حكم القسمة (الفصل ٤)
الأنفال ٨: ٤١	الخمس لله وللرسول ولأصنافٍ معيّنة	أصل حكم القسمة (الفصل ٤)
التوبة ٩: ٥٨	منهم من يلمز في الصدقات، إن أُعطوا رضوا وإن لم يُعطَوا سخطوا	ذُكرت في صحيح البخاري ٦٩٣٣ بعد قصّة الرجل الذي قال «اعدل» (الفصلان ١٢–١٣)
التوبة ٩: ٥٩	لو أنّهم رضوا وقالوا: «حسبنا الله»	صلة موضوعيّة (الفصل ٢٩)
التوبة ٩: ٦٠	مصارف الزكاة الثمانية، ومنها المؤلَّفة قلوبهم	صلة موضوعيّة؛ أصل سهم المؤلَّفة (الفصلان ٥ و٣٣)
الأحزاب ٣٣: ٦٩	لا تكونوا كالذين آذوا موسى	تذكّر رسول الله ﷺ صبر موسى (صحيح البخاري ٣١٥٠؛ الفصل ١٤)
آل عمران ٣: ١٠٣ والأنفال ٨: ٦٣	الله هو الذي يؤلّف بين القلوب	خطبة الأنصار (الفصل ١٨)
الحشر ٥٩: ٩ والتوبة ٩: ١٠٠	ثناء الله على الأنصار	صلة موضوعيّة (الفصل ٢٢)
سبأ ٣٤: ٣٩	وما أنفقتم من شيءٍ فهو يُخلفه	صلة موضوعيّة: كرم رسول الله ﷺ (الفصل ٧)

التوبة ٩: ٥٨: الذين يلمزون في القسمة

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة ٩: ٥٨).

وفي روايةٍ لأبي سعيد الخدريّ رضى الله عنه عن الرجل الذي قال لرسول الله ﷺ: «اعدل!»، ذُكر في آخرها أنّ هذه الآية نزلت فيهم (صحيح البخاري ٦٩٣٣). وكما مرّ في الفصل ١٣ ناقش ابن حجر أهو رجل الجعرانة نفسه أم حادثةٌ أخرى. وعلى كلّ حال فالآية تصف ذلك الموقف بدقّة.

وتدلّ الآية التالية (٩: ٥٩) على المخرج: الرضا بما آتاه الله ورسوله، وقول «حسبنا الله». وهاتان الآيتان معًا مرآةٌ لكلّ من أُعطي أو مُنع.

العبرة

يظهر مقياس إخلاص المرء حين يُمنع. فإن كان رضاه معلّقًا بالعطاء فقلبه ما زال متعلّقًا بالدنيا. ومن قال «حسبي الله» فهو أغنى الناس ولو كانت يده فارغة.

أصحاب العطايا الكبيرة ومصائرهم

من الذين أخذوا العطايا الكبيرة في الجعرانة، وما الذي صار إليه أمرهم بعد ذلك؟ يجيب هذا الجدول. الأسماء الأربعة الأولى مذكورة في الحديث الصحيح، والباقون ذكرهم أهل السيرة كابن إسحاق. أمّا مصائرهم فمن كتب التراجم كالإصابة لابن حجر.

الاسم	القبيلة / الصلة	العطاء	المصير (كتب التراجم)
أبو سفيان بن حرب	قريش (بنو أميّة)؛ والد معاوية ويزيد	مائة من الإبل (صحيح مسلم ١٠٦٠)	ثبت على الإسلام؛ وذهبت عينه في الجهاد
صفوان بن أميّة	قريش (بنو جُمَح)؛ ابن أميّة بن خلف	مائة من الإبل (صحيح مسلم ١٠٦٠، ٢٣١٣)	حسن إسلامه؛ ومات بمكّة
عُيَينة بن حِصن	غطفان (بنو فزارة)	مائة من الإبل (صحيح مسلم ١٠٦٠)	اتّبع المرتدّين بعد وفاة رسول الله ﷺ، ثمّ عاد إلى الإسلام
الأقرع بن حابس	بنو تميم (بنو دارم)	مائة من الإبل (صحيح مسلم ١٠٦٠)	ثبت على الإسلام؛ وشهد الفتوح
العبّاس بن مرداس	بنو سُلَيم؛ شاعر	دون المائة ثمّ أتمّت بعد شعره (صحيح مسلم ١٠٦٠؛ الفصل ١٠)	ثبت على الإسلام
حكيم بن حِزام	قريش (بنو أسد)؛ ابن أخي خديجة رضى الله عنها	سأل فأعطي مرارًا (صحيح البخاري ١٤٧٢؛ الفصل ٩)	أقسم ألّا يسأل أحدًا شيئًا حتّى مات

الاسم	القبيلة / الصلة	العطاء	المصير (كتب التراجم)
معاوية ويزيد ابنا أبي سفيان	قريش (بنو أميّة)؛ ابنا أبي سفيان	مائة من الإبل لكلٍّ منهما (كتب السيرة؛ الفصل ٨)	قاد يزيد الجيوش في الشام ومات بها؛ وصار معاوية خليفةً بعد ذلك
سهيل بن عمرو	قريش (بنو عامر بن لؤيّ)؛ والد أبي جندل	مذكورٌ في قائمة أهل السيرة	جاهد في الشام ومات بها
الحارث بن هشام	قريش (بنو مخزوم)؛ أخو أبي جهل	مذكورٌ في قائمة أهل السيرة	جاهد في الشام ومات بها
مالك بن عوف النَّصْري	هوازن (بنو نَصْر)	رُدّ إليه أهله وماله، ومائة من الإبل (كتب السيرة؛ الفصل ٢٦)	قاد من أسلم من قومه، وشهد فتوح العراق

من كتب السيرة: قوائم مختلفة

لم يتّفق أهل السيرة على القائمة الكاملة لأصحاب العطايا الكبيرة؛ فقد ذكر ابن إسحاق نحو خمسة عشر اسمًا، وزادت رواياتٌ أخرى ونقصت. والثابت يقينًا في الحديث الصحيح هو الأسماء في صحيح مسلم ١٠٦٠، وقصّتا صفوان وحكيم.

لُخّصت مصائر هؤلاء من كتب التراجم كالإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، والاستيعاب لابن عبد البرّ. أمّا تواريخ وفاتهم وأماكنها ففيها خلاف، فلم نذكرها هنا.

كرمٌ أسلم به قومٌ بأسرهم

ولا يقف أثر مثل هذا العطاء عند من أخذه. فقد روى أنس رضى الله عنه أنّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: «أَيْ قَوْمِ، أَسْلِمُوا، فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ» (صحيح مسلم ٢٣١٢).

وزاد أنس أنّ الرجل كان يُسلم ما يريد إلّا الدنيا، فما يُسلم حتّى يكون الإسلام أحبّ إليه من الدنيا وما عليها (في الرواية نفسها). وهذا ما وقع لأكثر أصحاب العطايا في الجعرانة.

العبرة

القلوب تتغيّر. فالرجل الذي جاء من أجل الإبل قد يرجع بالإيمان، وقائد العدوّ قد يصير قائدًا للمسلمين. والداعية الحكيم لا يحكم على المرء بنقطة بدايته، بل يفسح للهداية أن تنمو.

المؤلَّفة قلوبهم بعد عهد رسول الله ﷺ

بيّن الفصل ٥ أنّ المؤلَّفة قلوبهم أحد مصارف الزكاة الثمانية في التوبة ٩: ٦٠. والسؤال الذي نشأ بعد وفاة رسول الله ﷺ: هل يبقى هذا السهم أبدًا؟ وقد ناقشه العلماء بعناية، وكثيرًا ما يُربط النقاش بموقفٍ لعمر بن الخطّاب رضى الله عنه.

من كتب السيرة: عمر وسيّدا القبيلتين

رُوي أنّ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس جاءا أبا بكر رضى الله عنه في خلافته فسألاه أرضًا، فكتب لهما بها. فلمّا رآه عمر لم يرضَه، وقال لهما: إنّ رسول الله ﷺ كان يتألّفكما والإسلام يومئذٍ قليل، وإنّ الله قد أعزّ الإسلام.

رواه ابن أبي شيبة والبيهقيّ، وتكلّم أهل الحديث في إسناده، وعدّه بعضهم منقطعًا. فننقله خبرًا تاريخيًّا لا نصًّا قاطعًا.

هل نسخ عمر الآية؟

الجواب: لا. فلا يملك أحدٌ بعد رسول الله ﷺ نسخ آيةٍ من القرآن. وقد بيّن العلماء أنّ عمر نظر إلى علّة العطاء – الحاجة إلى تأليف القلوب لقوّة الإسلام – فرآها غير قائمةٍ في هذين الرجلين يومئذٍ، فإذا عادت العلّة عاد الحكم. وهذا قول كثيرٍ من العلماء قديمًا وحديثًا.

المذهب	خلاصة القول في سهم المؤلَّفة
الحنفيّ	سقط هذا السهم لعزّة الإسلام؛ واستدلّوا بفعل عمر والصحابة
المالكيّ	قولان؛ والمشهور: يُعطى عند وجود الحاجة
الشافعيّ	لا يُعطى الكافر من الزكاة؛ ويُعطى المؤلَّف المسلم لتثبيت إيمانه أو لترغيب قومه
الحنبليّ	السهم باقٍ، ويُعطى عند الحاجة، ولو لتأليف القلب أو كفّ الشرّ

هذه الخلاصة من المغني لابن قدامة، وبداية المجتهد لابن رشد. وتفاصيل كلّ مذهبٍ أوسع ممّا يتّسع له جدول.

المؤلَّفة قلوبهم في ماليزيا اليوم

في ماليزيا يُعدّ المؤلَّفة قلوبهم (المهتدون الجدد) أحد مصارف الزكاة عبر مؤسّسات الزكاة في الولايات، وتُصرف المساعدة في التعليم الدينيّ وحاجات المعيشة وإرشاد المهتدين الجدد. ويمكن قراءة دراسة حالةٍ عن إدارة زكاة المؤلَّفة في ولاية سلانجور على موقع Emerald Insight. وهذا يدلّ على أنّ روح الجعرانة ما زالت حيّة: إكرام الداخلين الجدد في الإسلام وتثبيتهم.

العبرة

لأحكام الإسلام مقاصد، وقد فهم الصحابة هذه المقاصد بعمق. وفهم علّة الحكم ليس تغييرًا للدين، بل تطبيقٌ له بحكمة. وإخواننا المهتدون اليوم هم «المؤلَّفة قلوبهم» الذين يستحقّون الإكرام والإرشاد والعون.

الجعرانة بين الأمس واليوم

الجِعْرانة وادٍ شمال شرقيّ مكّة، على نحو ٢٥ كيلومترًا من المسجد الحرام (Discover Makkah). وتقع خارج الحرم على الطريق القديم بين مكّة والطائف. فيها جُمع سبي حنين وغنائمه، وفيها أُلقيت خطبة الأنصار، ومنها أحرم رسول الله ﷺ بالعمرة (صحيح البخاري ١٧٧٨).

المكان	الحدث في السيرة	اليوم
الجِعْرانة	قسمة غنائم حنين؛ خطبة الأنصار؛ عمرة رسول الله ﷺ	مسجد الجعرانة؛ ميقاتٌ لأهل مكّة الذين يريدون العمرة
التنعيم	أحرمت عائشة رضى الله عنها منه بالعمرة في حجّة الوداع (الحلقة الثامنة والعشرون)	مسجد عائشة؛ أقرب مواضع الإحرام إلى المسجد الحرام
الحديبية	صلح الحديبية (الحلقة الخامسة عشرة)	منطقة الشَّمَيسي؛ وهي أيضًا موضع إحرامٍ لأهل مكّة
وادي حُنين	غزوة حنين (الحلقة الثانية والعشرون)	وادٍ شرقيّ مكّة؛ لا يُعرف موضعه بدقّة
الطائف	حصار الطائف (الحلقة الثانية والعشرون)	مدينةٌ في جبال السَّرَوات

الإحرام من الجعرانة

من كان بمكّة وأراد العمرة فعليه أن يخرج إلى الحِلّ (خارج الحرم) ليُحرم. والجعرانة من المواضع المختارة لأنّ رسول الله ﷺ نفسه أحرم منها. وذكر فقهاء الشافعيّة أنّ أفضل مواضع إحرام المكّيّ بالعمرة الجعرانة، ثمّ التنعيم، ثمّ الحديبية. ويمكن قراءة نقاش هذه المسألة في فتوى إسلام ويب.

وكثيرٌ من المعتمرين من ماليزيا الذين يؤدّون عمرةً ثانيةً أو ثالثةً وهم بمكّة يُؤخذون إلى الجعرانة أو التنعيم. فإذا وقفتَ في مسجد الجعرانة فتذكّر أنّ في هذا الوادي بكى الأنصار حتّى أخضلوا لحاهم، وفيه ختم رسول الله ﷺ النصر بالعبادة.

العبرة

أماكن السيرة ليست مجرّد مقاصد سياحيّة، بل هي فصلٌ حيٌّ في التاريخ. فالمعتمر الذي يعرف قصّة المكان يجد عبادته أعمق معنًى من الذي يتبع الرحلة فحسب.

الخطّ الزمنيّ: من حنين إلى المدينة

يرتّب الجدول التالي الأحداث من غزوة حنين حتّى رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة. وأكثر التواريخ الدقيقة من كتب السيرة، ولا سيّما ابن سعد والواقديّ، فتُقرأ على أنّها تقريبيّة.

الزمن (سنة ٨ هـ)	الحدث	المصدر
أوائل شوّال	خروج جيش الإسلام من مكّة إلى حنين	كتب السيرة (ابن إسحاق)
شوّال	غزوة حنين وسريّة أوطاس (الحلقة الثانية والعشرون)	صحيح البخاري ٤٣٢٣؛ صحيح مسلم ١٧٧٥
شوّال – أوائل ذي القعدة	حصار الطائف (الحلقة الثانية والعشرون)	صحيح البخاري ٤٣٢٥؛ ومدّته مختلفٌ فيها
أوائل ذي القعدة	الوصول إلى الجعرانة، وقد جُمعت غنائم حنين وسبيها	كتب السيرة (ابن سعد)
بضع عشرة ليلة	انتظار رسول الله ﷺ هوازن لتأتي تائبة	صحيح البخاري ٢٣٠٧
ذو القعدة	قسمة الغنائم؛ العطايا الكبيرة للمؤلَّفة	صحيح مسلم ١٠٦٠؛ صحيح البخاري ٣١٥٠
ذو القعدة	رجلٌ يتّهم القسمة بالجور	صحيح البخاري ٣١٣٨
ذو القعدة	خطبة الأنصار في قبّة الأَدَم	صحيح البخاري ٤٣٣٠، ٤٣٣١
ذو القعدة	وفد هوازن التائب؛ ردّ السبي	صحيح البخاري ٢٣٠٧
ذو القعدة	قدوم مالك بن عوف وإسلامه	كتب السيرة
ليلة منتصف ذي القعدة	العمرة من الجعرانة ليلًا	صحيح البخاري ١٧٧٨؛ جامع الترمذي ٩٣٥

الزمن (سنة ٨ هـ)	الحدث	المصدر
ذو القعدة	تولية عَتّاب بن أَسِيد أميرًا على مكّة، ومعاذ بن جبل معلّمًا	كتب السيرة
أواخر ذي القعدة	وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة	كتب السيرة
ذو الحجّة	عَتّاب بن أَسِيد يقيم موسم الحجّ بمكّة	كتب السيرة
رجب سنة ٩ هـ	غزوة تبوك (الحلقة الرابعة والعشرون)	صحيح البخاري، كتب السيرة

العبرة

في أقلّ من ثلاثة أشهر مرّ رسول الله ﷺ بحربٍ وحصارٍ وقسمةٍ وتهمةٍ وخطبةٍ ومفاوضةٍ وعبادةٍ وتوليةٍ للأمراء، فأنهى كلّ أمرٍ بصبرٍ ونظام. فالقائد الصالح لا يتعجّل، ولا يترك الأمور معلّقة.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

أسئلة شائعة عن غنائم حنين

هذه اثنا عشر سؤالًا كثيرًا ما تُطرح عن أحداث الجعرانة، مع أجوبةٍ موجزة وإحالةٍ إلى الفصول ذات الصلة.

١. هل كان العطاء للمؤلَّفة نوعًا من الرشوة؟

لا. فالرشوة عطاءٌ لإبطال حقٍّ أو لنيل ما ليس بحقّ. أمّا عطاء رسول الله ﷺ فكان لتثبيت الإيمان وإنقاذ الناس من النار، كما قال في صحيح البخاري ٢٧ (الفصل ٥).

٢. لماذا لم يُعطَ الأنصار نصيبًا كبيرًا؟

لأنّ إيمانهم راسخ. فقد بيّن رسول الله ﷺ أنّه يعطي حديثي العهد بالكفر يتألّفهم، والأنصار يرجعون برسول الله ﷺ إلى رحالهم (صحيح البخاري ٤٣٣٠، ٤٣٣١؛ الفصل ١٧).

٣. هل نزلت التوبة ٩: ٥٨ في الرجل الذي اتّهم بعدم العدل؟

في رواية أبي سعيد الخدريّ أنّ هذه الآية نزلت في ذلك الرجل وأصحابه (صحيح البخاري ٦٩٣٣؛ الفصل ٣١).

٤. من الذين أُعطوا مائةً من الإبل؟

ذكر صحيح مسلم ١٠٦٠ أبا سفيان، وصفوان بن أميّة، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس. وأُعطي العبّاس بن مرداس دون ذلك ثمّ أُتمّ له. وذكر أهل السيرة أسماءً أخرى (الفصل ٣٢).

٥. هل بقي سهم المؤلَّفة من الزكاة اليوم؟

يرى الجمهور أنّه باقٍ عند وجود الحاجة، ويرى الحنفيّة أنّه لم يعد يُعطى. وفي ماليزيا يُعدّ المهتدون الجدد من مصارف الزكاة (الفصل ٣٣).

٦. هل أوقف عمر سهم المؤلَّفة؟

رُويت قصّة عمر مع عيينة والأقرع عند ابن أبي شيبة والبيهقيّ، وفي إسنادها كلام. وبيّن العلماء أنّ عمر لم ينسخ الآية، بل رأى علّة العطاء غير قائمةٍ فيهما (الفصل ٣٣).

٧. لماذا انتظر رسول الله ﷺ هوازن بضع عشرة ليلة؟

كان يرجو أن يأتوا تائبين فيُردّ إليهم أهلهم وأموالهم، وفي هذا الانتظار بيانُ رحمته (صحيح البخاري ٢٣٠٧؛ الفصل ٢).

٨. كيف رُدّ سبي هوازن بالعدل؟

طلب رسول الله ﷺ من الصحابة أن يردّوا سبيهم عن طيب نفس، ومن أراد العوض أُعطيه من أوّل فيءٍ يفيء الله به (صحيح البخاري ٢٣٠٧؛ الفصل ٢٥).

٩. لماذا كانت العمرة من الجعرانة ليلًا؟

روى مُخَرِّش الكعبيّ أنّه خرج ليلًا ورجع قبل الصبح، فخفيت على كثيرٍ من الناس، ولذلك لم يعدّها بعضهم (جامع الترمذي ٩٣٥؛ الفصل ٢٧).

١٠. أين تقع الجعرانة اليوم؟

تقع شمال شرقيّ مكّة، على نحو ٢٥ كيلومترًا من المسجد الحرام، ومسجد الجعرانة ميقاتٌ لأهل مكّة الذين يريدون العمرة (الفصل ٣٤).

١١. ما صلة رسول الله ﷺ بهوازن؟

مرضعته حليمة من بني سعد، وهم بطنٌ من هوازن، وقد احتجّ وفد هوازن برابطة الرضاعة هذه (سنن أبي داود ٥١٤٤؛ الفصل ٢٤).

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

١٢. ما أهمّ عبرةٍ في هذه القصّة لقادة اليوم؟

على القائد أن يعدل، والعدل لا يعني المساواة دائمًا. فالعطاء يُرتَّب بحسب الحاجة والغاية، وعلى القائد أن يبيّن قراره لمن وجد في نفسه، كما بيّنه رسول الله ﷺ للأنصار.

العبرة

تذكّرنا هذه الأسئلة بالتفريق بين القرآن، والحديث الصحيح، وروايات كتب السيرة، وأقوال العلماء. فإطار قصّة الجعرانة ثابتٌ بالحديث الصحيح، وأمّا تفاصيل الأسماء والتواريخ والأعداد فننقلها بحسب درجتها.

الدروس والخاتمة

الجعرانة «مدرسةٌ» في **القيادة والعدل والإخلاص.** فيها علّم رسول الله ﷺ كيف يُستعمل المال لتأليف القلوب، وكيف تُواجه التهمة بالصبر، وكيف تُطمأن قلوب الأوفياء الذين وجدوا في أنفسهم.

العبرة	من الجعرانة
المال جسرًا	المؤلَّفة: عطاءٌ لتأليف القلوب
عطاءُ من لا يخشى الفقر	ثلاثمائة من الإبل لصفوان
الصبر على التهمة	«يرحم الله موسى»
الحذر من الغلوّ	بذرة الخوارج
العتاب في خلوة	الخطبة في قبّة الأَدَم
الميزان الحقّ للقِيَم	الشاء والبعير أم رسول الله ﷺ؟
الصبر حتّى الحوض	الوصيّة في الأَثَرة
الصدق والرضا	ردّ سبي هوازن
الختام بالعبادة	العمرة من الجعرانة

الجعرانة في حياتنا

قد لا نُعطى مائةً من الإبل، لكنّنا نُمتحن كلّ يومٍ بـ**المقارنة**: غيرنا يأخذ أكثر، ويُرقّى، ويُمدح، ونحن لا. ففي تلك اللحظة تذكّر سؤال رسول الله ﷺ للأنصار: «**أَلَا تَرْضَوْنَ...؟**» فإن رجعنا بالإيمان والسنّة وحبّ رسول الله ﷺ فقد رجعنا بما هو أنفس بكثير.

إن شاء الله تستمرّ سلسلة **السيرة النبوية** بـ**الحلقة الرابعة والعشرين — غزوة تبوك**: الخروج لملاقاة الروم في حرّ الصيف، و«جيش العسرة»، وإنفاق أبي بكر وعمر وعثمان، والمنافقين المعتذرين، والسفر الطويل إلى الشمال. والله أعلم.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

المراجع — الْحَلْقَةُ ٢٣

القرآن الكريم والتفسير

القرآن الكريم، بالرسم العثماني. https://quran.com/ms

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (آل عمران ٣: ١٠٣؛ الأنفال ٨: ١، ٨: ٤١، ٨: ٦٣؛ التوبة ٩: ٥٩–٦٠، ٩: ١٠٠؛ الأحزاب ٣٣: ٦٩؛ الحشر ٥٩: ٩). https://tafsir.app/ibn-katheer/9/60

الحديث الشريف

صحيح البخاري ٦، ١٧، ٢٧، ١٤٧٢، ١٧٧٨، ٢٣٠٧، ٢٨٢١، ٣١٣٨، ٣١٤٩، ٣١٥٠، ٣٤٠٥، ٣٦١٠، ٤٣٣٠، ٤٣٣١، ٦٠٣٤. https://sunnah.com/bukhari

صحيح مسلم ١٠٦٠، ١٠٦٣، ٢٣١٢، ٢٣١٣، ٢٥٠٦. https://sunnah.com/muslim

جامع الترمذي ٩٣٥؛ سنن أبي داود ٥١٤٤؛ أحمد، المسند (مسند أبي سعيد الخدريّ). https://sunnah.com

كتب السيرة والشروح

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب قسمة غنائم حنين.

الواقدي، المغازي؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى.

ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن القيّم، زاد المعاد — فصل في حكمة قسمة غنائم حنين.

ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري — كتاب فرض الخمس وكتاب المغازي؛ الإصابة في تمييز الصحابة.

صفيّ الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم — باب قسمة الغنائم بالجعرانة.

التاريخ العامّ

ويكيبيديا، «غزوة حنين». https://en.wikipedia.org/wiki/Battle_of_Hunayn

ويكيبيديا، «Ji'rana». https://en.wikipedia.org/wiki/Ji%27rana

ويكيبيديا، «Ansar (Islam)». (https://en.wikipedia.org/wiki/Ansar_(Islam))

ويكيبيديا، «صفوان بن أميّة». https://en.wikipedia.org/wiki/Safwan_ibn_Umayya

ويكيبيديا، «مالك بن عوف النصري». https://en.wikipedia.org/wiki/Malik_ibn_Awf

ويكيبيديا، «هوازن». https://en.wikipedia.org/wiki/Hawazin

ويكيبيديا، «Khawarij». https://en.wikipedia.org/wiki/Khawarij

أحاديث ومصادر إضافية

صحيح البخاري ٦٩٣٣ (التوبة ٩: ٥٨). https://sunnah.com/bukhari:6933

صحيح مسلم ٢٣١٢ (العطاء عطاءَ من لا يخشى الفقر). https://sunnah.com/muslim:2312a

صحيح مسلم ١٠٦٠ (أصحاب المائة من الإبل). https://sunnah.com/muslim:1060a

صحيح البخاري ٢٣٠٧ (وفد هوازن). https://sunnah.com/bukhari:2307

جامع الترمذي ٩٣٥ (العمرة من الجعرانة ليلًا). https://sunnah.com/tirmidhi:935

القرآن الكريم، التوبة ٩: ٥٨. https://quran.com/9/58

القرآن الكريم، التوبة ٩: ٦٠. https://quran.com/9/60

«Discover Makkah، «Al Jaranah Mosque. https://discovermakkah.sa/en/places-worth-visiting/landmarks/al-jaranah-mosque

إسلام ويب، فتوى في الإحرام من الجعرانة. https://islamweb.net/en/printfatwa.php?id=418057

Managing the Institution of Zakat: Case Study of Muallaf in Selangor, Malaysia. https://emerald.com/insight/content/doi/10.1108/978-1-78635-899-820161016

الْجُزْءُ الثَّالِثُ

غَزْوَةُ تَبُوكَ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ — الْحَلْقَةُ ٢٤

جَيْشُ الْعُسْرَةِ، وَإِنْفَاقُ الصَّحَابَةِ، وَالسَّفَرُ الْبَعِيدُ إِلَى الشَّمَالِ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

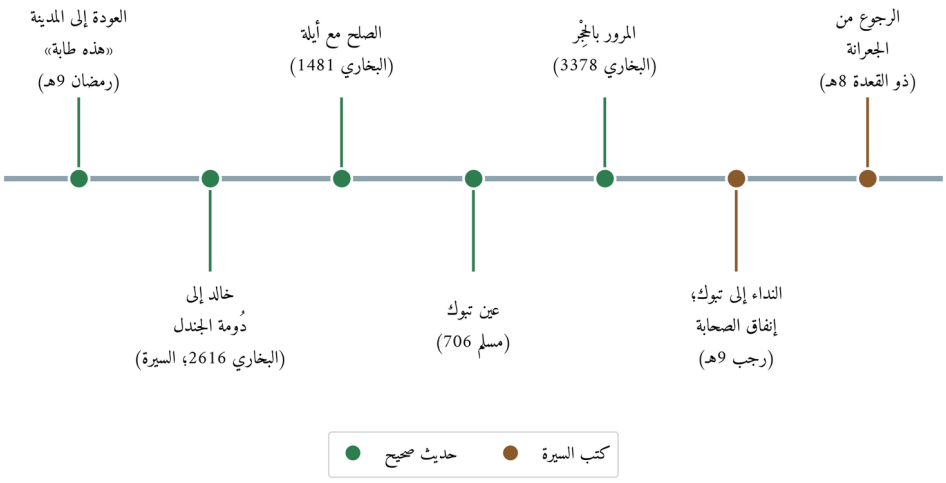
© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

غزوة تبوك

انتهت السنة الثامنة للهجرة بانتصارٍ تلو انتصار: فُتحت مكّة، وكُسبت حنين، وبدأت قبائل العرب تقبل على الإسلام. لكنّ السنة التاسعة حملت امتحانًا من نوعٍ آخر — امتحانًا يميّز من آمن حقًّا ممّن يسير مع التيّار. ذلك الامتحان هو **غزوة تبوك**.

تحكي هذه الحلقة الرابعة والعشرون المسير أكثر من **سبعمائة كيلومتر** شمالًا لملاقاة الروم، في **صيفٍ شديد الحرّ**، حين أوشكت ثمار المدينة أن تطيب. إنّها قصّة **إنفاقٍ** عجيب، ودموع الذين لم يستطيعوا الخروج، وأعذارِ المنافقين، و**المعجزاتِ** على الطريق. أمّا قصّة الثلاثة الذين خُلِّفوا — ومنهم كعب بن مالك — فستأتي في الحلقة الخامسة والعشرين.

الخطّ الزمنيّ لغزوة تبوك



الشهور على ما في كتب السيرة.

الرسم ١: الخطّ الزمنيّ لغزوة تبوك.

تنبيه: درجة كلّ حديث مذكورة في صندوق الحديث. أمّا أخبار كتب السيرة — كخبر حشود الروم، وعذر الجدّ بن قيس، وقصّة أبي ذرّ يمشي وحده — فقد وُضعت في الصندوق البنّيّ «من كتب السيرة»، لأنّ أكثرها مرويّ بلا إسنادٍ متّصل أو بإسنادٍ متكلَّمٍ فيه.

بعد عام الفتح

بعد الرجوع من الجِعْرانة في أواخر السنة الثامنة أقام رسول الله ﷺ بالمدينة أشهرًا. وانتشر الإسلام سريعًا في أرجاء جزيرة العرب، فأقبلت القبائل التي كانت تتربّص من الجنوب إلى الوسط على الإسلام.

لكن في الشمال، على تخوم الشام، كانت تقوم قوّةٌ عظمى من قوى العالم: **الإمبراطوريّة البيزنطيّة الروميّة.** وقبل سنتين واجه ثلاثة آلاف من المسلمين جيش الروم وحلفاءهم من العرب في **مؤتة** (الحلقة ١٩)، واستُشهد الأمراء الثلاثة. ولم يكن الروم ليسكتوا وهم يرون قوّةً جديدة تنشأ جنوب حدودهم.

وقعت غزوة تبوك في **رجب سنة تسعٍ للهجرة** على ما في كتب السيرة. وهي **آخر غزوة** خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه، وأكبر جيشٍ قاده.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

أخبار الشام

من كتب السيرة: حشود الروم

ذكر أهل السير أنّ الخبر بلغ المدينة عن طريق الأنباط الذين كانوا يقدمون بالزيت من الشام: أنّ **الروم قد جمعوا جموعًا كثيرة**، ومعهم قبائل العرب المتنصّرة كلخم وجُذام وعاملة وغسّان، وأنّ مقدّمتهم قد بلغت البلقاء.

وذكر بعض العلماء أنّ الخبر لم يكن دقيقًا تمامًا، إذ لم يجد المسلمون جيش الروم لمّا بلغوا تبوك. وهذه التفاصيل **من روايات كتب السيرة** (الواقدي وابن سعد).

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة تبوك؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

الواقدي، المغازي؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى – غزوة تبوك.

لم ينتظر رسول الله ﷺ أن يأتيه العدوّ إلى المدينة، بل اختار أن **يخرج إليه** على الحدود. ولم يكن هذا القرار خطّةً عسكريّة فحسب، بل كان **رسالةً** إلى العرب والروم جميعًا: أنّ المسلمين لا يهابون ولو واجهوا أعظم قوّةٍ في العالم يومئذٍ.

والعبرة: **الأخبار تحتاج إلى تثبّت**، ولكنّ الحذر يبقى واجبًا. فقد أخذ رسول الله ﷺ بالحيطة بناءً على ما توفّر من معلومات، وجعل الله ذلك المسير مليئًا بالحِكَم وإن لم يقع قتال.

الإعلان الصريح

كان من عادة رسول الله ﷺ إذا أراد غزوةً أن **يُخفي وجهته** – كما رأينا في فتح مكّة (الحلقة ٢٠). أمّا تبوك فكانت مختلفة. يحدّث كعب بن مالك رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوةً إلّا ورّى بغيرها، **حتّى كانت تلك الغزوة**: غزاها في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيدًا ومفازًا، وعدوًّا كثيرًا، **فجلّى للمسلمين أمرهم** ليتأهّبوا أُهْبة غزوهم (صحيح البخاري ٤٤١٨).

فلماذا اختلفت؟ لأنّ **الاستعداد المطلوب كان عظيمًا**. فالسفر البعيد في الصيف يحتاج إلى ماءٍ وزادٍ وإبلٍ وعُدّةٍ كثيرة، ولا بدّ أن يعرف كلّ واحدٍ ما سيواجه ليستعدّ له. ثمّ إنّ الصدق في بيان المشقّة **يُمحّص** الصفوف – فلا يستجيب إلّا المؤمن الصادق.

والعبرة لكلّ قائد: قد يُحتاج أحيانًا إلى **الكتمان**، وقد تكون **الشفافية** أحيانًا أولى. والحكمة أن تعرف متى تستعمل هذا ومتى تستعمل ذاك. وإذا تطلّب أمرٌ تضحيةً كبيرة فمن حقّ الناس أن يعرفوا ما يُطلب منهم.

حرّ الصيف وطِيب الثمار

جاء النداء إلى تبوك في أشدّ الأوقات. فالصيف في ذروته، **وثمار المدينة قد أوشكت أن تطيب** – وهو الموسم الذي ينتظره أهل المدينة طوال العام، إذ التمر مورد رزقهم الأوّل. قال كعب بن مالك إنّه غزاها **«حين طابت الثمار والظلال»**.

فثقل الخروج على بعض الناس، فعاتبهم الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ**﴾ (التوبة ٩: ٣٨) – تفسير ابن كثير ٩: ٣٨.

وأمر الله تعالى: ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا**﴾ (التوبة ٩: ٤١) – تفسير ابن كثير ٩: ٤١.

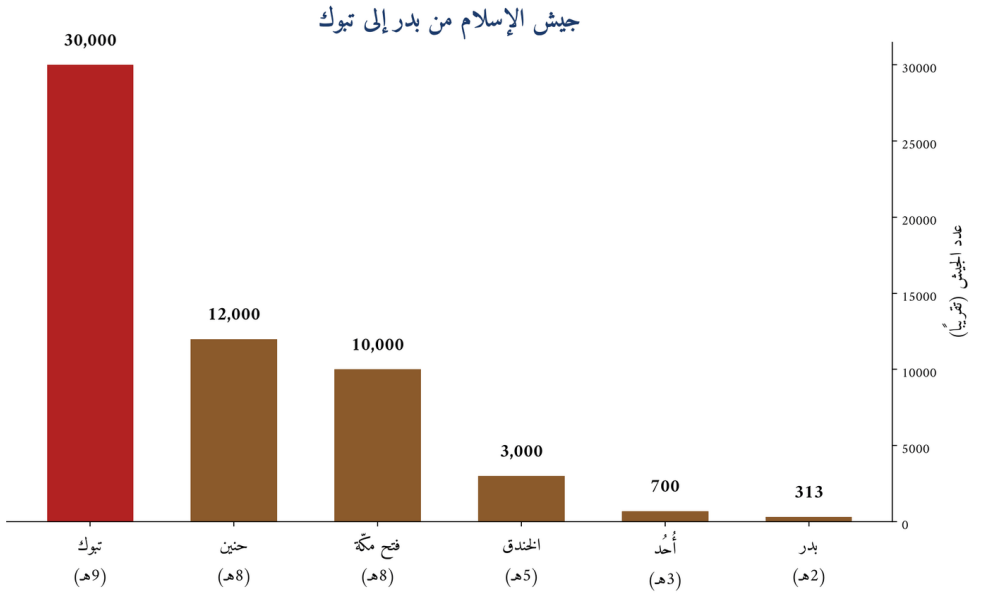
كان امتحان تبوك امتحانًا بين **الدنيا والآخرة** في أوضح صوره: ظلال الشجر وثمار النخل من جهة، والصحراء المحرقة والعدوّ الكبير من جهةٍ أخرى. وسيواجه كلّ واحدٍ منّا «تبوكَه» الخاصّة – لحظةً تقتضي فيها طاعةُ الله أن نترك متعةً حاضرةً بين أيدينا.

جيش العُسْرة

عُرف جيش تبوك باسمٍ خلّده القرآن: **جيش العُسْرة**. قال الله تعالى:

﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ (التوبة ٩: ١١٧) – تفسير ابن كثير ٩: ١١٧.

وقد شملت العسرة كلّ شيء: **قلّة الظَّهْر** حتّى كان النفر يتعاقبون البعير الواحد، **وقلّة الزاد** حتّى كانت التمرة تُقسم بين اثنين، **وقلّة الماء** في الحرّ اللاهب. وذكر ابن كثير رواية أنّ عمر رضى الله عنه حدّث أنّهم عطشوا حتّى كان الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه.



عدد بدر وفتح مكّة في الحديث الصحيح، والباقي من كتب السيرة. تبوك أكبر جيشٍ في حياة رسول الله ﷺ.

الرسم ٢: جيش الإسلام من بدر إلى تبوك.

ومع هذه العسرة العظيمة تذكر كتب السيرة أنّ الجيش بلغ نحو **ثلاثين ألفًا** – وهو أكبر جيشٍ في حياة رسول الله ﷺ. فانظر الفرق بينه وبين بدر: في سبع سنين صارت الأمّة التي كانت ٣١٣ رجلًا قوّةً تستطيع مواجهة إمبراطوريّةٍ عالميّة.

إنفاق عثمان بن عفّان

يحتاج جيشٌ بهذا الحجم إلى نفقةٍ عظيمة. فحثّ رسول الله ﷺ الصحابة على الإنفاق، وقال: «**من جهّز جيش العسرة فله الجنّة**»، فجهّزه **عثمان بن عفّان** رضى الله عنه (صحيح البخاري، كتاب الوصايا، قبل الحديث ٢٧٧٨، تعليقًا). وشهد عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه لحظةً لا تُنسى:

حديث – جامع الترمذي، رقم ٣٧٠١

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ وَاقِعٍ الرَّمْلِيُّ، قَالَ حَدَّثَنَا ضَمْرَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَوْذَبٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنْ كَثِيرٍ، مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ سَمُرَةَ، قَالَ جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِأَلْفِ دِينَارٍ - قَالَ الْحَسَنُ بْنُ وَاقِعٍ وَكَانَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِي فِي كُمِّهِ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَنَثَرَهَا فِي حِجْرِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ». مَرَّتَيْنِ.

السند رواه الإمام الترمذي: عن محمّد بن إسماعيل (البخاري)، عن الحسن بن واقع الرمليّ، عن ضَمْرة بن ربيعة، عن عبد الله بن شَوْذَب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة، عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام الترمذي في جامعه، أبواب المناقب، باب مناقب عثمان بن عفّان، حديث رقم ٣٧٠١؛ وأحمد برقم ٢٠٦٣٠.

الدرجة: حسن – قال الإمام الترمذي: حسنٌ غريب؛ وحسّنه الشيخ الألبانيّ ودار السلام.

المصدر: https://sunnah.com/tirmidhi:3701

دروسٌ من هذا الحديث

«**ما ضرّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم**». بيّن العلماء أنّ هذه **بشارة** بأنّ عمل عثمان في ذلك اليوم كان عظيمًا يضمن له المغفرة والمنزلة – لا إذنًا بالمعصية، كما قيل في أهل بدر (الحلقة ٢٠).

وتذكر كتب السيرة أنّ عثمان جهّز **مئات الإبل بأحلاسها وأقتابها** إلى جانب الألف دينار. فلم يكن مال عثمان لنفسه، بل كان **لدين الله**. وهو الذي اشترى بئر رُومة فجعلها للمسلمين. هذا قدوة التاجر المؤمن: **المال في اليد لا في القلب**.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

سباق أبي بكر وعمر

من كتب السيرة: «أبقيتُ لهم الله ورسوله»

حدّث عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ أمرهم أن يتصدّقوا، ووافق ذلك عنده مالًا، فقال: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا. فجاء ب**نصف ماله**. فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلك؟» قال: مثله. وأتى أبو بكر ب **كلّ ما عنده**، فقال: «ما أبقيتَ لأهلك؟» قال: «**أبقيتُ لهم الله ورسوله**». قال عمر: لا أسابقك إلى شيءٍ أبدًا. (جامع الترمذي ٣٦٧٥، وحسّنه الألباني)

لا يذكر هذا الحديث تبوك صراحة، وإنّما **ربطه أهل السير** بتجهيز جيش العسرة، ولذلك وُضع في هذا الصندوق.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة تبوك؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

تصوّر هذه القصّة **التنافس في الخير** في أنقى صوره. فلم يغبط عمرُ أبا بكر حسدًا، بل رغبةً في السبق إلى الطاعة. ولمّا سُبق أقرّ بفضل صاحبه بصدرٍ رحب. قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطفّفين ٨٣: ٢٦).

ولاحظ أنّ رسول الله ﷺ **قَبِل** مال أبي بكر كلّه لعلمه بقوّة إيمانه وتوكّله، بينما نصح غيره في موضعٍ آخر ألّا يتصدّق بماله كلّه (كسعد بن أبي وقّاص، صحيح البخاري ٢٧٤٢). فالحكم يختلف باختلاف **الحال** وقوّة **الإيمان**.

صدقة الصاع من التمر

لم يكن الصحابة كلّهم أغنياء كعثمان وأبي بكر، فكثيرٌ منهم فقراء أرادوا أن يسهموا أيضًا. حدّث أبو مسعود الأنصاريّ رضى الله عنه أنّه لمّا نزلت آية الصدقة كانوا يحاملون على ظهورهم بالأجرة ثمّ يتصدّقون. فجاء رجلٌ فتصدّق بشيءٍ كثير، فقال المنافقون: «**مُراءٍ**». وجاء رجلٌ فتصدّق ب**صاعٍ من تمر**، فقالوا: «**إنّ الله لغنيٌّ عن صاع هذا**» (صحيح البخاري ٤٦٦٨).

فأنزل الله يدافع عنهم: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ**﴾ (التوبة ٩: ٧٩) – تفسير ابن كثير ٩: ٧٩.

لا يرضى المنافقون أبدًا: من أعطى كثيرًا اتّهموه بالرياء، ومن أعطى قليلًا سخروا منه. لكنّ الله ينظر إلى **الإخلاص والجهد** لا إلى المقدار. فلعلّ صاعًا من تمرٍ من رجلٍ كدّ في تحصيله أثقل عند الله من ألف دينارٍ من غير مخلص.

والعبرة: **لا تحتقر الصدقة الصغيرة**، ولا تنشغل بالحكم على نيّات الناس. قال رسول الله ﷺ: «**اتّقوا النار ولو بشِقّ تمرة**» (صحيح البخاري ١٤١٧).

البكّاؤون

من أشدّ المشاهد تأثيرًا في تجهيز تبوك جماعةٌ من فقراء الصحابة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون ما يحملهم، إذ لا يستطيعون شراءه. فلمّا لم يجد ما يحملهم عليه رجعوا **وهم يبكون**. فخلّد الله دموعهم في القرآن:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة ٩: ٩٢) — تفسير ابن كثير ٩: ٩٢.

تسمّيهم كتب السيرة **البكّائين**، وتذكر منهم سبعةً من الأنصار وغيرهم. لم يبكوا لأنّهم مُنعوا مالًا، بل لأنّهم **فاتتهم فرصة الجهاد في سبيل الله**. فقارنهم بالمنافقين الذين كانوا يتلمّسون الأعذار ليتخلّفوا.

وقد قرّرت الآية التي قبلها مبدأ العذر في الإسلام: **﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** (التوبة ٩: ٩١) — تفسير ابن كثير ٩: ٩١.

حُمْلانُ الأشعريّين

وكان من الذين جاؤوا يطلبون الحُمْلان **الأشعريّون** من اليمن، ومثّلهم أبو موسى الأشعريّ رضى الله عنه.

وقد حدّث أبو موسى بما جرى بصدق، حتّى عن حزنه:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٤١٥

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاَءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى ـ رضى الله عنه ـ قَالَ أَرْسَلَنِي أَصْحَابِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَسْأَلُهُ الْحُمْلاَنَ لَهُمْ، إِذْ هُمْ مَعَهُ فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ وَهْىَ غَزْوَةُ تَبُوكَ فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ أَصْحَابِي أَرْسَلُونِي إِلَيْكَ لِتَحْمِلَهُمْ. فَقَالَ «وَاللَّهِ لاَ أَحْمِلُكُمْ عَلَى شَىْءٍ». وَوَافَقْتُهُ، وَهْوَ غَضْبَانُ وَلاَ أَشْعُرُ، وَرَجَعْتُ حَزِينًا مِنْ مَنْعِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَمِنْ مَخَافَةِ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَجَدَ فِي نَفْسِهِ عَلَىَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَأَخْبَرْتُهُمُ الَّذِي قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فَلَمْ أَلْبَثْ إِلاَّ سُوَيْعَةً إِذْ سَمِعْتُ بِلاَلاً يُنَادِي أَىْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ. فَأَجَبْتُهُ، فَقَالَ أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَدْعُوكَ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ، قَالَ «خُذْ هَذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ ـ وَهَذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ لِسِتَّةِ أَبْعِرَةٍ ابْتَاعَهُنَّ حِينَئِذٍ مِنْ سَعْدٍ ـ فَانْطَلِقْ بِهِنَّ إِلَى أَصْحَابِكَ فَقُلْ إِنَّ اللَّهَ ـ أَوْ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ـ يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَؤُلاَءِ فَارْكَبُوهُنَّ». فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهِمْ بِهِنَّ، فَقُلْتُ إِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَؤُلاَءِ وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لاَ أَدَعُكُمْ حَتَّى يَنْطَلِقَ مَعِي بَعْضُكُمْ إِلَى مَنْ سَمِعَ مَقَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لاَ تَظُنُّوا أَنِّي حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا لَمْ يَقُلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا لِي إِنَّكَ عِنْدَنَا لَمُصَدَّقٌ، وَلَنَفْعَلَنَّ مَا أَحْبَبْتَ. فَانْطَلَقَ أَبُو مُوسَى بِنَفَرٍ مِنْهُمْ حَتَّى أَتَوُا الَّذِينَ سَمِعُوا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَنْعَهُ إِيَّاهُمْ، ثُمَّ إِعْطَاءَهُمْ بَعْدُ، فَحَدَّثُوهُمْ بِمِثْلِ مَا حَدَّثَهُمْ بِهِ أَبُو مُوسَى.

السند رواه الإمام البخاري: عن محمّد بن العلاء، عن أبي أسامة حمّاد بن أسامة، عن بُرَيد بن عبد الله، عن أبي بُردة، عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، حديث رقم ٤٤١٥؛ وانظر أيضًا ٣١٣٣ و٦٦٢٣، وأخرجه مسلم برقم ١٦٤٩.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4415

دروسٌ من هذا الحديث

حلف رسول الله ﷺ أوّل الأمر ألّا يحملهم لأنّه لم يكن عنده شيءٌ يومئذٍ، وكان غضبان لأمرٍ آخر. فلمّا جاءت الإبل حملهم. وفي روايةٍ أخرى بيّن ذلك فقال: «**إنّي والله إن شاء الله لا أحلف على يمينٍ فأرى غيرها خيرًا منها إلّا أتيتُ الذي هو خير وكفّرتُ عن يميني**» (صحيح البخاري ٦٦٢٣).

ولاحظ أيضًا **تثبّت أبي موسى** في نقل الخبر: لم يُرد أن يظنّ قومه أنّه يتقوّل على رسول الله ﷺ، فذهب بهم إلى شهودٍ آخرين. هذه روح الصحابة في **صيانة صدق الرواية** – الروح التي قام عليها علم الحديث.

أعذار المنافقين

إن أظهرت تبوك صدق الصحابة فقد **كشفت كذلك وجوه المنافقين**. فقد نزل معظم سورة التوبة في هذه الأحداث، حتّى سُمّيت **الفاضحة**، لأنّها فضحت أسرار قلوبهم واحدًا بعد واحد. قال الله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ (التوبة ٩: ٤٢) – تفسير ابن كثير ٩: ٤٢.

تصوّر هذه الآية نفسيّة المنافق بدقّة: هو مستعدّ للمتابعة إذا كان **الربح سهلًا والسفر قريبًا**. ففي حنين كانت الغنائم، وفي تبوك لم يكن إلّا الحرّ والبُعد والخطر. فبدأوا يختلقون الأعذار.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ (التوبة ٩: ٤٩) – تفسير ابن كثير ٩: ٤٩.

من كتب السيرة: الجدّ بن قيس

روى أهل التفسير والسير أنّ هذه الآية نزلت في **الجدّ بن قيس** من بني سلمة. دُعي إلى تبوك فقال: ائذن لي ولا تفتنّي، فقد عرف قومي أنّه ما من رجلٍ أشدّ عُجْبًا بالنساء منّي، وإنّي أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر ألّا أصبر. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنتُ لك».

ذكر هذه الرواية ابن إسحاق، والطبريّ وابن كثير في تفسيريهما بأسانيد عدّة، **في بعضها كلام**، لكنّ معناها مشهورٌ عند أهل التفسير.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة تبوك؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، التوبة ٩: ٤٩. https://tafsir.app/ibn-katheer/9/49

انظر المفارقة: طلب ألّا «يُفتن» بنساء الروم، وبتخلّفه نفسه **سقط في فتنةٍ أكبر** – فتنة التخلّف عن رسول الله ﷺ. فقد يكون العذر الذي يبدو ورعًا غطاءً للكسل والخوف.

وتذكر كتب السيرة أنّ المنافقين الذين استأذنوا في التخلّف كانوا **بضعةً وثمانين رجلًا**، فقبل رسول الله ﷺ علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله. وهذا مبدأ الإسلام في معاملة الناس: **نحكم بالظاهر**، والله يتولّى السرائر.

«لا تنفروا في الحرّ»

لم يكتفِ المنافقون بالتخلّف، بل **ثبّطوا غيرهم** عن الخروج. فسجّل الله مقالتهم وردّ عليها بكلمةٍ تهزّ القلوب:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۚ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة ٩: ٨١) – تفسير ابن كثير ٩: ٨١.

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾. هذه موازنةٌ تضع كلّ شيءٍ في ميزانه الصحيح. فحرّ صحراء تبوك يزول بعد أسابيع، أمّا الحرّ الذي يُتّقى بترك الطاعة فقد يقود إلى حرٍّ لا ينقضي.

وقال رسول الله ﷺ إنّ نار الدنيا **جزءٌ من سبعين جزءًا** من نار جهنّم (صحيح البخاري ٣٢٦٥). فالصحابة الذين فقهوا هذه الحقيقة لم يرهبوا شمس الصحراء، بل خافوا ما هو أشدّ منها بكثير.

والعبرة لنا: كلّما بحثنا عن عذرٍ لترك واجبٍ لأنّه **شاقّ أو متعب أو غير مريح** فلنسأل أنفسنا سؤال القرآن هذا. فالقيام لصلاة الفجر في البرد، والصيام في الحرّ، والصدقة في الضيق – كلّ ذلك يسيرٌ أمام ما يُتّقى.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

معرفة داء النفاق

علّمت أحداثُ تبوك المسلمين **معرفة علامات النفاق**، لا ليتّهموا الآخرين، بل **ليحاسبوا أنفسهم**. وقد بيّن رسول الله ﷺ علاماته في أحاديث صحيحة، فقال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**» (صحيح البخاري ٣٣).

وزاد في روايةٍ أخرى خصلة: «**وإذا خاصم فجر**»، وقال إنّ من كانت فيه خصلةٌ منهنّ كانت فيه **خصلةٌ من النفاق** حتّى يدعها (صحيح البخاري ٣٤). وفرّق العلماء بين **النفاق الاعتقاديّ** (إبطان الكفر، كحال منافقي تبوك) **والنفاق العمليّ** (أخلاقٌ سيّئة قد توجد في المسلم).

وقال رسول الله ﷺ: «**ليس صلاةٌ أثقلَ على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْوًا**» (صحيح البخاري ٦٥٧). فكما كشفهم حرّ تبوك، تكشف **ظلمةُ الفجر والعشاء** كذلك من آمن حقًّا.

ووصف المنافق بأنّه «**كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تَعِيرُ إلى هذه مرّةً وإلى هذه مرّة**» (صحيح مسلم ٢٧٨٤). تلك كانت حالهم في المدينة: مرّةً مع المسلمين ومرّةً مع العدوّ، بلا موقف.

وكان الصحابة أنفسهم يخافون النفاق أشدّ الخوف. قال ابن أبي مُليكة: «**أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبيّ ﷺ كلّهم يخاف النفاق على نفسه**» (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، تعليقًا). فإذا خافه من شهد تبوك فكيف بنا؟

عليّ: بمنزلة هارون من موسى

قبل المسير كان لا بدّ أن يستخلف رسول الله ﷺ من يقوم على المدينة وأهله. وتذكر كتب السيرة أنّه استعمل محمّد بن مسلمة على المدينة، وخلّف **عليّ بن أبي طالب** رضى الله عنه على أهله. وكان التخلّف ثقيلًا على فارسٍ مثل عليّ:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٤١٦

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، عَنِ الْحَكَمِ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلِيًّا فَقَالَ أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ قَالَ «أَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي». وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنِ الْحَكَمِ سَمِعْتُ مُصْعَبًا.

السند رواه الإمام البخاري: عن مُسدَّد بن مُسَرْهَد، عن يحيى بن سعيد القطّان، عن شعبة بن الحجّاج، عن الحكم بن عُتَيبة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه سعد بن أبي وقّاص رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، حديث رقم ٤٤١٦؛ وانظر أيضًا ٣٧٠٦، وأخرجه مسلم برقم ٢٤٠٤.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4416

دروسٌ من هذا الحديث

تذكر كتب السيرة أنّ المنافقين أرجفوا: «**ما خلّفه إلّا استثقالًا له**». فأخذ عليٌّ سلاحه ولحق برسول الله ﷺ حتّى أدركه بالجُرْف. وهناك قال له الكلمة التي صارت من أعظم فضائل عليّ.

استخلف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أخاه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه حين ذهب لميقات ربّه أربعين ليلة (الأعراف ٧: ١٤٢). وكذلك كان عليّ عند رسول الله ﷺ: **خليفةً مؤتمنًا**. لكنّه أضاف بحزم: «**إلّا أنّه لا نبيّ بعدي**» – قاطعًا كلّ لَبْسٍ في أمر النبوّة.

والعبرة: **لكلّ مهمّةٍ في الدين قيمتها.** فالمجاهد في الميدان والحارس في الخلف كلاهما في خدمة. وقد تكون المهمّة الأقلّ بريقًا هي الأمانة الأعظم.

أبو خيثمة وأبو ذرّ

تحرّك الجيش، وتخلّف بعض الصادقين لتأخّرهم في التجهّز. ومنهم **أبو خيثمة الأنصاريّ** رضى الله عنه. ففي حديث كعب بن مالك الطويل أنّ رسول الله ﷺ بينما هو جالسٌ بتبوك إذ رأى رجلًا مبيّضًا يزول به السراب، فقال: «**كُنْ أبا خيثمة**»، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاريّ – **وهو الذي تصدّق بصاع التمر حين لمزه المنافقون**) صحيح مسلم ٢٧٦٩.(

فانظر كيف وصل الله أطراف القصّة: الرجل الفقير الذي سُخر منه لأجل صاعٍ من تمر (الفصل ٨) هو نفسه الذي قطع الصحراء وحده ليلحق برسول الله ﷺ. يسخر المنافقون، **ويرفع الله**.

من كتب السيرة: أبو خيثمة والظلّ وامرأتاه؛ أبو ذرّ يمشي وحده

روى ابن إسحاق أنّ أبا خيثمة رجع إلى حائطه في يومٍ حارّ، فوجد امرأتيه قد رشّتا عريشه وبرّدتا له الماء وهيّأتا له الطعام، فقال: «**رسول الله ﷺ في الضِّحّ والريح والحرّ، وأبو خيثمة في ظلٍّ بارد وطعامٍ مهيّأ وامرأةٍ حسناء؟ ما هذا بالنَّصَف!**» ثمّ هيّأ ناضحه ولحق به.

وروى ابن إسحاق أيضًا أنّ **أبا ذرّ** رضى الله عنه تخلّف لإبطاء بعيره، فأخذ متاعه على ظهره **ومشى وحده**. فلمّا رُئي من بعيد قال رسول الله ﷺ: «كُنْ أبا ذرّ». ثمّ قال: «**رحم الله أبا ذرّ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده**». والقصّتان **من روايات السيرة**، وقصّة أبي ذرّ خاصّةً إسنادها ضعيف.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة تبوك؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

الحِجْر: ديار ثمود

وفي المسير شمالًا مرّ جيش الإسلام بموضعٍ عجيب: **الحِجْر**، ديار ثمود قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وفيه بيوتٌ منحوتةٌ في الجبال – آثار حضارةٍ كانت قويّة، ثمّ أُهلكت لتكذيبها رسولها. قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الحجر ١٥: ٨٠) – تفسير ابن كثير ١٥: ٨٠.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ (الحجر ١٥: ٨٢) – تفسير ابن كثير ١٥: ٨٢.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (الحجر ١٥: ٨٣) – تفسير ابن كثير ١٥: ٨٣.

ووجد الصحابة المتعبون العطاشى آبارًا هناك، فاستقوا منها وعجنوا بمائها. لكنّ رسول الله ﷺ أمرهم أمرًا مفاجئًا:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٣٣٧٨

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مِسْكِينٍ أَبُو الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَسَّانَ بْنِ حَيَّانَ أَبُو زَكَرِيَّاءَ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ـ رضى الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا نَزَلَ الْحِجْرَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَمَرَهُمْ أَنْ لاَ يَشْرَبُوا مِنْ بِئْرِهَا، وَلاَ يَسْتَقُوا مِنْهَا فَقَالُوا قَدْ عَجَنَّا مِنْهَا، وَاسْتَقَيْنَا. فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَطْرَحُوا ذَلِكَ الْعَجِينَ وَيُهَرِيقُوا ذَلِكَ الْمَاءَ. وَيُرْوَى عَنْ سَبْرَةَ بْنِ مَعْبَدٍ وَأَبِي الشُّمُوسِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَمَرَ بِإِلْقَاءِ الطَّعَامِ. وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم «مَنِ اعْتَجَنَ بِمَائِهِ».

السند رواه الإمام البخاري: عن محمّد بن مسكين، عن يحيى بن حسّان، عن سليمان بن بلال، عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، حديث رقم ٣٣٧٨؛ وانظر أيضًا ٣٣٧٩-٣٣٨١ و٤٤١٩-٤٤٢٠، وأخرجه مسلم برقم ٢٩٨١.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:3378

دروسٌ من هذا الحديث

في حال العطش والجوع كان **إهراق الماء وطرح العجين** تضحيةً كبيرة، لكنّ الصحابة أطاعوا بلا سؤال. وفي روايةٍ أخرى في صحيح البخاري (٣٣٧٩) أنّه أمرهم أن يستقوا من **البئر التي كانت تَرِدُها الناقة** – فدلّ على أنّ النهي لم يكن عن الماء لذاته، بل عن **موضعٍ غضب الله على أهله**.

واليوم صار موقع الحِجْر (مدائن صالح) في شمال المملكة العربيّة السعوديّة **مقصدًا سياحيًّا**. ويذكّر العلماء بأنّ أدب رسول الله ﷺ في هذا الموضع هو المرور مع **الاعتبار**، لا اللهو والفرح في مكانٍ نزل به العذاب.

«لا تدخلوا إلّا أن تكونوا باكين»

وحين مرّوا بمساكن ثمود قال رسول الله ﷺ كلمةً تهزّ النفوس. روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنّه قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلّا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم**»، ثمّ قنّع رأسه وأسرع السير حتّى أجاز الوادي (صحيح البخاري ٤٤١٩؛ 4420).

وليس البكاء هنا دموعًا فحسب، بل **قلبٌ خائفٌ معتبر**: يخاف أن يصيبه ما أصابهم، ويعتبر بأنّ قوّة ثمود – الذين نحتوا الجبال بيوتًا – لم تُغنِ عنهم شيئًا. ﴿**فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (الحجر ١٥: ٨٤).

هذا **درسٌ في التاريخ** علّمه رسول الله ﷺ في الميدان مباشرة. فالتاريخ ليس حكاياتٍ تُحفظ، بل **مرآةٌ** ينظر فيها المرء إلى نفسه. وكلّ حضارةٍ شامخةٍ نسيت الله ستنتهي كالحِجْر – أطلالًا يزورها الناس.

وأخذ العلماء من هذا الحديث **كراهة النزول والمبيت** في مواضع العذاب من غير حاجة، واستحباب **الإسراع في المرور** بها مع الاعتبار.

عين تبوك

بعد سفرٍ طويل اقترب جيش الإسلام من غايته. وروى معاذ بن جبل رضى الله عنه ما جرى عند عين تبوك:

حديث – صحيح مسلم، رقم ٧٠٦

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَنَفِيُّ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، - وَهُوَ ابْنُ أَنَسٍ - عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ الْمَكِّيِّ، أَنَّ أَبَا الطُّفَيْلِ، عَامِرَ بْنَ وَاثِلَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ أَخْبَرَهُ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَكَانَ يَجْمَعُ الصَّلاَةَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمِيعًا حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمًا أَخَّرَ الصَّلاَةَ ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا ثُمَّ دَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ فَصَلَّى الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمِيعًا ثُمَّ قَالَ «إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَيْنَ تَبُوكَ وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يُضْحِيَ النَّهَارُ فَمَنْ جَاءَهَا مِنْكُمْ فَلاَ يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شَيْئًا حَتَّى آتِيَ». فَجِئْنَاهَا وَقَدْ سَبَقَنَا إِلَيْهَا رَجُلاَنِ وَالْعَيْنُ مِثْلُ الشِّرَاكِ تَبِضُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ - قَالَ - فَسَأَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «هَلْ مَسَسْتُمَا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا». قَالاَ نَعَمْ. فَسَبَّهُمَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ لَهُمَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ - قَالَ - ثُمَّ غَرَفُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعَيْنِ قَلِيلاً قَلِيلاً حَتَّى اجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ - قَالَ - وَغَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِيهِ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِيهَا فَجَرَتِ الْعَيْنُ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ أَوْ قَالَ غَزِيرٍ - شَكَّ أَبُو عَلِيٍّ أَيَّتُهُمَا قَالَ - حَتَّى اسْتَقَى النَّاسُ ثُمَّ قَالَ «يُوشِكُ يَا مُعَاذُ إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَا هُنَا قَدْ مُلِئَ جِنَانًا».

السند رواه الإمام مسلم: عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارميّ، عن أبي عليّ الحنفيّ، عن مالك بن أنس، عن أبي الزبير المكّيّ، عن أبي الطُّفَيل عامر بن واثلة، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه.

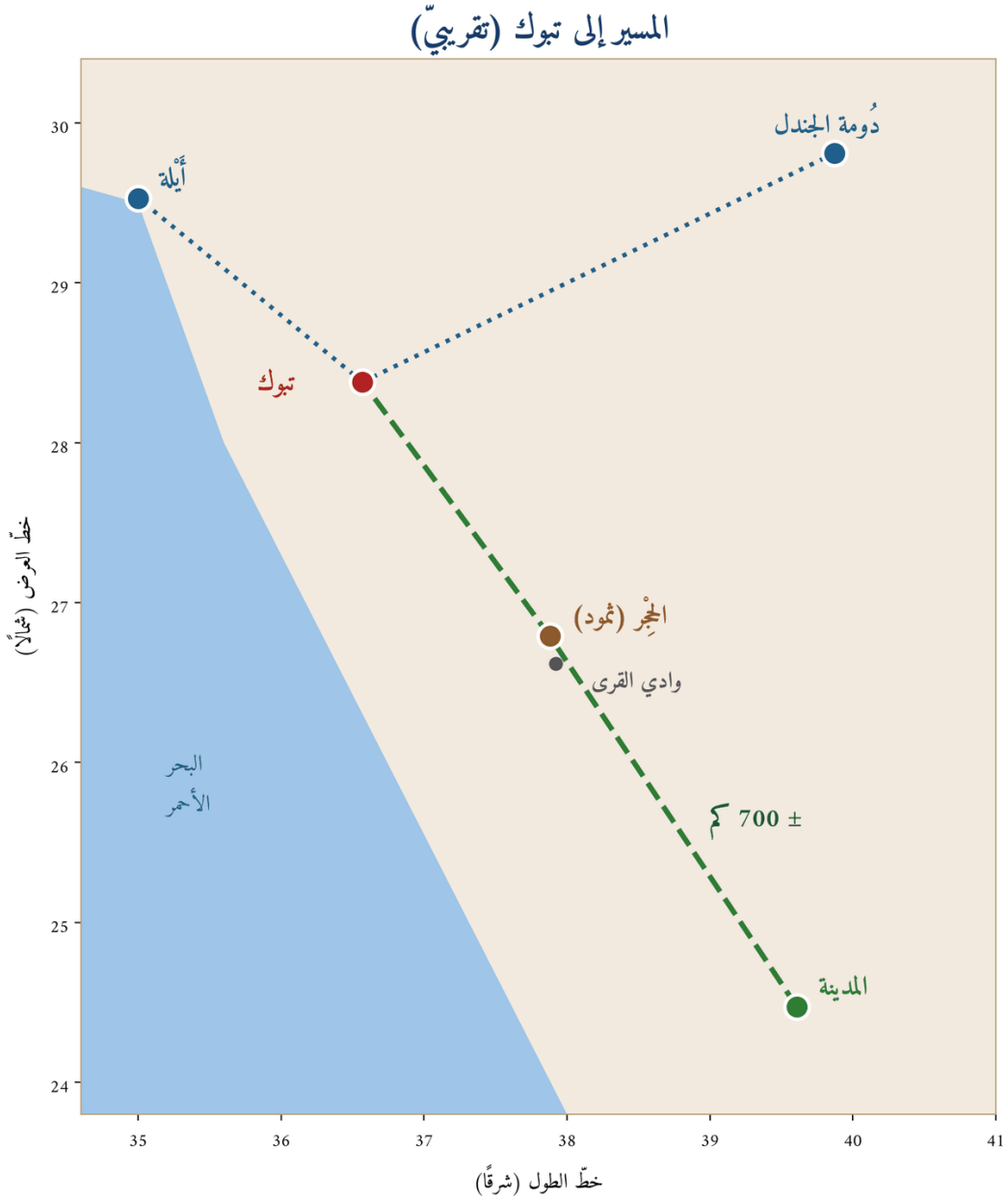
التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبيّ ﷺ، حديث رقم ٧٠٦؛ وأخرجه مالك في الموطّأ.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:706c

دروسٌ من هذا الحديث

كانت العين لا تَبِضّ إلّا بشيءٍ يسير مثل الشِّراك. فغرفوا منها قليلًا قليلًا حتّى اجتمع، فغسل رسول الله ﷺ وجهه ويديه، ثمّ أعاده فيها، **فجرت العين بماءٍ كثير**، فاستقى الناس.



الخطّ المنقّط: الصلح مع أيلة وسريّة خالد إلى دُومة الجندل. المواضع تقريبيّة.

الرسم ٣: الطريق من المدينة إلى تبوك.

ثمّ قال لمعاذ: «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما هاهنا قد مُلِئ جِنانًا**». واليوم تشتهر منطقة تبوك في شمال المملكة العربيّة السعوديّة **بمزارعها الواسعة** — القمح والفاكهة والزهور — وهي من أهمّ المناطق الزراعيّة في البلاد.

ولاحظ أمره: «**فلا يمسّ من مائها شيئًا حتّى آتي**». فسبق إليها رجلان فمسّاها، فعاتبهما. إنّ الانضباط في إدارة **موردٍ مائيٍّ محدود** لثلاثين ألف رجل مسألة حياةٍ أو موت.

تذكّرنا معجزة الماء هذه بأحداثٍ أخرى في السيرة: الماء الذي نبع من بين أصابعه بالحديبية (الحلقة ١٥)، والبئر التي جاشت بعد أن مجّ فيها. أكرم الله رسوله بمعجزاتٍ **تلبّي حاجة أمّته الحقيقيّة** — ماءً للعطشى — لا مجرّد استعراض.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

الجمع بين الصلاتين في السفر

يتضمّن حديث معاذ نفسه **حكمًا فقهيًّا مهمًّا**: ففي المسير إلى تبوك كان رسول الله ﷺ **يجمع بين الصلاتين** – الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء. وهو من أهمّ أدلّة جواز الجمع للمسافر.

وفي روايةٍ أخرى في صحيح مسلم عن معاذ أنّه سُئل: ما حمله على ذلك؟ فقال: «**أراد ألّا يُحرج أمّته**». هذه روح الشريعة: **التيسير عند المشقّة**. قال الله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ (البقرة ٢: ١٨٥).

الحالة	الصلوات التي تُجمع
المسافر	الظهر + العصر؛ المغرب + العشاء
جمع التقديم	يُصلّى في وقت الصلاة الأولى
جمع التأخير	يُصلّى في وقت الصلاة الثانية
لا يُجمع	الصبح؛ والعصر مع المغرب

ولمسافر اليوم – سائق الشاحنة، والطيّار، والطالب العائد في إجازته – أن يأخذ بهذه الرخصة. فليست علامة ضعف إيمان، بل **اتّباعٌ لسنّة** رسول الله ﷺ الذي عمل بها بنفسه في أشقّ سفرٍ في حياته.

الريح الشديدة وحديقة المرأة

روى أبو حُمَيد الساعديّ رضى الله عنه حديثًا فيه **عدّة معجزات** في الذهاب إلى تبوك والإياب منها:

حديث – صحيح البخاري، رقم ١٤٨١

حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ بَكَّارٍ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى، عَنْ عَبَّاسٍ السَّاعِدِيِّ، عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم غَزْوَةَ تَبُوكَ فَلَمَّا جَاءَ وَادِي الْقُرَى إِذَا امْرَأَةٌ فِي حَدِيقَةٍ لَهَا فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لأَصْحَابِهِ «اخْرُصُوا». وَخَرَصَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَشَرَةَ أَوْسُقٍ فَقَالَ لَهَا «أَحْصِي مَا يَخْرُجُ مِنْهَا». فَلَمَّا أَتَيْنَا تَبُوكَ قَالَ «أَمَا إِنَّهَا سَتَهُبُّ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَلاَ يَقُومَنَّ أَحَدٌ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ بَعِيرٌ فَلْيَعْقِلْهُ». فَعَقَلْنَاهَا وَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَقَامَ رَجُلٌ فَأَلْقَتْهُ بِجَبَلِ طَيِّئٍ ـ وَأَهْدَى مَلِكُ أَيْلَةَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بَغْلَةً بَيْضَاءَ، وَكَسَاهُ بُرْدًا وَكَتَبَ لَهُ بِبَحْرِهِمْ ـ فَلَمَّا أَتَى وَادِي الْقُرَى قَالَ لِلْمَرْأَةِ «كَمْ جَاءَ حَدِيقَتُكِ». قَالَتْ عَشَرَةَ أَوْسُقٍ خَرْصَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم «إِنِّي مُتَعَجِّلٌ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَعَجَّلَ مَعِي فَلْيَتَعَجَّلْ». فَلَمَّا ـ قَالَ ابْنُ بَكَّارٍ كَلِمَةً مَعْنَاهَا ـ أَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ «هَذِهِ طَابَةُ». فَلَمَّا رَأَى أُحُدًا قَالَ «هَذَا جَبَيْلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ دُورِ الأَنْصَارِ». قَالُوا بَلَى. قَالَ «دُورُ بَنِي النَّجَّارِ، ثُمَّ دُورُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، ثُمَّ دُورُ بَنِي سَاعِدَةَ، أَوْ دُورُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، وَفِي كُلِّ دُورِ الأَنْصَارِ ـ يَعْنِي ـ خَيْرًا». وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ بِلاَلٍ حَدَّثَنِي عَمْرٌو، «ثُمَّ دَارُ بَنِي الْحَارِثِ، ثُمَّ بَنِي سَاعِدَةَ». وَقَالَ سُلَيْمَانُ عَنْ سَعْدِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ، عَنْ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ «أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ». قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ كُلُّ بُسْتَانٍ عَلَيْهِ حَائِطٌ فَهُوَ حَدِيقَةٌ، وَمَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَائِطٌ لَمْ يَقُلْ حَدِيقَةٌ.

السند رواه الإمام البخاري: عن سهل بن بكّار، عن وُهَيب بن خالد، عن عمرو بن يحيى المازنيّ، عن عبّاس بن سهل الساعديّ، عن أبي حُمَيد الساعديّ رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب خَرْص التمر، حديث رقم ١٤٨١؛ وانظر أيضًا ٣١٦١ و٤٤٢٢، وأخرجه مسلم برقم ١٣٩٢.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1481

دروسٌ من هذا الحديث

المعجزة الأولى: خرص رسول الله ﷺ حديقة امرأةٍ بوادي القرى عشرة أوسق، فلمّا رجع أخبرته أنّها بلغت **عشرة أوسق** تمامًا. وفيه أيضًا مشروعيّة **الخَرْص** (تقدير ثمر النخل) الذي يُبنى عليه حساب زكاة الثمار.

المعجزة الثانية: أخبر أنّه **ستهبّ الليلة ريحٌ شديدة**، وأمر ألّا يقوم أحد، وأن يُعقل البعير. فهبّت الريح فعلًا، وقام رجلٌ **فحملته الريح** حتّى ألقته بجبلَيْ طيّئ. فالطاعة تُنجي، والمخالفة تُردي.

والعبرة: إنّ رسول الله ﷺ **أنذر مبكّرًا** وأعطى تعليمات سلامةٍ واضحة. وهذا بلغة العصر **إدارةٌ للمخاطر**. واتّباع تعليمات السلامة – في الإنذار بالعواصف أو الفيضانات أو الأوبئة – جزءٌ من اتّباع السنّة.

ويُظهر الحديث أيضًا عناية رسول الله ﷺ بامرأة وادي القرى: أمرها أن تُحصي ثمر حديقتها، ثمّ سألها عنه في طريق العودة. فمع أنّه يقود ثلاثين ألفًا **لم ينسَ امرأةً وحديقتها الصغيرة**. فالقيادة العظيمة ليست خططًا كبرى فحسب، بل هي أيضًا تذكّر الضعفاء على الطريق.

الصلح مع أَيْلة

ويذكر حديث أبي حُمَيد حدثًا سياسيًّا مهمًّا: أنّ **ملك أَيْلة** (العقبة اليوم في الأردن، على رأس خليج العقبة) أهدى لرسول الله ﷺ **بغلةً بيضاء**، فكساه بُرْدًا و**كتب له بجرهم**) صحيح البخاري ١٤٨١.(

وتذكر كتب السيرة أنّ اسم ذلك الملك **يُحَنّة بن رُؤْبة**، وأنّ أهل جَرْباء وأَذْرُح جاؤوا كذلك فصالحوا. فرضوا بأداء **الجزية**، وفي مقابل ذلك **أُمِّنوا** على أنفسهم وأموالهم وسفنهم وقوافلهم.

وجاء هذا الصلح موافقًا لآيةٍ نزلت في تلك المدّة: ﴿**حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ (التوبة ٩: ٢٩) – تفسير ابن كثير ٩: ٢٩.

وليست الجزية غنيمة، بل **مقابل حمايةٍ** يُبقي لأهل الكتاب دينهم في ظلّ الدولة الإسلاميّة، ويُعفيهم من التجنيد، ويضمن أمنهم. وهي من أسس **التعايش** بين المسلمين وغيرهم في تاريخ الإسلام.

وبلا قتالٍ أوصل رسول الله ﷺ **نفوذ الإسلام** إلى تخوم الشام. وعرفت قبائل الشمال أنّ قوّةً جديدة عادلة قويّة قد قامت. وأحيانًا **يُنال أعظم النصر بلا سلّ سيف**.

خالد إلى دُومة الجندل

ومن تبوك بعث رسول الله ﷺ **خالد بن الوليد** رضى الله عنه في نحو أربعمائة وعشرين فارسًا إلى **دُومة الجندل**، حصنٌ مهمّ في الشمال (الجوف اليوم في المملكة العربيّة السعوديّة)، يحكمه **أُكَيْدِر بن عبد الملك**، ملكٌ عربيّ نصرانيّ.

من كتب السيرة: بقر الوحش في ليلةٍ مقمرة

روى أهل السير أنّ رسول الله ﷺ قال لخالد: «**إنّك ستجده يصيد البقر**». ففي ليلةٍ مقمرة، وأُكَيْدر على سطح حصنه مع امرأته، جاءت بقر الوحش تحكّ بقرونها باب الحصن، فنزل أُكَيْدر وخرج يطاردها، فأخذته خيل خالد. وقُتل أخوه حسّان في تلك المناوشة.

وجيء بأُكَيْدر إلى رسول الله ﷺ، ف**حقن دمه** وصالحه على الجزية. وهذه التفاصيل **من روايات كتب السيرة** (ابن إسحاق والواقدي).

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة تبوك؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

الواقدي، المغازي – سريّة خالد إلى دومة الجندل.

وقد ثبت أصل الحادثة بحديثٍ صحيح. روى أنس بن مالك رضى الله عنه أنّ **أُكَيْدر دُومة أهدى إلى النبيّ** ﷺ **جُبّةَ سُنْدُس**، فعجب الناس من حسنها، فقال: «**والذي نفس محمّدٍ بيده لمناديلُ سعد بن معاذ في الجنّة أحسنُ من هذا**» (صحيح البخاري ٢٦١٦).

انظر كيف صرف رسول الله ﷺ **أنظار** أصحابه. فحين أُعجبوا بحرير ملكٍ ذكّرهم بسعد بن معاذ – سيّد الأنصار الذي استُشهد من جرحه في الخندق (الحلقتان ١٢-١٣). **فمناديله** وحدها في الجنّة أكرم من أنفس ثياب الدنيا.

عشرون يومًا في تبوك

روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما :«**أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة**» (سنن أبي داود ١٢٣٥، وصحّحه النوويّ والألبانيّ).

وفي تلك الأيّام العشرين **لم يظهر جيش الروم.** فسواءً أكان خبر حشودهم غير دقيق، أم آثروا ألّا يواجهوا جيشًا بهذا الحجم والحماسة، فالنتيجة واحدة: **بسط المسلمون سيطرتهم على الميدان بلا قتال.** وشهدت قبائل العرب على الحدود أنّ الروم لم يجرؤوا على الخروج.

من كتب السيرة: الشورى: نتقدّم أم نرجع؟

روى أهل السير أنّ رسول الله ﷺ استشار أصحابه في التقدّم إلى الشام. فقال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه: يا رسول الله، إن كنتَ أُمرتَ بالمسير فسِرْ. فقال: «لو أُمرتُ به ما استشرتكم فيه». فأشار عمر بالرجوع، لأنّ للروم جموعًا كثيرة وليس هناك أحدٌ من أهل الإسلام، وقد **أفزعهم دنوّكم** من تبوك. ذكر هذه الرواية الواقديّ.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة تبوك؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

والعبرة: **النصر لا يعني القتال دائمًا.** فبلوغ الهدف الاستراتيجيّ بلا إراقة دماء حكمة. والقرارات الكبرى تُتّخذ **بالشورى** ولو كان صاحب القرار نبيًّا.

المؤامرة في العقبة

وفي طريق العودة من تبوك وقع حدثٌ كشف مدى حقد بعض المنافقين. ففي صحيح مسلم يحكي أبو الطُّفَيل خصومةً بين رجلٍ من «**أهل العقبة**» وبين حذيفة بن اليمان رضى الله عنه. فذكر حذيفة أنّهم كانوا **أربعة عشر أو خمسة عشر**، وشهد أنّ اثني عشر منهم **حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.** وفي الرواية نفسها أنّ رسول الله ﷺ قال في سفر: «إنّ الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد»، فوجد قومًا قد سبقوه فلعنهم (صحيح مسلم ٢٧٧٩.).

من كتب السيرة: الملثّمون على العقبة

روى أهل السير أنّ رسول الله ﷺ لمّا مرّ بالعقبة ليلًا أمر الجيش أن يأخذوا بطن الوادي، وسلك هو طريق العقبة الضيّق. فكان **عمّار بن ياسر** يقود ناقته من أمامها و**حذيفة** يسوقها من خلفها. فدنا رهطٌ **ملثّمون** يريدون أن يطرحوه في الوادي، فضرب حذيفة وجوه رواحلهم ففرّوا.

وأسرّ رسول الله ﷺ إلى حذيفة بأسمائهم، ولذلك لُقّب حذيفة «**صاحب سرّ رسول الله ﷺ**». وتفاصيل القصّة **من روايات السيرة** ومسند أحمد بإسنادٍ متكلَّمٍ فيه، وأصلها ثابتٌ في صحيح مسلم ٢٧٧٩.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة تبوك؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

ومع علمه بأسمائهم فإنّ رسول الله ﷺ **لم يقتلهم.** وقد بيّن في حادثةٍ أخرى: «**لا يتحدّث الناس أنّ محمّدًا يقتل أصحابه**» (صحيح البخاري ٤٩٠٥). فقد حفظ **سمعة الدعوة** حتّى مع العدوّ المتخفّي في الصفّ.

«إنّما كنّا نخوض ونلعب»

وفي أثناء المسير **سخر بعض المنافقين من رسول الله ﷺ وأصحابه**. فلمّا عوتبوا اعتذروا بعذرهم المشهور. قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (التوبة ٩: ٦٥) – تفسير ابن كثير ٩: ٦٥.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (التوبة ٩: ٦٦) – تفسير ابن كثير ٩: ٦٦.

من كتب السيرة: «ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء»

روى ابن جرير الطبريّ وابن أبي حاتم عن ابن عمر رضى الله عنهما أنّ رجلًا قال في غزوة تبوك في مجلس: «**ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء، أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسنًا، ولا أجبنَ عند اللقاء**» – يعني رسول الله ﷺ وأصحابه. فلمّا بلغه ذلك جاء الرجل متعلّقًا بِنِسْعة ناقته والحجارة تنكُب رجليه يقول: إنّما كنّا نخوض ونلعب. فما زاد على أن تلا هذه الآية، وما التفت إليه.

حسّن هذه الرواية بعض العلماء، ووُضعت في هذا الصندوق لأنّها ليست في الصحيحين.

المرجع:

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، التوبة ٩: ٦٥-٦٦. https://tafsir.app/ibn-katheer/9/65

اتّخذ العلماء هذه الآية دليلًا على أنّ **الاستهزاء بالله وآياته ورسوله** ليس أمرًا هيّنًا ولو كان على سبيل المزاح. فالدين ليس مادّةً للتهريج. وفي زمن وسائل التواصل التي تنتشر فيها النكت على الدين بسهولة تبقى هذه الآية **تذكرةً شديدة الصلة بواقعنا**.

لكنّ الآية التي تليها تفتح بابًا: ﴿**إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ**﴾. وذكر المفسّرون رجلًا اسمه مَخْشِيّ بن حُمَيِّر تاب فعُفي عنه. فباب التوبة مفتوحٌ دائمًا لمن رجع صادقًا.

الذين حبسهم العذر

ولمّا دنا رسول الله ﷺ من المدينة في طريق العودة قال كلمةً يكرم بها من لم يستطع الخروج لعذرٍ حقيقيّ:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٤٢٣

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضى الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالَ «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ».

السند رواه الإمام البخاري: عن أحمد بن محمّد المروزيّ، عن عبد الله بن المبارك، عن حُمَيد الطويل، عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك (بعد حديث كعب بن مالك)، حديث رقم ٤٤٢٣؛ وانظر أيضًا ٢٨٣٩، وأخرجه مسلم برقم ١٩١١ (عن جابر).

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4423

دروسٌ من هذا الحديث

هذه **عظمة النيّة**. فالصحابة الذين بكوا لعجزهم عن الخروج (الفصل ٩) لم يخطوا خطوةً إلى تبوك، لكنّهم **شاركوا في أجر كلّ خطوة**. فالله ينظر إلى القلوب لا إلى الجوارح وحدها.

ويواسي الحديث كذلك كلّ مسلمٍ **حُبس عن الخير** بمرضٍ أو كِبَرٍ أو مسؤوليّةٍ أسريّة أو قلّة مال. قال رسول الله ﷺ في حديثٍ آخر: «**إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثلُ ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا**» (صحيح البخاري ٢٩٩٦).

لكنّ الفرق واضح: أصحاب الأعذار حزنوا لعجزهم عن الخروج، والمنافقون **فرحوا** بقعودهم (التوبة ٩: ٨١). فقياس إخلاصنا: ما شعورنا حين تفوتنا فرصة عبادة؟

«هذه طابة»: العودة إلى المدينة

ولمّا أشرف رسول الله ﷺ على المدينة قال بحنان: «**هذه طابة**». ولمّا رأى أُحُدًا قال: «**هذا جبلٌ يحبّنا ونحبّه**» صحيح البخاري ١٤٨١.

وفي الحديث نفسه قال رسول الله ﷺ حين قارب المدينة: «**إنّي متعجّلٌ إلى المدينة، فمن أراد منكم أن يتعجّل معي فليتعجّل**». فالحنين إلى الوطن ومواضع العبادة فطرةٌ لا تنافي الإيمان.

من كتب السيرة: أنشودة الصبيان عند ثنيّة الوداع

روى السائب بن يزيد رضى الله عنه :«**أذكر أنّي خرجتُ مع الصبيان نتلقّى النبيّ ﷺ إلى ثنيّة الوداع مقدَمَه من غزوة تبوك**» صحيح البخاري ٤٤٢٧.

وكثيرًا ما يُنسب نشيد «طلع البدر علينا» إلى الهجرة، لكنّ بعض العلماء كابن القيّم رأى أنّ الأولى أن يكون قد أُنشد عند **الرجوع من تبوك**، لأنّ ثنيّة الوداع من جهة الشام. ورواية النشيد نفسها **ليس لها إسنادٌ صحيح**.

المرجع:

ابن القيّم، زاد المعاد – فصل غزوة تبوك.

ولمّا بلغ رسول الله ﷺ المدينة بدأ بـ**المسجد** فصلّى فيه ركعتين، ثمّ جلس للناس. وهناك جاءه المخلّفون، وهم بضعةٌ وثمانون رجلًا، يعتذرون – ومن هناك بدأت قصّة **الثلاثة الصادقين** التي ستأتي في الحلقة الخامسة والعشرين.

سورة التوبة: وحيٌ على الطريق

غزوة تبوك هي الغزوة الوحيدة التي نزل فيها **الجزء الأكبر من سورةٍ كاملة**. فقد ذكر ابن كثير وغيره من المفسّرين أنّ آيات وسط سورة التوبة نزلت قبل المسير إلى تبوك وفي أثنائه وبعده، ترافق كلّ مرحلةٍ منه – كأنّ الوحي **يسير مع الجيش**.

الآية	الموضوع
9: 29	الأمر بقتال أهل الكتاب؛ الجزية
9: 38–41	عتاب المتثاقلين عن النفير
9: 42–57	أعذار المنافقين وصفاتهم
9: 64–66	استهزاء المنافقين في الطريق
9: 79–83	لمز الصدقات؛ «لا تنفروا في الحرّ»
9: 91–92	أصحاب الأعذار والبكّاؤون
9: 94–96	أعذار المنافقين بعد الرجوع
9: 107–110	مسجد الضرار
9: 117–118	توبة النبيّ والمهاجرين والأنصار والثلاثة

يبيّن هذا الجدول كيف **واكب القرآن الأحداث مباشرة**: يدعو قبل المسير، ويكشف الأسرار في أثنائه، ويقيّم كلّ فريقٍ بعد العودة. ويبيّن أيضًا أنّ سورة التوبة ليست سورة حربٍ فحسب، بل سورة **صدق القلوب**.

ولاحظ أنّ هذه السلسلة تنتهي بـ**آيات التوبة** (٩: ١١٧–١١٨). فمع شدّة السورة على المنافقين يبقى باب التوبة مفتوحًا – وستكون توبة الثلاثة الذين خُلِّفوا موضوع الحلقة الخامسة والعشرين. وستُشرح الآيات ٩: ١٠٧–١١٠ عن مسجد الضرار في الحلقة نفسها.

وذكر العلماء أنّ سورة التوبة من **آخر ما نزل من السور**، وهي السورة الوحيدة التي لم تُفتتح بالبسملة. وسيأتي بيان الحكمة في ذلك في الحلقة السابعة والعشرين، حين نحكي إعلان البراءة في موسم حجّ السنة التاسعة.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

مؤتة وتبوك

تبوك هي المرّة الثانية التي خرج فيها المسلمون لملاقاة الروم. والمقارنة بمؤتة تبيّن كم تقدّمت هذه الأمّة في **أقلّ من سنتين**:

البند	مؤتة (٨ هـ) ← تبوك (٩ هـ)
القيادة	زيد وجعفر وابن رواحة ← رسول الله ﷺ بنفسه
عدد الجيش	نحو ٣٠٠٠ ← نحو ٣٠٠٠٠
القتال	قتالٌ شديد ← لا قتال
الخسائر	استشهاد الأمراء الثلاثة ← لا شيء
الأثر	نجّى خالدٌ الجيش ← خضعت قبائل الحدود
الوحي	لا آيات خاصّة ← معظم سورة التوبة

إن كانت مؤتة **امتحان شجاعة** فتبوك **امتحان إخلاص**. ففي مؤتة كان العدوّ أمامهم، وفي تبوك كان أكبر عدوٍّ هو **الهوى** – الحرّ، والبُعد، وبساتين النخل، ووسوسة المنافقين.

ومهّدت تبوك كذلك الطريق إلى **فتح الشام** في عهد أبي بكر وعمر. فالطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ إلى تبوك سلكته بعدُ جيوش الإسلام التي حرّرت بيت المقدس.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

مصادر القصّة

رُويت أخبار غزوة تبوك من مصادر متعدّدة بدرجاتٍ متفاوتة. ويلخّصها الجدول الآتي:

الحدث	المصدر والدرجة
الإعلان الصريح والحرّ	صحيح البخاري ٤٤١٨ — صحيح
إنفاق عثمان	جامع الترمذي ٣٧٠١ — حسن
أبو بكر وعمر	جامع الترمذي ٣٦٧٥ — حسن؛ ربطه بتبوك: من السيرة
الأشعريّون	صحيح البخاري ٤٤١٥ — صحيح
عليّ بمنزلة هارون	صحيح البخاري ٤٤١٦ — صحيح
أبو خيثمة	صحيح مسلم ٢٧٦٩ — صحيح
أبو ذرّ يمشي وحده	ابن إسحاق — إسناده ضعيف
الحِجْر	صحيح البخاري ٣٣٧٨، ٤٤١٩ — صحيح
عين تبوك والجمع	صحيح مسلم ٧٠٦ — صحيح
الريح الشديدة وأَيْلة	صحيح البخاري ١٤٨١ — صحيح
أُكَيْدر وجُبّة السندس	صحيح البخاري ٢٦١٦ — صحيح؛ التفاصيل: من السيرة
عشرون يومًا في تبوك	سنن أبي داود ١٢٣٥ — صحيح
أهل العقبة	صحيح مسلم ٢٧٧٩ — صحيح؛ التفاصيل: من السيرة
أصحاب الأعذار	صحيح البخاري ٤٤٢٣ — صحيح
خبر جيش الروم	الواقدي، ابن سعد — من السيرة

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

أكثر الأحداث الكبرى في تبوك تشهد لها **الأحاديث الصحيحة**، أمّا التفاصيل الإضافيّة فمن كتب السيرة. فنقبل الصحيح بيقين، وننقل روايات السيرة مع بيان درجتها.

أعلام غزوة تبوك

شهدت غزوة تبوك أكبر جيشٍ في حياة رسول الله ﷺ، لكنّ قصّتها تُذكر من خلال أعلامٍ بأعيانهم. ويجمعهم هذا الجدول في موضعٍ واحد: القبيلة، والدور في هذه الأحداث، والمصدر. وما لم يرد إلّا في كتب السيرة نبّه عليه.

الاسم	القبيلة / الصلة	الدور في تبوك	المصدر
عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه	قريش (بنو هاشم)؛ ابن عمّ رسول الله وصهره ﷺ	خُلِّف على أهله: «بمنزلة هارون من موسى»	صحيح البخاري ٤٤١٦ (الفصل ١٤)
محمّد بن مسلمة رضى الله عنه	الأوس (الأنصار)	استُعمل على المدينة في غيبته	كتب السيرة؛ وفي رواية أخرى سِباع بن عُرْفُطة الغفاريّ
عثمان بن عفّان رضى الله عنه	قريش (بنو أميّة)	أعظم نفقةٍ في جيش العسرة	جامع الترمذي ٣٧٠١ (الفصل ٦)
عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه	قريش (بنو زهرة)	أمّ الناس في صلاة الصبح، وصلّى رسول الله ﷺ خلفه	صحيح مسلم ٢٧٤ (الفصل ٣٢)
المغيرة بن شعبة رضى الله عنه	ثقيف	صحب رسول الله وصبّ عليه ماء الوضوء	صحيح مسلم ٢٧٤ (الفصل ٣٢)
أبو موسى الأشعريّ رضى الله عنه	الأشعريّون (اليمن)	طلب الحُمْلان لقومه	صحيح البخاري ٤٤١٥ (الفصل ١٠)

الاسم	القبيلة / الصلة	الدور في تبوك	المصدر
أبو خيثمة رضى الله عنه	الأنصار (الخزرج، على ما في كتب السيرة)	تخلّف أوّلًا ثمّ لحق بتبوك	صحيح مسلم ٢٧٦٩؛ كتب السيرة (الفصل ١٥)
أبو ذرّ الغفاريّ رضى الله عنه	غفار	مشى وحده لمّا أبطأ به بعيره	كتب السيرة (الفصل ١٥)
خالد بن الوليد رضى الله عنه	قريش (بنو مخزوم)	بُعث إلى دُومة الجندل	كتب السيرة؛ صحيح البخاري ٢٦١٦ (الفصل ٢٢)
حذيفة بن اليمان رضى الله عنه	بنو عبس؛ وكان أبوه حليف بني عبد الأشهل (الأوس)	عرف أسماء أصحاب مؤامرة العقبة	صحيح مسلم ٢٧٧٩ (الفصل ٢٤)
عمّار بن ياسر رضى الله عنه	بنو عَنْس (مَذْحِج)؛ وكان أهله حلفاء بني مخزوم	قاد ناقة رسول الله في العقبة	كتب السيرة (الفصل ٢٤)
عبد الله ذو البِجادَيْن رضى الله عنه	مُزَيْنة	مات بتبوك ودفنه رسول الله بنفسه	كتب السيرة؛ إسناده ضعيف (الفصل ٣٣)
الجَدّ بن قيس	بنو سلمة (الخزرج)	استأذن في التخلّف (التوبة ٩: ٤٩)	كتب التفسير والسيرة (الفصل ١١)

الاسم	القبيلة / الصلة	الدور في تبوك	المصدر
أُكَيْدر بن عبد الملك	كِنْدة (السَّكون)؛ ملك دُومة الجندل	أُسر ثمّ صالح على الجزية	كتب السيرة؛ صحيح البخاري ٢٦١٦ (الفصل ٢٢)
يُحَنّة بن رُؤْبة	صاحب أَيْلة	جاء فصالح	صحيح البخاري ١٤٨١ («ملك أيلة»)؛ والاسم من كتب السيرة (الفصل ٢١)
كعب بن مالك ومُرارة بن الربيع وهلال بن أميّة رضي الله عنهم	كعب: الخزرج (بنو سلمة)؛ مُرارة وهلال: الأوس	الثلاثة الذين تخلّفوا بلا عذر	صحيح البخاري ٤٤١٨ (الحلقة ٢٥)

انظر إلى التنوّع في هذا الجدول: قريشٌ وأنصار، عربٌ وغير عرب، أغنياء ومشاةٌ على أقدامهم، صحابةٌ أوفياء ومنافقون. كلّهم في مسيرٍ واحد، والله يزن كلّ امرئٍ بقلبه.

العبرة

تبوك امتحانٌ يُمحّص: ففي سفرٍ واحد ظهر من ينفق ماله، ومن يبكي لعجزه عن الخروج، ومن يبحث عن الأعذار. وكلّ واحدٍ منّا يكتب دوره في «جدول» الحياة، والله عليمٌ بذات الصدور.

أحكامٌ من سفر تبوك

أثمر سفرٌ تجاوز سبعمائة كيلومتر في الصيف أحكامًا كثيرة لا تزال معمولًا بها إلى اليوم. ويضيف هذا الفصل حديثًا مهمًّا لم يُذكر بعد، ثمّ يجمع أحكام الفصول السابقة في جدولٍ واحد.

رسول الله ﷺ يصلّي خلف عبد الرحمن بن عوف

حدّث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه أنّه غزا مع رسول الله ﷺ تبوك. فتبرّز رسول الله قبل الفجر، وحمل المغيرة معه إداوة. فلمّا رجع صبّ عليه، فتوضّأ ومسح على خُفّيه.

فلمّا أقبلا وجدا الناس قد قدّموا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فصلّى بهم. فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين، فصلّى مع الناس الركعة الآخرة. فلمّا سلّم عبد الرحمن قام يُتمّ صلاته، فأفزع ذلك المسلمين فأكثروا التسبيح. فلمّا قضى صلاته قال: «أحسنتم» — أو قال: «قد أصبتم» — يغبطهم أن صلّوا الصلاة لوقتها (صحيح مسلم ٢٧٤).

وفي الحديث فوائد: جواز المسح على الخفّين في السفر، وأنّ القائد الكبير يجوز أن يأتمّ بمن هو دونه منزلة، وأنّ الصلاة في أوّل الوقت أولى من انتظار إمامٍ متأخّر إذا طال التأخّر.

الحكم	الدليل	الفصل
المسح على الخفّين في السفر	صحيح مسلم ٢٧٤	32
الصلاة خلف إمامٍ دون المأموم منزلة؛ وإتمام ما فات (المسبوق)	صحيح مسلم ٢٧٤	32
الجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء في السفر	صحيح مسلم ٧٠٦	19
قصر الصلاة عشرين يومًا في تبوك	سنن أبي داود ١٢٣٥	23
ترك ماء آبار ثمود المعذَّبين إلّا بئر ناقة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ	صحيح البخاري ٣٣٧٨، ٣٣٧٩	16–17

الحكم	الدليل	الفصل
المرور بمواضع العذاب باكين مسرعين	صحيح البخاري ٤٤١٩-٤٤٢٠	17
أخذ الجزية من أهل الكتاب صلحًا	التوبة ٩: ٢٩؛ صحيح البخاري ١٤٨١	21
من حبسه العذر له أجر الخارج	صحيح البخاري ٤٤٢٣	26
استشارة القائد وجمع الأزواد عند الضيق	صحيح مسلم ٢٧	33

ملاحظة فقهيّة: القصر عشرين يومًا

اختلف العلماء في المدّة التي يقصر فيها المسافر إذا أقام في موضع. فعند الشافعيّة: إن نوى إقامة أربعة أيّامٍ فأكثر لم يعد مسافرًا، وإن أقام لا يدري متى تنقضي حاجته قصر إلى ثمانية عشر يومًا. وحدّ الحنفيّة نيّة إقامة خمسة عشر يومًا.

وفهم أكثر العلماء أنّ رسول الله ﷺ قصر عشرين يومًا بتبوك لأنّه لم ينوِ الإقامة؛ بل كان يترقّب الأحداث، لا مقيمًا مدّةً محدّدة. وتفصيل ذلك في كتب الفقه كالمجموع للنوويّ؛ وفي الحالات الخاصّة يُرجع إلى أهل الفتوى المحلّيّين.

العبرة

تيسّر الشريعة على أهل المشقّة: المسح على الخفّين، والجمع، والقصر. لكنّ الرخصة لا تُسقط الانضباط: فالصلاة تُؤدّى في وقتها، ولو لم يصل رسول الله ﷺ نفسه بعد.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

قصصٌ صغيرة على الطريق

في ثنايا أحداث تبوك الكبرى قصصٌ صغيرة تمسّ القلب. بعضها صحيحٌ في صحيح مسلم، وبعضها من روايات كتب السيرة. ويجمع هذا الفصل ثلاثًا منها مع بيان درجة كلٍّ منها.

الزاد المبارك

في غزوة تبوك أوشكت أزواد الصحابة أن تنفد حتّى أصابتهم مجاعة، فاستأذنوا في نحر نواضحهم. فقال عمر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ: إن فعلوا قلّ الظَّهْر، ولكن ادعُهم بفضل أزوادهم ثمّ ادعُ الله لهم عليها بالبركة.

فقال: «نعم». فدعا بنِطَعٍ فبُسط، ثمّ دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكفّ ذُرَة، ويجيء الآخر بكفّ تمر، ويجيء الآخر بكِسْرة. فدعا رسول الله بالبركة، ثمّ قال: «خذوا في أوعيتكم»، فأخذوا حتّى ما تركوا في العسكر وعاءً إلّا ملؤوه. فقال: «أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيُحجب عن الجنّة» (صحيح مسلم ٢٧).

ولاحظ أنّ رسول الله ﷺ قبل مشورة عمر: فالشورى قائمةٌ حتّى في مقام المعجزة. ثمّ أُتبعت المعجزة بتذكيرٍ بالتوحيد – لئلّا تتعلّق القلوب بالخوارق بل بالله.

الناقة الضالّة

روت كتب السيرة (ابن إسحاق) أنّ ناقة رسول الله ﷺ ضلّت في الطريق، فقال منافقٌ اسمه زيد بن اللُّصَيت: «يزعم محمّد أنّه نبيّ ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته!» فقال رسول الله: «إنّي والله لا أعلم إلّا ما علّمني الله، وقد دلّني الله عليها: هي في الوادي في شِعب كذا وكذا، قد حبستها شجرةٌ بزمامها». فذهبوا فوجدوها كما قال. وهذه القصّة من روايات كتب السيرة.

وفي جوابه درسٌ في العقيدة: النبيّ لا يعلم الغيب بنفسه، إلّا ما أوحاه الله إليه.

ذو البِجادَيْن: القبر الذي غُبط صاحبه

عبد الله ذو البِجادَيْن رضى الله عنه شابٌّ من مُزَيْنة. ومعنى لقبه «صاحب البِجادَين»، إذ لمّا أسلم جرّده قومه من ثيابه فخرج في بِجادٍ شقّه نصفين. ومات بتبوك ليلًا.

وروي أنّ رسول الله ﷺ نزل في قبره بنفسه، وأبو بكر وعمر يُدليانه إليه. فلمّا وضعه قال: «اللهمّ إنّي أمسيتُ راضيًا عنه فارضَ عنه». فقال ابن مسعود رضى الله عنه: «يا ليتني كنتُ صاحب الحفرة». روى هذه القصّة ابن إسحاق والطبرانيّ، وضعّف الهيثميّ إسناد الطبرانيّ (مجمع الزوائد ٤٢٣٧). وهي تُذكر هنا روايةً من السيرة.

العبرة

تعلّمنا هذه القصص الصغيرة أنّ الله لا ينسى أحدًا: كفّ تمر، وناقةٌ ضالّة، وشابٌّ فقير مات بعيدًا عن دياره. فالكرامة عند الله لا تُقاس بالمال ولا بالثياب، بل بالإيمان والتضحية.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

تبوك والحِجْر بين الأمس واليوم

لا تزال مواضع قصّة تبوك قائمةً اليوم، وصار بعضها مقصدًا للزوّار من أنحاء العالم. ويصل هذا الجدول أسماء كتب السيرة بمواقعها الحاليّة، وما كان موقعه غير مؤكّد نبّه عليه.

الاسم في السيرة	اليوم	ملاحظة
ثنيّة الوداع	شمال المدينة	معسكر الجيش ومنطلقه؛ وقد اختلف المؤرّخون في تحديد موضعها
وادي القرى	منطقة العُلا، شمال غرب المدينة	حديقة المرأة التي أمرت بإحصاء ثمرها (الفصل ٢٠)
الحِجْر	الموقع الأثريّ الحِجْر (مدائن صالح)، شمال العُلا	ديار ثمود؛ مرّوا بها باكين (الفصلان ١٦–١٧)
تبوك	مدينة تبوك في شمال غرب المملكة العربيّة السعوديّة	أكثر من سبعمائة كيلومتر من المدينة بالطرق الحديثة (تقريبًا)
أَيْلة	منطقة خليج العقبة (العقبة في الأردن وإيلات)	جاء ملك أيلة فصالح (الفصل ٢١)
دُومة الجندل	منطقة الجوف، شمال المملكة العربيّة السعوديّة	حصن أُكَيْدر (الفصل ٢٢)

الحِجْر: أوّل موقعٍ سعوديّ في التراث العالميّ

في سنة ٢٠٠٨ أدرجت اليونسكو موقع الحِجْر في قائمة التراث العالميّ – أوّل موقعٍ في المملكة العربيّة السعوديّة. ويضمّ الموقع ١١١ مقبرةً كبيرة منحوتةً في جبال الحجر الرمليّ، منها ٩٤ مزخرفة، ويعود تاريخها إلى نحو القرن الأوّل قبل الميلاد حتّى القرن الأوّل الميلاديّ (سعود يبيديا).

وينبغي التنبّه إلى أنّ المقابر الظاهرة اليوم بناها الأنباط بعد زمن ثمود بزمنٍ طويل. والتراث الإسلاميّ يعيّن تلك المنطقة ديارًا لثمود المذكورين في القرآن (الحجر ١٥: ٨٠-٨٤)، لكن ليست كلّ الأبنية القائمة اليوم لثمود بالضرورة. والثابت في الحديث الصحيح أمرُ رسول الله ﷺ بالمرور بمواضع العذاب باكين معتبرين (صحيح البخاري ٤٤١٩-٤٤٢٠).

تبوك اليوم

تبوك اليوم عاصمة منطقة تبوك في شمال غرب المملكة العربيّة السعوديّة. وفي المدينة مسجد التوبة الذي يعرفه أهلها بـ«مسجد النبيّ» (زوروا السعوديّة). ويربطه أهل البلد بموضع صلاة رسول الله ﷺ في تبوك؛ وهذا الربط تقليدٌ محلّيّ لم يثبت بحديث.

العبرة

قد تكون المواقع التاريخيّة تذكرةً قويّة، لكنّ أدب الإسلام عند زيارتها واضح: الاعتبار لا مجرّد الترفيه. فقد مرّ رسول الله ﷺ بالحِجْر مقنّعًا رأسه باكيًا، وهو خير قدوةٍ لكلّ زائر.

الخطّ الزمنيّ لغزوة تبوك

يرتّب هذا الجدول أحداث غزوة تبوك على تسلسلها. وأكثر التواريخ تقريبيّة من كتب السيرة كابن إسحاق وابن سعد والواقديّ.

الوقت	الحدث	المصدر / الفصل
بعد حنين والطائف (٨ هـ)	بلوغ خبر حشود الروم في الشام إلى المدينة	كتب السيرة (الفصل ٢)
أوائل رجب ٩ هـ	الإعلان الصريح بالخروج؛ تجهيز جيش العسرة	صحيح البخاري ٤٤١٨ (الفصلان ٣، ٥)
قبل المسير	إنفاق عثمان وأبي بكر وعمر والصحابة؛ والبكّاؤون	جامع الترمذي ٣٧٠١، ٣٦٧٥؛ التوبة ٩: ٩٢ (الفصول ٦–٩)
قبل المسير	أعذار المنافقين؛ الجدّ بن قيس يستأذن	التوبة ٩: ٤٢، ٩: ٤٩ (الفصلان ١١–١٢)
رجب ٩ هـ	خروج الجيش في نحو ثلاثين ألفًا؛ وتخليف عليّ على الأهل	كتب السيرة؛ صحيح البخاري ٤٤١٦ (الفصلان ١٤، ٥)
في الطريق	لحاق أبي خيثمة وأبي ذرّ	صحيح مسلم ٢٧٦٩؛ كتب السيرة (الفصل ١٥)
في الطريق	المرور بالحِجْر باكين	صحيح البخاري ٣٣٧٨، ٤٤١٩ (الفصلان ١٦–١٧)
في الطريق	الزاد المبارك؛ وإمامة عبد الرحمن بن عوف	صحيح مسلم ٢٧، ٢٧٤ (الفصلان ٣٢–٣٣)

الوقت	الحدث	المصدر / الفصل
الوصول إلى تبوك	جريان عين تبوك	صحيح مسلم ٧٠٦ (الفصل ١٨)
في تبوك (نحو ٢٠ يومًا)	قصر الصلاة؛ والروم لم يظهروا	سنن أبي داود ١٢٣٥ (الفصل ٢٣)
في تبوك	الصلح مع أيلة وجَرْباء وأَذْرُح	صحيح البخاري ١٤٨١؛ كتب السيرة (الفصل ٢١)
في تبوك	بعث خالد إلى دُومة الجندل؛ ومصالحة أُكَيْدر	كتب السيرة؛ صحيح البخاري ٢٦١٦ (الفصل ٢٢)
طريق العودة	مؤامرة العقبة	صحيح مسلم ٢٧٧٩؛ كتب السيرة (الفصل ٢٤)
رمضان ٩ هـ	الوصول إلى المدينة: «هذه طابة»	صحيح البخاري ١٤٨١ (الفصل ٢٧)
بعد الرجوع	قصّة الثلاثة الذين خُلِّفوا ومسجد الضرار	صحيح البخاري ٤٤١٨؛ التوبة ٩: ١٠٧ (الحلقة ٢٥)

العبرة

استغرقت غزوة تبوك نحو شهرين بلا قتال، لكنّها غيّرت خريطة جزيرة العرب: فخضعت قبائل الشمال لعهود الصلح، وأدرك الروم قوّةً جديدة في الجنوب. وقد يُنال النصر أحيانًا دون أن يُسلّ سيفٌ واحد.

أسئلة شائعة عن غزوة تبوك

هذه اثنا عشر سؤالًا كثيرًا ما تُطرح عن غزوة تبوك، مع أجوبةٍ موجزة وإحالةٍ إلى فصول هذا الكتاب.

١. لماذا سُمّي هذا الجيش جيش العسرة؟

لأنّه خرج في وقتٍ شديد الصعوبة: صيفٌ لاهب، وسفرٌ بعيد، وقلّةٌ في الظَّهْر والزاد، والثمار قد طابت. والاسم مأخوذ من التوبة ٩: ١١٧ (الفصلان ٤–٥).

٢. هل وقع قتال في تبوك؟

لا. لم يظهر جيش الروم، وأقام رسول الله ﷺ بتبوك نحو عشرين يومًا، ثمّ رجع بعد أن صالح بعض قبائل الشمال (الفصول ٢١–٢٣).

٣. كم كان عدد جيش المسلمين؟

تذكر كتب السيرة نحو ثلاثين ألفًا، وهو أكبر جيشٍ في حياة رسول الله ﷺ. وفي حديث كعب بن مالك أنّهم كانوا كثيرًا لا يجمعهم كتابٌ حافظ (صحيح البخاري ٤٤١٨؛ الفصل ٥).

٤. من استُخلف على المدينة؟

تذكر كتب السيرة أنّ محمّد بن مسلمة استُعمل على المدينة، وفي روايةٍ أخرى سِباع بن عُرْفُطة. وخُلِّف عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه على أهل رسول الله (صحيح البخاري ٤٤١٦؛ الفصل ١٤).

٥. هل كانت تبوك آخر غزوةٍ خرج فيها رسول الله ﷺ؟

نعم. تبوك آخر غزوةٍ قادها بنفسه. وبعدها كان يبعث السرايا، كجيش أسامة بن زيد الذي جُهّز قُبيل وفاته (الفصل ١).

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

٦. هل تصحّ قصّة ثعلبة بن حاطب الذي منع الزكاة؟

القصّة مشهورة في تفسير التوبة ٩: ٧٥-٧٧، لكنّ أهل الحديث حكموا بأنّها لا تصحّ. فقد ضعّف العراقيّ إسنادها، وقال ابن حجر إنّه لا يظنّها صحيحة، وردّها ابن حزم. وثعلبة بن حاطب صحابيٌّ بدريّ (مفتي الأقاليم الاتّحاديّة في ماليزيا). فلا ينبغي نشر هذه القصّة دون بيان.

٧. هل تجوز زيارة الحِجْر (مدائن صالح) اليوم؟

أمر الحديث الصحيح بالمرور بمواضع العذاب باكين معتبرين (صحيح البخاري ٤٤١٩-٤٤٢٠). واختلف العلماء في الزيارة السياحيّة لمثل هذه المواقع؛ والمتّفق عليه النهي عن زيارتها بغفلةٍ ومرح. فمن زارها فليلتزم الأدب الذي علّمه رسول الله ﷺ (الفصلان ١٧ و٣٤).

٨. لماذا قصر رسول الله ﷺ الصلاة عشرين يومًا؟

لأنّه لم ينوِ الإقامة، بل كان يترقّب الأحداث. واختلف العلماء في مدّة القصر لمن أقام في موضع (الفصل ٢٣ والملاحظة الفقهيّة في الفصل ٣٢).

٩. ما الجزية؟

الجزية مالٌ سنويّ يؤدّيه أهل الكتاب الذين بينهم وبين الدولة الإسلاميّة عهد، وفي مقابلها تُصان أنفسهم وأموالهم وحرّيّتهم الدينيّة. وقد ذُكرت في التوبة ٩: ٢٩، وعُمل بها في الصلح مع أيلة ودُومة الجندل (الفصلان ٢١-٢٢).

١٠. من هم أصحاب مؤامرة العقبة؟

ذكر صحيح مسلم عددهم، أمّا أسماؤهم فقد كتمها رسول الله ﷺ ولم يُخبر بها إلّا حذيفة رضى الله عنه. وتفاصيل القصّة من روايات كتب السيرة (صحيح مسلم ٢٧٧٩؛ الفصل ٢٤).

١١. ماذا جرى للمخلّفين؟

جاء المنافقون يعتذرون فقُبلت علانيتهم. أمّا الثلاثة الصادقون – كعب بن مالك ومُرارة بن الربيع وهلال بن أميّة – فهُجروا خمسين ليلةً حتّى تيب عليهم. وستُروى قصّتهم كاملةً في الحلقة الخامسة والعشرين.

١٢. ما أهمّ دروس غزوة تبوك لنا اليوم؟

يُمتحن الإيمان في أشدّ الأحوال كراهةً للنفس. فقد ميّزت تبوك من ينفق ماله وجهده في العسرة ممّن يبحث عن الأعذار. ولكلّ زمانٍ «تبوكُه» – لحظةٌ نختار فيها بين الراحة والطاعة.

العبرة

تذكّرنا هذه الأسئلة بالتمييز بين القرآن والحديث الصحيح وروايات كتب السيرة والقصص الضعيفة. فهيكل قصّة تبوك ثابتٌ بالقرآن والحديث الصحيح، أمّا تفاصيل الأسماء والتواريخ والأعداد فننقلها بحسب درجتها.

الدروس والخاتمة

غزوة تبوك غزوةٌ بلا قتال، لكنّها من **أعظم الامتحانات** في السيرة. فقد ميّزت صفوف المسلمين إلى فئاتٍ واضحة: من أنفق كلّ ما يملك، ومن بكى لعجزه عن الخروج، ومن تخلّف غفلةً، ومن اختلق الأعذار نفاقًا.

العبرة	من تبوك
شفافية القائد	الإعلان الصريح عن المشقّة
إنفاقٌ بلا حدود	عثمان وأبو بكر وعمر
صدقةٌ صغيرة بقيمةٍ كبيرة	صاع تمر أبي خيثمة
النيّة الصادقة	دموع البكّائين
الحذر من الأعذار	«لا تنفروا في الحرّ»
عبرة التاريخ	البكاء في الحِجْر
تيسير الشريعة	الجمع والقصر
نصرٌ بلا دماء	الصلح مع أيلة ودُومة
الدين ليس هزلًا	التوبة ٩: ٦٥–٦٦

تبوك في حياتنا

سيواجه كلّ واحدٍ منّا «تبوكَه»: لحظةً تقتضي فيها الطاعة ترك الراحة – الظلّ، والبستان الذي أوشك قطافه، أو الراحة المشتهاة. وفي تلك اللحظة يمكن أن نكون عثمان المنفق، أو أبا خيثمة الذي نهض ولحق، أو البكّائين الذين بكوا لعجزهم، أو – والعياذ بالله – الذين قالوا «**لا تنفروا في الحرّ**». والاختيار دائمًا بأيدينا.

إن شاء الله نتواصل سلسلة **السيرة النبويّة بالحلقة الخامسة والعشرين – كعب بن مالك ومسجد الضرار:** قصّة ثلاثةٍ من الصحابة تخلّفوا فاختاروا الصدق، وخمسين ليلةً من الهجر، وتوبةٍ نزلت من السماء، ومسجدٍ بُني للتفريق بين المؤمنين. والله أعلم.

المراجع – الْحَلْقَةُ ٢٤

القرآن الكريم والتفسير

القرآن الكريم، بالرسم العثماني. https://quran.com/ms

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (التوبة ٩: ٢٩، ٩: ٣٨–٤٢، ٩: ٤٩، ٩: ٦٥–٦٦، ٩: ٧٩، ٩: ٨١، ٩: ٩١–٩٢، ٩: ١١٧؛ الحجر ١٥: ٨٠–٨٤). https://tafsir.app/ibn-katheer/9/38

الحديث الشريف

صحيح البخاري ١٤١٧، ١٤٨١، ٢٦١٦، ٢٧٤٢، ٢٧٧٨، ٢٩٩٦، ٣٢٦٥، ٣٣٧٨، ٣٣٧٩، ٤٤١٥، ٤٤١٦، ٤٤١٨، ٤٤١٩، ٤٤٢٠، ٤٤٢٣، ٤٤٢٧، ٤٦٦٨، ٤٩٠٥، ٦٦٢٣.

https://sunnah.com/bukhari

صحيح مسلم ٧٠٦، ٢٧٦٩، ٢٧٧٩. https://sunnah.com/muslim

جامع الترمذي ٣٦٧٥، ٣٧٠١؛ سنن أبي داود ١٢٣٥. https://sunnah.com

كتب السيرة والشروح

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب غزوة تبوك.

الواقدي، المغازي؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى.

ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن القيّم، زاد المعاد – فصل غزوة تبوك.

ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري شرح صحيح البخاري – كتاب المغازي، باب غزوة تبوك.

صفيّ الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم – باب غزوة تبوك.

التاريخ العامّ

ويكيبيديا، «Expedition of Tabuk». https://en.wikipedia.org/wiki/Expedition_of_Tabuk

ويكيبيديا، «Tabuk, Saudi Arabia». https://en.wikipedia.org/wiki/Tabuk,_Saudi_Arabia

ويكيبيديا، «Hegra (Mada’in Salih)». https://en.wikipedia.org/wiki/Hegra_(Mada%27in_Salih)

ويكيبيديا، «Dumat al-Jandal». https://en.wikipedia.org/wiki/Dumat_al-Jandal

ويكيبيديا، «Aqaba». https://en.wikipedia.org/wiki/Aqaba

ويكيبيديا، «Uthman». https://en.wikipedia.org/wiki/Uthman

ويكيبيديا، «Byzantine Empire». https://en.wikipedia.org/wiki/Byzantine_Empire

أحاديث ومصادر إضافية

صحيح مسلم ٢٧٤ (إمامة عبد الرحمن بن عوف في تبوك). https://sunnah.com/muslim:274

صحيح مسلم ٢٧ (الزاد المبارك في غزوة تبوك). https://sunnah.com/muslim:27b

صحيح البخاري ٤٤١٦ (عليّ بمنزلة هارون من موسى). https://sunnah.com/bukhari:4416

صحيح البخاري ٤٤١٩ (المرور بالحِجْر). https://sunnah.com/bukhari:4419

مجمع الزوائد ٤٢٣٧ (ذو البِجادَيْن). https://en.tohed.com/hadith/majma-al-zawaid/4237/

مفتي الأقاليم الاتّحاديّة في ماليزيا، إرشاد الحديث، الحلقة ٢٧: قصّة ثعلبة. https://muftiwp.gov.my/en/artikel/irsyad-al-hadith/1512-irsyad-al-hadith-series-27-the-story-of-tha-labah-who-refused-to-pay-zakat

سعوديبيديا، «Why Was the Site of Hijr Inscribed in the World Heritage List?». https://saudipedia.com/en/why-was-the-site-of-hijr-inscribed-in-the-world-heritage-list

ويكيبيديا، «Hegra». https://en.wikipedia.org/wiki/Hegra

ويكيبيديا، «Tabuk, Saudi Arabia». https://en.wikipedia.org/wiki/Tabuk,_Saudi_Arabia

زوروا السعوديّة، «Al-Tawbah Mosque». https://visitsaudi.com/en/tabuk/attractions/masjid-altawbah-in-tabuk

الْجُزْءُ الرَّابِعُ

كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَمَسْجِدُ الضِّرَارِ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ — الْحَلْقَةُ ٢٥

صِدْقُ ثَلَاثَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَخَمْسُونَ لَيْلَةً مِنَ الْهَجْرِ، وَمَسْجِدٌ بُنِيَ لِلتَّفْرِيقِ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

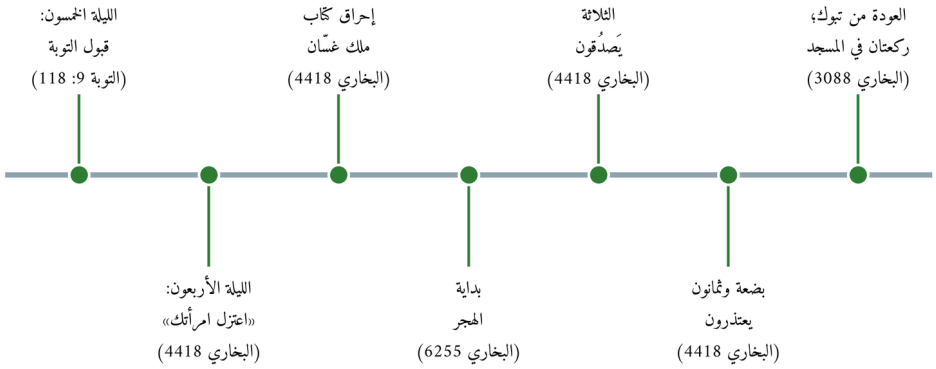
© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

كعب بن مالك ومسجد الضرار

انتهت الحلقة الرابعة والعشرون بعودة رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة. فجاءه بضعة وثمانون رجلًا ممّن تخلّفوا يعتذرون، فقبل منهم علانيتهم. لكنّ ثلاثةً من الصحابة اختاروا طريقًا آخر: **صَدَقوا**، وإن ساقهم الصدق إلى **خمسين ليلة** هي أشدّ ما مرّ بهم في حياتهم.

تحكي هذه الحلقة قصّتهم — ولا سيّما **كعب بن مالك** رضى الله عنه، الذي رواها بنفسه في واحدٍ من أطول الأحاديث وأشدّها تأثيرًا في صحيح البخاري (رقم ٤٤١٨) وصحيح مسلم (رقم ٢٧٦٩). ثمّ ننظر في حدثٍ آخر بعد تبوك: **مسجد الضرار**، المسجد الذي لم يُبنَ لله، بل للتفريق بين المؤمنين.

الخطّ الزمنيّ لقصّة الثلاثة الذين خُلِّفوا



كلّ هذه الأحداث مذكورة في حديث كعب بن مالك (صحيح البخاري 4418؛ صحيح مسلم 2769).

الرسم ١: التسلسل الزمني لقصّة الثلاثة الذين خُلِّفوا.

ملاحظة: الآيات القرآنية في هذا الكتاب بنصّها العربيّ. ودرجة كلّ حديث مذكورة في صندوق الحديث. وقصّة كعب بن مالك مرويّة اعتمادًا على حديثه الطويل في صحيح البخاري ٤٤١٨ وصحيح مسلم ٢٧٦٩. أمّا ما ورد في كتب السيرة — كقصّة أبي لبابة، وأبي عامر الراهب، وهدم مسجد الضرار — فموضوعٌ في الصندوق البنّيّ «من كتب السيرة».

الثلاثة الذين خُلِّفوا

في ختام قصّة تبوك في سورة التوبة يذكر الله تعالى جماعةً صغيرةً متميّزة. ليسوا من المنافقين، ولا من أهل الأعذار المقبولة. إنّهم **الثلاثة الذين خُلِّفوا**:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ (التوبة ٩: ١١٨) – تفسير ابن كثير ٩: ١١٨.

وهم **كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أميّة** رضي الله عنهم – وثلاثتهم من الأنصار. وقد فسّر كعبٌ نفسُه معنى «خُلِّفوا» في الآية: **ليس المراد تخلّفهم عن الغزو**، وإنّما أرجأ رسول الله ﷺ **أمرَهم** عن أمر من حلف له واعتذر فقبل منه، حتّى قضى الله فيه (صحيح البخاري ٤٤١٨).

قصّتهم قصّة **صدقٍ غالي الثمن، وتوبةٍ صادقة، ورحمةٍ من الله** تأتي بعد بلاءٍ طويل. وهي تبيّن كيف كان مجتمع المدينة يربّي أفراده: لا بالبغضاء، بل بانضباطٍ يقود إلى الإصلاح.

من هو كعب بن مالك؟

كعب بن مالك الأنصاريّ الخزرجيّ رضى الله عنه من بني سَلِمة، من السابقين إلى الإسلام في المدينة. شهد **ليلة العقبة** حين بايع الأنصارُ رسولَ الله ﷺ قبل الهجرة. وقال عنها: «ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أُحبّ أنّ لي بها مشهدَ بدر، وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها» (صحيح البخاري ٤٤١٨).

وكان كعبٌ أحدَ **شعراء رسول الله** ﷺ الثلاثة، مع حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، يذبّون عن الإسلام بالشعر حين هاجمته قريشٌ بالكلام. وشهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ **إلّا بدرًا وتبوك**. وقال عن بدر: لم يُعاتَب أحدٌ تخلّف عنها، إنّما خرج رسول الله ﷺ يريد عِيرَ قريش، حتّى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد.

فكعبٌ ليس رجلًا عاديًّا، بل هو **صحابيّ مؤمنٌ شجاعٌ صاحبُ سابقة**. وهذا ما يجعل قصّته ثمينة: فهي تعلّمنا أنّ **الصالح قد يزلّ**، وأنّ ما يميّزه هو ما يفعله بعد الزلّة.

من كتب السيرة: كعبٌ يحدّث بقصّته وهو كفيف

روى هذا الحديثَ عن كعبٍ ابنُه **عبد الله بن كعب**، وكان قائدَه حين عمي في كِبَره (صحيح البخاري ٤٦٧٨). أي إنّ كعبًا حدّث بهذه القصّة **بعد وقوعها بسنين طويلة**، بتفاصيل دقيقة – دليلًا على عمق أثرها في نفسه.

ويذكر أهل التاريخ أنّ كعبًا توفّي في خلافة معاوية رضى الله عنه، نحو سنة ٥٠ للهجرة.

المرجع:

ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة – ترجمة كعب بن مالك.

«غدًا أتجهّز»

حين نودي إلى تبوك كان كعبٌ في أحسن أحواله. قال: «**لم أكن قطّ أقوى ولا أيسر منّي حين تخلّفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قطّ، حتّى جمعتهما في تلك الغزوة**» (صحيح البخاري ٤٤١٨).

لم يكن له عذر. وإنّما كان داؤه داءً شائعًا جدًّا: **التسويف**. قال: «**فطفقت أغدو لكي أتجهّز معهم، فأرجع ولم أقضِ شيئًا، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه**». وظلّ يتمادى به حتّى اشتدّ بالناس الجِدّ، وأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم يقضِ كعبٌ من جهازه شيئًا.

بل بعد خروج الجيش ظلّ يقول: «أتجهّز بعده بيوم أو يومين ثمّ ألحقهم». ويعترف كعب نادمًا: «**فيا ليتني فعلت، فلم يُقدَّر لي ذلك**».

والعبرة قريبةٌ جدًّا من حياتنا. كم من خيرٍ أجّلناه بقولنا «غدًا» – نافلةً، أو تلاوةً، أو صدقةً، أو اعتذارًا – حتّى فاتت فرصته؟ قال بعض السلف: «**سوف جندٌ من جنود إبليس**». لم يكن كعبٌ ينوي التخلّف؛ إنّما **لم يعمل** وهو قادر.

المدينة الموحشة

بعد خروج الجيش بدأ كعبٌ يشعر بوحشةٍ غريبة في المدينة. قال: «**فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أنّي لا أرى إلّا رجلًا مغموصًا عليه النفاق، أو رجلًا ممّن عذر الله من الضعفاء**» صحيح البخاري ٤٤١٨.(

تخيّل شعورَ صحابيٍّ شهد ليلة العقبة وخاض الغزوات واحدةً بعد أخرى، ثمّ يمشي اليوم في أزقّة المدينة مع **المنافقين وأهل الأعذار**. لقد أدرك أنّه **في غير موضعه**، وسط جماعةٍ ليست جماعته.

وذكر كعبٌ أنّ المسلمين يومئذٍ كثير، **ولا يجمعهم كتابٌ حافظ** – يريد الديوان. فما من رجلٍ يريد أن يتغيّب إلّا ظنّ أنّه سيخفى له **ما لم ينزل فيه وحيٌ من الله**. وتلك هي الحقيقة: قد لا ينتبه الناس، لكنّ **الله بصيرٌ بالعباد**، والوحي يكشف كلّ شيء.

والعبرة: **محيطنا مرآةُ حالنا**. فإذا وجدنا أنفسنا لا نصحب إلّا الغافلين، فتلك علامةٌ على أنّنا بحاجةٍ إلى الرجوع. قال رسول الله ﷺ:«**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**» (سنن أبي داود ٤٨٣٣، حسن).

«ما فعل كعب؟»

لم يذكر رسول الله ﷺ كعبًا طوال الطريق حتّى بلغ تبوك. فقال وهو جالسٌ في القوم: «**ما فعل كعب؟**» فقال رجلٌ من بني سَلِمة: «يا رسول الله، حبسه بُرْداه ونظرُه في عِطْفيه» – أي شغله الترفّه والإعجاب بنفسه (صحيح البخاري ٤٤١٨).

فبادر **معاذ بن جبل** رضى الله عنه يذبّ عن أخيه: «**بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلّا خيرًا**». فسكت رسول الله ﷺ.

تأمّل أمرين. الأوّل: أنّ **رسول الله ﷺ تذكّر كعبًا** وسط ثلاثين ألفًا، فكلّ فردٍ له قيمته عنده. والثاني: أنّ **معاذًا ذبّ عن عرض أخيه** الغائب. قال رسول الله ﷺ:«**من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة**» (جامع الترمذي ١٩٣١، حسن).

والعبرة لمجالسنا: إذا اغتيب غائبٌ أو أُسيء به الظنّ، فكن كمعاذ – **أحسن الظنّ وذُبّ عنه**، ولا تزد. فنحن لا نعلم حقيقة حال أحد، والله وحده يعلم ما في القلوب.

العودة إلى المسجد

لمّا بلغه أنّ رسول الله ﷺ قد توجّه قافلًا حضره همّه. فطفق يتذكّر **الكذب** ويقول: «بماذا أخرج من سخطه غدًا؟» واستعان على ذلك بكلّ ذي رأيٍ من أهله. فلمّا قيل إنّ رسول الله ﷺ قد أظلّ قادمًا **زاح عنه الباطل**، وعرف أنّه لن يخرج منه أبدًا بشيءٍ فيه كذب، **فأجمع صدقه**) صحيح البخاري ٤٤١٨.(

وقدم رسول الله ﷺ صباحًا. وكان من عادته أن يبدأ بالمسجد:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٣٠٨٨

حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، وَعَمِّهِ، عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ عَنْ كَعْبٍ ـ رضى الله عنه ـ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ ضُحًى دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ.

السند رواه الإمام البخاري: عن أبي عاصم النبيل، عن ابن جريج، عن ابن شهاب الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب، عن أبيه عبد الله بن كعب وعمّه عبيد الله بن كعب، عن كعب بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الصلاة إذا قدم من سفر، حديث رقم ٣٠٨٨؛ وأخرجه مسلم برقم ٧١٦.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:3088

دروسٌ من هذا الحديث

ما أجمل هذه السنّة: بعد سفرٍ طويلٍ مُتعب، **أوّلُ ما يقصده بيتُ الله** لا بيته. وفي الركعتين **شكرٌ** على السلامة، وفيهما جعلُ المسجد أوّلَ ما يلقى فيه الناس. ثمّ يجلس بعد الصلاة للناس.

وقد استحبّ العلماء هذه السنّة لكلّ مسافرٍ قادم: **أن يبدأ بالمسجد فيصلّي فيه ركعتين** قبل دخول بيته إن تيسّر. وهي تذكّرنا بأنّ كلّ سفرٍ يبدأ بالله وينتهي إليه.

بضعة وثمانون عذرًا

ثمّ جاء المخلَّفون. قال كعب: «**فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله**» صحيح البخاري ٤٤١٨.

وقد أخبر الله رسولَه بذلك قبل أن يصل إلى المدينة:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ (التوبة ٩: ٩٤) – تفسير ابن كثير ٩: ٩٤.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ (التوبة ٩: ٩٥) – تفسير ابن كثير ٩: ٩٥.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة ٩: ٩٦) – تفسير ابن كثير ٩: ٩٦.

لقد «**نجح**» هؤلاء المنافقون في الدنيا: قُبلت أعذارهم ورجعوا إلى بيوتهم آمنين. لكنّ الله لم يرضَ عنهم. أمّا الثلاثة الصادقون فبدَوا «**خاسرين**» أوّل الأمر، ثمّ خُلّدت توبتهم في القرآن. هذا هو الفرق بين **النجاح العابر** و**الفلاح الحقيقيّ**.

ساعة الصدق

ثمّ جاء دور كعب. قال: فجئته فلمّا سلّمت عليه ﷺ **تبسّم تبسّم المُغضَب**، ثمّ قال: «تعال». فجئت أمشي حتّى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟**» صحيح البخاري ٤٤١٨(

وكان جواب كعبٍ من أصدق ما نطق به عبد: «**بلى، إنّي والله – يا رسول الله – لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلًا، ولكنّي والله لقد علمت لئن حدّثتك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عنّي ليوشكنّ الله أن يُسخطك عليّ، ولئن حدّثتك حديثَ صدقٍ تجِد عليّ فيه إنّي لأرجو فيه عفو الله. لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قطّ أقوى ولا أيسر منّي حين تخلّفت عنك**».

فقال رسول الله ﷺ :«**أمّا هذا فقد صدق، فقم حتّى يقضي الله فيك**».

لقد فهم كعبٌ أمرًا عميقًا: **خداع الناس قد ينجح، أمّا خداع الله فمحال**. فآثر أن يواجه غضب رسول الله ﷺ اليوم راجيًا عفو الله، على أن ينال رضا الناس بكذبٍ يكشفه الوحي في النهاية.

ثمّ ثار رجالٌ من بني سَلِمة فاتّبعوه فقالوا: «والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلّفون، قد كان كافيَك ذنبَك استغفارُ رسول الله ﷺ لك». فما زالوا يؤنّبونه حتّى **أراد أن يرجع فيكذّب نفسه**. كان ضغط المجتمع نحو الكذب شديدًا – لكنّه ثبت.

أعظم نعمة بعد الهداية

بعد سنين طويلة، حين تذكّر كعبٌ تلك الحادثة، لم يرها مصيبة، بل رآها **أعظم نعمة** في حياته بعد الإسلام:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٤٦٧٣

حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ تَبُوكَ، وَاللَّهِ، مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي أَعْظَمَ مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أُنْزِلَ الْوَحْىُ {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ} إِلَى {الْفَاسِقِينَ}.

السند رواه الإمام البخاري: عن يحيى بن بُكير، عن الليث بن سعد، عن عُقيل بن خالد، عن ابن شهاب الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾، حديث رقم ٤٦٧٣؛ والقصّة كاملة برقم ٤٤١٨، وأخرجه مسلم برقم ٢٧٦٩.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4673

دروسٌ من هذا الحديث

قارن كعبٌ نفسه بالذين كذبوا: نجَوا ساعة، لكنّ الله قال فيهم **شرّ ما قال لأحد** – ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ – وأغلق دونهم باب رضاه. أمّا كعب فقاسى خمسين ليلة، لكنّ **ذِكره جاء في القرآن بتوبةٍ مقبولة**.

هذا هو ميزان النعمة الحقّ. فقد يُنجّينا الله **بالشدّة**، وقد يترك أحدًا في **نعيمٍ مُهلِك**. لقد فهم كعبٌ أنّ الصدق المؤلم كان **باب النجاة**، وأنّ الكذب المريح باب الهلاك.

مُرارة وهلال

في تلك الضيقة سأل كعب: «هل لقي هذا معي أحد؟» قالوا: «نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك». قال: «من هما؟» قالوا: «**مُرارة بن الربيع العَمْريّ، وهلال بن أميّة الواقفيّ**» (صحيح البخاري ٤٤١٨)

قال كعب: «**فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، فيهما أُسوة**». فمضى ولم يرجع ليكذب. لقد **ثبّت قلبَه** أن علم أنّ رجلين صالحين اختارا الصدق أيضًا.

انظر إلى أهمّيّة **القدوة الصالحة**. فإذا كنّا في بلاء، فإنّ معرفتنا بأنّ صالحين سلكوا الطريق نفسه تمنحنا القوّة. ولذلك أمر الله في الآية النازلة مع هذه القصّة: ﴿**وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ (التوبة ٩: ١١٩).

كان هلال بن أميّة شيخًا من بني واقف، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف، وكلاهما **من أهل بدر** الذين ذكر رسول الله ﷺ فضلهم. وهذا يدلّ مرّةً أخرى على أنّ **الكريم قد يخطئ**، وأنّ شرف الماضي لا يُعفي صاحبه من التربية.

بداية الهجر

ثمّ جاء القرار الثقيل. قال كعب: «**ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيّها الثلاثة من بين من تخلّف عنه**». فاجتنبهم الناس وتغيّروا لهم، حتّى **تنكّرت في نفسه الأرض** فما هي بالتي يعرف (صحيح البخاري ٤٤١٨).

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٦٢٥٥

حَدَّثَنَا ابْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبٍ، قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ تَبُوكَ، وَنَهَى، رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ كَلاَمِنَا، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ أَمْ لاَ حَتَّى كَمَلَتْ خَمْسُونَ لَيْلَةً، وَآذَنَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى الْفَجْرَ.

السند رواه الإمام البخاري: عن يحيى بن بُكير، عن الليث بن سعد، عن عُقيل بن خالد، عن ابن شهاب الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب من لم يسلّم على من اقترف ذنبًا، حديث رقم ٦٢٥٥.

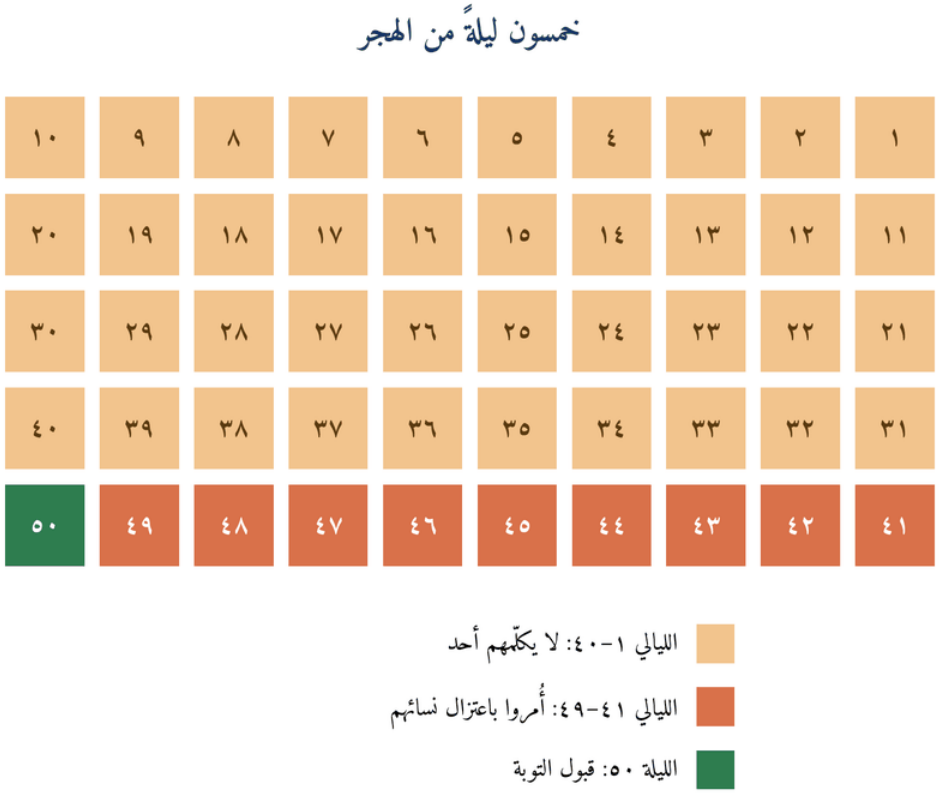
الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:6255

دروسٌ من هذا الحديث

أمّا مرارة وهلال ف**قعدا في بيوتهما يبكيان**. وأمّا كعب، وكان أشبّ القوم وأجلدهم، فكان يخرج فيشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف في الأسواق، **ولا يكلّمه أحد**. وكان يسلّم على رسول الله ﷺ بعد الصلاة

ويقول في نفسه: هل حرّك شفتيه بردّ السلام؟ ثمّ يصلّي قريبًا منه فيسارقه النظر: **فإذا أقبل على صلاته أقبل إليه، وإذا التفت نحوه أعرض عنه.**



بناءً على حديث كعب بن مالك (صحيح البخاري 4418، 6255).

الرسم ٢: خمسون ليلةً من الهجر.

في هذه التفصيلة الصغيرة ما يمسّ القلب. فرسول الله ﷺ **كان ما يزال ينظر إلى كعب** — لم يكن يبغضه. لكنّه كان يُمضي **التربية المأمور بها** منتظرًا حكم الله. وتلك النظرات المختلسة تدلّ على **رحمةٍ باقية** وراء الحزم.

ضاقت عليهم الأرض بما رحبت

مرّت أيّام الهجر بطيئة. ووصف كعبٌ حاله بكلماتٍ تكاد تطابق القرآن: «**قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت**». وبلغ حزنه ذروته حين تسوّر جدار حائط **أبي قتادة** – ابنِ عمّه وأحبِّ الناس إليه (صحيح البخاري ٤٤١٨).

فسلّم عليه، ف**والله ما ردّ عليه السلام**. فقال: «يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحبّ الله ورسوله؟» فسكت. فعاد فنشده فسكت، فعاد فنشده فقال: «**الله ورسوله أعلم**». ففاضت عينا كعب، وتولّى حتّى تسوّر الجدار.

انظر إلى طاعة أبي قتادة. كان يحبّ كعبًا، لكنّ **طاعته لرسول الله ﷺ غلبت عاطفته**. وجوابه لم يخالف النهي: لم يكلّم كعبًا، وإنّما قال كلمة حقّ. وهذا يدلّ على انضباط مجتمع المدينة – لم يخالف أحدٌ الأمر خِفيةً، ولو مع أقرب الأقارب.

وانظر كيف صوّر القرآن هذا الشعور بدقّة: ﴿**ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ**﴾ (التوبة ٩: ١١٨). فالضيق لم يكن في المكان، بل في **نفسٍ انقطعت صلتها**. والإنسان كائنٌ اجتماعيّ؛ وهجرُ الأحبّة له من أشدّ البلاء.

كتاب ملك غسّان

وفي وسط تلك الوحشة جاء بلاءٌ أخفى. فبينما كعبٌ يمشي في سوق المدينة إذا **نَبَطيٌّ من أنباط أهل الشام** ممّن قدم بالطعام يبيعه يقول: «من يدلّ على كعب بن مالك؟» فطفق الناس يشيرون له، حتّى دفع إليه كتابًا من **ملك غسّان**) صحيح البخاري ٤٤١٨.(

فإذا فيه: «**أمّا بعد، فإنّه قد بلغني أنّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نُواسِك**».

فقال كعب: «**وهذا أيضًا من البلاء**». فتيمّم بها **التنّور فسجره بها**.

كانت مملكة غسّان حليفةً للروم، العدوّ الذي واجهه المسلمون للتوّ في تبوك. والعدوّ يرقب دائمًا الشقوق في صفّ المسلمين ويحاول **استمالة المجروحين**. كان في وسع كعبٍ أن يقول: «لقد هُجرت وعوملت بشدّة». لكنّه لم يدع حزنه يصير **بابًا للخيانة**.

والعبرة قائمة اليوم: حين نُخذل من إخوتنا أو جماعتنا أو قادتنا، سيأتي من يعرض علينا «مكانًا أكرم». **وإحراق ذلك الكتاب** علامة إيمانٍ ناضج – فالولاء لله ورسوله لا يتوقّف على معاملة الناس لنا.

«اعتزل امرأتك»

فلمّا مضت **أربعون ليلة** من الخمسين ولم ينزل الوحي، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتي كعبًا فيقول: «**إنّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك**». فقال: «أطلّقها أم ماذا أفعل؟» قال: «لا، بل اعتزلها ولا تقربها». وأرسل إلى صاحبيه بمثل ذلك (صحيح البخاري ٤٤١٨).

فقال كعب لامرأته: «**الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتّى يقضي الله في هذا الأمر**». فأطاع فورًا بلا اعتراض.

وجاءت امرأة هلال بن أميّة رسولَ الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله، إنّ هلال بن أميّة شيخٌ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟» قال: «**لا، ولكن لا يقربك**». قالت: «إنّه والله ما به حركةٌ إلى شيء، والله **ما زال يبكي** منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا».

فقال له بعض أهله: لو استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنت امرأة هلال. فقال كعب: «لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول إذا استأذنته فيها **وأنا رجلٌ شابّ**». فاختار أن يجتنب كلّ ما قد يجرّ إلى الفتنة، وإن كان مباحًا لغيره.

تأمّل حكمة رسول الله ﷺ: أُذن لامرأة هلالٍ الشيخ الضعيف أن تخدمه، وأمّا كعبٌ الشابّ فحاله مختلفة. **فالحكم يراعي حال الفرد**، والرحمة حاضرةٌ في الحزم دائمًا.

الليلة الخمسون

ومضت عشر ليالٍ أخرى. قال كعب: «**فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا**». فلمّا صلّى الفجر صبيحةَ خمسين ليلة، على ظهر بيتٍ من بيوته (صحيح البخاري ٤٤١٨).

ووصف حاله في تلك الساعة: «**فبينا أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت...**». تلك أدنى نقطة في بلائه: خمسون يومًا بلا تحيّة ولا ابتسامة، وبلا زوجةٍ بجانبه، ولا يقينٍ بقبول توبته.

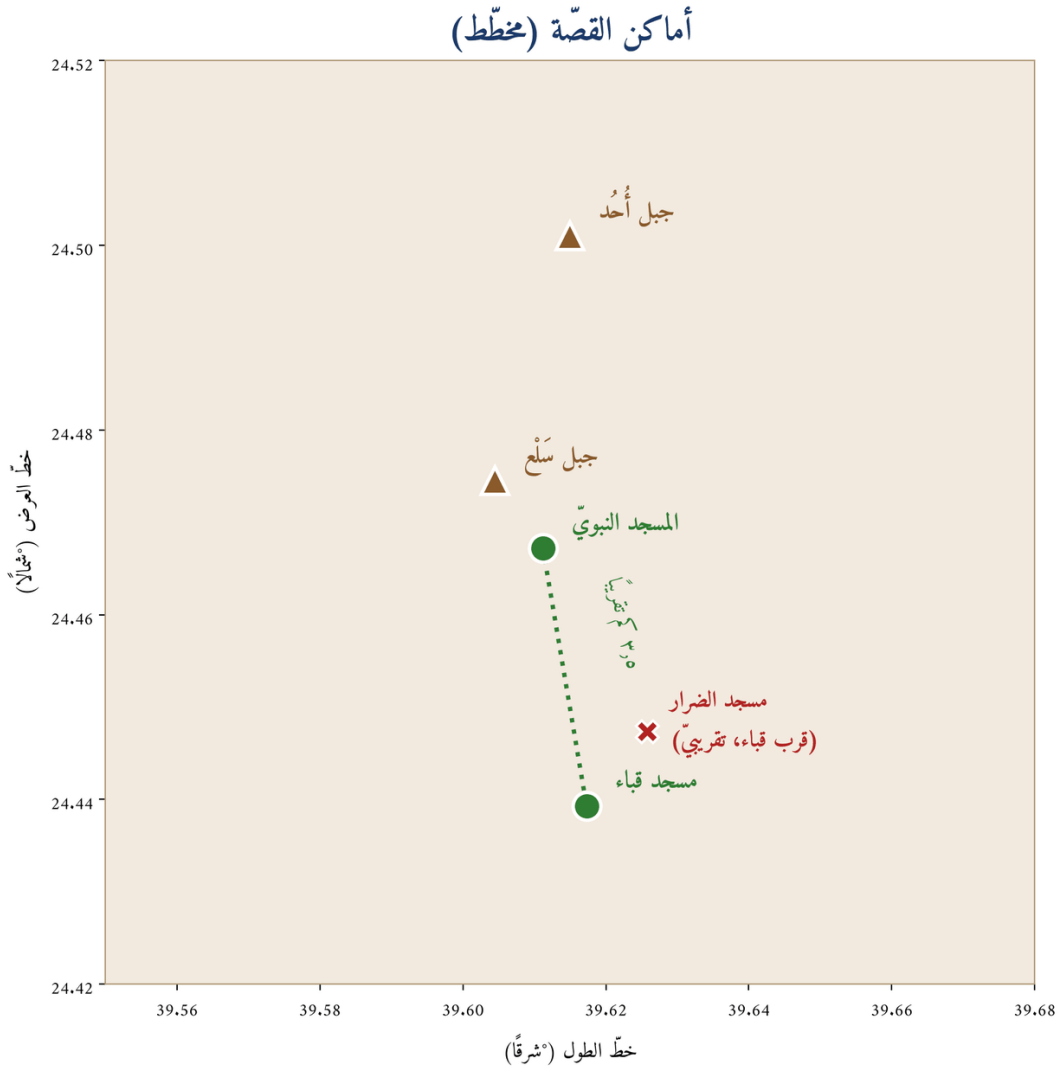
لكن في ذلك الضيق يقينٌ ذكره القرآن: ﴿**وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ**﴾ (التوبة ٩: ١١٨). فإذا أُغلقت أبواب الناس كلّها، بقي **باب الله مفتوحًا**. لم يفرّوا إلى ملك غسّان، ولا إلى الكذب – بل فرّوا إلى الله.

ويقال: إنّ أشدّ ساعات الليل ظلمةً **ما قبل الفجر**. وكذلك يأتي الفرج كثيرًا حين يبلغ الضيق ذروته. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ (الشرح ٩٤: ٦).

صوتٌ من جبل سَلْع

فجأةً سمع كعبٌ صوتَ صارخٍ **أوفى على جبل سَلْع** يقول بأعلى صوته: «**يا كعب بن مالك، أبشر!**» **فخرّ** كعبٌ **ساجدًا**، وعرف أن قد جاء فرج (صحيح البخاري ٤٤١٨).

وكان رسول الله ﷺ قد آذن الناس بتوبة الله عليهم حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشّرونهم. **فركض رجلٌ إليه فرسًا**، وسعى ساعٍ من **أسلم فأوفى على الجبل**. قال كعب: «**وكان الصوت أسرع من الفرس**».



موضع مسجد الضرار غير محدّد؛ قيل إنّه قرب قباء. وسائر المواضع تقريبية.

الرسم ٣: أماكن القصّة (مخطّط).

فلمّا جاءه الذي سمع صوته يبشّره **نزع له ثوبيه فكساه إيّاهما** ببشارته. قال: «**والله ما أملك غيرهما يومئذ**». واستعار ثوبين فلبسهما.

تأمّل سجود كعب. فأوّل ردّ فعلٍ للمؤمن حين تأتيه النعمة **سجود الشكر** لله. وقد جعل العلماء هذه القصّة من أدلّة **استحباب سجود الشكر** عند تجدّد نعمةٍ عظيمة أو اندفاع نقمة.

وتأمّل فرح المجتمع كلّه. فالذين لم يكلّموا كعبًا خمسين يومًا صاروا اليوم **يتسابقون إلى تبشيره**. لم يكن الهجر بغضًا، بل كان **انضباطًا نابعًا من المحبّة**، فلمّا انتهى عادت المحبّة كاملة.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

«خير يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أمّك»

انطلق كعبٌ إلى المسجد، فتلقّاه الناس فوجًا فوجًا يهنّئونه بالتوبة يقولون: «**لتَهْنِك توبةُ الله عليك**». فلمّا دخل المسجد إذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله الناس، فقام إليه **طلحة بن عبيد الله** رضى الله عنه يهرول حتّى صافحه وهنّأه. قال كعب: «**والله ما قام إليّ رجلٌ من المهاجرين غيرُه**». ولا ينساها لطلحة (صحيح البخاري ٤٤١٨).

فلمّا سلّم على رسول الله ﷺ قال وهو **يبرق وجهه من السرور**:«**أبشر بخير يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أمّك**». قال: «أمِن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟» قال: «**لا، بل من عند الله**». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ **استنار وجهه حتّى كأنّه قطعة قمر**، وكنّا نعرف ذلك منه.

خير يومٍ منذ الولادة – لا يوم إسلامه؟ بيّن العلماء أنّ يوم قبول التوبة **تكميلٌ** ليوم إسلامه؛ فهو يومٌ جمع الإسلام والتوبة المقبولة، فكان أكمل. وهذا يعلّمنا أنّ **التوبة المقبولة من أعظم النعم** في حياة المؤمن.

أمّا فعل طلحة فيعلّمنا **استقبال الأخ العائد**. فلا تكن ممّن يظلّ يذكّر التائب بخطئه القديم. كن أوّل من يقوم إليه ويصافحه ويفرح به.

نزول آيات التوبة

لم يكن قبول التوبة مجرّد قرارٍ من رسول الله ﷺ – بل كان **وحيًا من السماء**، آياتٍ تُتلى إلى يوم القيامة: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ (التوبة ٩: ١١٧) – تفسير ابن كثير ٩: ١١٧.

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٤٦٧٨

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ـ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ـ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ، تَبُوكَ. فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَبْلاَهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ} إِلَى قَوْلِهِ {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}

السند رواه الإمام البخاري: عن يحيى بن بُكير، عن الليث بن سعد، عن عُقيل بن خالد، عن ابن شهاب الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، حديث رقم ٤٦٧٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4678

دروسٌ من هذا الحديث

تأمّل ترتيب الآيات: بدأ الله بالتوبة على **النبيّ** ﷺ، **ثمّ المهاجرين والأنصار، ثمّ الثلاثة الذين خُلِّفوا.** وذكر العلماء أنّ في ذلك **تشريفًا** للثلاثة: إذ قُرنت توبتهم بتوبة أكرم الناس، لئلّا يستوحشوا.

وختام الآية ١١٨ بديع: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا**﴾. فالتوبة تبدأ من الله – هو الذي يوفّق إليها – وتنتهي إلى الله – هو الذي يقبلها. **فنحن نتوب لأنّ الله سبق فتاب علينا برحمته.**

فرح الله بتوبة عبده

إذا كان كعبٌ قد فرح بقبول توبته، وفرح رسول الله ﷺ حتّى استنار وجهه، فاعلم أنّ **الله أشدّ فرحًا.** روى أنس بن مالك رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلّه في أرضٍ فلاة**» (صحيح البخاري ٦٣٠٩).

وفي رواية مسلم تفصيلٌ أكثر: رجلٌ انفلتت منه راحلته بأرض فلاة وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلّها ينتظر الموت. فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخطامها ثمّ قال من شدّة الفرح: «**اللهمّ أنت عبدي وأنا ربّك!**» أخطأ من شدّة الفرح (صحيح مسلم ٢٧٤٧). وفرح الله بتوبة عبده **أعظم من ذلك**.

وروى أبو موسى الأشعريّ رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتّى تطلع الشمس من مغربها**» (صحيح مسلم ٢٧٥٩).

شروط التوبة	في قصّة كعب
الإقلاع عن الذنب	ترك تأجيل الطاعة
الندم	البكاء وضيق الأرض عليه
العزم على عدم العود	التعهّد بألّا يقول إلّا الصدق ما بقي
ردّ الحقوق (إن تعلّقت بالناس)	الاعتراف بالخطأ صراحةً

جمع الإمام النوويّ هذه الشروط في **رياض الصالحين**، باب التوبة – وختم الباب نفسه بحديث كعب بن مالك الطويل. فقصّة كعب **نموذج التوبة الكاملة**: صدقٌ في الاعتراف، وصبرٌ على العاقبة، وتغيّرٌ بعدها.

«أمسك عليك بعض مالك»

دفعت فرحةُ كعبٍ إلى التعبير عن شكره تعبيرًا كبيرًا، فأراد **أن يخلع من ماله كلّه صدقةً**:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٢٧٥٧

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبٍ، قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ـ رضى الله عنه. قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم. قَالَ أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ.

السند رواه الإمام البخاري: عن يحيى بن بُكير، عن الليث بن سعد، عن عُقيل بن خالد، عن ابن شهاب الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب إذا تصدّق أو أوقف بعض ماله، حديث رقم ٢٧٥٧؛ وانظر أيضًا ٤٦٧٦ و٦٦٩٠.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:2757

دروسٌ من هذا الحديث

لم يدع رسول الله ﷺ كعبًا يُفرط في فرحته، فنصحه أن **يُمسك بعض ماله**. وهذا موافقٌ لأصل الإسلام في **الاعتدال**: أن يتصدّق دون أن يُهلك نفسه وأهله. وقال رسول الله ﷺ في حديث آخر: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى**» (صحيح البخاري ١٤٢٦).

وقال كعب: «**يا رسول الله، إنّ الله إنّما نجّاني بالصدق، وإنّ من توبتي ألّا أحدّث إلّا صدقًا ما بقيت**». ووفّى بعهده: «**فوالله ما تعمّدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا**» صحيح البخاري ٤٤١٨؛ صحيح البخاري ٤٦٧٨).

هذه هي **التوبة الحقّة**: ليست ندمًا فحسب، بل **تغييرٌ لنمط الحياة**. جعل كعبٌ الصدق عهدًا ما عاش، لأنّه علم أنّ الصدق هو الذي نجّاه.

الصدق يهدي إلى الجنّة

بعد آيات التوبة ختم الله القصّة بأمرٍ عامّ لجميع المؤمنين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ (التوبة ٩: ١١٩) – تفسير ابن كثير ٩: ١١٩.

وقد جعل الإمام البخاريّ هذه الآية ترجمةَ بابٍ في كتاب الأدب، وروى تحتها الحديث الذي هو أصلُ خُلُق الصدق:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٦٠٩٤

حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ـ رضى الله عنه ـ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا.

السند رواه الإمام البخاري: عن عثمان بن أبي شيبة، عن جرير بن عبد الحميد، عن منصور بن المعتمر، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، عن النبيّ ﷺ.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، حديث رقم ٦٠٩٤؛ وأخرجه مسلم برقم ٢٦٠٧.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:6094

دروسٌ من هذا الحديث

يصوّر الحديث الصدقَ **طريقًا يسير بصاحبه**: خطوةُ صدقٍ تهدي إلى البرّ، والبرّ يهدي إلى الجنّة. وعلى العكس، كذبةٌ تجرّ أخرى حتّى **يُكتب عند الله كذّابًا**. وقصّة كعب مثالٌ حيّ لهذا الحديث: **صدقه قاده إلى التوبة، وتوبته قادته إلى رضوان الله**.

في عالم اليوم يُستصغر الكذب كثيرًا – «كذبة بيضاء»، أو عذرٌ للتأخّر، أو رقمٌ يُعدّل قليلًا في تقرير. وقصّة كعب تذكّرنا بأنّ **الصدق قد يكون غاليًا في الدنيا، لكنّه رابحٌ دائمًا في الآخرة**.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

حكمة الهجر

لماذا هجر رسول الله ﷺ ثلاثةً من الصحابة الصادقين، وترك بضعةً وثمانين كاذبًا؟ أليس هذا يبدو مقلوبًا؟ لقد بسط ابن القيّم في **زاد المعاد** حِكَم ذلك، ومنها:

الحكمة	البيان
تأديب المحبوب	لا يُؤدَّب ويُقوَّم إلّا من يُرجى خيره
ترك المنافقين	المنافقون لا يُرجى منهم خير، فوُكل أمرهم إلى الله
تكفير الذنب	محا ضيقُ الخمسين ليلةً زلّتَهم
رفع الدرجة	خُلّدت توبتهم في القرآن إلى يوم القيامة
عبرةٌ للأمّة	لا يُعفى أحدٌ من المسؤولية بسابقته
اختبار الولاء	كشف كتابُ ملك غسّان ثباتَ إيمان كعب

الطبيب المحبّ لمريضه يسقيه الدواء المرّ، ولا يسقيه من لا يعالجه. وكذلك كان الهجر: **دواءً لمن بقيت في قلبه حياة.** أمّا المنافقون فقد ماتت قلوبهم — فلا دواء ينفعهم.

وأخذ العلماء من هذه القصّة حكم **الهجر** وسيلةً للتأديب: يجوز هجرُ أحدٍ لسببٍ دينيّ، بإذن وليّ الأمر، لمدّةٍ محدودة، بقصد الإصلاح — لا لثأرٍ شخصيّ. أمّا في أمور الدنيا فقد نهى رسول الله ﷺ أن يهجر الرجل أخاه **فوق ثلاث ليال** (صحيح البخاري ٦٠٧٧).

فوائد فقهية من حديث كعب

حديث كعب بن مالك ليس قصّةً مؤثّرة فحسب؛ بل هو **منجمٌ للأحكام الفقهية**. وقد عدّد ابن حجر في **فتح الباري** والنوويّ في **شرح صحيح مسلم** عشرات الفوائد منه، منها:

الحكم	الدليل في القصّة
استحباب صلاة ركعتين بعد القدوم من السفر	بدأ رسول الله ﷺ بالمسجد
جواز الهجر لأجل الدين	النهي عن كلام الثلاثة
استحباب سجود الشكر	سجد كعبٌ حين سمع البشارة
استحباب إعطاء البشير	كسا كعبٌ البشيرَ ثوبيه
استحباب التهنئة بالنعمة الدينية	هنّأه الناس وطلحة
اعتزال الزوجة ليس طلاقًا	«لا، بل اعتزلها»
ألّا تتجاوز الصدقة الحدّ	«أمسك عليك بعض مالك»
الحكم بالظاهر	قُبلت أعذار المنافقين

انظر كم هو غنيٌّ حديثٌ رُوي بصدق. فكلّ تفصيلةٍ حكاها كعب – من سجوده إلى الثوبين اللذين أهداهما – صارت **هدايةً للأمّة** إلى اليوم. وصدقه في الرواية، حتّى في ذكر ضعفه، جعل القصّة **معينًا من العلم** لا ينضب.

وذكر ابن القيّم فائدةً لطيفة: أنّ كعبًا **لم يحتجّ بالقدر**. قال: «فلم يُقدَّر لي ذلك»، لكنّه لم يجعله عذرًا، بل أقرّ بتفريطه صريحًا: «**والله ما كان لي من عذر**». وهذا أدب المؤمن: يؤمن بالقدر، ويتحمّل **مسؤولية اختياره**.

لماذا حدّث كعب بضعفه؟

سؤالٌ لطيف: لماذا حدّث كعبٌ بقصّة ضعفه بهذا التفصيل، وقد قال رسول الله ﷺ: «**كلّ أمّتي معافى إلّا المجاهرين**» – وهم من يعمل بالليل عملًا فيستره الله، ثمّ يصبح فيكشف ستر الله عنه (صحيح البخاري ٦٠٦٩)؟

الجواب في **النيّة والحال**. فالمذموم في الحديث من يحدّث بذنبه **مفتخرًا أو غير مستحٍ**، كأنّ الذنب أمرٌ هيّن. أمّا كعب فحدّث بقصّته **بعد أن قُبلت توبته وأعلنها الوحي**، نادمًا، ليُعلّم **الأمّة** خطر التسويف وقيمة الصدق. وقصّته مذكورةٌ في القرآن أصلًا؛ وإنّما فصّل تفاصيلها.

وأثنى العلماء على **أمانة كعبٍ في الرواية**. فلم يكتم شيئًا يُخجله – تفريطه، وهمّه بالكذب، ولوم قومه، ودموعه في حائط أبي قتادة. ولم يبالغ فيما يرفعه. وهذه صفات **الراوي الصادق**، ولذلك تلقّى البخاريّ ومسلمٌ قصّته بالقبول.

والعبرة لنا: حين ننصح غيرنا قد تكون **تجاربنا الشخصية** – ومنها أخطاءٌ تبنا منها – أبلغ موعظة. لكن يجب أن تُروى مع **الحياء من الله** لا الفخر، ودون كشف ذنبٍ ستره الله بلا فائدة.

الذين اعترفوا بذنوبهم

تذكر سورة التوبة عدّة أصنافٍ ممّن تخلّفوا عن تبوك. فإلى جانب المنافقين والثلاثة الذين خُلِّفوا، صنفٌ آخر:

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة ٩: ١٠٢) – تفسير ابن كثير ٩: ١٠٢.

من كتب السيرة: أبو لبابة يربط نفسه إلى سارية

روى المفسّرون عن ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّ هذه الآية نزلت في **أبي لبابة** ونفرٍ من أصحابه تخلّفوا عن تبوك، فلمّا سمعوا ما نزل في المتخلّفين **ربطوا أنفسهم إلى سواري المسجد**، وحلفوا ألّا يُطلقهم إلّا رسول الله ﷺ بنفسه. فلمّا نزلت الآية أطلقهم.

ذكر هذه الرواية الطبريّ وابن كثير بأسانيد متعدّدة، **وفي تفاصيلها كلامٌ** عند العلماء. وهناك رواية أخرى تربط قصّة ربط أبي لبابة نفسه بحادثة بني قريظة (الحلقة ١٣).

المرجع:

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، التوبة ٩: ١٠٢. https://tafsir.app/ibn-katheer/9/102

ثمّ ذكر الله الصنف الذي أُرجئ أمره – وهم عند ابن كثير وكثيرٍ من المفسّرين الثلاثة الذين في قصّة كعب: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة ٩: ١٠٦) – تفسير ابن كثير ٩: ١٠٦.

انظر إلى **رحمة الله** في الآية ١٠٢: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾. قال العلماء: «عسى» من الله **واجبة**. فمن اعترف بذنبه صادقًا، وخلط عملًا صالحًا بسيّئ، ولم ييأس – فباب التوبة مفتوحٌ له على مصراعيه.

بناء مسجد الضرار

ننتقل الآن إلى حدثٍ آخر متّصلٍ بتبوك. فقبل خروج رسول الله ﷺ بنى نفرٌ من المنافقين مسجدًا قرب مسجد قباء، فكشف الله نيّتهم الحقيقية:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ (التوبة ٩: ١٠٧) — تفسير ابن كثير ٩: ١٠٧.

تذكر الآية **أربعة مقاصد خبيثة** وراء بنائه: (١) **الضرار** — الإضرار بالمسلمين؛ (٢) **الكفر** — تقوية الكفر؛ (٣) **التفريق** — تفريق جماعة قباء؛ (٤) **الإرصاد** — جعله مرصدًا لعدوٍّ حارب الله ورسوله. واسم «مسجد الضرار» مأخوذٌ من أوّل وصفٍ في الآية.

من كتب السيرة: أبو عامر الراهب وطلب المنافقين

روى المفسّرون وأهل السيرة أنّ «من حارب الله ورسوله من قبل» هو **أبو عامر الراهب** من الأوس، وكان قد تنصّر في الجاهلية. عادى رسولَ الله ﷺ، وخرج مع قريش يوم أحد، ثمّ **ذهب إلى قيصر الروم** يستنصره على المسلمين. وسمّاه رسول الله ﷺ **أبا عامر الفاسق**. أمّا ابنه **حنظلة بن أبي عامر** فهو الصحابيّ الشهيد بأحد غسيل الملائكة (الحلقة ١٠).

بنى المنافقون ذلك المسجد مكانًا ينتظرون فيه أبا عامر. وأتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهّز إلى تبوك فقالوا: «إنّا قد بنينا مسجدًا لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّي لنا فيه». فقال: «إنّي على جناح سفرٍ وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم». وهذه التفاصيل **من روايات السيرة والتفسير**.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — قصّة الثلاثة الذين خُلِّفوا ومسجد الضرار؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، التوبة ٩: ١٠٧. https://tafsir.app/ibn-katheer/9/107

انظر إلى دقّة كيد المنافقين: استعملوا **أقدس رموز الدين** – المسجد – للتفريق. وأرادوا أن **يصلّي رسول الله ﷺ فيه** ليكسب المسجد «اعترافًا». لكنّ الله فضحهم قبل أن تنجح خطّتهم.

«لا تقم فيه أبدًا»

وبينما رسول الله ﷺ في طريق عودته من تبوك أنزل الله نهيًا حاسمًا: ﴿**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا**﴾ (التوبة ٩: ١٠٨) – تفسير ابن كثير ٩: ١٠٨.

وقد أعدّ المنافقون أيمانهم: ﴿**وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ**﴾. فجاء الجواب الإلهيّ: ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ (التوبة ٩: ١٠٧). فلا اليمين ولا دعوى حسن النيّة تغيّر الحقيقة.

من كتب السيرة: هدم مسجد الضرار

روى أهل السيرة أنّ رسول الله ﷺ لمّا نزل **بذي أوان**، وهو موضعٌ قريبٌ من المدينة، دعا **مالك بن الدُّخْشُم ومعن بن عديّ** (أو أخاه عاصم بن عديّ) فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه». فانطلقا **فحرّقاه وهدماه**.

وذُكر أنّه اتُّخذ بعد ذلك مكانًا تُلقى فيه الجِيَف والقمامة. وهذه التفاصيل **من رواية ابن إسحاق** وكتب السيرة.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – قصّة الثلاثة الذين خُلِّفوا ومسجد الضرار؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

والعبرة: **البناء لا يقدُس بشكله**، بل ب**نيّته وغايته**. فالمسجد الذي بُني لتفريق الأمّة ليس بيتًا لله بالمعنى الحقّ. وأخذ العلماء من هذه الحادثة أنّ **كلّ ما بُني للإضرار بالمسلمين وتفريقهم** يجب منعه، وإن تستّر باسم الدين.

المسجد الذي أُسّس على التقوى

وتمضي الآية نفسها بالثناء على المسجد الحقّ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ (التوبة ٩: ١٠٨). فأيّ مسجدٍ هو؟ لقد سأل الصحابة أنفسهم:

الحديث – صحيح مسلم، رقم ١٣٩٨

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ حُمَيْدٍ الْخَرَّاطِ، قَالَ سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ مَرَّ بِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قُلْتُ لَهُ كَيْفَ سَمِعْتَ أَبَاكَ يَذْكُرُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى قَالَ قَالَ أَبِي دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَيْتِ بَعْضِ نِسَائِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَىُّ الْمَسْجِدَيْنِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى قَالَ فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصْبَاءَ فَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ ثُمَّ قَالَ هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا. - لِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ - قَالَ فَقُلْتُ أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ أَبَاكَ هَكَذَا يَذْكُرُهُ

السند رواه الإمام مسلم: عن محمّد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد القطّان، عن حُميد الخرّاط، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه أبي سعيد الخدري رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحجّ، باب بيان أنّ المسجد الذي أُسّس على التقوى هو مسجد النبيّ ﷺ بالمدينة، حديث رقم ١٣٩٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:1398a

دروسٌ من هذا الحديث

سياق الآية يدلّ على **مسجد قباء**، لأنّ مسجد الضرار بُني قربه ليُضارّه، وقباء أوّل مسجدٍ بناه رسول الله ﷺ في الهجرة (الحلقة ٧). غير أنّ الحديث يذكر **المسجد النبويّ**. وجمع ابن كثير وابن حجر وغيرهما بين الأمرين: **كلا المسجدين أُسّس على التقوى**. نزلت الآية في قباء، وبيّن رسول الله ﷺ أنّ مسجده أولى بهذا الوصف.

والعبرة الأكبر: **أساس البناء يحدّد مصيره.** فالمسجدان المؤسّسان على التقوى ما زالا عامرين إلى اليوم – يصلّي فيهما الملايين كلّ عام. أمّا مسجد الضرار فـ**لم يبقَ منه حجر.**

مسجد قباء والمتطهّرون

كان رسول الله ﷺ يعظّم مسجد قباء طوال حياته:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ١١٩٣

حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءٍ كُلَّ سَبْتٍ مَاشِيًا وَرَاكِبًا. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ ـ رضى الله عنهما ـ يَفْعَلُهُ.

السند رواه الإمام البخاري: عن موسى بن إسماعيل، عن عبد العزيز بن مسلم، عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكّة والمدينة، باب من أتى مسجد قباء كلّ سبت، حديث رقم ١١٩٣؛ وأخرجه مسلم برقم ١٣٩٩.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1193

دروسٌ من هذا الحديث

وقال ﷺ: «**الصلاة في مسجد قباء كعمرة**» (جامع الترمذي ٣٢٤، صحّحه الألباني). وما زال الحجّاج والمعتمرون يعملون بهذه السنّة إلى اليوم: يتوضّؤون في بيوتهم، ثمّ يأتون قباء فيصلّون فيه.

وأثنت الآية ١٠٨ على أهل قباء: ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾ (التوبة ٩: ١٠٨) – تفسير ابن كثير ٩: ١٠٨.

وفي رواية أبي هريرة رضى الله عنه أنّ الآية نزلت في أهل قباء لأنّهم **كانوا يستنجون بالماء** (سنن أبي داود ٤٤، صحّحه الألباني). فطهارة ظاهرهم مرآةُ طهارة باطنهم. وقارن ذلك بمسجد الضرار: قد يكون بناؤه جميلًا، لكنّ **قلوب بُناته نجسة**.

بنيانٌ على شفا جُرُف

ثمّ ضرب الله مثلًا بليغًا:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ (التوبة ٩: ١٠٩) – تفسير ابن كثير ٩: ١٠٩.

تخيّل بناءً أُقيم على **حافّة وادٍ تآكل أسفلها** بالسيل. يبدو من الخارج متينًا، لكنّ ما تحته فارغ. سينهار في أيّ لحظة – وفي هذا المثل **ينهار مباشرةً في نار جهنّم** ومعه بانيه.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ (التوبة ٩: ١١٠) – تفسير ابن كثير ٩: ١١٠.

وهذا المثل يصدق على **كلّ عمل**، لا على المساجد وحدها. فلكلّ عمل – تجارةً كان أو مؤسّسةً أو تأليفًا بل عبادةً – «أساس». فإن كان أساسه **تقوى الله ورضوانه** بقي. وإن كان أساسه الرياء أو الخداع أو المصلحة الذاتية، فهو كالبناء على شفا جُرُف: يبدو شامخًا، وهو ينتظر ساعة انهياره.

مسجدان ونيّتان

تكشف المقارنة بين مسجد قباء ومسجد الضرار أنّ قيمة الشيء في **نيّته وأساسه** لا في صورته:

البند	مسجد قباء ← مسجد الضرار
البُناة	رسول الله ﷺ وأصحابه ← المنافقون
الأساس	تقوى الله ورضوانه ← شفا جُرُفٍ هار
الغرض	جمع المسلمين ← التفريق بينهم
السكّان	رجالٌ يحبّون أن يتطهّروا ← رجالٌ يحلفون كذبًا
الأمر	أحقّ أن تقوم فيه ← لا تقم فيه أبدًا
المآل	عامرٌ إلى اليوم ← أُحرق وهُدم

وقصّة المسجدين تُكمل قصّة الثلاثة. فكلتاهما تعلّم **الصدق**: صدق الثلاثة في قولهم، وكذب بُناة مسجد الضرار بنائهم وأيمانهم. وقد كشف الله الفريقين – فرفع الصادق، وأسقط الكاذب.

مصادر القصّة

رُويت هذه القصّة في مصادر متفاوتة الدرجة. ويلخّصها الجدول الآتي:

الحدث	المصدر والدرجة
قصّة كعب بن مالك كاملة	صحيح البخاري ٤٤١٨؛ صحيح مسلم ٢٧٦٩ — صحيح
نعمة الصدق	صحيح البخاري ٤٦٧٣ — صحيح
خمسون ليلة	صحيح البخاري ٦٢٥٥ — صحيح
آيات التوبة	صحيح البخاري ٤٦٧٨ — صحيح
ركعتان بعد القدوم من السفر	صحيح البخاري ٣٠٨٨ — صحيح
«أمسك عليك بعض مالك»	صحيح البخاري ٢٧٥٧ — صحيح
الصدق يهدي إلى الجنّة	صحيح البخاري ٦٠٩٤ — صحيح
المسجد المؤسّس على التقوى	صحيح مسلم ١٣٩٨ — صحيح
إتيان قباء كلّ سبت	صحيح البخاري ١١٩٣ — صحيح
أبو لبابة يربط نفسه	تفسير الطبري، ابن كثير — فيه كلام
أبو عامر الراهب	كتب السيرة والتفسير
هدم مسجد الضرار	ابن إسحاق — سيرة

قصّة كعب بن مالك من **أصحّ قصص السيرة إسنادًا**، إذ رواها كعبٌ نفسه في الصحيحين. أمّا قصّة مسجد الضرار فثابتةٌ بالقرآن، وتفاصيلها من كتب السيرة والتفسير.

الآيات القرآنية وراء هذه القصّة

ليست قصّة الثلاثة ومسجد الضرار مجرّد روايةٍ تاريخية؛ بل خُلّدت في سلسلةٍ من آيات سورة التوبة تُتلى إلى يوم القيامة. ويجمع هذا الجدول تلك الآيات، ويبيّن الفصل الذي يشرحها في هذا الكتاب.

الآية	المضمون باختصار	الفصل
التوبة ٩: ٨١–٨٣	الذين فرحوا بمقعدهم وقالوا «لا تنفروا في الحرّ»	7
التوبة ٩: ٩٤–٩٦	يعتذرون إليكم إذا رجعتم؛ لا تصدّقوهم، قد نبّأنا الله من أخباركم	7
التوبة ٩: ١٠٢	الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملًا صالحًا وآخر سيّئًا	25
التوبة ٩: ١٠٦	المُرجَون لأمر الله حتّى يقضي فيهم	25
التوبة ٩: ١٠٧–١١٠	مسجد الضرار والمسجد المؤسّس على التقوى	26–30
التوبة ٩: ١١٧	توبة الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار في ساعة العسرة	18
التوبة ٩: ١١٨	التوبة على الثلاثة الذين خُلِّفوا	1, 12, 18
التوبة ٩: ١١٩	«وكونوا مع الصادقين»	21

قراءة الآية ٩: ١١٨ عبارةً عبارة

تصف الآية ٩: ١١٨ حال الصحابة الثلاثة بلغةٍ في غاية اللطف. وقد شرح المفسّرون كابن كثير والقرطبيّ عباراتها على النحو الآتي:

العبارة	المعنى	شرحٌ موجز
ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ	أي: أُرجئوا وأُخِّر أمرهم	بيّن كعبٌ نفسه: ليس المراد تخلّفهم عن الغزو، بل إرجاء أمرهم عمّن حلف واعتذر (صحيح البخاري ٤٤١٨)

العبارة	المعنى	شرحٌ موجز
ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ	أي: ضاقت الأرض على سعتها	قال كعب: تنكّرت لي الأرض فما هي بالتي أعرف
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ	أي: ضاقت صدورهم بالهمّ والغمّ	ليس الضيق في الخارج فقط، بل في الصدر أيضًا
وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ	أي: أيقنوا أن لا مفرّ من الله إلّا إليه	ذروة التوبة: الفرار من الله إلى الله
ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ	أي: وفّقهم للتوبة ثمّ قبلها منهم	التوفيق إلى التوبة نفسه من الله

تأمّل ترتيب الآية: ضيقٌ في الخارج، ثمّ ضيقٌ في النفس، ثمّ يقينٌ بأن لا ملجأ إلّا الله – وبعده تأتي التوبة. كأنّها خريطة رحلة نفس التائب.

المراجع: سورة التوبة ٩: ١١٨ (Quran.com)؛ صحيح البخاري ٤٤١٨؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم.

العبرة

لم يقبل الله توبة الصحابة الثلاثة فحسب؛ بل خلّد مشاعرهم في كلامه. فكلّ من أحسّ يومًا أنّ «الأرض ضاقت» عليه بذنبه، يستطيع أن يقرأ هذه الآية فيعلم أنّ المخرج هو الرجوع إلى الله.

أعلام قصّة كعب ومسجد الضرار

يذكر حديث كعب بن مالك أشخاصًا كثيرين غير الثلاثة. ويجمعهم هذا الجدول مع أعلام قصّة مسجد الضرار. وما لم يرد إلّا في كتب السيرة نبّه عليه.

الاسم	القبيلة / الصلة	دوره في القصّة	المصدر
كعب بن مالك رضى الله عنه	الخزرج (بنو سَلِمة)	أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا؛ راوي القصّة	صحيح البخاري ٤٤١٨
مُرارة بن الربيع رضى الله عنه	الأوس (بنو عمرو بن عوف)؛ بدريّ	أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا	صحيح البخاري ٤٤١٨
هلال بن أميّة رضى الله عنه	الأوس (بنو واقف)؛ بدريّ	أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا؛ أذن لامرأته في خدمته لكِبَره	صحيح البخاري ٤٤١٨
أبو قتادة رضى الله عنه	الخزرج (بنو سَلِمة)؛ قال عنه كعب: «ابن عمّي وأحبّ الناس إليّ»	لم يردّ السلام على كعب في حائطه	صحيح البخاري ٤٤١٨
معاذ بن جبل رضى الله عنه	الخزرج	ذبّ عن كعبٍ في تبوك حين عابه رجل	صحيح البخاري ٤٤١٨
رجلٌ من بني سَلِمة	الخزرج (بنو سَلِمة)	عاب كعبًا في تبوك: «حبسه بُرداه»	صحيح البخاري ٤٤١٨
نبطيٌّ من أنباط الشام	—	حمل كتاب ملك غسّان إلى كعب	صحيح البخاري ٤٤١٨
طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه	قريش (بنو تَيْم)	قام يهرول إلى كعبٍ وهنّأه	صحيح البخاري ٤٤١٨

الاسم	القبيلة / الصلة	دوره في القصّة	المصدر
الرجل الذي صرخ من جبل سَلْع	لم يُسمَّ في الحديث	بشّر بالتوبة بأعلى صوته	صحيح البخاري ٤٤١٨؛ الأسماء من رواية الواقديّ التي نقلها ابن حجر
أبو عامر الراهب	الأوس؛ والد حنظلة «غسيل الملائكة»	كان بُناة مسجد الضرار ينتظرونه	كتب السيرة والتفسير
مالك بن الدُّخْشُم ومعن بن عديّ رضى الله عنهما	مالك: الخزرج؛ معن: بَلِيّ، حليف الأنصار	بُعثا لهدم مسجد الضرار وتحريقه	ابن إسحاق — رواية سيرة
أبو لبابة رضى الله عنه	الأوس (بنو عمرو بن عوف)	ربط نفسه إلى سارية المسجد (عند بعض المفسّرين في ٩: ١٠٢)	تفسير الطبري، ابن كثير — فيه كلام

من كتب السيرة: من الذي صرخ ومن الذي ركض الفرس؟

لم يسمِّ الحديث الصحيح الرجلَ الذي صرخ من جبل سَلْع، ولا الفارسَ الذي ركض إلى كعب. ونقل ابن حجر في فتح الباري رواية الواقديّ التي تذكر أنّ أبا بكر رضى الله عنه هو الذي أوفى على سَلْع، وأسماء أخرى للفارس والبشير.

ورواية الواقديّ ضعيفةٌ عند أهل الحديث، فنذكر هذه الأسماء روايةَ سيرةٍ فحسب. والثابت في الحديث الصحيح تسابقُ الصحابة فرحًا إلى إبلاغ البشارة.

العبرة

في حديثٍ واحد نرى الصاحبَ المدافع (معاذ)، والعائب (رجل بني سَلِمة)، والمطيعَ مع حزنه (أبا قتادة)، والفرِحَ بلا حسد (طلحة). فالمجتمع السليم ليس مجتمعًا بلا أخطاء، بل مجتمعٌ يُحسن التربية والانتظار واستقبال العائدين.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

هلال بن أميّة وآية اللعان

لم يكن هلال بن أميّة رضى الله عنه أحدَ الثلاثة الذين خُلِّفوا فحسب، بل ارتبط اسمه بحادثةٍ أخرى نزل فيها حكمٌ في القرآن، وهي آيات اللعان في سورة النور.

روى ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّ هلال بن أميّة قذف امرأته عند رسول الله ﷺ بشريك بن سحماء، فقال له رسول الله ﷺ: «البيّنةَ أو حدٌّ في ظهرك». فقال: «يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البيّنة؟» فنزلت آيات اللعان (النور ٢٤: ٦-٩). (صحيح البخاري ٤٧٤٧)

المراجع: صحيح البخاري ٤٧٤٧؛ سورة النور ٢٤: ٦-٩ (Quran.com).

اللعان هو ما شرعه القرآن لحال الزوج الذي يرمي امرأته وليس له أربعة شهداء: يشهد أربع شهاداتٍ بالله إنّه لمن الصادقين، والخامسة أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرأ عنها العذابَ أن تشهد أربع شهاداتٍ بالله إنّه لمن الكاذبين، والخامسة أنّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ثمّ يُفرَّق بينهما.

ملاحظة: روايتان في سبب نزول آيات اللعان

وفي صحيح البخاري أيضًا أنّ آيات اللعان نزلت في عُوَيمر العَجْلانيّ (صحيح البخاري ٤٧٤٥). وجمع العلماء كابن حجر بين الروايتين: لعلّ قصّة هلالٍ سبقت فنزلت الآيات، ثمّ جاء عويمر في زمنٍ قريب، فنُسبت إليهما معًا.

يذكر هذا الفصل الحكم موجزًا. وتُراجع تفاصيل فقه اللعان في كتب الفقه وعند أهل الفتوى.

تلتقي قصّتا هلالٍ في نقطةٍ واحدة: الصدق. ففي تبوك صدق في الإقرار بأنّه لا عذر له. وفي اللعان قال لرسول الله ﷺ: «والذي بعثك بالحقّ إنّي لصادق، فلينزلنّ الله ما يبرّئ ظهري من الحدّ». فصدّق الله رجاءه مرّتين.

العبرة

كثيرًا ما نزلت أحكام القرآن من خلال قصص أناسٍ عاديّين واجهوا بلاءً حقيقيًّا. فهلالٌ، الشيخ الصادق، كان سببًا في نزول مجموعتين من الآيات. وقد يكون صدقنا الصغير اليوم خيرًا كبيرًا لا نتوقّعه.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

الهجر: متى يجوز؟

ذكر الفصلان ٢٢ و٢٣ أنّ العلماء أخذوا حكم الهجر من قصّة كعب. لكنّ هذه القصّة تُفهم أحيانًا خطأً على أنّها رخصةٌ لهجر أيّ أحد. ويجمع هذا الفصل الأدلّة لتتّضح الصورة كاملة.

النهي عن هجر الأخ فوق ثلاث

قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ لرجلٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيُعرض هذا ويُعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». (صحيح البخاري ٦٠٧٧)

وقال ﷺ: «تُفتح أبواب الجنّة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغفر لكلّ عبدٍ لا يشرك بالله شيئًا، إلّا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظِروا هذين حتّى يصطلحا». (صحيح مسلم ٢٥٦٥)

وفي روايةٍ أخرى: «لا يحلّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمن هجر فوق ثلاثٍ فمات دخل النار». (سنن أبي داود ٤٩١٤؛ صحّحه الألباني)

المراجع: صحيح البخاري ٦٠٧٧؛ صحيح مسلم ٢٥٦٥؛ سنن أبي داود ٤٩١٤.

الفرق بين نوعي الهجر

البند	الهجر المنهيّ عنه	هجر التأديب (كقصّة كعب)
السبب	أمور الدنيا، والغضب الشخصيّ، والضغينة	معصيةٌ دينيةٌ ظاهرة
من يقرّره	الفرد بحسب عاطفته	وليّ الأمر أو صاحب السلطة، بحكمة
الغرض	التنفيس عن الغضب أو العقاب	الإصلاح والتربية
المدّة	محرّمٌ فوق ثلاث	بقدر الحاجة، وينتهي ببلوغ الغاية
المآل	قطيعةٌ مستمرّة	يُستقبل بعده بالفرح (طلحة، معاذ، أبو قتادة)

أكّد ابن حجر والنوويّ أنّ الهجر لأجل الدين لا يجوز إلّا إذا حقّق مصلحة، أي إذا رُجي أن يتغيّر المهجور. فإن كان الهجر لا يزيده إلّا بُعدًا عن الخير، فالتقرّب منه ونصحه أولى.

في حياتنا اليوم

اليوم يتّخذ «الهجر» صورًا جديدة: حظرُ رقم الهاتف، والخروج من مجموعات المحادثة، أو ترك التحيّة في المجالس العائلية. وتعلّمنا قصّة كعب أنّ الهجر المشروع محدودٌ جدًّا، له غاية، وينتهي بالعناق. وما سوى ذلك فالأصل صلة الرحم والبدء بالسلام.

العبرة

لا تجعل قصّة كعبٍ ذريعةً لقطع الصلات. فقد هجر رسول الله ﷺ ثلاثةً من أصحابه ليُصلحهم، ثمّ استقبلهم بوجهٍ يبرق كأنّه قطعة قمر. وخير المتهاجرَين الذي يبدأ بالسلام.

التسلسل الزمني لقصّة الثلاثة ومسجد الضرار

يرتّب هذا الجدول أحداث هذا الكتاب على التوالي. والتواريخ تقريبية بحسب الأحاديث وكتب السيرة.

الوقت	الحدث	المصدر
قبل تبوك (٩ هـ)	المنافقون يبنون مسجد الضرار ويطلبون من رسول الله ﷺ الصلاة فيه؛ فيؤجّل لخروجه	كتب السيرة والتفسير
رجب ٩ هـ	خروج الجيش إلى تبوك؛ كعب يقول «غدًا أتجهّز»	صحيح البخاري ٤٤١٨
في تبوك	رسول الله ﷺ يسأل «ما فعل كعب؟»؛ ومعاذ يذبّ عنه	صحيح البخاري ٤٤١٨
في طريق العودة	كعب يفكّر في عذرٍ ينجيه	صحيح البخاري ٤٤١٨
قُرب المدينة	نزول آيات مسجد الضرار؛ وإرسال من يهدمه	التوبة ٩: ١٠٧–١١٠؛ ابن إسحاق
رمضان ٩ هـ (تقريبًا)	قدوم رسول الله ﷺ، وصلاته ركعتين في المسجد، وقبوله أعذار بضعةٍ وثمانين	صحيح البخاري ٤٤١٨، ٣٠٨٨
اليوم نفسه	كعب ومرارة وهلال يَصدُقون	صحيح البخاري ٤٤١٨
الليالي ١–٤٠	الهجر: لا يكلّمهم أحد؛ وإحراق كتاب ملك غسّان	صحيح البخاري ٤٤١٨
الليلة الأربعون	الأمر باعتزال الزوجات	صحيح البخاري ٤٤١٨
الليلة الخمسون	نزول آية التوبة في الثلث الأخير من الليل	صحيح البخاري ٤٤١٨، ٤٦٧٨

الوقت	الحدث	المصدر
فجر اليوم الحادي والخمسين	الصارخ على جبل سَلْع؛ سجود كعبٍ شكرًا، ثمّ ذهابه إلى المسجد	صحيح البخاري ٤٤١٨
بعد ذلك	كعب يريد أن يخلع من ماله؛ فيأمره أن يُمسك بعضه	صحيح البخاري ٢٧٥٧
أواخر ٩ هـ	أوّل حجّةٍ بإمارة أبي بكر؛ وبدء عام الوفود (الحلقتان ٢٦–٢٧)	كتب السيرة
نحو ٥٠ هـ	وفاة كعبٍ في زمن معاوية، بعد أن عمي في كِبَره	كتب التراجم

العبرة

خمسون ليلةً بدت طويلةً لمن عاشها، لكنّها في خطّ التاريخ سطرٌ صغير. وكذلك بلاؤنا: نحسبه حين نعيشه بلا نهاية، ثمّ يمضي، ويبقى ثمره — هل رجعنا إلى الله أم لا.

أسئلة شائعة عن كعب بن مالك ومسجد الضرار

١. من هم الثلاثة الذين خُلِّفوا؟

كعب بن مالك (الخزرج، بنو سَلِمة)، ومرارة بن الربيع (الأوس، بنو عمرو بن عوف)، وهلال بن أميّة (الأوس، بنو واقف). ومرارة وهلال بدريّان (صحيح البخاري ٤٤١٨؛ الفصلان ١٠ و٣٤).

٢. ما معنى «خُلِّفوا» في التوبة ٩: ١١٨؟

بحسب كعبٍ نفسه: معناه أُرجئ أمرهم، لا مجرّد التخلّف عن الغزو (صحيح البخاري ٤٤١٨؛ الفصل ٣٣).

٣. لماذا لم يُهجر المنافقون؟

لأنّه لا يُرجى خيرهم؛ فوُكل أمرهم إلى الله. أمّا الثلاثة فأُدّبوا لأنّه يُرجى رجوعهم (الفصل ٢٢).

٤. كم دام الهجر؟

خمسين ليلة. وفي الليلة الأربعين أُمروا باعتزال نسائهم (صحيح البخاري ٤٤١٨؛ الفصلان ١٤–١٥).

٥. هل كان الأمر باعتزال الزوجة طلاقًا؟

لا. سأل كعبٌ: أأطلّقها؟ فقيل: «لا، بل اعتزلها». فأرسلها إلى أهلها. وأُذن لامرأة هلالٍ في خدمته لكِبَره (الفصل ١٤).

٦. ماذا كتب ملك غسّان؟

دعا كعبًا إلى اللحاق به لأنّ «صاحبك قد جفاك». فعدّه كعبٌ بلاءً آخر وأحرق الكتاب (الفصل ١٣).

٧. من الذي صرخ من جبل سَلْع؟

لم يسمّه الحديث الصحيح. وذكرت رواية الواقديّ أسماءً، لكنّها ضعيفة (الفصل ٣٤).

٨. هل يجوز لنا الهجر كما في قصّة كعب؟

الهجر لحظّ النفس محرّمٌ فوق ثلاث. وهجر التأديب لأجل الدين محدودٌ جدًّا: غايته الإصلاح، وبحكمة، وينتهي ببلوغ الغاية (صحيح البخاري ٦٠٧٧؛ صحيح مسلم ٢٥٦٥؛ الفصل ٣٦).

٩. ما صلة هلال بن أميّة بآيات اللعان؟

قذف هلالٌ امرأته بلا أربعة شهداء، فنزلت آيات اللعان (النور ٢٤: ٦–٩). وفي روايةٍ أنّها نزلت في عويمر العجلانيّ (صحيح البخاري ٤٧٤٧، ٤٧٤٥؛ الفصل ٣٥).

١٠. من بنى مسجد الضرار؟

نفرٌ من المنافقين كانوا ينتظرون قدوم أبي عامر الراهب. فكشف الله نيّتهم في التوبة ٩: ١٠٧، وهُدم المسجد بعد عودته ﷺ من تبوك (كتب السيرة؛ الفصلان ٢٦–٢٧).

١١. أيّ مسجدٍ هو «المؤسّس على التقوى»؟

فيه قولان: مسجد قباء أو المسجد النبويّ. وقد ذكر رسول الله ﷺ مسجده في صحيح مسلم ١٣٩٨، وقال كثيرٌ من العلماء إنّ الآية تشملهما (الفصلان ٢٨–٢٩).

١٢. ما العبرة الكبرى من هذه القصّة لنا؟

الصدق وإن غلا ثمنه خيرٌ من عذرٍ ينجّي ساعة. والله يتوب على الصادق، ويفضح الكاذب ولو تستّر ببناءٍ جميل.

العبرة

تبيّن هذه الأسئلة قوّة قصّة كعب: فكلّ تفاصيلها تقريبًا من حديثٍ صحيح رواه كعبٌ نفسه. أمّا الأسماء والتواريخ الواردة في كتب السيرة فنذكرها بحسب درجتها.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

الدروس والخاتمة

قصّة الثلاثة الذين خُلِّفوا وقصّة مسجد الضرار وجهان لعملةٍ واحدة: **الصدق والزيف.** الأوّل يبدو خاسرًا ثمّ يفوز؛ والثاني يبدو ناجحًا ثمّ ينهار.

العبرة	من هذه القصّة
خطر التسويف	«غدًا أتجهّز»
الذبّ عن الأخ الغائب	معاذ يذبّ عن كعب في تبوك
الصدق وإن غلا	كعب يرفض العذر الكاذب
القدوة الصالحة	مرارة وهلال، البدريّان
الوفاء مع الجرح	إحراق كتاب ملك غسّان
الفرار إلى الله	«أن لا ملجأ من الله إلّا إليه»
سجود الشكر	سجد كعبٌ حين سمع صوت سَلْع
استقبال العائد	طلحة يقوم فيصافحه
النيّة تحدّد القيمة	مسجد قباء ومسجد الضرار

كعبٌ في حياتنا

كلّنا زلّ يومًا كما زلّ كعب – سوّف في خير، أو تخلّف عن طاعة. والسؤال ليس هل سنخطئ، بل **ماذا نفعل بعد ذلك.** أنبحث عن الأعذار كأولئك الثمانين، أم نصدق ونصبر على العاقبة ونفرّ إلى الله؟ اختار كعبٌ الطريق الثاني، فجعل الله يوم توبته **خير يومٍ مرّ عليه منذ ولدته أمّه.**

وتستمرّ سلسلة **السيرة النبوية** إن شاء الله مع **الحلقة ٢٦ – عام الوفود:** بعد تبوك توافدت الوفود من أنحاء جزيرة العرب إلى المدينة تعلن إسلامها – ثقيف من الطائف، وبنو تميم، ونجران، وغيرها كثير. والله أعلم.

المراجع — الْحَلْقَةُ ٢٥

القرآن الكريم والتفسير

القرآن الكريم، بالرسم العثماني. https://quran.com/ms

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (التوبة ٩: ٩٤–٩٦، ٩: ١٠٢، ٩: ١٠٦–١١٠، ٩: ١١٧–١١٩؛ الشرح ٩٤: ٦). https://tafsir.app/ibn-katheer/9/118

الحديث الشريف

صحيح البخاري ١١٩٣، ١٤٢٦، ٢٧٥٧، ٣٠٨٨، ٤٤١٨، ٤٦٧٣، ٤٦٧٦، ٤٦٧٨، ٦٠٦٩، ٦٠٧٧، ٦٠٩٤، ٦٢٥٥، ٦٣٠٩، ٦٦٩٠. https://sunnah.com/bukhari

صحيح مسلم ٧١٦، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ٢٦٠٧، ٢٧٤٧، ٢٧٥٩، ٢٧٦٩. https://sunnah.com/muslim

جامع الترمذي ٣٢٤، ١٩٣١؛ سنن أبي داود ٤٤، ٤٨٣٣. https://sunnah.com

كتب السيرة والشروح

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — قصّة الثلاثة الذين خُلِّفوا ومسجد الضرار.

ابن القيّم، زاد المعاد — فصل في فوائد قصّة كعب بن مالك؛ النوويّ، رياض الصالحين — باب التوبة.

ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري شرح صحيح البخاري — كتاب المغازي، حديث كعب بن مالك؛ الإصابة في تمييز الصحابة.

النوويّ، شرح صحيح مسلم — كتاب التوبة، حديث كعب بن مالك.

ابن كثير، البداية والنهاية؛ صفيّ الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم.

التاريخ العامّ

ويكيبيديا، «Ka’b ibn Malik». https://en.wikipedia.org/wiki/Ka%27b_ibn_Malik

ويكيبيديا، «Expedition of Tabuk». https://en.wikipedia.org/wiki/Expedition_of_Tabuk

ويكيبيديا، «Masjid al-Dirar». https://en.wikipedia.org/wiki/Masjid_al-Dirar

ويكيبيديا، «Quba Mosque». https://en.wikipedia.org/wiki/Quba_Mosque

ويكيبيديا، «Al-Masjid an-Nabawi». https://en.wikipedia.org/wiki/Al-Masjid_an-Nabawi

ويكيبيديا، «Abu Qatada al-Ansari». https://en.wikipedia.org/wiki/Abu_Qatada_al-Ansari

ويكيبيديا، «Talha ibn Ubayd Allah». https://en.wikipedia.org/wiki/Talha_ibn_Ubayd_Allah

أحاديث ومصادر إضافية

صحيح البخاري ٤٧٤٧ (هلال بن أميّة وآيات اللعان). https://sunnah.com/bukhari:4747

صحيح البخاري ٤٧٤٥ (عويمر العجلانيّ واللعان). https://sunnah.com/bukhari:4745

صحيح البخاري ٦٠٧٧ (النهي عن الهجر فوق ثلاث ليال). https://sunnah.com/bukhari:6077

صحيح مسلم ٢٥٦٥ (تُفتح أبواب الجنّة يوم الاثنين والخميس). https://sunnah.com/muslim:2565a

سنن أبي داود ٤٩١٤ (الهجر فوق ثلاث). https://sunnah.com/abudawud:4914

صحيح البخاري ٤٤١٨ (حديث كعب بن مالك). https://sunnah.com/bukhari:4418

صحيح البخاري ٤٦٧٨ (آيات التوبة؛ التوبة ٩: ١١٧–١١٨). https://sunnah.com/bukhari:4678

سورة التوبة ٩: ١١٧–١١٩ (Quran.com). https://quran.com/9/117-119

سورة النور ٢٤: ٦–٩ (Quran.com). https://quran.com/24/6-9

ويكيبيديا، «Ka‘b ibn Malik». https://en.wikipedia.org/wiki/Ka%27b_ibn_Malik

الْجُزْءُ الْخَامِسُ

عَامُ الْوُفُودِ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ — الْحَلْقَةُ ٢٦

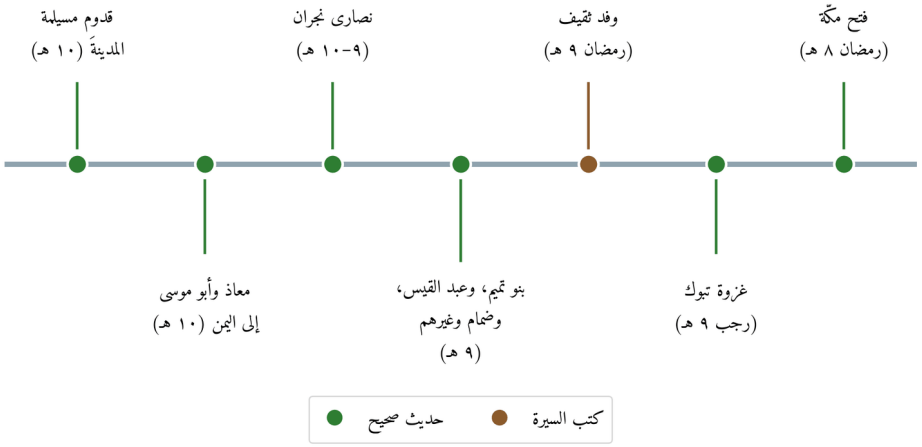
وُفُودُ الْعَرَبِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَدُخُولُ النَّاسِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، وَأَدَبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي اسْتِقْبَالِ الضُّيُوفِ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

عام الوفود

انتهت الحلقة الخامسة والعشرون بقصّة صدق الثلاثة الذين خُلِّفوا وبهدم مسجد الضرار. وها نحن ندخل مرحلةً مختلفةً تمامًا من السيرة — مرحلةَ **الحصاد**. فالبذرة التي غُرست عشرين سنةً في مكّة والمدينة آتت ثمارها الآن: وفودٌ تتلوها وفود تأتي من أرجاء جزيرة العرب لـ**الدخول في الإسلام**.

سمّى المؤرّخون السنةَ التاسعة للهجرة **عامَ الوفود**. وتحكي هذه الحلقة أشهرَ تلك الوفود: ثقيفًا التي طردت رسولَ الله ﷺ من الطائف قديمًا، وبني تميم الذين كان في أدبهم جفاء، وعبدَ القيس الذين جاؤوا من بعيد، وضِمامَ بن ثعلبة الذي سأل بصراحة، ونصارى نجران، وأهلَ اليمن الرقيقة قلوبُهم — و**مسيلمةَ** أيضًا، الذي جاء لا ليؤمن بل ليطلب الأمر.

الخطّ الزمنيّ لعام الوفود



التواريخ بحسب كتب السيرة، وفي بعضها خلاف.

الرسم ١: التسلسل الزمني لعام الوفود.

ملاحظة: نصوص آيات القرآن الكريم في هذا الكتاب بلفظها من المصحف الشريف. وتُذكَر درجةُ كلّ حديث في إطار الحديث. أمّا ما نُقل من كتب السيرة — كقصّة عروة بن مسعود، وشروط ثقيف، وهدم اللات، ومفاخرة بني تميم — فيوضع في الإطار البنّيّ «من كتب السيرة»، لأنّ أكثره مرويّ بلا إسنادٍ متّصل أو بإسنادٍ فيه كلام.

عام الوفود

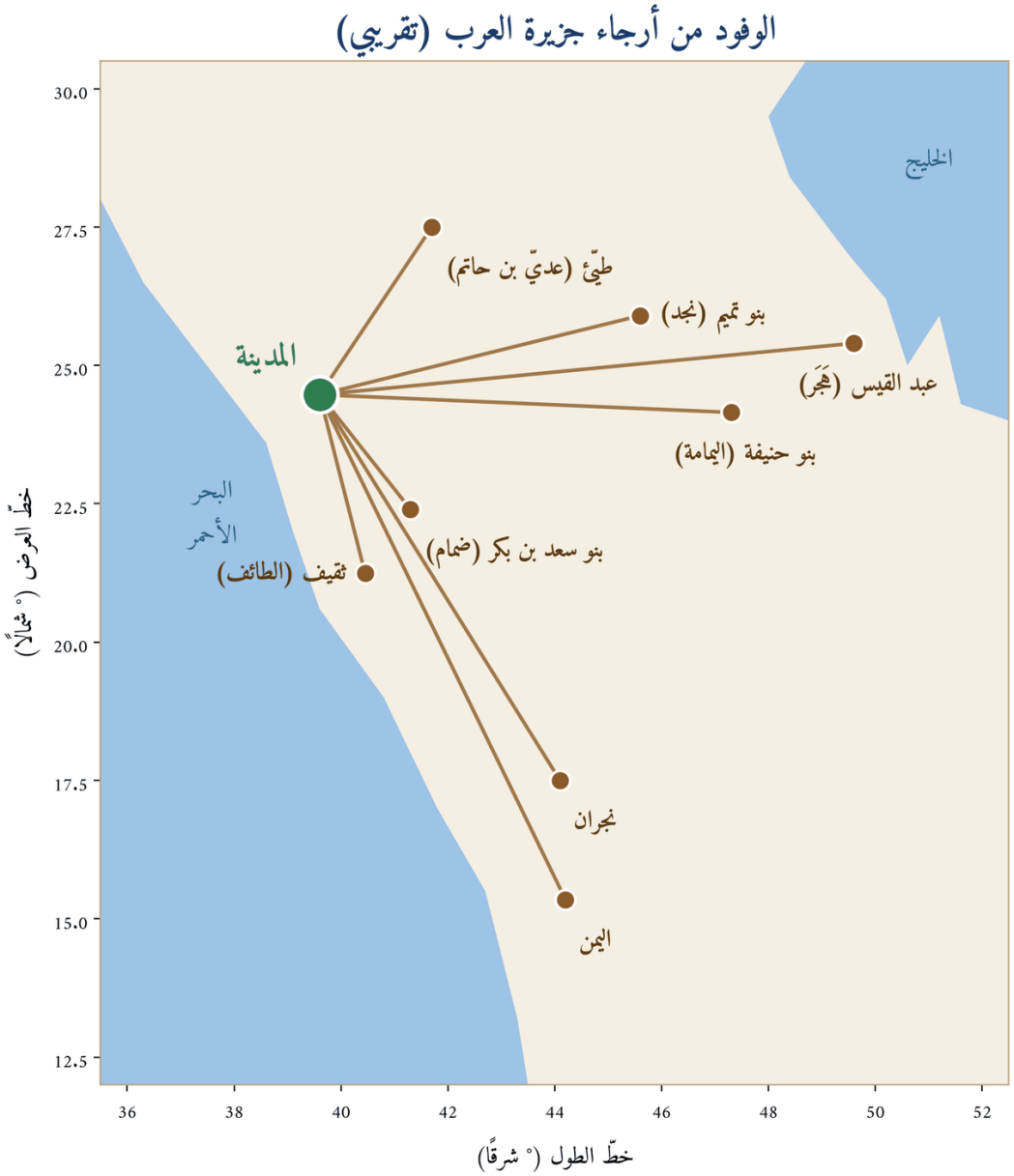
قبل وقوع هذا الحدث بزمن، أنزل الله سورةً قصيرة تصفه وصفًا دقيقًا:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر ١١٠: ١) – تفسير ابن كثير ١١٠: ١.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (النصر ١١٠: ٢) – تفسير ابن كثير ١١٠: ٢.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر ١١٠: ٣) – تفسير ابن كثير ١١٠: ٣.

﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ – كان الناس قبل ذلك يُسلمون فردًا فردًا، وأحيانًا سرًّا، معرَّضين للتعذيب. أمّا الآن فقبائلُ كاملةٌ تأتي معًا يمثّلها رؤساؤها. وكما رأينا في الحلقة العشرين، فهم ابنُ عبّاس هذه السورةَ **علامةً على اقتراب أجل رسول الله** ﷺ: لقد أوشكت مهمّته أن تكتمل.



مواضع القبائل وخطوط السواحل تقريبية.

الرسم ٢: الوفود من أرجاء جزيرة العرب (تقريبي).

يذكر أهل السيرة **أكثر من ستّين وفدًا** قدمت المدينة في هذه المدّة، وأكثرها في السنتين التاسعة والعاشرة. ولا يمكننا أن نحكي قصصها جميعًا، لكنّ بعض الوفود المذكورة في الأحاديث الصحيحة تعطي صورةً واضحةً عن **تنوّع الناس** الذين جاؤوا، وعن **حكمة رسول الله** ﷺ في معاملة كلّ واحدٍ منهم.

لماذا بعد تبوك؟

لماذا انتظرت قبائل العرب كلّ هذه المدّة؟ يبيّن ذلك عمرو بن سلمة رضى الله عنه :«**وكانت العربُ تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتحَ، فيقولون: اتركوه وقومَه، فإنّه إن ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادق. فلمّا كانت وقعةُ أهل الفتح بادر كلُّ قومٍ بإسلامهم**» صحيح البخاري ٤٣٠٢.(

كانت قريشٌ **سدنةَ الكعبة** وقادةَ العرب في الدين. فما دامت قريشٌ معاديةً تردّدت القبائل الأخرى. فلمّا فُتحت مكّة، وانتصر المسلمون في حنين، ولم تجرؤ الروم على المواجهة في تبوك، لم تبقَ في جزيرة العرب قوّةٌ تستطيع أن تصدّ الإسلام. فجاءت القبائل – منهم من جاء إيمانًا، ومنهم من نظر **إلى أين** تهبّ الريح.

استقبلهم رسول الله ﷺ جميعًا بالحسنى، لأنّ **باب الإسلام مفتوحٌ لكلّ أحد**. والإيمان الذي قد يكون ضعيفًا في أوّله ينمو قويًّا بالتربية. غير أنّ بعض من دخلوا بغير إيمانٍ راسخ هم الذين **ارتدّوا** بعد وفاة رسول الله ﷺ – وهو ابتلاءٌ سيواجهه أبو بكر رضى الله عنه.

ثقيف تأتي من الطائف

من أعظم الوفود دلالةً **وفدُ ثقيف من الطائف** – القومُ الذين طردوا رسول الله ﷺ ورموه بالحجارة (الحلقة الخامسة)، وتحصّنوا وراء حصونهم حين حوصروا بعد حنين (الحلقة الثانية والعشرون). وها هم الآن يأتون بأنفسهم إلى المدينة.

من كتب السيرة: عروة بن مسعود وشروط ثقيف

يروي أهل السيرة أنّه بعد حصار الطائف لحق **عروةُ بن مسعود** سيّدُ ثقيف برسول الله ﷺ فأسلم. ورجع ليدعو قومه، فلمّا أذّن فوق بيته **رموه بالنبل حتّى استُشهد.** ويُروى أنّ رسول الله ﷺ شبّهه بصاحب ياسين الذي قتله قومه لأنّه دعاهم إلى اتّباع المرسلين.

وبعد أشهر أدركت ثقيف أنّها لا تستطيع الصمود وقد أحاطت بها القبائل المسلمة. فأرسلت وفدًا، وطلبت شروطًا – منها أن تُترك اللاتُ بضعَ سنين، وأن يُعفَوا من الصلاة. **فرُدّت تلك المطالب كلّها.** وروى جابر رضى الله عنه أنّ ثقيفًا اشترطت ألّا صدقةَ عليها ولا جهاد، فقال رسول الله ﷺ: «سيتصدّقون ويجاهدون إذا أسلموا» (سنن أبي داود ٣٠٢٥؛ في إسناده كلام).

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب الوفود؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

وولّى رسول الله ﷺ أحرصَ شابٍّ في الوفد على تعلّم القرآن، **عثمانَ بنَ أبي العاص** رضى الله عنه، إمامًا لهم. وأوصاه: «**أُمَّ قومَك، فمن أمَّ قومًا فليخفّف، فإنّ فيهم الكبيرَ، وإنّ فيهم المريضَ، وإنّ فيهم الضعيفَ، وإنّ فيهم ذا الحاجة**» (صحيح مسلم ٤٦٨).

تأمّل هذه الحكمة: لم يختر أكبرهم سنًّا ولا أعلاهم منزلة، بل **أحرصَهم على العلم.** ولم تكن وصيّته عن السلطان، بل عن **الرحمة بالمأمومين.** فالقوم الذين رموا بالحجارة صار يؤمّهم في الصلاة شابٌّ رقيق القلب.

هدم صنم اللات

اللاتُ صنمُ ثقيف الأكبر بالطائف، وأحد أعظم أصنام العرب الثلاثة مع العُزّى ومناة (النجم ٥٣: ١٩-٢٠). وبيّن ابن عبّاس رضى الله عنهما أصلها فقال: «**كان اللاتُ رجلًا يَلُتُّ سويقَ الحاجّ**» (صحيح البخاري ٤٨٥٩). فلمّا مات عكفوا على قبره، حتّى عُبد في النهاية.

من كتب السيرة: المغيرة يهدم اللات

يروي أهل السيرة أنّ رسول الله ﷺ بعث **أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة** رضى الله عنهما مع وفد ثقيف ليهدموا اللات. فضربها المغيرة – وهو من ثقيف أيضًا – بالمِعْوَل. وخرجت نساء ثقيف حُسَّرًا يبكين عليها. وأُخذ ما في بيت الصنم من مالٍ وحليّ فقُضي به دَينُ عروة بن مسعود وأخيه. وهذه التفاصيل **من روايات كتب السيرة**.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب الوفود؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

تأمّل العبرة من أصل اللات: بدأ الأمر **بالغلوّ في تعظيم رجلٍ صالح**، ثمّ عُظّم قبره، ثمّ صار معبودًا. ولهذا كان الإسلام شديدًا في حفظ **صفاء التوحيد**، ومن ذلك النهي عن البناء على القبور واتّخاذها مساجد.

والقوم الذين دافعوا عن اللات بالسيف والحجارة **رأوا بأعينهم** هدمها، ولم يحدث شيء. فالصنم الذي خافوه قرونًا لم يستطع أن يدفع عن نفسه.

بنو تميم من وراء الحجرات

بنو تميم من أكبر قبائل نجد، عُرفوا بالشجاعة والشعر والفصاحة – وعُرفوا أيضًا **بجفاءٍ في الأدب**. فلمّا قدم وفدهم المدينة لم ينتظروا خروج رسول الله ﷺ، بل **وقفوا من وراء حجرات أزواجه** ونادَوا بأصواتٍ عالية. فأنزل الله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحجرات ٤٩: ٤) – تفسير ابن كثير ٤٩: ٤.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات ٤٩: ٥) – تفسير ابن كثير ٤٩: ٥.

وفي رواية الترمذي أنّ أحدهم، **الأقرعَ بنَ حابس**، نادى: «يا محمّد، إنّ حمدي زَيْن، وإنّ ذمّي شَيْن!» فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك الله**» (جامع الترمذي ٣٢٦٧، وقال: حسن غريب). فالله وحده هو الذي يُزيّن حمدُه ويَشين ذمُّه.

تأمّل **حِلمَ الله ورحمته** في هذه الآية: لم يعاقبهم الله، بل عاتبهم برفق وختم الآية بقوله ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾. لقد كانوا حديثي عهدٍ بالإسلام لم يعرفوا آدابه بعد. والعبرة لنا: **أنّ الجديد يُعلَّم بالصبر** لا يُعاقَب بالشدّة.

«اقبلوا البشرى»

استقبل رسول الله ﷺ بني تميم بأثمن عرض – **البشرى بالإسلام والجنّة**. لكن انظر كيف قابلوها:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٤٣٦٥

حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي صَخْرَةَ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ الْمَازِنِيِّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ أَتَى نَفَرٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا. فَرِيءَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ فَجَاءَ نَفَرٌ مِنَ الْيَمَنِ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ. قَالُوا قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

السند رواه الإمام البخاري: عن أبي نُعيم الفضل بن دُكين، عن سفيان الثوري، عن أبي صخرة جامع بن شدّاد، عن صفوان بن مُحرز المازني، عن عمران بن حصين رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني تميم، حديث رقم ٤٣٦٥؛ وانظر أيضًا رقم ٣١٩٠.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4365

دروسٌ من هذا الحديث

جاء بنو تميم **بعقلية الدنيا**: فالبشرى عندهم عطايا ومال. أمّا أهل اليمن فجاؤوا **بقلوبٍ متعطّشةٍ إلى العلم**: فقبلوا البشرى كما هي. وفي الرواية الأطول (صحيح البخاري ٣١٩٠) قال أهل اليمن: «جئناك لنتفقّه في الدين، ولنسألك عن أوّل هذا الأمر ما كان» – أي بدء الخلق.

غير أنّ بني تميم لم يبقوا على ذلك. قال أبو هريرة رضى الله عنه: «ما زلتُ أحبّ بني تميم منذ ثلاثٍ سمعتُ من رسول الله ﷺ يقولها فيهم» – منها أنّهم **أشدُّ أمّتي على الدجّال** (صحيح البخاري ٤٣٦٦). فالقبيلة التي كان فيها جفاءٌ في أوّل أمرها أخرجت بعد ذلك كثيرًا من المجاهدين والعلماء.

أبو بكر وعمر يرفعان أصواتهما

وكان قدوم بني تميم سببًا كذلك لنزول آيات الأدب في أوّل سورة الحجرات – ولم يكن المعاتَبون الأعرابَ وحدهم، بل أفضلَ صاحبَين أيضًا:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٤٣٦٧

حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ، أَخْبَرَهُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، أَخْبَرَهم أَنَّهُ، قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمِّرِ الْقَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدِ بْنِ زُرَارَةَ. قَالَ عُمَرُ بَلْ أَمِّرِ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ مَا أَرَدْتَ إِلاَّ خِلاَفِي. قَالَ عُمَرُ مَا أَرَدْتُ خِلاَفَكَ. فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا} حَتَّى انْقَضَتْ.

السند رواه الإمام البخاري: عن إبراهيم بن موسى، عن هشام بن يوسف، عن ابن جريج، عن ابن أبي مُليكة، عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني تميم، حديث رقم ٤٣٦٧؛ وانظر أيضًا رقم ٤٨٤٥، ٤٨٤٧، ٧٣٠٢.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4367

والآية التي نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (الحجرات ٤٩: ١) – تفسير ابن كثير ٤٩: ١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (الحجرات ٤٩: ٢) – تفسير ابن كثير ٤٩: ٢.

دروسٌ من هذا الحديث

لم يكن أبو بكر وعمر رضى الله عنهما متعاديَين، إنّما اختلفا فيمن يُؤَمَّر على بني تميم، فاحتدّ النقاش بين يدي رسول الله ﷺ. فعاتبهما الله على **التقدّم بين يدي رسوله** ﷺ وعلى **رفع الصوت** عنده.

وانظر كيف تلقّيا العتاب. قال ابن الزبير: فكان عمر بعد ذلك **إذا حدّث النبيَّ** ﷺ **بحديثٍ حدّثه كأخي السِّرار لم يُسمِعه حتّى يستفهمه** (صحيح البخاري ٤٨٤٥، ٧٣٠٢). وهذه صفة المؤمن: إذا عوتب **تغيّر فورًا** دون أن يدافع عن نفسه.

ثابت بن قيس: خطيب رسول الله ﷺ

تركت آيةُ رفع الصوت أثرًا عميقًا في صحابيٍّ من الأنصار: **ثابتِ بن قيس بن شمّاس** رضى الله عنه، خطيبِ الأنصار، وكان جهيرَ الصوت بطبعه. روى أنس رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ افتقد ثابتًا، فذهب رجلٌ يبحث عنه، فوجده جالسًا في بيته منكّسًا رأسه، فقال ثابت: «**شرٌّ، كان يرفع صوتَه فوق صوت النبيّ ﷺ، فقد حَبِطَ عملُه وهو من أهل النار**» صحيح البخاري ٣٦١٣؛ ٤٨٤٦)

فأرسل رسول الله ﷺ الرجلَ إليه ببشارةٍ عظيمة: «**اذهب إليه فقل له: إنّك لستَ من أهل النار، ولكن من أهل الجنّة**»

من كتب السيرة: ثابت يجيب خطيبَ بني تميم

يروي أهل السيرة أنّ بني تميم جاؤوا بخطيبهم وشاعرهم **للمفاخرة**. فقام خطيبهم عُطارد بن حاجب فأثنى على قومه. فأمر رسول الله ﷺ ثابتَ بن قيس فأجابه بخطبةٍ حمد فيها الله ورسوله. ثمّ أنشد شاعرهم الزِّبرقانُ بن بدر، فأجابه **حسّان بن ثابت**. فقال الأقرع بن حابس في النهاية: «لَخطيبُهم أخطبُ من خطيبنا، ولَشاعرُهم أشعرُ من شاعرنا». فأسلموا. وهذه التفاصيل **من روايات كتب السيرة**.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب الوفود؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

واستُشهد ثابت بن قيس بعد ذلك **يوم اليمامة** في قتال مسيلمة الكذّاب – فتحقّقت بشارة رسول الله ﷺ فيه. فذلك الصوت الجهير استُعمل في الذود عن الإسلام، وخشيتُه لله رفعت قدره.

وفد عبد القيس

ومن شرق جزيرة العرب – من منطقة **البحرين** (الأحساء وما حولها اليوم) – جاء وفد **عبد القيس**. وكان عليهم ليصلوا إلى المدينة أن يمرّوا بديار مُضَر وهم لا يزالون كفّارًا، فلم يكونوا يأمنون الطريق إلّا في **الأشهر الحُرُم**. يحدّث ابن عبّاس رضى الله عنهما عن لقائهم:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٥٣

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ، قَالَ أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي جَمْرَةَ، قَالَ كُنْتُ أَقْعُدُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ، يُجْلِسُنِي عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ أَقِمْ عِنْدِي حَتَّى أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا مِنْ مَالِي، فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ قَالَ إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ مَنِ الْقَوْمُ أَوْ مَنِ الْوَفْدُ. قَالُوا رَبِيعَةُ. قَالَ مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ ـ أَوْ بِالْوَفْدِ ـ غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ نَدَامَى. فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلاَّ فِي شَهْرِ الْحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَىُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ، نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ. وَسَأَلُوهُ عَنِ الأَشْرِبَةِ. فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ. قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ. قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ. وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ عَنِ الْحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ. وَرُبَّمَا قَالَ الْمُقَيَّرِ. وَقَالَ احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ.

السند رواه الإمام البخاري: عن علي بن الجعد، عن شعبة بن الحجّاج، عن أبي جمرة نصر بن عمران، عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أداء الخُمُس من الإيمان، حديث رقم ٥٣؛ وانظر أيضًا رقم ٤٣٦٩، وأخرجه مسلم برقم ١٧.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:53

دروسٌ من هذا الحديث

«**مرحبًا بالقوم غيرَ خزايا ولا ندامى**» – تحيّةٌ جميلة. فقد جاؤوا طائعين لا مغلوبين في حرب، فلا خزي عليهم؛ واختاروا الإسلام بإرادتهم، فلن يندموا. وأعطاهم رسول الله ﷺ **خلاصةً للإسلام** يسهل حفظها وتبليغها: الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والخُمُس.

وأثمر حرصُ عبد القيس ثمرةً عظيمة. قال ابن عبّاس: «**إنّ أوّلَ جمعةٍ جُمِّعت بعد جمعةٍ في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجُواثى من البحرين**» (صحيح البخاري ٨٩٢). فصار وفدٌ صغير **مركزًا للإسلام في شرق جزيرة العرب**.

خصلتان يحبّهما الله

كان في وفد عبد القيس رئيسٌ يُدعى **الأشجّ** (المنذر بن عائذ). فلمّا تبادر أعضاء الوفد من رواحلهم إلى رسول الله ﷺ، لم يعجل الأشجّ، بل جمع متاعهم وعقل رواحلهم، ولبس أحسن ثيابه، ثمّ أقبل في سكينة. فقال له رسول الله ﷺ: «**إنّ فيك خصلتين يحبّهما الله: الحِلمُ والأناة**» (صحيح مسلم ١٧).

الحِلم هو ضبط النفس عند الغضب أو الاستفزاز. **والأناة** هي عدم العجلة، والتفكّر قبل العمل، وإتقان الأمر بترتيب. وهاتان الخصلتان من ألزم ما يحتاجه القائد. وقد بيّن الأشجّ أنّ **طريقة إقبالنا** على الأمر المهمّ تعكس أخلاقنا أيضًا.

وقارن ذلك ببني تميم الذين نادَوا من وراء الحجرات. وفدان وطريقتان: أحدهما عَجِلٌ جافٍ، والآخر هادئٌ متأدّب. عاتب القرآنُ الأوّل، وأثنى رسول الله ﷺ على الثاني. وفي حياتنا المتسارعة اليوم، **الأناة** – أن نتوقّف قليلًا، وترتّب نفسك، وتعمل بسكينة – خُلُقٌ نفيسٌ جدًّا.

ضمام بن ثعلبة

ومن أعجب الوافدين **ضمامُ بن ثعلبة** من بني سعد بن بكر. جاء وحده على جمله، فدخل المسجد مباشرة، وسأل أسئلةً صريحةً حازمة:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٦٣

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ سَعِيدٍ - هُوَ الْمَقْبُرِيُّ - عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ. فَقُلْنَا هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قَدْ أَجَبْتُكَ. فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ. فَقَالَ سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ. فَقَالَ أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ فَقَالَ اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ قَالَ اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ قَالَ اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم اللَّهُمَّ نَعَمْ. فَقَالَ الرَّجُلُ آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ. رَوَاهُ مُوسَى وَعَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ عَنْ سُلَيْمَانَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِهَذَا.

السند رواه الإمام البخاري: عن عبد الله بن يوسف، عن الليث بن سعد، عن سعيد المقبري، عن شريك بن عبد الله بن أبي نَمِر، عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم، حديث رقم ٦٣؛ وأخرجه مسلم برقم ١٢.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:63

دروسٌ من هذا الحديث

تأمّل أدب ضمام الفريد: **استأذن أوّلًا** في أن يشدّد في السؤال – «فلا تَجِدْ عليَّ في نفسك». لم يتظاهر باللين، بل صدق في طريقته. ورسول الله ﷺ **لم يغضب**: أجاب عن كلّ سؤالٍ بقوله «اللهمّ نعم».

وضع الإمام البخاري هذا الحديث في **كتاب العلم** دليلًا على جواز **القراءة على العالِم** (القراءة على المحدّث) – فقد قرأ ضمام ما بلغه، وأقرّه رسول الله ﷺ. ويدلّ أيضًا على أنّ **السؤال للتثبّت** ليس نقصًا في الإيمان، بل طريقٌ إلى إيمانٍ يقينيّ.

ضمام يرجع إلى قومه

من كتب السيرة: ضمام يدعو قومه

روى ابن إسحاق والإمام أحمد عن ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّ ضمامًا لمّا رجع إلى قومه كان أوّلَ ما تكلّم به أن قال: «**بئست اللاتُ والعُزّى!**» قالوا: «مَهْ يا ضمام! اتّقِ البرص، اتّقِ الجذام، اتّقِ الجنون!» قال: «ويلكم! إنّهما والله لا يضرّان ولا ينفعان. إنّ الله قد بعث رسولًا وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به ممّا كنتم فيه».

ويُذكر أنّه **ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجلٌ ولا امرأةٌ إلّا مسلمًا**. قال ابن عبّاس: «فما سمعنا بوافد قومٍ كان أفضلَ من ضمام بن ثعلبة». وهذه الرواية **حسّنها بعض أهل العلم**.

المرجع:

أحمد، المسند (مسند ابن عبّاس)؛ ابن هشام، السيرة النبوية.

انظر إلى قوّة **الإيمان اليقينيّ**. جاء ضمام بأسئلة، ورجع بيقين، وكان يقينه قويًّا بما يكفي لمواجهة خوف قومه من الأصنام. فرجلٌ واحدٌ موقنٌ حقًّا قد يغيّر **قومه كلّهم**.

والعبرة للدعاة: لم يرجع ضمام بحججٍ طويلة ولا بكتبٍ ضخمة، بل رجع بـ**خمسة أسئلة وخمسة أجوبة** – عن الرسالة والصلاة والصيام والزكاة والحجّ – وبيقينٍ راسخ. وأحيانًا تكون **البساطة والوضوح** أبلغَ أثرًا من الجدال الطويل.

نصارى نجران

ومن الجنوب، على تخوم اليمن، جاء وفد **نصارى نجران** – مجتمعٌ نصرانيٌّ كبيرٌ ذو نفوذ، معهم أسقفهم ورهبانهم ورؤساؤهم. جاؤوا **ليحاوروا** رسول الله ﷺ في شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. ويذكر المفسّرون أنّ صدر سورة آل عمران – بضعًا وثمانين آية – نزل في مجادلتهم.

بيّن القرآن حقيقة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾** (آل عمران ٣: ٥٩) – كلاهما خُلق بلا أب، بكلمة «كن». فلمّا أصرّوا على الجدال أمر الله رسوله أن يدعوهم إلى **المباهلة**:

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران ٣: ٦١) – تفسير ابن كثير ٣: ٦١.

المباهلة هي آخر الطرق حين لا تُقبل الحجّة: يدعو الفريقان، ومعهم أقرب أهليهم، دعاءً مخلصًا أن يلعن الله الكاذبَ منهما. وهي تدلّ على **اليقين المطلق** عند رسول الله ﷺ بصدق ما جاء به – فقد كان مستعدًّا أن يقدّم نفسه وأهله.

وتُظهر القصّة أيضًا أدبَ الحوار بين الأديان في الإسلام: فقد استقبلهم رسول الله ﷺ **في المدينة**، وسمع حجّتهم، وأجاب بالوحي. وفي رواية ابن إسحاق أنّهم أُذن لهم أن يصلّوا إلى المشرق في المسجد النبويّ – **وفي إسناد هذه الرواية كلام** عند العلماء.

المباهلة التي لم تقع

فماذا حدث حين عُرضت المباهلة؟ يروي حذيفة رضى الله عنه:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٤٣٨٠

حَدَّثَنِي عَبَّاسُ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ آدَمَ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ صِلَةَ بْنِ زُفَرَ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ صَاحِبَا نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُرِيدَانِ أَنْ يُلاَعِنَاهُ، قَالَ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ لاَ تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلاَعَنَّا، لاَ نُفْلِحُ نَحْنُ وَلاَ عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا. قَالاَ إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلاً أَمِينًا، وَلاَ تَبْعَثْ مَعَنَا إِلاَّ أَمِينًا. فَقَالَ لأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلاً أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ. فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ. فَلَمَّا قَامَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ.

السند رواه الإمام البخاري: عن عبّاس بن الحسين، عن يحيى بن آدم، عن إسرائيل بن يونس، عن أبي إسحاق السَّبيعي، عن صِلة بن زُفَر، عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصّة أهل نجران، حديث رقم ٤٣٨٠؛ وانظر أيضًا رقم ٤٣٨١، وأخرجه مسلم برقم ٢٤٢٠.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4380

دروسٌ من هذا الحديث

لم يجرؤ زعيما نجران **على المضيّ** في المباهلة. قال أحدهما لصاحبه: «لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعَنّا لا نُفلح نحن ولا عقبُنا من بعدنا». وهذا **اعترافٌ ضمنيّ**: ففي قلوبهما خوفٌ أن يكون نبيًّا حقًّا.

فاختارا بدل ذلك **صلحًا**: يبقون على دينهم ويؤدّون الجزية، ولهم في مقابل ذلك **الأمان** في ذمّة دولة الإسلام. وقبل رسول الله ﷺ اختيارهم. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة ٢: ٢٥٦)؛ أُقيمت عليهم الحجّة وتُرك القرار لهم.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

أبو عبيدة: أمين هذه الأمّة

طلب أهل نجران رجلًا **أمينًا** يتولّى أمرهم. فتطلّع الصحابة كلٌّ يرجو أن يُختار – لا حبًّا في الإمارة، بل رغبةً **في أن يحوز وصفَ** «الأمين» من رسول الله ﷺ. فاختار **أبا عبيدة بن الجرّاح** رضى الله عنه.

روى أنس رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ لكلّ أمّةٍ أمينًا، وإنّ أميننا أيّتها الأمّة أبو عبيدة بن الجرّاح**» (صحيح البخاري ٣٧٤٤).

أبو عبيدة أحد **العشرة المبشّرين بالجنّة**. قاد بعد ذلك جيوش المسلمين في فتح الشام، وتوفّي في طاعون عَمَواس. وقال عمر: لو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفتُه. ولم يُعطَ لقب «الأمين» لفصاحةٍ في الخطابة ولا لقوّةٍ في الجيش، بل **لصدقه وطهارة قلبه**.

والعبرة لنا: إذا اخترنا أحدًا لمهمّة – ولا سيّما ما يتعلّق بالأموال وحقوق الناس – فإنّ **الأمانة هي الشرط الأوّل**. ويعلّمنا أيضًا أنّ معاملة غير المسلمين الذين في ذمّة الإسلام ينبغي أن يتولّاها **أشدُّ الناس أمانةً**.

أهل اليمن أرقّ قلوبًا

ومن اليمن جاءت وفودٌ عدّة، فاستقبلها رسول الله ﷺ بثناءٍ خاصٍّ جدًّا:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٤٣٨٨

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ ذَكْوَانَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قُلُوبًا، الإِيمَانُ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلاَءُ فِي أَصْحَابِ الإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ. وَقَالَ غُنْدَرٌ عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، سَمِعْتُ ذَكْوَانَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

السند رواه الإمام البخاري: عن محمّد بن بشّار، عن ابن أبي عديّ، عن شعبة بن الحجّاج، عن سليمان الأعمش، عن ذكوان أبي صالح، عن أبي هريرة رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريّين وأهل اليمن، حديث رقم ٤٣٨٨؛ وأخرجه مسلم برقم ٥٢.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4388

دروسٌ من هذا الحديث

«الإيمانُ يمانٍ، والحكمةُ يمانية» – ثناءٌ رفيع جدًّا. عُرف أهل اليمن بقلوبٍ **رقيقةٍ سريعةِ القبول للحقّ.** لم يأتوا للمفاخرة ولا لطلب المال، بل لـ**التفقّه في الدين.**

ويقارن هذا الحديث أيضًا بين **أهل الإبل** الذين يميلون إلى الفخر والخيلاء، **وأهل الغنم** الذين يميلون إلى السكينة. ويبيّن العلماء أنّ العمل والبيئة يؤثّران في أخلاق الإنسان. وقد **رعى الأنبياءُ الغنم** (صحيح البخاري ٢٢٦٢) – وهو عملٌ يربّي الصبر والرفق.

وخرج من اليمن كثيرٌ من أعلام الإسلام: **أبو موسى الأشعريّ**، **وأبو هريرة** من دَوْس، وكثيرٌ من التابعين بعد ذلك مثل **أويس القرني** الذي أثنى عليه رسول الله ﷺ (صحيح مسلم ٢٥٤٢). وصدق رسول الله: الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

الأشعريّون: «هم منّي»

ومن أحبّ أهل اليمن **الأشعريّون**، قومُ أبي موسى رضى الله عنه. وقد أثنى رسول الله ﷺ على خُلُقٍ جميلٍ فيهم: «**إنّ الأشعريّين إذا أرملوا في الغزو، أو قلّ طعامُ عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحد، ثمّ اقتسموه بينهم في إناءٍ واحد بالسويّة، فهم منّي وأنا منهم**» (صحيح البخاري ٢٤٨٦).

«**فهم منّي وأنا منهم**» – كلماتٌ تدلّ على **قربٍ خاصٍّ جدًّا**. لا لنسبٍ ولا لمال، بل لـ**خُلُق المواساة في الشدّة**. فلم يكونوا يتركون أحدًا منهم جائعًا وغيره شبعان.

لقد لقينا الأشعريّين في الحلقة الرابعة والعشرين حين جاء أبو موسى يطلب حُملانًا لغزوة تبوك، وتثبّت بدقّةٍ من صدق الخبر الذي نقله. وفي الحلقة السادسة عشرة قدموا من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب حين فُتحت خيبر. فهذا القوم الصغير حاضرٌ دائمًا **بالصدق والعلم والكرم**.

الطفيل وقبيلة دَوْس

لم تقبل القبائل كلّها الإسلام بسهولة. **فالطفيل بن عمرو الدوسيّ** رضى الله عنه، سيّدٌ وشاعرٌ من قبيلة **دَوْس** في الجنوب، أسلم مبكّرًا ورجع يدعو قومه، فأبَوا. فجاء إلى رسول الله ﷺ حزينًا. روى أبو هريرة رضى الله عنه: قدم الطفيل وأصحابه فقالوا: «**يا رسول الله، إنّ دوسًا قد عصت وأبت، فادعُ الله عليها**». فقيل: هلكت دوس! فقال: «**اللهمّ اهدِ دوسًا وائتِ بهم**» (صحيح البخاري ٢٩٣٧)

فاستُجيب الدعاء. وجاءت دوسٌ إلى المدينة جماعات، وكان فيهم رجلٌ صار **أكثرَ الرواة حديثًا** في تاريخ الإسلام: **أبو هريرة** رضى الله عنه. تخيّل لو أنّ رسول الله ﷺ دعا على دوس – لربّما فاتتنا آلاف الأحاديث التي رواها أبو هريرة.

والعبرة عظيمةٌ لكلّ داعيةٍ ومعلّمٍ ووالد: إذا ردّ المدعوّون دعوتنا **فادعُ لهم بالهداية لا بالهلاك**. فرسول الله ﷺ **رحمةٌ للعالمين** (الأنبياء ٢١: ١٠٧). والقلوب بيد الله، والدعاء الصادق قد يفتح أقسى القلوب.

والحقّ أنّ دوسًا قدمت قبل عام الوفود، نحو زمن فتح خيبر (سنة ٧ للهجرة). لكنّ قصّتهم تناسب هذا الموضع جدًّا، لأنّها تُظهر أنّ **الوفود التي قدمت سنة ٩ للهجرة** كانت ثمرةَ دعاءٍ وصبرٍ ودعوةٍ امتدّت سنين.

أويس القرني: رجلٌ من اليمن عرفته السماء

تحقّق قول رسول الله ﷺ «**الإيمان يمانٍ**» في رجلٍ لم يلقَه قطّ، لكنّه سمّاه: **أويس القرني**. روى عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**يأتي عليكم أويسُ بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مُراد ثمّ من قَرَن، كان به برصٌ فبرأ منه إلّا موضعَ درهم، له والدةٌ هو بها برّ، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**» (صحيح مسلم ٢٥٤٢)

وبعد سنين، كان عمر – وهو يومئذٍ خليفة – إذا أتت عليه أمدادُ أهل اليمن سألهم: «أفيكم أويس بن عامر؟» حتّى لقيه، فتثبّت من الصفات كلّها، ثمّ **طلب منه أن يستغفر له**. تخيّل: **خليفةُ المسلمين**، أحدُ العشرة المبشّرين بالجنّة، يطلب الدعاء من رجلٍ يمانيٍّ لا يعرفه الناس.

لماذا لم يهاجر أويس للقاء رسول الله ﷺ؟ يذكر العلماء أنّه **بقي ليبرّ أمّه**. فأكرمه الله بذلك البرّ – فخُلّد اسمه في صحيح مسلم، وكان مستجابَ الدعوة. عُرف في السماء وإن لم يُعرف في الأرض.

والعبرة: **أنّ الكرامة عند الله لا تتعلّق بالشهرة**. فولدٌ يبرّ أمّه بإخلاص قد يكون عند الله أكرمَ من كثيرٍ من المشهورين. وأهل اليمن «أرقّ الناس قلوبًا» أخرجوا أجملَ مثالٍ على ذلك.

بعث معاذ إلى اليمن

بعد أن أسلم أهل اليمن احتاجوا إلى معلّمين وولاة. فبعث رسول الله ﷺ صحابيَّين: **معاذَ بن جبل** وأبا **موسى الأشعريّ** رضى الله عنهما، كلًّا إلى مِخلاف. وقبل أن يخرج معاذ أوصاه وصيّةً صارت **منهجًا للدعوة** على مرّ العصور:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٤٣٤٧

حَدَّثَنِي حِبَّانُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، عَنْ زَكَرِيَّاءَ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَيْفِيٍّ، عَنْ أَبِي مَعْبَدٍ، مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ {طَوَّعَتْ} طَاعَتْ وَأَطَاعَتْ لُغَةٌ، طِعْتُ وَطُعْتُ وَأَطَعْتُ.

السند رواه الإمام البخاري: عن حِبّان بن موسى، عن عبد الله بن المبارك، عن زكريّا بن إسحاق، عن يحيى بن عبد الله بن صيفي، عن أبي معبد مولى ابن عبّاس، عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، حديث رقم ٤٣٤٧؛ وانظر أيضًا رقم ١٣٩٥، ١٤٩٦، وأخرجه مسلم برقم ١٩.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4347

دروسٌ من هذا الحديث

في هذه الوصيّة **منهجُ التدرّج في الدعوة**: ابدأ بالأصل – التوحيد – ثمّ الصلاة، ثمّ الزكاة. ولا تُثقل الناس بالأمور كلّها دفعةً واحدة. فكلّ مرحلةٍ تُبنى على ما قبلها.

والوصيّتان الأخيرتان مهمّتان جدًّا لكلّ صاحب سلطان: «**وإيّاك وكرائمَ أموالهم**» – فلا تأخذ أنفسَها عند جباية الزكاة – و«**واتّقِ دعوةَ المظلوم، فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب**». فالسلطة ليست رخصةً للظلم. خرج معاذ معلّمًا وقاضيًا وجابيًا للزكاة، وهذه الوصيّة حفظت عدله.

ويذكر أهل السيرة أنّ رسول الله ﷺ خرج معه يوصيه ماشيًا ومعاذ راكب، وقال: «يا معاذ، إنّك عسى ألّا تلقاني بعد عامي هذا». فبكى معاذ. وكذلك كان – **تُوفّي رسول الله ﷺ قبل أن يرجع معاذ من اليمن.** (رواه أحمد، وصحّحه بعض العلماء.)

«يسِّرا ولا تعسِّرا»

وأوصى رسول الله ﷺ معاذًا وأبا موسى معًا بوصيّةٍ موجزةٍ جامعة: «**يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا**» (صحيح البخاري ٣٠٣٨).

الوصيّة	معناها في الدعوة
يسِّرا	اختر الأيسر ما لم يكن إثمًا
ولا تعسِّرا	لا تُثقل حديثَ العهد بالأمور الشاقّة
بشِّرا	ابدأ بالرجاء ورحمة الله
ولا تنفِّرا	لا تجعل الناس يفرّون من الدين
وتطاوعا	داعيان يعين أحدهما الآخر
ولا تختلفا	اختلاف القادة يُفسد الأمّة

وهذه الوصيّة وثيقة الصلة بكلّ معلّمٍ ووالدٍ وإمامٍ وداعيةٍ اليوم. فرسول الله ﷺ نفسه **ما خُيِّر بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا** (صحيح البخاري ٣٥٦٠). والدين الميسَّر ليس دينًا متساهلًا، بل دينٌ يُفهم ويُحبّ ويُعمل به باستقامة.

جرير وذو الخلَصة

كان في اليمن بيتُ صنمٍ مشهورٌ يُدعى **ذا الخلَصة**، ويُسمّى «**الكعبة اليمانية**» – مضاهاةً للكعبة بمكّة. فقال رسول الله ﷺ لـ**جرير بن عبد الله البجليّ** رضى الله عنه :«**ألا تُريحني من ذي الخلَصة؟**» فانطلق جرير في خمسين ومئة فارسٍ من أَحْمَس (صحيح البخاري ٤٣٥٥-٤٣٥٧).

لكنّ جريرًا كان فيه ضعف: **كان لا يثبت على الخيل**. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فضرب في صدره حتّى رأى جريرٌ أثر أصابعه في صدره، وقال: «**اللهمّ ثبّته، واجعله هاديًا مهديًّا**». قال جرير: «**فما وقعتُ عن فرسٍ بعدُ**»

فانطلق جرير **فكسرها وحرّقها**، ثمّ بعث رسولًا يبشّر. فبرّك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها **خمسَ مرّات**. وبذلك زالت «الكعبة المضاهية» في اليمن، ولم يبقَ إلّا **كعبةٌ واحدة** – بيت الله الحرام بمكّة.

والعبرة: أنّ ضعف النفس ليس مانعًا من خدمة الدين. كان جرير ضعيفًا على الخيل، لكنّ **دعاء رسول الله** ﷺ ثبّته. فإذا كُلّفنا بأمرٍ ثقيل فلنعترف لله بضعفنا ولنسأله القوّة.

عليّ إلى اليمن

وبعث رسول الله ﷺ **خالدَ بن الوليد** رضى الله عنه إلى اليمن، **ثمّ بعث عليَّ بن أبي طالب** رضى الله عنه مكانه. يحدّث بذلك البراء بن عازب رضى الله عنه وكان في تلك السريّة (صحيح البخاري ٤٣٤٩). وعمل عليّ في اليمن داعيًا وقاضيًا وقابضًا للخُمس، ثمّ لقي رسولَ الله ﷺ بمكّة في حجّة الوداع.

وفي اليمن وقع سوءُ فهم. فلم يرضَ بُريدة رضى الله عنه عن طريقة عليّ في أخذ نصيبٍ من الخُمس، فشكاه إلى رسول الله ﷺ. فقال: «**يا بريدة، أتُبغض عليًّا؟**» قال: نعم. قال: «**لا تُبغضه، فإنّ له في الخُمس أكثرَ من ذلك**» صحيح البخاري ٤٣٥٠(

من كتب السيرة: إسلام همدان

روى البيهقيّ عن البراء أنّ عليًّا لمّا قرأ كتابَ رسول الله ﷺ على **همدان** باليمن **أسلمت همدانُ جميعًا في يومٍ واحد**. فكتب عليّ إلى رسول الله ﷺ بذلك، فخرّ ساجدًا ثمّ قال: «السلام على همدان، السلام على همدان». صحّح بعض العلماء إسناد هذه الرواية، وتكلّم فيه آخرون.

المرجع:

البيهقيّ، دلائل النبوّة؛ ابن حجر، فتح الباري، كتاب المغازي.

والعبرة: **لا تتعجّل في بغض أخيك المؤمن** لسوء فهم. فما يبدو ظلمًا قد يكون له تفسيرٌ لا نعلمه. صحّح رسول الله ﷺ مشاعر بريدة برفق، فصار بريدة بعدُ من أشدّ الناس حبًّا لعليّ.

مسيلمة الكذّاب

لم تأتِ الوفود كلّها بنيّةٍ حسنة. فمن اليمامة في وسط جزيرة العرب جاء وفد بني حنيفة، ومعهم رجلٌ عُرف بعدُ بـمسيلمة الكذّاب:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٤٣٧٣

حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حُسَيْنٍ، حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَجَعَلَ يَقُولُ إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ. وَقَدِمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَفِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قِطْعَةُ جَرِيدٍ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللَّهُ، وَإِنِّي لأَرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيهِ مَا رَأَيْتُ، وَهَذَا ثَابِتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي. ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُ عَنْ قَوْلِ، رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِنَّكَ أُرَى الَّذِي أُرِيتُ فِيهِ مَا أُرِيتُ. فَأَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَىَّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا، فَأُوحِيَ إِلَىَّ فِي الْمَنَامِ أَنِ انْفُخْهُمَا، فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ بَعْدِي، أَحَدُهُمَا الْعَنْسِيُّ، وَالآخَرُ مُسَيْلِمَةُ.

السند رواه الإمام البخاري: عن أبي اليمان الحكم بن نافع، عن شعيب بن أبي حمزة، عن عبد الله بن أبي حسين، عن نافع بن جبير، عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، حديث رقم ٤٣٧٣؛ وانظر أيضًا رقم ٣٦٢٠، ٤٣٧٤، وأخرجه مسلم برقم ٢٢٧٣.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4373

دروسٌ من هذا الحديث

جاء مسيلمة **بشرط**: أن يتّبع رسول الله ﷺ إن جعل له الأمر من بعده. وهذه علامةُ **الإيمان الزائف** – إيمانٌ معلّقٌ بالمصلحة. وكان جواب رسول الله ﷺ حازمًا رمزيًّا: «**لو سألتَني هذه القطعةَ ما أعطيتُكَها**». فالنبوّة والإمامة في الدين ليستا سلعةً تُشترى.

ولاحظ أيضًا أنّ رسول الله ﷺ **ذهب بنفسه** إلى مسيلمة ومعه ثابت بن قيس. لم يُهمل الوفد، ولم يتساهل في أمر العقيدة. ثمّ ترك بقيّة الجواب لثابت – الرجلِ نفسه الذي **استُشهد باليمامة** في قتال مسيلمة.

سواران من ذهب

وفي الحديث نفسه ذكر رسول الله ﷺ رؤياه **سوارَين من ذهب** في يديه. والسوار حلية، والذهب للرجال ممّا يُكره، فأُوِّل **بأمرٍ يُهمّه**. فلمّا نفخهما طارا – علامةً على أنّ أمر الكذّابَين **هيّنٌ زائل**.

وفي روايةٍ أخرى أنّ الكذّابَين هما «**العنسيّ الذي قتله فيروز باليمن، ومسيلمة**» (صحيح البخاري ٤٣٧٩). **فالأسود العنسيّ** ادّعى النبوّة باليمن وقتله فيروز الديلميّ قبل وفاة رسول الله ﷺ. وأمّا **مسيلمة** فقُتل يوم اليمامة في خلافة أبي بكر رضى الله عنه؛ وذكر وحشيّ بن حرب – قاتلُ حمزة يوم أحد – أنّه شارك في قتل مسيلمة (صحيح البخاري ٤٠٧٢).

انظر كيف تحقّقت **نبوءة رسول الله** ﷺ. رأى في المنام كذّابَين سيظهران، فظهرا وزالا كالسوار المنفوخ. وأخبر رسول الله ﷺ أنّه سيكون **ثلاثون كذّابًا** كلّهم يزعم أنّه نبيّ، وهو **خاتم النبيّين** (سنن أبي داود ٤٢٥٢، وصُحّح). وقد شهد التاريخ أنّ أولئك الكذّابين زالوا جميعًا، وبقي الإسلام.

ثمامة بن أُثال

ومن القبيلة نفسها – بني حنيفة – خرج رجلٌ مختلفٌ تمامًا: **ثمامة بن أُثال**، سيّد أهل اليمامة. يحدّث أبو هريرة رضى الله عنه أنّ خيل رسول الله ﷺ أسرته، فرُبط بساريةٍ من سواري المسجد. وثلاثة أيّامٍ يسأله رسول الله ﷺ: «ما عندك يا ثمامة؟» فيقول: «**عندي خيرٌ يا محمّد، إن تقتلْ تقتلْ ذا دم، وإن تُنعمْ تُنعمْ على شاكر، وإن كنتَ تريد المالَ فسَلْ منه ما شئت**» (صحيح البخاري ٤٣٧٢)

وفي اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ: «**أطلقوا ثمامة**». فانطلق ثمامة إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد فاغتسل، ثمّ دخل المسجد فتشهّد، وقال: «**يا محمّد، والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه إليّ، والله ما كان من دينٍ أبغضَ إليّ من دينك، فأصبح دينُك أحبَّ الدين إليّ**»

ما الذي غيّر قلبه؟ **ثلاثة أيّامٍ يرى فيها حياة المسجد** – الصلاةَ، وأخلاقَ الصحابة، وحسنَ معاملته – ثمّ **الإطلاقُ بلا شرط**. فكان عفو رسول الله ﷺ أقوى من السيف. ثمّ خرج ثمامة إلى مكّة معتمرًا، فلمّا عيّرته قريش قال: «**لا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبّةُ حنطة حتّى يأذن فيها النبيّ ﷺ**». وحين ارتدّ مسيلمة **ثبت ثمامة** على الإسلام.

عديّ بن حاتم والوعود الثلاثة

ومن الذين قدموا المدينة **عديّ بن حاتم الطائيّ**، ابنُ حاتم الطائيّ المشهور بالكرم في تاريخ العرب. يحدّث عديّ أنّه كان عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه **الفاقة**، ثمّ أتاه آخر فشكا إليه **قطعَ السبيل**. فوعده رسول الله ﷺ ثلاثة وعود (صحيح البخاري ٣٥٩٥):

وعد رسول الله ﷺ	ما شوهد
ترتحل الظعينة من الحيرة حتّى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلّا الله	رآه عديّ بنفسه
تُفتح كنوز كسرى	شارك عديّ في فتحها
يُخرج الرجل ملءَ كفّه من ذهبٍ أو فضّة يطلب من يقبله فلا يجد	قال عديّ: «ولئن طالت بكم حياةٌ لترونّ»

كان الإسلام يومئذٍ محصورًا في جزيرة العرب، وفارس إمبراطوريّةٌ عظيمة، والطرقُ مليئةٌ بقطّاعها. فبدت هذه الوعود مستحيلة. لكنّ عديًّا عاش حتّى شهد **تحقّق اثنين منها**. ويذكر المؤرّخون أنّه في زمن عمر بن عبد العزيز كان يصعب أن يوجد فقيرٌ يأخذ الزكاة.

والعبرة: إذا رأينا ضعف الأمّة اليوم فلنتذكّر هذه الوعود. **فالأمن والرخاء والعزّة** تأتي لمن آمن وعمل، وإن بدت في أوّل الأمر مستحيلة.

آداب استقبال الوفود

أولى رسول الله ﷺ **طريقةَ استقبال الوفود** عنايةً كبيرة. فكان بعض الوفود يُنزَل في بيوت الصحابة، ويُكرَمون ويُجازون بالجوائز عند انصرافهم. واقترح عمر رضى الله عنه مرّةً أن يشتري حُلّةً **يتجمّل بها للعيد والوفود** (صحيح البخاري ٨٨٦) – ممّا يدلّ على أنّ التجمّل لاستقبال الضيوف كان أمرًا معروفًا (وإن رُدّت تلك الحلّة لأنّها من حرير).

وبلغ هذا الأمر من الأهمّية أن كان من **آخر وصايا رسول الله** ﷺ في مرض موته. روى ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّه أوصى بثلاث، منها: «**وأجيزوا الوفدَ بنحو ما كنتُ أُجيزهم**» صحيح البخاري ٣٠٥٣.

الأدب	مثالٌ من السيرة
الترحيب الحارّ	«مرحبًا بالقوم غيرَ خزايا ولا ندامى»
الصبر على الجافي	لم يُعنَّف بنو تميم ولا ضمام
الثناء على الخلق الحسن	حِلمُ الأشجّ وأناتُه
التعليم بإيجاز	أربعة أوامر وأربعة نواهٍ
الجوائز والهدايا	«وأجيزوا الوفد»
الحزم في العقيدة	القطعة من الجريد لمسيلمة

والعبرة لمساجدنا ومدارسنا وبيوتنا اليوم: **طريقة استقبالنا للضيف والجديد** – ولا سيّما حديثي العهد بالإسلام – قد تحدّد هل يقتربون من الدين أم يبتعدون عنه.

أخوّةٌ فوق القبيلة

جاءت الوفود من قبائل مختلفة، بلهجاتٍ وعاداتٍ وتاريخٍ من العداوات متباين. وكان بعضها قد تقاتل أجيالًا. لكنّ الإسلام جمعهم تحت رايةٍ واحدة. وفي السورة نفسها التي عاتبت بني تميم قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات ٤٩: ١٣) – تفسير ابن كثير ٤٩: ١٣.

ولمجتمعٍ عربيٍّ شديد الفخر بالأنساب والقبائل – كبني تميم الذين جاؤوا بخطيبهم وشاعرهم للمفاخرة – كانت هذه الآية **ثورةً في التفكير**. فلم يعد ميزان الكرامة النسبَ ولا المال ولا الفصاحة، بل **التقوى**.

وظهرت الثمرة في الجيل التالي: فعبدٌ معتَقٌ مثل **بلال** من الحبشة، و**سلمان** من فارس، و**صُهيب** من الروم، قاموا كتفًا بكتف مع سادات قريش. و**أسامة بن زيد**، ابنُ مولًى معتَق، أُمِّر على جيشٍ فيه كبار الصحابة. فالأخوّة الإسلاميّة **فوق القبيلة والقوم واللون**.

بعد عام الوفود: فتنة الردّة

أدخل عامُ الوفود قبائل كثيرة في الإسلام. لكن كما ذُكر في أوّل هذه الحلقة، لم يكن كلّ من دخل راسخَ الإيمان. فلمّا تُوفّي رسول الله ﷺ بعد قليل **ارتدّت** بعض القبائل، **ومنع بعضها الزكاة**. وكان ذلك أوّلَ ابتلاءٍ واجهه أبو بكر رضى الله عنه خليفةً.

روى أبو هريرة رضى الله عنه أنّ عمر قال لأبي بكر: «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: من قال لا إله إلّا الله فقد عصم منّي ماله ونفسه؟» فقال أبو بكر: «**والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإنّ الزكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عَناقًا كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعها**». قال عمر: «فوالله ما هو إلّا أن رأيتُ اللهَ قد شرح صدرَ أبي بكر للقتال، فعرفتُ أنّه الحقّ». (صحيح البخاري ١٣٩٩-١٤٠٠)

وانظر الصلة بالوفود السابقة: **عبد القيس** عُلّموا أنّ الزكاة من الإيمان؛ **وضمام** سأل عن الزكاة مستحلِفًا؛ **ومعاذ** أُمر أن يأخذها من الأغنياء فتُردّ على الفقراء. فدافع أبو بكر عن **ما علّمه رسول الله ﷺ لكلّ وفد. ومسيلمة** الذي طلب الأمر هُزم في النهاية يوم اليمامة.

غير أنّ القبائل الثابتة كانت كثيرة أيضًا – فعبد القيس بالبحرين ثبتوا على الإسلام، وثمامة وبعض بني حنيفة بقوا أوفياء، وثقيف التي كانت آخرَ من أسلم **لم ترتدّ**. فالإيمان الذي غُرس بالعلم والتربية، ولو في مدّةٍ قصيرة، **قادرٌ على الصمود**.

وصايا لكلّ وفد

رجع كلّ وفدٍ بدرسٍ خاصّ. ويلخّص الجدول التالي ما حمله كلّ واحدٍ منها:

الوفد	الدرس الأهمّ
ثقيف (الطائف)	لا مساومة في التوحيد والصلاة
بنو تميم	الأدب مع رسول الله ﷺ، ولا مفاخرة
عبد القيس	خلاصة الإسلام: الإيمان والصلاة والزكاة والصيام والخُمُس
ضمام بن ثعلبة	اليقين الواضح يغيّر قومًا بأسرهم
نصارى نجران	الحوار والحجّة ولا إكراه في الدين
أهل اليمن	قلوبٌ رقيقة متعطّشة إلى العلم
بنو حنيفة (مسيلمة)	الإيمان المشروط إيمانٌ زائف
ثمامة بن أثال	العفو أقوى من السيف

لم يكن رسول الله ﷺ **يعامل الناس كلّهم بطريقةٍ واحدة.** فمع الجافي صبر، ومع السائل أجاب بوضوح، ومع المحاور حاجّ، ومع طالب السلطة حزم، ومع الأسير عفا. وتلك **الحكمة في الدعوة** – أن تفهم كلّ إنسان وتعطيه ما يناسبه.

مصادر القصّة

رُويت قصّة عام الوفود في مصادر متعدّدة بدرجاتٍ متفاوتة:

الحدث	المصدر والدرجة
العرب ينتظرون فتح مكّة	صحيح البخاري ٤٣٠٢ — صحيح
عثمان بن أبي العاص إمام ثقيف	صحيح مسلم ٤٦٨ — صحيح
عروة بن مسعود؛ شروط ثقيف	كتب السيرة؛ أبو داود ٣٠٢٥ — فيه كلام
هدم اللات	كتب السيرة
بنو تميم	صحيح البخاري ٤٣٦٥، ٤٣٦٧ — صحيح
ثابت بن قيس	صحيح البخاري ٣٦١٣ — صحيح
عبد القيس والأشجّ	صحيح البخاري ٥٣؛ صحيح مسلم ١٧ — صحيح
ضمام بن ثعلبة	صحيح البخاري ٦٣ — صحيح؛ رجوعه: أحمد
نجران وأبو عبيدة	صحيح البخاري ٤٣٨٠، ٣٧٤٤ — صحيح
أهل اليمن والأشعريّون	صحيح البخاري ٤٣٨٨، ٢٤٨٦ — صحيح
أويس القرني	صحيح مسلم ٢٥٤٢ — صحيح
معاذ إلى اليمن	صحيح البخاري ٤٣٤٧، ٣٠٣٨ — صحيح
الطفيل ودوس	صحيح البخاري ٢٩٣٧ — صحيح
جرير وذو الخلصة	صحيح البخاري ٤٣٥٥-٤٣٥٧ — صحيح
عليّ إلى اليمن؛ همدان	صحيح البخاري ٤٣٤٩-٤٣٥٠ — صحيح؛ همدان: البيهقيّ
مسيلمة والعنسيّ	صحيح البخاري ٤٣٧٣، ٤٣٧٩ — صحيح
ثمامة بن أثال	صحيح البخاري ٤٣٧٢ — صحيح

الحدث	المصدر والدرجة
عديّ بن حاتم	صحيح البخاري ٣٥٩٥ – صحيح

جمع الإمام البخاري كثيرًا من قصص الوفود في **كتاب المغازي**، وأفرد أبوابًا لبني تميم وعبد القيس وبني حنيفة ونجران والأشعريّين وغيرهم. وهذا يدلّ على أهمّية هذه المرحلة في السيرة – وعلى قوّة الروايات فيها.

جدول الوفود في العامين ٩–١٠ للهجرة

يذكر أهل السيرة أكثر من ستّين وفدًا قدمت المدينة بعد فتح مكّة وتبوك. وقد سرد كثيرًا منها ابنُ سعد في الطبقات وابنُ هشام في السيرة. وليست كلّ تلك القصص سواءً في قوّة الإسناد: فبعضها في صحيح البخاري وصحيح مسلم، وبعضها لا يُروى إلّا في كتب السيرة. ويجمع هذا الجدول الوفودَ التي تناولها هذا الكتاب مع مصادرها ودرجاتها.

الوفد	المنطقة	أبرز الأشخاص	المآل	المصدر
ثقيف	الطائف	عبد ياليل بن عمرو؛ عثمان بن أبي العاص	أسلموا؛ هُدمت اللات	سنن أبي داود ٣٠٢٥؛ صحيح مسلم ٤٦٨؛ كتب السيرة
بنو تميم	شرق نجد	الأقرع بن حابس؛ عُطارد؛ الزِّبرقان	أسلموا؛ نزلت الحجرات ٤٩: ٢–٥	صحيح البخاري ٤٣٦٥، ٤٣٦٧، ٤٨٤٥
عبد القيس	البحرين (الأحساء)	الأشجّ (المنذر بن عائذ)	كانوا مسلمين؛ عُلِّموا أربعة أوامر وأربعة نواهٍ	صحيح البخاري ٥٣؛ صحيح مسلم ١٧–١٨
بنو سعد بن بكر	هوازن (نجد)	ضمام بن ثعلبة	أسلم؛ ودعا قومه	صحيح البخاري ٦٣؛ صحيح مسلم ١٢
نصارى نجران	نجران (الجنوب)	العاقب والسيّد	بقوا على دينهم؛ صلحٌ على الجزية	صحيح البخاري ٤٣٨٠؛ آل عمران ٣: ٦١
الأشعريّون	اليمن	أبو موسى الأشعريّ	أسلموا؛ وأثنى عليهم رسول الله ﷺ	صحيح البخاري ٢٤٨٦، ٤٣٨٨
دَوْس	تهامة / السراة	الطفيل بن عمرو	دُعي لهم بالهداية؛ فأسلموا	صحيح البخاري ٢٩٣٧

الوفد	المنطقة	أبرز الأشخاص	المآل	المصدر
بنو حنيفة	اليمامة	مسيلمة	طلب مسيلمة الأمر؛ ثمّ ارتدّ	صحيح البخاري ٤٣٧٣؛ صحيح مسلم ٢٢٧٣
طيّئ	جبلا أجأ وسلمى	عديّ بن حاتم؛ زيد الخيل	إسلامه	صحيح البخاري ٣٥٩٥ (عديّ)؛ كتب السيرة (زيد)
بجيلة وأحمس	سراة اليمن	جرير بن عبد الله	هُدم ذو الخلصة	صحيح البخاري ٤٣٥٥–٤٣٥٧
بنو ليث	نواحي الحجاز	مالك بن الحويرث	تعلّموا الصلاة عشرين ليلة	صحيح البخاري ٦٣١
كندة	حضرموت	الأشعث بن قيس	إسلامه	كتب السيرة (ابن إسحاق)
بنو عامر بن صعصعة	نجد	عامر بن الطفيل؛ أربد بن قيس	أبيا كلاهما؛ وهلكا في طريق العودة	كتب السيرة (ابن إسحاق)

تأمّل هذا التنوّع: من قبائل كبيرة كبني تميم إلى رجلٍ واحد كضمام جاء وحده؛ ومن قومٍ جاؤوا ليتعلّموا إلى قومٍ جاؤوا يطلبون السلطة. وقد عامل رسول الله ﷺ كلًّا منهم بحسب حاله.

المراجع: ابن هشام، السيرة النبوية (باب الوفود)؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى (باب الوفود)؛ ويكيبيديا، «Year of Delegations».

من كتب السيرة: كم عدد الوفود؟

تتفاوت الأعداد المذكورة في الكتب. فقد سرد ابن سعد أكثر من سبعين وفدًا، بعضها لا يتجاوز نفرًا قليلًا. وهذه الأعداد مأخوذة من كتب السيرة والتاريخ لا من الأحاديث الصحيحة، فنذكرها على أنّها تقديرٌ عند المؤرّخين.

العبرة

لم ينتشر الإسلام بقبيلةٍ واحدة، بل لأنّ باب المدينة كان مفتوحًا للجميع. فكان كلّ وفدٍ يُستقبل بأدب، ويُعلَّم بحكمة، ويُعاد إلى قومه داعيًا.

آيات القرآن حول عام الوفود

ترتبط آياتٌ من القرآن ارتباطًا وثيقًا بأحداث عام الوفود. بعض هذه الصلات ثابتٌ في الأحاديث الصحيحة، وبعضها مبنيٌّ على أقوال المفسّرين. ويبيّن الجدول التالي درجة كلّ صلة.

الآية	المضمون باختصار	الصلة	درجة الصلة
النصر ١١٠: ١–٣	﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾	صورة عام الوفود	صحيح البخاري ٤٩٧٠ (تفسير ابن عبّاس)
الحجرات ٤٩: ٢–٥	النهي عن رفع الصوت؛ والذين ينادون من وراء الحجرات	بنو تميم	صحيح البخاري ٤٨٤٥، ٤٨٤٧
الحجرات ٤٩: ١٣	﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾	أخوّةٌ فوق القبيلة	عبرةٌ عامّة
الحجرات ٤٩: ١٤	﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾	وفد بني أسد	قولٌ للمفسّرين (من روايات السيرة)
آل عمران ٣: ٥٩–٦١	مثل عيسى كمثل آدم؛ آية المباهلة	نصارى نجران	صحيح مسلم ٢٤٠٤؛ صحيح البخاري ٤٣٨٠
آل عمران ٣: ٦٤	﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾	الحوار مع أهل الكتاب	عبرةٌ عامّة
التوبة ٩: ٩٧–٩٩	الأعراب: منهم الكافر ومنهم المؤمن	قبائل الأعراب	عبرةٌ عامّة

سورة النصر: سورةٌ تؤذن بالختام

فهم ابن عبّاس رضى الله عنهما سورة النصر علامةً على اقتراب أجل رسول الله ﷺ، وأقرّه عمر رضى الله عنه على ذلك (صحيح البخاري ٤٩٧٠). فدخولُ الناس في دين الله أفواجًا في عام الوفود علامةٌ على أنّ مهمّة الرسالة أوشكت أن تكتمل. ولذلك خُتمت السورة بالأمر بالتسبيح والحمد والاستغفار – لا بالفخر.

المراجع: صحيح البخاري ٤٩٧٠؛ سورة النصر (Quran.com)؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم.

العبرة

أعظم النصر يُستقبل بالاستغفار. فإذا جاء النجاح رجع المسلم إلى الله بالتسبيح والتوبة، لأنّه يعلم أنّ كلّ ذلك من الله.

مالك بن الحويرث: عشرون ليلةً في المدينة

لم تأتِ الوفود كلّها برؤساء القبائل وشعرائها. فقد جاء نفرٌ من الشباب لا لشيءٍ إلّا ليتعلّموا. يحدّث مالك بن الحويرث رضى الله عنه من بني ليث:

«أتينا النبيَّ ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا، فلمّا ظنّ أنّا قد اشتقنا أهلنا سألنا عمّن تركنا بعدنا، فأخبرناه، فقال: **ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلّموهم ومُروهم، وصلّوا كما رأيتموني أصلّي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذّن لكم أحدُكم، وليؤمّكم أكبرُكم**»

التخريج: صحيح البخاري ٦٣١؛ وانظر أيضًا رقم ٦٢٨، ٦٠٠٨؛ صحيح مسلم ٦٧٤. الدرجة: صحيح.

ثلاثة دروس من هذا الحديث

العبارة	الدرس
«عشرين ليلة»	تربيةٌ قصيرةٌ مركّزة قد تغيّر قومًا بأسرهم. تعلّموا بالمشاهدة لا بالسماع وحده.
«فلمّا ظنّ أنّا قد اشتقنا أهلنا»	كان رسول الله ﷺ يراعي مشاعر طلّابه ولا يحبسهم أكثر من الحاجة.
«صلّوا كما رأيتموني أصلّي»	قاعدةٌ أصليّة في العبادة: تؤخذ الصلاة من هدي رسول الله ﷺ، لا من اختراع النفس.

ويدلّ هذا الحديث أيضًا على أنّ الوفود لم تكن مجالس رسميّةً بين رؤساء القبائل فحسب، بل كانت مدرسةً قصيرة: يأتي الشباب فيتعلّمون، ثمّ يرجعون معلّمين لأقوامهم.

العبرة

العلم لا يُتعلَّم ليُخزن. «ارجعوا إلى أهليكم ... وعلّموهم» – فكلّ طالبٍ معلّمٌ في الغد، والبيت هو المكان الأوّل لتبليغ العلم.

وفودٌ أخرى في كتب السيرة

إلى جانب الوفود التي صحّت قصصها في صحيحي البخاري ومسلم، تحكي كتب السيرة عن وفودٍ كثيرةٍ أخرى. وأكثر هذه القصص من رواية ابن إسحاق وابن سعد، وأسانيدها دون قوّة الحديث الصحيح. ونذكرها لتكتمل الصورة، مع بيان درجتها.

زيد الخيل يصير زيد الخير

اشتهر زيد بن مهلهل من طيّئ بلقب «زيد الخيل» لمهارته في ركوب الخيل واقتنائها. وذكر ابن إسحاق أنّه لمّا قدم وأسلم غيّر رسول الله ﷺ لقبه إلى «زيد الخير» وأثنى عليه. وذكر ابن إسحاق أيضًا أنّه مات بعد رجوعه إلى قومه بقليل.

> **من كتب السيرة: درجة الرواية**
>
> قصّة زيد الخيل رواها ابن إسحاق بغير إسنادٍ متّصلٍ صحيح. وهي مشهورة في كتب السيرة، لكنّها ليست في صحيح البخاري ولا صحيح مسلم.

كندة والأشعث بن قيس

روى ابن إسحاق أنّ الأشعث بن قيس قدم في نحو ثمانين راكبًا من كندة، عليهم جِبابٌ مكفوفةٌ بالحرير. فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُسلموا؟» قالوا: بلى. قال: «فما بال هذا الحرير؟» فشقّوه ونزعوه وألقَوه. وتدلّ هذه القصّة على أنّ الإسلام ليس قولًا فحسب، بل يغيّر نمط الحياة. ثمّ كان الأشعث ممّن تورّط في أحداث الردّة، ورجع إلى الإسلام في خلافة أبي بكر رضى الله عنه.

بنو عامر: رجلان أبيا

لم تنتهِ الوفود كلّها بالهداية. فقد ذكر ابن إسحاق أنّ عامر بن الطفيل وأربد بن قيس من بني عامر بن صعصعة قدما يضمران الغدر برسول الله ﷺ، فعصمه الله منهما. وطلب عامر أن يُقسم له الأمر، فردّ. وهلكا كلاهما في طريق العودة: عامرٌ بغدّةٍ في عنقه، وأربدُ بصاعقة. ويربط بعض المفسّرين هلاك أربد بقوله تعالى في الرعد ١٣: ١٣، لكنّ هذه الصلة جاءت في روايات تفسيرٍ في أسانيدها كلام.

مزينة: قبيلةٌ صغيرة جاءت مبكّرًا

يذكر أهل السيرة أنّ مزينة كانت من أوائل من قدم بعد فتح مكّة. وكان فيهم النعمان بن مقرّن المزنيّ، الذي صار بعدُ قائدًا في فتوح فارس. وتختلف الروايات في عدد أفراد ذلك الوفد.

المراجع: ابن هشام، السيرة النبوية؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى؛ ابن كثير، البداية والنهاية (باب الوفود).

العبرة

كان باب المدينة مفتوحًا للجميع، لكنّ الهداية بيد الله. فمنهم من جاء فتغيّر كلّيًّا، ومنهم من جاء متكبّرًا فرجع خاسرًا. ونقرأ هذه القصص واعين بالفرق بين الرواية الصحيحة ورواية السيرة.

التسلسل الزمني لعام الوفود

لا يمكن تحديد تاريخ بعض الوفود بدقّة. ويتبع هذا الجدول الترتيب الشائع في كتب السيرة.

الوقت	الحدث	المصدر
رمضان ٨ هـ	فتح مكّة؛ القبائل تبادر إلى الإسلام	صحيح البخاري ٤٣٠٢
أواخر ٨ هـ – أوائل ٩ هـ	وفد مزينة وقبائل حول الحجاز	كتب السيرة
محرّم ٩ هـ	بعث المصدِّقين (جُباة الزكاة) إلى القبائل	كتب السيرة
٩ هـ	وفد بني تميم؛ نزول الحجرات ٤٩: ٢–٥	صحيح البخاري ٤٨٤٥، ٤٨٤٧
رجب ٩ هـ	غزوة تبوك	الْحَلْقَةُ ٢٤
رمضان ٩ هـ	وفد ثقيف؛ هدم اللات	كتب السيرة؛ سنن أبي داود ٣٠٢٥
ذو الحجّة ٩ هـ	حجّة أبي بكر؛ إعلان البراءة	الحلقة ٢٧
٩–١٠ هـ	وفود عبد القيس (المرّة الثانية)، وضمام، وطيّئ، وكندة، وبجيلة	أحاديث صحيحة وكتب السيرة
٩–١٠ هـ	وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة	صحيح البخاري ٤٣٧٣
١٠ هـ	وفد نصارى نجران؛ آية المباهلة	صحيح البخاري ٤٣٨٠
أوائل ١٠ هـ	بعث معاذ وأبي موسى إلى اليمن	صحيح البخاري ٤٣٤٧

الوقت	الحدث	المصدر
١٠ هـ	بعث عليّ إلى اليمن؛ إسلام همدان	صحيح البخاري ٤٣٤٩، كتب السيرة
ذو الحجّة ١٠ هـ	حجّة الوداع	الحلقة ٢٨
ربيع الأوّل ١١ هـ	وفاة رسول الله ﷺ، وبداية فتنة الردّة	كتب السيرة

العبرة

في نحو سنتين فقط أقبلت جزيرة العرب كلّها تقريبًا إلى المدينة. ولم يأتِ هذا التحوّل العظيم فجأة؛ بل كان ثمرةَ عشرين سنةً من الصبر قبله.

أسئلة شائعة عن عام الوفود

١. لماذا سُمّيت السنة التاسعة للهجرة عامَ الوفود؟

لأنّ وفود القبائل من أرجاء جزيرة العرب قدمت المدينة في تلك السنة والتي بعدها لتُسلم أو لتفاوض (الفصل ١).

٢. لماذا انتظرت القبائل حتّى ما بعد فتح مكّة؟

كانوا ينتظرون ما يكون بين رسول الله ﷺ وقريش. فلمّا فُتحت مكّة أيقنوا أنّه نبيٌّ حقًّا (صحيح البخاري ٤٣٠٢؛ الفصل ٢).

٣. ما الأوامر الأربعة والنواهي الأربعة لعبد القيس؟

الأوامر: الإيمان بالله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأداء الخُمُس من المغنم. والنواهي: أربعة أنواعٍ من أوعية الشراب يسرع فيها الإسكار (صحيح البخاري ٥٣؛ الفصل ٩).

٤. ما الذي يميّز ضمام بن ثعلبة؟

جاء وحده، وسأل عن أصول الإسلام مستحلِفًا، ثمّ رجع فأسلم قومه (صحيح البخاري ٦٣؛ الفصلان ١١–١٢).

٥. ما المباهلة؟

دعاءٌ مشتركٌ يُسأل فيه الله أن يجعل لعنته على الكاذب. وأبى نصارى نجران أن يباهلوا واختاروا الصلح (آل عمران ٣: ٦١؛ صحيح البخاري ٤٣٨٠؛ الفصل ١٤).

٦. هل أُكره نصارى نجران على الإسلام؟

لا. بقوا على دينهم بموجب الصلح، وبُعث معهم أبو عبيدة أمينًا (صحيح البخاري ٤٣٨٠؛ الفصل ١٥).

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

٧. لماذا أُثني على الأشعريّين؟

لأنّهم كانوا يتقاسمون الطعام عند القلّة كأنّهم أسرةٌ واحدة. قال رسول الله ﷺ: «فهم منّي وأنا منهم» (صحيح البخاري ٢٤٨٦؛ الفصل ١٧).

٨. ما وصيّة رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى؟

«يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا» (صحيح البخاري ٣٠٣٨، ٤٣٤٧؛ الفصل ٢١).

٩. من مسيلمة؟

رجلٌ من بني حنيفة جاء مع وفد قومه وطلب الأمر بعد رسول الله ﷺ. ثمّ ادّعى النبوّة وقُتل يوم اليمامة (صحيح البخاري ٤٣٧٣؛ الفصل ٢٤).

١٠. ما العبرة من حديث مالك بن الحويرث؟

العلم يُتعلَّم ليُعلَّم، والصلاة تؤخذ من هدي رسول الله ﷺ: «صلّوا كما رأيتموني أصلّي» (صحيح البخاري ٦٣١؛ الفصل ٣٥).

١١. هل قصص الوفود كلّها صحيحة؟

لا. فبعضها صحيحٌ في الأحاديث، وبعضها — كقصّة زيد الخيل وكندة — لا يُروى إلّا في كتب السيرة (الفصلان ٣٣ و٣٦).

١٢. ما صلة سورة النصر بهذا العام؟

تصف السورة دخول الناس في الإسلام أفواجًا، وفهمها ابن عبّاس علامةً على اقتراب أجل رسول الله ﷺ (صحيح البخاري ٤٩٧٠؛ الفصل ٣٤).

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

العبرة

تذكّرنا هذه الأسئلة بأنّ عام الوفود ليس مجرّد قائمةٍ بالقبائل، بل قصّةُ أناسٍ جاؤوا يبحثون عن الحقّ – وطريقةُ رسول الله ﷺ في استقبالهم.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

الدروس والخاتمة

عام الوفود عامُ **الحصاد** بعد عشرين سنةً من الغرس. ويدلّ على أنّ الصبر والجدّ في الدعوة يُثمران في النهاية – وإن تأخّرت الثمرة، وجاءت على غير ما يُتوقَّع.

العبرة	من عام الوفود
النصر يفتح القلوب	العرب ينتظرون فتح مكّة
العلم مقدَّمٌ على المنزلة	تولية عثمان بن أبي العاص إمامًا
الأدب مع القائد	الحجرات ٤٩: ١–٥
الحِلم والسكينة	الحِلم والأناة
اليقين الواضح	ضمام يغيّر قومه
الأمانة شرط القيادة	أبو عبيدة أمين هذه الأمّة
يسِّروا ولا تعسِّروا	وصيّة معاذ وأبي موسى
الحزم في العقيدة	ردّ مسيلمة
التقوى ميزان الكرامة	الحجرات ٤٩: ١٣

عام الوفود في حياتنا

كلّ يوم يأتينا «وفد» – جارٌ جديد، زميلُ عملٍ يسأل عن الإسلام، شابٌّ حائر، مسلمٌ جديد ما زال يتعلّم. منهم الجافي كبني تميم، ومنهم الصريح في السؤال كضمام، ومنهم الرقيق كأهل اليمن. والسؤال: **كيف نستقبلهم؟** بوجهٍ طلقٍ وصبرٍ كصبر رسول الله ﷺ، أم بشدّةٍ تُبعدهم؟

إن شاء الله تستمرّ سلسلة **السيرة النبوية** بـ**الحلقة ٢٧ – حجّة أبي بكر وإعلان البراءة**: في موسم حجّ السنة التاسعة للهجرة أمّ أبو بكر رضى الله عنه الناسَ في الحجّ، وقرأ عليّ رضى الله عنه صدر سورة التوبة – إعلانًا بأنّه لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. والله أعلم.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

المراجع — الْحَلْقَةُ ٢٦

القرآن الكريم والتفسير

القرآن الكريم، بالرسم العثماني. https://quran.com/ms

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (آل عمران ٣: ٥٩–٦١؛ الحجرات ٤٩: ١–٥، ٤٩: ١٣؛ النصر ١١٠: ١–٣؛ النجم ٥٣: ١٩–٢٠). https://tafsir.app/ibn-katheer/49/4

الحديث الشريف

صحيح البخاري ٥٣، ٦٣، ٨٨٦، ٨٩٢، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ٢٢٦٢، ٢٤٨٦، ٢٩٣٧، ٣٠٣٨، ٣٠٥٣، ٣١٩٠، ٣٥٦٠، ٣٥٩٥، ٣٦١٣، ٣٧٤٤، ٤٠٧٢، ٤٣٠٢، ٤٣٤٧، ٤٣٤٩، ٤٣٥٠، ٤٣٥٥، ٤٣٥٦، ٤٣٥٧، ٤٣٦٥، ٤٣٦٦، ٤٣٦٧، ٤٣٧٢، ٤٣٧٣، ٤٣٧٩، ٤٣٨٠، ٤٣٨٨، ٤٨٤٥، ٤٨٤٦، ٤٨٥٩. https://sunnah.com/bukhari

صحيح مسلم ١٧، ٤٦٨، ٢٥٤٢ (أويس القرني). https://sunnah.com/muslim

جامع الترمذي ٣٢٦٧؛ سنن أبي داود ٣٠٢٥، ٤٢٥٢؛ أحمد، المسند؛ البيهقيّ، دلائل النبوّة. https://sunnah.com

كتب السيرة والشروح

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) — باب الوفود.

ابن سعد، الطبقات الكبرى — باب وفادات العرب؛ ابن القيّم، زاد المعاد — فصل في الوفود.

ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري — كتاب المغازي، أبواب الوفود.

ابن كثير، البداية والنهاية؛ صفيّ الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم — باب الوفود.

التاريخ العامّ

ويكيبيديا، «Year of Delegations». https://en.wikipedia.org/wiki/Year_of_Delegations

ويكيبيديا، «Thaqif». https://en.wikipedia.org/wiki/Thaqif

ويكيبيديا، «Banu Tamim». https://en.wikipedia.org/wiki/Banu_Tamim

ويكيبيديا، «Abd al-Qays». https://en.wikipedia.org/wiki/Abd_al-Qays

ويكيبيديا، «Najran». https://en.wikipedia.org/wiki/Najran

ويكيبيديا، «Musaylimah». https://en.wikipedia.org/wiki/Musaylimah

ويكيبيديا، «Thumamah ibn Uthal». https://en.wikipedia.org/wiki/Thumamah_ibn_Uthal

ويكيبيديا، «Adi ibn Hatim». https://en.wikipedia.org/wiki/Adi_ibn_Hatim

أحاديث ومصادر إضافية

صحيح البخاري ٦٣١ (مالك بن الحويرث: «صلّوا كما رأيتموني أصلّي»). https://sunnah.com/bukhari:631

صحيح البخاري ٤٩٧٠ (تفسير ابن عبّاس لسورة النصر). https://sunnah.com/bukhari:4970

صحيح البخاري ٤٨٤٧ (بنو تميم والحجرات). https://sunnah.com/bukhari:4847

صحيح مسلم ٢٤٠٤ (آية المباهلة). https://sunnah.com/muslim:2404d

صحيح البخاري ٥٣ (وفد عبد القيس). https://sunnah.com/bukhari:53

صحيح البخاري ٤٣٨٠ (نصارى نجران). https://sunnah.com/bukhari:4380

سورة النصر (Quran.com). https://quran.com/110

سورة الحجرات ٤٩: ١–١٨ (Quran.com). https://quran.com/49

ويكيبيديا، «Year of Delegations». https://en.wikipedia.org/wiki/Year_of_Delegations

ويكيبيديا، «Zayd al-Khayr». https://en.wikipedia.org/wiki/Zayd_al-Khayr

الْجُزْءُ السَّادِسُ

حَجَّةُ أَبِي بَكْرٍ وَالْبَرَاءَةُ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ — الْحَلْقَةُ ٢٧

إِعْلَانُ مِنًى، وَنِهَايَةُ حَجِّ الْجَاهِلِيَّةِ، وَرَحِيلُ رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

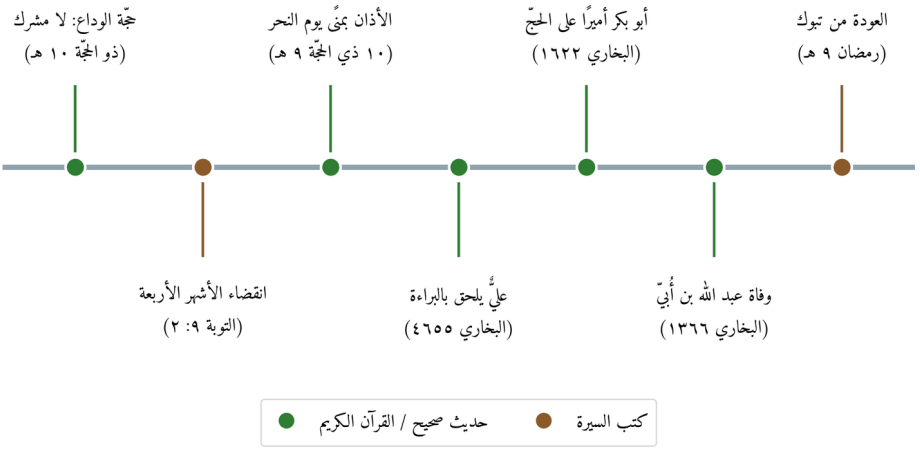
© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

حجّة أبي بكر والبراءة

حكت الحلقة ٢٦ الوفودَ تتوالى على المدينة لتدخل في الإسلام. غير أنّ أمرًا في مكّة لم يُحسَم بعد: **الحجّ** — العبادة التي أسّسها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على التوحيد — ما يزال يشاركهم فيه المشركون، وبعضهم ما يزال **يطوف بالبيت عُريانًا**.

وتحكي هذه الحلقة كيف حُسم ذلك الأمر: الحجّةَ التي أمّر فيها رسول الله **أبا بكر الصدّيق** رضى الله عنه سنة تسعٍ للهجرة، ونزولَ **سورة البراءة**، وأذانَ **عليّ بن أبي طالب** رضى الله عنه بمِنًى. وسنرى كذلك حادثتَي وفاةٍ في السنة نفسها: **عبدَ الله بن أُبيّ** رأسَ المنافقين، و**أمَّ كلثوم** بنتَ رسول الله ﷺ.

الخطّ الزمنيّ لحجّة أبي بكر والبراءة



تحديد بعض الأشهر بحسب كتب السيرة.

الرسم ١: التسلسل الزمنيّ لحجّة أبي بكر والبراءة.

ملاحظة: نصوص آيات القرآن الكريم في هذا الكتاب بلفظها من المصحف الشريف. وتُذكر درجةُ كلّ حديث في إطار الحديث. أمّا ما نُقل من كتب السيرة — كسبب عدم حجّ رسول الله ﷺ تلك السنة، وحوار أبي بكر وعليّ، وسبب ترك البسملة في أوّل سورة التوبة — فيوضع في الإطار البنّيّ «من كتب السيرة»، لأنّ أكثره مرويّ بلا إسنادٍ متّصل أو بإسنادٍ فيه كلام.

موسم الحجّ سنة تسعٍ للهجرة

رجع رسول الله ﷺ من تبوك في رمضان سنة تسع، وامتلأ شوّالٌ وذو القعدة بقدوم الوفود من أنحاء العرب. ثمّ أقبل موسم الحجّ. كانت مكّة قد فُتحت قبل نحو سنتين، وحُطّمت الأصنام حول الكعبة. لكنّ **المشركين ما زالوا يحجّون** على عادة جاهليّتهم، لأنّ العهود القديمة ما زالت قائمة.

كان ذلك حالًا عجيبًا: الكعبة قد طهرت من الأصنام، لكنّ **العبادة حولها لم تطهر بعدُ من الشرك.** المسلمون والمشركون يطوفون في مكانٍ واحد بطريقتين مختلفتين. وبعض المشركين ما زال يطوف عُريانًا ويلبّي بلفظ الشرك: «إلّا شريكًا هو لك».

وستُنهي السنةُ التاسعة هذا الحال، وتمهّد الطريق لـ**حجّة الوداع** في العام التالي – الحجّةِ الوحيدة التي حجّها رسول الله ﷺ بعد الهجرة، والبيتُ خالصٌ للمؤمنين.

لماذا لم يحجّ رسول الله ﷺ تلك السنة؟

من كتب السيرة: سبب ترك رسول الله ﷺ الحجَّ سنة تسعٍ للهجرة

ذكر العلماء أسبابًا لعدم خروج رسول الله ﷺ إلى الحجّ بنفسه تلك السنة، منها أنّ **المشركين ما زالوا يحجّون** مع المسلمين، وبعضهم يطوف عُريانًا، فلم يُرِد أن يحجّ معهم حتّى يُصلَح ذلك.

ومن الأسباب المذكورة انشغاله باستقبال الوفود من أنحاء الجزيرة، والحكمةُ في أن تكون حجّته الوحيدة **قدوةً كاملة** تقتدي بها الأمّة. وهذه الأسباب **اجتهادٌ من العلماء وروايات سيرة**، لا نصٌّ صريح.

المرجع:

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، التوبة ٩: ١؛ ابن حجر، فتح الباري.

ومهما كان السبب، فقد دلّ صنيعه على مبدأٍ جميل: **التطهير أوّلًا ثمّ الإكمال.** بعث أبا بكر يمهّد الطريق، فلمّا صفا الطريق جاء هو بنفسه بعد عامٍ مع أكثر من مئة ألفٍ من الصحابة.

والعبرة لنا: الأمر العظيم يحتاج إلى **استعداد.** قبل أن تبدأ أمرًا مهمًّا – زواجًا أو تجارةً أو مشروعَ دعوة – أزِل عوائقه أوّلًا، حتّى إذا شرعت فيه أتممته على أكمل وجه.

أبو بكر أميرًا على الحجّ

أمّر رسول الله ﷺ **أبا بكر الصدّيق** رضى الله عنه **أميرًا على الحجّ** – قائدًا لحجّاج المسلمين تلك السنة. ويذكر أبو هريرة رضى الله عنه أنّ أبا بكر بعثه «في الحجّة التي أمّره عليها رسول الله ﷺ قبل حجّة الوداع» (صحيح البخاري ١٦٢٢).

من كتب السيرة: ركب أبي بكر

ذكر أهل السيرة أنّ أبا بكر خرج من المدينة في ذي القعدة ومعه **نحو ثلاثمئة رجل** من الصحابة، يسوق **عشرين بَدَنَةً** بعث بها رسول الله ﷺ، وساق أبو بكر خمسَ بدناتٍ من عنده. وهذه التفاصيل **من روايات كتب السيرة** (ابن سعد والواقدي).

المرجع:

ابن سعد، الطبقات الكبرى؛ الواقدي، المغازي.

وفي هذا التأمير دلالةٌ عظيمة. فالحجّ **أعظم عبادة** يجتمع فيها المسلمون من أنحاء العرب، وبتأمير أبي بكر عليه أظهر رسول الله ﷺ للأمّة كلّها **منزلةَ أبي بكر** بوصفه أوثقَ الناس في قيادة أمر الدين – إشارةً فهمها الصحابة لاحقًا حين اختاروا الخليفة الأوّل.

نزول البراءة

وبعد خروج أبي بكر نزل صدرُ سورةٍ شديدةٍ حازمة – سورة البراءة، المعروفة أيضًا بسورة التوبة. وهي تبدأ بالإعلان:

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة ٩: ١) – تفسير ابن كثير ٩: ١.

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ (التوبة ٩: ٢) – تفسير ابن كثير ٩: ٢.

«البراءة» معناها قطعُ العهد والتبرّؤ منه. فالعهود القديمة مع المشركين – وقد نقض أكثرَها أصحابُها – أُنهيت مع مهلةِ إنذارٍ عادلة. وهذه السورة كذلك من آخر ما نزل:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٤٦٥٤

حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ سَمِعْتُ الْبَرَاءَ ـ رضى الله عنه ـ يَقُولُ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ} وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ.

السند رواه الإمام البخاري: عن أبي الوليد الطيالسي، عن شعبة بن الحجّاج، عن أبي إسحاق السبيعي، عن البراء بن عازب رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾، حديث رقم ٤٦٥٤؛ وانظر أيضًا رقم ٤٣٦٤، ٤٦٠٥، ومسلم رقم ١٦١٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4654

دروسٌ من هذا الحديث

عليٌّ يلحق بالركب

ولمّا نزلت آيات البراءة بعث رسول الله ﷺ **عليَّ بن أبي طالب** رضى الله عنه ليلحق بأبي بكر ويقرأها على الناس في الموسم. وروى أنس رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا ينبغي لأحدٍ أن يبلّغ هذا إلّا رجلٌ من أهلي**» (جامع الترمذي ٣٠٩١، وقال الترمذي: حسنٌ غريب).

وبيّن العلماء السبب: في **عُرف العرب** لا ينقض العهدَ إلّا من عقده بنفسه أو رجلٌ من أقرب أهله، وقد لا يُقبل النبذ من غيرهم. فبُعث عليٌّ، ابنُ عمّ رسول الله ﷺ وصهرُه، حتّى **لا يجد أحدٌ مطعنًا** في ذلك الإعلان.

من كتب السيرة: «أميرٌ أم مأمور؟»

روى ابن إسحاق أنّ عليًّا أدرك أبا بكر بالعَرْج (وقيل بضَجْنان) في الطريق، فلمّا رآه أبو بكر قال: «**أميرٌ أم مأمور؟**» فقال عليّ: «**بل مأمور**». ثمّ مضيا معًا، فبقي أبو بكر أميرًا على الحجّ، وقرأ عليٌّ البراءةَ على الناس. وهذه التفاصيل **من روايات السيرة**.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب حجّ أبي بكر بالناس والبراءة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

انظر إلى **الوئام** بين هذين الصحابيّين الكبيرين: لا منافسة ولا تنازع على الإمرة. أبو بكر يؤمّ الصلاة ويقود المناسك، وعليٌّ يبلّغ الإعلان. **وكلٌّ منهما يؤدّي الأمانة التي حُمّلها.**

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

الأذان بمنًى

وقد حدّد الله يوم ذلك الإعلان في القرآن: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (التوبة ٩: ٣) – تفسير ابن كثير ٩: ٣.

وأبو هريرة رضى الله عنه، وكان أحدَ المؤذّنين، يحكي ما جرى بمنًى:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٤٦٥٥

حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ، قَالَ حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، قَالَ حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، وَأَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي مُؤَذِّنِينَ، بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى أَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ يَوْمَ النَّحْرِ فِي أَهْلِ مِنًى بِبَرَاءَةَ، وَأَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ.

السند رواه الإمام البخاري: عن سعيد بن عُفَير، عن الليث بن سعد، عن عُقَيل بن خالد، عن ابن شهاب الزهري، عن حُميد بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبي هريرة رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...﴾، حديث رقم ٤٦٥٥؛ وانظر أيضًا رقم ٣٦٩، ١٦٢٢، ٤٣٦٣، ومسلم رقم ١٣٤٧.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4655

دروسٌ من هذا الحديث

لاحِظ أنّ هذا الأذان بلّغه **مؤذّنون كثيرون** لا واحدٌ فحسب. فقد كانت منًى يومَ النحر تغصّ بآلاف الحجّاج من أنحاء العرب، وكان لا بدّ من أن **يسمعه كلُّ أحد**. وذكر أهل السيرة أنّ أبا هريرة نادى حتّى صَحِل صوته.

ولاحِظ كذلك أنّ الآية تفتح **باب التوبة**: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. فليس هذا الإعلان تهديدًا فحسب، بل **دعوةٌ أخيرة** لمن بقي على الشرك أن يرجع إلى الله.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

يوم الحجّ الأكبر

ذكرت الآية الثالثة «**يوم الحجّ الأكبر**». فأيّ يومٍ هو؟ يبيّنه أبو هريرة رضى الله عنه:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٣١٧٧

حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنَا حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ ـ رضى الله عنه ـ فِيمَنْ يُؤَذِّنُ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى لاَ يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. وَيَوْمُ الْحَجِّ الأَكْبَرِ يَوْمُ النَّحْرِ، وَإِنَّمَا قِيلَ الأَكْبَرُ مِنْ أَجْلِ قَوْلِ النَّاسِ الْحَجُّ الأَصْغَرُ. فَنَبَذَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْعَامِ، فَلَمْ يَحُجَّ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ الَّذِي حَجَّ فِيهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مُشْرِكٌ.

السند رواه الإمام البخاري: عن أبي اليمان الحكم بن نافع، عن شعيب بن أبي حمزة، عن ابن شهاب الزهري، عن حُميد بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبي هريرة رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب كيف يُنبَذ إلى أهل العهد، حديث رقم ٣١٧٧.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:3177

دروسٌ من هذا الحديث

يومُ الحجّ الأكبر هو يومُ النحر – العاشر من ذي الحجّة، يوم عيد الأضحى، حين يرمي الحجّاج الجمرة وينحرون ويحلقون ويطوفون طواف الإفاضة. وهو أكثر الأيّام أعمالًا في الحجّ. وسُمّي «الأكبر» لأنّ العرب كانت تسمّي العمرةَ «الحجَّ الأصغر».

وآخر هذا الحديث مهمٌّ جدًّا: «**فلم يحجّ عامَ حجّة الوداع الذي حجّ فيه النبيّ ﷺ مشرك**». لقد نجح أذان أبي بكر وعليّ نجاحًا تامًّا، ففي عامٍ واحد **عاد الحجّ إلى التوحيد الخالص** كما أسّسه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أبو هريرة مؤذّنًا بمنًى

وكان من المؤذّنين الذين بعثهم أبو بكر بمنًى **أبو هريرة** رضى الله عنه – الصحابيّ الدوسيّ الذي أسلم نحو سنة سبعٍ للهجرة عند فتح خيبر. ومع أنّه صحب رسول الله ﷺ نحو ثلاث سنين أو أربعًا فحسب، صار **أكثرَ الصحابة روايةً للحديث**.

كيف كان ذلك؟ يبيّنه أبو هريرة نفسه: «**إنّ الناس يقولون: أكثرَ أبو هريرة... وإنّ إخوتنا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْقُ بالأسواق، وإنّ إخوتنا من الأنصار كان يشغلهم العملُ في أموالهم، وإنّ أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشِبَع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون**» (صحيح البخاري ١١٨).

وحكى أنّه شكا إلى رسول الله ﷺ النسيان، فأمره أن **يبسط رداءه**، فغرف بيديه فيه ثمّ قال: «ضُمَّه». قال أبو هريرة: «**فضممتُه، فما نسيتُ شيئًا بعدَه**» (صحيح البخاري ١١٩).

فلا عجب أن يُختار للنداء بمنًى، وأن يكون هو راويَ قصّة ذلك الأذان لنا مفصّلة. يعلّمنا أبو هريرة **قيمةَ ملازمة المعلّم والجِدَّ في حفظ العلم**. ومن قبيلة دوس التي أبت الإسلام أوّلًا (الحلقة ٢٦) خرج أعظمُ حُفّاظ السنّة.

لا طواف بالبيت عُريانًا بعد اليوم

وكان ممّا أُعلن **النهيُ عن الطواف بالبيت عُريانًا**. فلماذا كان أهل الجاهليّة يفعلونه؟ ذكر أهل التفسير أنّ بعضهم كان يقول: «لا نطوف في ثيابٍ عصينا الله فيها». ولم يكن يطوف بثيابه إلّا قريشٌ (الحُمْس)، وكان غيرهم يستعير الثياب من قريش أو يطوف عُريانًا.

الحديث – صحيح مسلم، رقم ٣٠٢٨

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، ح وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ نَافِعٍ، - وَاللَّفْظُ لَهُ - حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ، عَنْ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ فَتَقُولُ مَنْ يُعِيرُنِي تِطْوَافًا تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا وَتَقُولُ الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ { خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ}

السند رواه الإمام مسلم: عن محمّد بن بشّار عن محمّد بن جعفر، وعن أبي بكر بن نافع عن غُنْدَر، عن شعبة بن الحجّاج، عن سلمة بن كُهَيل، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، حديث رقم ٣٠٢٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:3028

دروسٌ من هذا الحديث

ولم تنهَ الآيةُ عن العُري فحسب، بل **أمرت بالزينة**: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. لقد رفع الإسلام كرامة الإنسان: **فستر العورة كرامة**، والمجيء إلى المسجد بثيابٍ نظيفةٍ حسنة أدبٌ مع الله.

انظر كيف يذهب الضلال بالإنسان بعيدًا: باسم «الطهارة» يفعل ما **يُخزيه ويُهينه.** فإذا صُنع الدين على الهوى أنتج عباداتٍ تخالف الفطرة، فجاء الوحي **يردّ الإنسان إلى فطرته**.

تلبية التوحيد وتلبية الشرك

ولم يكن الشرك في حجّ الجاهليّة في الطواف وحده، بل كان في **التلبية** أيضًا. روى ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّ المشركين كانوا يقولون: «لبّيك لا شريك لك»، فيقول رسول الله ﷺ: «**ويلكم، قَدْ قَدْ**»، فيقولون: «**إلّا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك**» (صحيح مسلم ١١٨٥).

انظر كيف دقّ هذا الشرك: يقرّون بأنّ الله هو الربّ الأعلى، **لكنّهم يجعلون له شريكًا** دونه. تلك حقيقة شرك قريش – لا إنكارَ الله، بل **الإشراكُ به**.

أمّا تلبية رسول الله ﷺ فهي **تلبية التوحيد الخالص**، كما رواها ابن عمر: «**لبّيك اللهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمدَ والنعمةَ لك والمُلك، لا شريك لك**» (صحيح البخاري ١٥٤٩).

ولاحِظ كيف **تكرّر** «**لا شريك لك**» **مرّتين** في هذه التلبية، كأنّها ردٌّ مباشر على تلبية الشرك الجاهليّة. فكلّ حاجٍّ يرفع بها صوته اليوم إنّما **يُعلن البراءةَ** من الشرك بلسانه.

الحُمْس والوقوف بعرفة

ومن عادات الجاهليّة التي أُبطلت امتيازُ **الحُمْس** – لقبِ قريشٍ وحلفائها الذين رأوا أنفسهم أشرف من سائر العرب. ومن «امتيازاتهم» أنّهم **لا يقفون بعرفة** مع الناس، لأنّ عرفة خارج الحرم، فيقفون بالمزدلفة. فأنزل الله (صحيح البخاري ١٦٦٥):

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة ٢: ١٩٩) – تفسير ابن كثير ٢: ١٩٩.

واللافت أنّ رسول الله ﷺ **لم يتّبع عادة الحُمْس هذه قطّ**، حتّى قبل البعثة. فقد حكى جُبَير بن مُطعِم رضى الله عنه – ولم يكن أسلم يومئذٍ – أنّه أضلّ بعيرًا له، فذهب يطلبه يوم عرفة، فرأى **النبيَّ ﷺ واقفًا بعرفة** مع الناس، فقال: «هذا واللهِ من الحُمْس، فما شأنه ها هنا؟» (صحيح البخاري ١٦٦٤)

والعبرة واضحة: في عبادة الله **لا طبقاتٍ ولا امتيازَ أنساب**. يقف الحجّاج جميعًا في مكانٍ واحد، بلباس إحرامٍ واحد، يستغفرون ربًّا واحدًا. وقد أذهبت **مساواةُ الحجّ** كبرياءَ قريش.

أربعة أشهر، وعهودٌ تُتمّ

لم يكن إعلان البراءة هجومًا مباغتًا. فقد أعطى الله المشركين **مهلةَ أربعة أشهر** يسيحون فيها آمنين، يفكّرون ويقرّرون (التوبة ٩: ٢). بل استثنى القرآن **الأوفياءَ بعهودهم**:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة ٩: ٤) — تفسير ابن كثير ٩: ٤.

﴿فَمَا اسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة ٩: ٧) — تفسير ابن كثير ٩: ٧.

لاحِظ أنّ كلتا الآيتين خُتمت بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾. فالوفاء بالعهد للمشرك الوفيّ **من التقوى**. والإسلام لا يُجيز الغدر ولو بالعدوّ.

وذكر أهل التفسير من القبائل الوفيّة بعهودها **بني ضَمْرة وبني كِنانة**، فأُتمّ لهم عهدهم إلى مدّته. وهذا **عدل الإسلام** في العلاقات بين الأمم: إنذارٌ واضح، ومهلةٌ معقولة، ووفاءٌ بالعهد.

الآية ٩: ٥ في سياقها

كثيرًا ما تُقتطع الآية الخامسة من سورة التوبة من سياقها، إمّا ممّن يريد تشويه الإسلام، وإمّا ممّن يُسيء استعمالها. قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة ٩: ٥) — تفسير ابن كثير ٩: ٥.

وقد بيّن علماء التفسير هذه الآية في **سياقها الخاصّ**: فهي في **مشركي جزيرة العرب الذين حاربوا المسلمين ونقضوا عهودهم**، بعد مهلة الإنذار أربعةَ أشهر. وليست أمرًا عامًّا بقتال كلّ غير مسلمٍ في كلّ مكانٍ وزمان.

الآية	القيود والاستثناءات
9: 2	مهلة إنذارٍ أربعة أشهر
9: 4	الأوفياء بعهودهم مستثنَون
9: 6	المستجير تجب إجارته
9: 7	ما استقاموا لكم فاستقيموا لهم
٩: ٥ (آخرها)	فإن تابوا فخلّوا سبيلهم
البقرة ٢: ٢٥٦	لا إكراه في الدين

وتقرّر آياتٌ أخرى المبدأ العامّ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ (البقرة ٢: ١٩٠)، والله لا ينهى عن البرّ والقسط إلى من لم يقاتل المسلمين (الممتحنة ٦٠: ٨). وقراءة آيةٍ واحدة دون غيرها **خطأٌ في فهم القرآن**.

«فأَجِرْه حتّى يسمع»

وعقب الآية ٩: ٥ مباشرةً أنزل الله آيةً تكشف **الغاية الحقيقيّة** للإسلام – لا القتل، بل الهداية:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة ٩: ٦) – تفسير ابن كثير ٩: ٦.

إنّها آيةٌ مدهشة. فالمشرك – ولو كان من قومٍ يحاربون الإسلام – إذا استجار **وجبت إجارته**، ويُعطى الفرصة لـ**سماع كلام الله**، ثمّ – آمن أو لم يؤمن – يجب أن **يُبلَغ مأمنَه**. لا إكراه ولا تهديد.

وذُكر السبب في آخر الآية: **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾**. فالإسلام ينظر إلى كثيرٍ ممّن يعادونه على أنّهم **لم يعرفوا الحقّ بعدُ**، لا أعداءً يجب استئصالهم. ومهمّة المسلمين إسماعُ الحقّ، والهداية بيد الله.

وذكر ابن كثير أنّ العلماء أخذوا من هذه الآية أنّ **الرسلَ والسفراءَ** من جهة العدوّ يجب تأمينهم. وهذا أصل **الحصانة الدبلوماسيّة** في الإسلام، قبل أن يعترف بها القانون الدوليّ الحديث بقرون.

المساجد يعمرها المؤمنون

وتبيّن سورة التوبة أيضًا **مَن يستحقّ أن يعمر مساجد الله**، ولا سيّما المسجد الحرام الذي طالما تسلّط عليه المشركون:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ (التوبة ٩: ١٧) – تفسير ابن كثير ٩: ١٧.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة ٩: ١٨) – تفسير ابن كثير ٩: ١٨.

كانت قريش تفخر بأنّها **تسقي الحاجّ وتعمر المسجد الحرام** – وهي تعبد الأصنام فيه. فبيّن الله أنّ بناء البنيان ورعايته لا قيمة له بغير **الإيمان والصلاة والزكاة وخشية الله**.

وهذه الآية الثامنة عشرة **ميزانٌ** لكلّ لجنةِ مسجدٍ اليوم. فعمارة المسجد ليست طلاءَ الجدران أو بناءَ القباب فحسب، بل **إحياؤه بالعبادة** والعلم وخدمة الناس، على أيدي الذين **لا يخشون إلّا الله**.

«فسوف يُغنيكم الله»

ونتناول آيةً أخرى في ذلك الإعلان همًّا إنسانيًّا جدًّا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ**﴾ (التوبة ٩: ٢٨) – تفسير ابن كثير ٩: ٢٨.

وبيّن العلماء أنّ «النَّجَس» هنا **نجاسةٌ معنويّة** – قذارةُ عقيدة الشرك – لا نجاسةُ الأبدان. وكان اقتصاد مكّة قائمًا على موسم الحجّ: يأتي الحجّاج من أنحاء العرب يتّجرون في أسواقٍ كعُكاظ وذي المَجاز. فإذا انقطع المشركون، **فماذا عن التجارة؟**

فأجاب الله بوعدٍ: ﴿**فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾. وقد تحقّق الوعد. ففي سنواتٍ قليلة أسلمت جزيرة العرب كلّها، وأقبل الحجّاج من **أنحاء الدنيا**. واليوم يفد إلى مكّة ملايين الحجّاج والمعتمرين كلّ عام – أضعافَ ما تخيّله تجّار مكّة في الجاهليّة.

والعبرة: إذا بدت طاعة الله **خسارةً في الدنيا** فاذكر هذه الآية. فترك الربا أو الرشوة أو التجارة المحرّمة قد يبدو خسارة، لكنّ **الرزق بيد الله**، وقد وعد بعوضٍ خيرٍ منه.

الأشهر الحُرُم والنسيء

وتصحّح سورة التوبة كذلك عادةً جاهليّةً أخرى تتعلّق بالحجّ – العبثَ بالتقويم: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ (التوبة ٩: ٣٦) – تفسير ابن كثير ٩: ٣٦.

اثنا عشر شهرًا، منها أربعةٌ حُرُم (التوبة ٩: ٣٦)



بالأحمر: المحرّم ورجب وذو القعدة وذو الحجّة (صحيح البخاري ٤٦٦٢)

الرسم ٢: اثنا عشر شهرًا، منها أربعةٌ حُرُم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ (التوبة ٩: ٣٧) – تفسير ابن كثير ٩: ٣٧.

النسيء عادةٌ جاهليّة: تأخير الشهر الحرام أو نقله إلى شهرٍ آخر إذا أرادوا القتال، أو زيادة شهرٍ ليقع موسم الحجّ في الفصل الذي يحبّون. فاضطرب التقويم، ولم يعد الحجّ يقع في شهره الحقيقيّ.

وفي خطبة حجّة الوداع بعد عام أعلن رسول الله ﷺ: «**إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض**» (صحيح البخاري ٤٦٦٢). فعاد التقويم إلى أصله، ووقعت حجّته في ذي الحجّة الحقيقيّ. وسنرى ذلك بتفصيلٍ أكثر في الحلقة ٢٨.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

العودة إلى ملّة إبراهيم

كلّ ما جرى سنة تسعٍ للهجرة – إزالة الشرك، والطواف عُريانًا، وتلبية الشرك، وامتياز الْحُمس، والعبث بالتقويم – كان لغايةٍ واحدة: **ردّ الحجّ إلى ملّة إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ. فقد أمر الله إبراهيم حين بنى الكعبة: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الحجّ ٢٢: ٢٦) – تفسير ابن كثير ٢٢: ٢٦.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحجّ ٢٢: ٢٧) – تفسير ابن كثير ٢٢: ٢٧.

لاحِظ: أوّل أمرٍ لإبراهيم كان ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾. وبعد قرونٍ ملأ ذرّيّتُه أنفسهم – قريش – ذلك البيت بثلاثمئة وستّين صنمًا. ففتحُ مكّة طهّر البيت من الأصنام، **والبراءةُ طهّرت العبادة من حوله**.

وقد استُجيب دعاء إبراهيم لمكّة تمامًا في هذه السنة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم ١٤: ٣٥) – تفسير ابن كثير ١٤: ٣٥.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم ١٤: ٣٧) – تفسير ابن كثير ١٤: ٣٧.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ – دعاءٌ ما زال يُستجاب إلى اليوم. فقلوب الملايين من أنحاء الدنيا تحنّ إلى مكّة للحجّ والعمرة. ورسول الله ﷺ، من ذرّيّة إبراهيم عن طريق إسماعيل، هو استجابة دعاء إبراهيم الآخر: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ (البقرة ٢: ١٢٩).

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

لماذا لم تُفتتح بالبسملة؟

سورة التوبة هي **السورة الوحيدة** في القرآن التي لم تُفتتح بـ«بسم الله الرحمن الرحيم». فلماذا؟ ذكر العلماء أقوالًا:

من كتب السيرة: الأقوال في ترك البسملة

القول الأوّل: سأل ابن عبّاس عثمانَ: لِمَ قرنتم بين الأنفال وبراءة ولم تكتبوا بينهما سطر البسملة؟ فأجاب عثمان بأنّ قصّتيهما متشابهتان، وقُبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن أنّ براءة من الأنفال، فقرن بينهما ولم يكتب البسملة (جامع الترمذي ٣٠٨٦؛ سنن أبي داود ٧٨٦). **وقد ضعّف إسنادَ هذه الرواية** بعضُ العلماء كالألبانيّ.

القول الثاني: رُوي عن عليٍّ أنّ البسملة **أمان**، وبراءة نزلت بنبذ العهود والقتال، فلم تُفتتح بالبسملة (الحاكم). **وفي إسناد هذه الرواية أيضًا كلام.**

القول الثالث (الجمهور): لم يكتب الصحابة البسملة في أوّلها في المصحف لأنّ **جبريل لم ينزل بها** مع هذه السورة؛ فهي على **التوقيف**، وهو قول كثيرٍ من العلماء كالقرطبيّ.

المرجع:

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، أوّل سورة التوبة؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم.

وبيّن العلماء كذلك **حكمَ القراءة** في أوّل سورة التوبة: إذا ابتدأ القارئ من أوّل السورة **لم يقرأ البسملة**، وله أن يبتدئ بالاستعاذة. وإذا ابتدأ من أثنائها، فمن العلماء من أجاز البسملة.

ومهما يكن من قول، فأمرٌ واحد واضح: ترتيب القرآن – بما فيه وجود البسملة أو عدمها – **حُفظ بعناية** على أيدي الصحابة، بلا زيادةٍ ولا نقصان ولو آية. وهذا برهان **حفظ الله** لكتابه (الحجر ١٥: ٩).

أسماء سورة التوبة

لهذه السورة أسماءٌ عدّة، يصوّر كلٌّ منها جانبًا من مضمونها. قال سعيد بن جبير: قلتُ لابن عبّاس: سورة التوبة؟ قال: «**التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتّى ظنّوا أنّها لن تُبقي أحدًا منهم إلّا ذُكر فيها**» (صحيح البخاري ٤٨٨٢).

الاسم	سبب التسمية
التوبة	ذِكر توبة النبيّ والمهاجرين والأنصار والثلاثة الذين خُلّفوا (٩: ١١٧-١١٨)
براءة	افتُتحت بنبذ العهود (٩: ١)
الفاضحة	فضحت أسرار المنافقين
المُقَشْقِشة	تُبرئ (المؤمنين) من النفاق – ذكرها بعض المفسّرين

واللافت أنّ هذه السورة – أشدّ السور على المنافقين والمشركين – تُسمّى «**التوبة**». فهي تذكّرنا بأنّ وراء حزم الله **باب الرحمة والتوبة مفتوحٌ دائمًا**. بل إنّ الآية الثالثة التي أعلنت البراءة نفسها تقول: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

حجّة أبي بكر تمهيدٌ لحجّة الوداع

يمكن النظر إلى حجّة أبي بكر سنة تسعٍ للهجرة على أنّها **تمهيدٌ** لحجّة الوداع في العام التالي. ففي موسمٍ واحد حُسمت أمورٌ كبيرة:

قبل سنة ٩ هـ	بعد الإعلان
المشركون يحجّون	لا يحجّ مشرك
الطواف عُريانًا	وجوب ستر العورة
تلبية الشرك	تلبية التوحيد
عهودٌ قديمة منقوضة	إنهاء العهود بالعدل
العبث بالتقويم (النسيء)	عودة التقويم إلى أصله

فلمّا حجّ رسول الله ﷺ سنة عشرٍ للهجرة استطاع أن **يعلّم المناسك كاملةً** لأكثر من مئة ألف، في جوٍّ طاهرٍ موحَّد. وقال يومئذٍ: «**لتأخذوا مناسككم**» (صحيح مسلم ١٢٩٧).

والعبرة في إدارة أيّ أمرٍ كبير: **الإعداد على مراحل**. كان أبو بكر «الطليعة» التي مهّدت الطريق، حتّى يجري الحدث الأكبر بيُسر.

منزلة أبي بكر

كان تأمير أبي بكر على الحجّ إحدى **الإشارات** من رسول الله ﷺ إلى منزلة أبي بكر، وستتبعها إشاراتٌ أخرى في الأشهر الأخيرة من حياته. روى أبو سعيد الخدريّ رضى الله عنه أنّه قال في خطبة: «**لو كنتُ متّخذًا خليلًا غيرَ ربّي لاتّخذتُ أبا بكر**»، وأمر أن تُسدّ الأبواب إلى المسجد **إلّا بابَ أبي بكر** (صحيح البخاري ٣٦٥٤).

ولمّا مرض مرضَ موته قال: «**مُروا أبا بكرٍ فليصلّ بالناس**» (صحيح البخاري ٦٦٤). وقال الصحابة بعد ذلك: «رضيه رسول الله ﷺ لديننا (الصلاة)، أفلا نرضاه لدنيانا؟»

إمارة الحجّ، وإمامة الصلاة، والباب الذي تُرك مفتوحًا – كلّ ذلك يدلّ على أنّ **أبا بكر كان يُهيَّأ** لحمل الأمانة الكبرى بعد رسول الله ﷺ، دون أن يصرّح بذلك. وقد فهم الصحابة هذه الإشارات فاختاروه خليفةً أوّل.

العامل على الصدقة والهديّة

وشهدت السنة التاسعة أيضًا **تنظيمًا للصدقات** أكثر إحكامًا. فقد ذكر أهل السيرة أنّ رسول الله ﷺ بعث في أوّل تلك السنة السُّعاةَ إلى القبائل التي أسلمت. وفي إحدى الحوادث روى أبو حُمَيد الساعديّ رضى الله عنه أنّه استعمل رجلًا من الأزد يقال له **ابن اللُّتْبيّة** على الصدقة، فلمّا قدم قال: «**هذا لكم، وهذا أُهدي لي**» (صحيح البخاري ٧١٧٤).

فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: «**ما بالُ العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا لك وهذا لي؟ فهلّا جلس في بيت أبيه وأمّه فينظر أيُهدى له أم لا؟**» ثمّ رفع يديه حتّى رُئيت عُفْرتا إبطيه، وقال: «**اللهمّ هل بلّغت؟**» ثلاثًا.

هذا الحديث أصلُ حكم **هدايا العمّال** في الإسلام: الهديّة التي تُعطى للمرء **بسبب منصبه** ملكٌ للدولة لا له. والميزان سهل: «هل كنتُ سأُهدى هذا لو جلستُ في بيتي؟» إنّه **ضابطٌ لمكافحة الرشوة** وُضع قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا.

ويدلّ كذلك على أنّه لمّا اتّسع الإسلام وبدأت الأموال تتدفّق، لم يدَع رسول الله ﷺ **الأمانةَ تفسد**. فأنكر علانيةً على المنبر ليسمع العمّال جميعًا. فالقيادة العادلة تحتاج إلى **الشفافية والمحاسبة**.

وفاة عبد الله بن أُبيّ

وفي السنة نفسها، قبل موسم الحجّ، مات رجلٌ آذى المسلمين قرابة تسع سنين: **عبد الله بن أُبيّ ابن سَلُول**، رأس المنافقين. هو الذي انخذل بثلث الجيش يوم أُحُد (الحلقة ١٠)، وقال: «ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ» (الحلقة ١٤)، وأشاع الفرية في حادثة الإفك (الحلقة ١٤). فما كان موقف رسول الله ﷺ حين مات؟

الحديث – صحيح البخاري، رقم ١٣٦٦

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ـ رضى الله عنهم ـ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَثَبْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا ـ أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ـ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ. فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ فَغُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا. قَالَ فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلاَّ يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتِ الآيَتَانِ مِنْ {بَرَاءَةٌ} {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} إِلَى {وَهُمْ فَاسِقُونَ} قَالَ فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَئِذٍ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

السند رواه الإمام البخاري: عن يحيى بن بُكَير، عن الليث بن سعد، عن عُقَيل بن خالد، عن ابن شهاب الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن عبّاس، عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يُكره من الصلاة على المنافقين، حديث رقم ١٣٦٦؛ وانظر أيضًا رقم ١٢٦٩، ٤٦٧٠-٤٦٧٢، ومسلم رقم ٢٤٠٠.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1366

دروسٌ من هذا الحديث

يدلّ هذا الحديث على **رحمة رسول الله ﷺ العجيبة.** فمع أنّ ابن أُبيّ آذاه وآذى أهله أشدّ الأذى، أراد أن يصلّي عليه، بل قال إنّه لو علم أنّه إن زاد على السبعين غُفر له لزاد. أمّا عمر فكان شديدًا غيرةً على الدين – ثمّ وافق الوحيُ رأيَ عمر.

ولاحِظ موقف عمر بعد ذلك: «**فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذٍ**». فمع أنّ الوحي أيّد رأيه لم يفخر، بل ندم على إلحاحه على رسول الله ﷺ. وهذا **أدبٌ رفيع**.

قميص رسول الله ﷺ

وكان ابنُ ابن أُبيّ، واسمه أيضًا **عبد الله، صحابيًّا مخلصًا** مختلفًا تمامًا عن أبيه. جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله قميصه يكفّن فيه أباه، فأعطاه إيّاه (صحيح البخاري ١٢٦٩). وروى جابر رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ أتى ابنَ أُبيّ بعدما أُدخل حفرته، فأمر به فأُخرج، فوضعه على ركبتيه، ونفث عليه من ريقه، وألبسه قميصه (صحيح البخاري ١٣٥٠).

فلماذا أعطاه قميصه؟ ذكر جابر سببًا: يوم بدر أُتي **بالعبّاس** عمِّ رسول الله ﷺ أسيرًا ولم يكن عليه ثوب، فطلب الصحابة له قميصًا يناسب طوله، فلم يجدوا إلّا **قميصَ عبد الله بن أُبيّ** يُقدَر عليه، فكساه رسول الله ﷺ العبّاسَ (صحيح البخاري ٣٠٠٨). قال سفيان بن عُيَينة: أراد أن **يكافئه**.

انظر إلى خُلُق رسول الله ﷺ: **لا ينسى معروفًا صغيرًا** ولو من عدوٍّ متستّر، ولو مضت عليه ثماني سنين. وكان كذلك **يُكرم ابنه الصالح** الذي لا ذنب له في ذنب أبيه. فالرحمة والوفاء بالمعروف من أخلاق النبوّة.

النهي عن الصلاة على المنافقين

صلّى رسول الله ﷺ على ابن أُبيّ أخذًا بالآية التي جاءت **بالتخيير**:

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة ٩: ٨٠) – تفسير ابن كثير ٩: ٨٠.

ففهم الآية على أنّها **تخيير** («استغفر أو لا تستغفر»)، فاختار الاستغفار رحمةً منه. ثمّ نزلت الآية التي **تنهى صراحةً**:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (التوبة ٩: ٨٤) – تفسير ابن كثير ٩: ٨٤.

وبعد نزول هذه الآية لم يصلِّ رسول الله ﷺ **بعدها** على أحدٍ من المنافقين المعلوم نفاقُهم. وبيّن العلماء أنّ النهي خاصٌّ بمن **ظهر كفره**. أمّا المسلم، ولو كان مرتكبًا كبيرة، فيُصلّى عليه ويُدعى له بالمغفرة.

نهاية عهد المنافقين

كانت وفاة عبد الله بن أُبيّ إيذانًا بـ**نهاية عهد**. فقرابة تسع سنين كان للمنافقين في المدينة زعيمٌ ذو نفوذ، كاد يُتوَّج ملكًا على المدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ. وبموته انهارت **القوّة السياسيّة** للمنافقين.

من كتب السيرة: ابن أُبيّ والتاج الذي لم يكتمل

روى أهل السيرة أنّ الأوس والخزرج قبل الهجرة كادوا يجتمعون على **تتويج عبد الله بن أُبيّ ملكًا على المدينة**، وكانوا ينظمون له الخَرَز ليتوّجوه. فلمّا قدم رسول الله ﷺ ودخل أهل المدينة في الإسلام أفواجًا تبدّد ذلك الحلم. ويرى كثيرٌ من العلماء أنّ هذا **الحقد** أصلُ نفاقه. وقد روى أسامة بن زيد رضى الله عنهما طرفًا من هذه القصّة في صحيح البخاري (رقم ٤٥٦٦)، أمّا تفاصيل التاج فمن **كتب السيرة**.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب حجّ أبي بكر بالناس والبراءة؛ ابن كثير، البداية والنهاية.

لم يزُل النفاق تمامًا – فقد كان حذيفة بن اليمان يحفظ أسماء بعضهم (الحلقة ٢٤). لكن بعد سنة تسعٍ للهجرة لم تبقَ للمنافقين قوّةٌ على **تفريق** المسلمين علانية. فقد فضحتهم سورة التوبة، وهُدم مسجد الضرار، وذهب زعيمهم.

والعبرة: **الحقد والحسد** قد يحجبان المرء عن قبول الحقّ الواضح. كان ابن أُبيّ يرى صدق الإسلام كلّ يوم، لكنّ **ضياع السلطان** الذي حلم به أغلق قلبه. فاحذر خيبة الأمل في الناس أن تنقلب مرضًا في القلب.

وفاة النجاشيّ

وشهدت السنة التاسعة أيضًا وفاة ملكٍ له منزلةٌ خاصّة في تاريخ الإسلام: **النجاشيّ أَصْحَمة** ملك الحبشة. هو الذي آوى المسلمين المهاجرين إلى الحبشة حين عُذّبوا بمكّة، وتلقّى كتاب رسول الله ﷺ (الحلقة ١٧).

روى أبو هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ **نعى النجاشيَّ في اليوم الذي مات فيه**، وخرج إلى المصلّى، فصفّ بهم وكبّر أربعًا (صحيح البخاري ١٢٤٥). وروى جابر رضى الله عنه أنّه قال: «**مات اليومَ رجلٌ صالح، فقوموا فصلّوا على أخيكم أصحمة**» صحيح البخاري ٣٨٧٧.).

في هذه الحادثة أمران عجيبان. الأوّل **معجزة**: علم رسول الله ﷺ بموت النجاشيّ في يومه، والحبشة على بُعد آلاف الكيلومترات وراء البحر. والثاني **صلاة الغائب**: صلّى على رجلٍ ليس جثمانه بين يديه. وقد أخذ العلماء حكم صلاة الغائب من هذا الحديث.

قارن بين وفاتين في سنةٍ واحدة: **عبد الله بن أُبيّ** عاش في المدينة إلى جوار رسول الله ﷺ ومات على النفاق؛ **والنجاشيّ** لم يرَ رسول الله ﷺ قطّ ومات «**رجلًا صالحًا**» و«أخًا» للمسلمين. فالقرب الجسديّ لا يضمن الإيمان؛ إنّما الحَكَم **القلب**.

وفاة أمّ كلثوم

وفي السنة نفسها أُصيب رسول الله ﷺ بحزنٍ شخصيٍّ آخر: وفاة ابنته **أمّ كلثوم** رضى الله عنها. وكانت أمّ كلثوم زوجةَ **عثمان بن عفّان** رضى الله عنه. وكان عثمان قبلها قد تزوّج أختها **رقيّة** التي توفّيت أيّام غزوة بدر (الحلقة ٩). ولزواجه من ابنتَي رسول الله ﷺ لُقّب عثمان **ذا النورين**.

الحديث – صحيح البخاري، رقم ١٢٨٥

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ، حَدَّثَنَا فُلَيْحُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ هِلاَلِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ شَهِدْنَا بِنْتًا لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جَالِسٌ عَلَى الْقَبْرِ ـ قَالَ فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَدْمَعَانِ قَالَ ـ فَقَالَ هَلْ مِنْكُمْ رَجُلٌ لَمْ يُقَارِفِ اللَّيْلَةَ. فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ أَنَا. قَالَ فَانْزِلْ. قَالَ فَنَزَلَ فِي قَبْرِهَا.

السند رواه الإمام البخاري: عن عبد الله بن محمّد المُسْنَدي، عن أبي عامر العَقَدي، عن فُلَيح بن سليمان، عن هلال بن عليّ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، حديث رقم ١٢٨٥؛ وانظر أيضًا رقم ١٣٤٢.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1285

دروسٌ من هذا الحديث

بيّن ابن حجر في فتح الباري أنّ البنت المذكورة في هذا الحديث هي **أمّ كلثوم**، لأنّ رقيّة توفّيت ورسول الله ﷺ ببدر. وصورة رسول الله ﷺ **جالسًا على القبر وعيناه تدمعان** تدلّ على عمق حنانه أبًا.

رُزق رسول الله ﷺ أربع بنات: زينب ورقيّة وأمّ كلثوم وفاطمة. **توفّيت ثلاثٌ منهنّ في حياته**، ولم تبقَ بعده إلّا فاطمة، وبضعةَ أشهرٍ فقط. فنبيٌّ هو أكرم الرسل ابتُلي بـ**فقد الأولاد** – ليعلم كلّ أبٍ وأمٍّ فقدا ولدًا أنّهما ليسا وحدهما.

دموع رسول الله ﷺ

ولم تكن دموع رسول الله ﷺ عند قبر أمّ كلثوم هي الوحيدة. فقد حكى أنس رضى الله عنه اللحظات الأخيرة لابنه **إبراهيم** الذي توفّي رضيعًا سنة عشرٍ للهجرة. أخذه رسول الله ﷺ فقبّله وشمّه، وعيناه تذرفان. فقال عبد الرحمن بن عوف: «وأنت يا رسول الله؟» فقال: «**يا ابن عوف، إنّها رحمة**»، ثمّ قال: «**إنّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلّا ما يرضى ربُّنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» (صحيح البخاري ١٣٠٣).

يعلّمنا هذا الحديث **أدب الحزن في الإسلام**. فالبكاء لا ينافي الصبر؛ بل هو **رحمةٌ** جعلها الله في القلوب. والمنهيّ عنه النياحة وشقّ الثياب والقول الذي ينافي الرضا بقدر الله.

كانت السنة التاسعة سنةً امتزج فيها النصر بالحزن: نصرٌ في تبوك، ووفودٌ تتوالى، وحجٌّ يُطهَّر – وفقدُ ابنةٍ أيضًا. وقد قابل رسول الله ﷺ الأمرين بـ**الشكر والصبر**. وهذا توازن حياة المؤمن.

مضمون إعلان البراءة

يمكن تلخيص إعلان منًى يوم النحر سنة تسعٍ للهجرة فيما يلي:

البند	المضمون والدليل
نبذ العهود	إنهاء العهود مع المشركين الناقضين (٩: ١)
مهلة الإنذار	أربعة أشهر يسيحون فيها آمنين (٩: ٢)
العهود الموفّاة	تُتَمّ إلى مدّتها (٩: ٤)
باب التوبة	﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (٩: ٣)
الحفظ	المستجير يُجار (٩: ٦)
الحجّ	لا يحجّ بعد العام مشرك (البخاري ٤٦٥٥)
الطواف	لا يطوف بالبيت عُريان (البخاري ٤٦٥٥)
المسجد الحرام	لا يقربه المشركون بعد عامهم هذا (٩: ٢٨)

يبيّن هذا الجدول أنّ إعلان البراءة **سياسةٌ متكاملة**: حزمٌ مع الغادرين، وعدلٌ مع الأوفياء، وفتحٌ لباب التوبة، وحمايةٌ لطالب الحقّ، وتطهيرٌ للعبادة. لم يكن مجرّد إعلان حرب.

مصادر القصّة

رُويت قصّة حجّة أبي بكر وإعلان البراءة في المصادر الآتية:

الحدث	المصدر والدرجة
أبو بكر أميرًا على الحجّ	صحيح البخاري ١٦٢٢ — صحيح
الأذان بمنًى؛ لحاق عليّ	صحيح البخاري ٤٦٥٥، ٣٦٩ — صحيح
يوم الحجّ الأكبر	صحيح البخاري ٣١٧٧ — صحيح
آخر سورةٍ نزلت	صحيح البخاري ٤٦٥٤ — صحيح
الطواف عُريانًا	صحيح مسلم ٣٠٢٨ — صحيح
«رجلٌ من أهلي»	جامع الترمذي ٣٠٩١ — حسنٌ غريب
«أميرٌ أم مأمور؟»	ابن إسحاق — سيرة
ترك البسملة	الترمذي ٣٠٨٦ — ضعيف؛ أقوال العلماء
الفاضحة	صحيح البخاري ٤٨٨٢ — صحيح
وفاة ابن أُبيّ	صحيح البخاري ١٣٦٦، ١٢٦٩، ١٣٥٠ — صحيح
وفاة أمّ كلثوم	صحيح البخاري ١٢٨٥ — صحيح
التلبية والخُمُس	صحيح مسلم ١١٨٥؛ صحيح البخاري ١٥٤٩، ١٦٦٤، ١٦٦٥ — صحيح
ابن اللُّتْبيّة	صحيح البخاري ٧١٧٤ — صحيح
وفاة النجاشيّ	صحيح البخاري ١٢٤٥، ٣٨٧٧ — صحيح

الأحداث الرئيسة في هذه الحلقة تؤيّدها **أحاديث صحيحة وآياتٌ من القرآن**، أمّا تفاصيل مثل عدد ركب أبي بكر وحواره مع عليّ فمن كتب السيرة.

خريطة موضوعات سورة التوبة

تتمحور قصّة حجّة أبي بكر حول مطلع سورة التوبة. لكنّ السورة طويلة — ١٢٩ آية — ونزل أكثرها حول غزوة تبوك وبعدها. ولفهم موقع آيات البراءة يرسم الجدول أدناه موضوعات السورة كلّها، ويبيّن أين نوقشت في هذه الحلقة.

الآية	الموضوع	موضع النقاش
9: 1–16	إعلان البراءة، الأشهر الأربعة، العهود الموفّاة، إجارة من أراد السماع	الحلقة ٢٧ (الفصول ٤–١٤)
9: 17–24	المساجد يعمرها المؤمنون، حبّ الله فوق الأهل والمال	الحلقة ٢٧ (الفصل ١٥)
9: 25–27	يوم حُنَين: لا تُغني الكثرة شيئًا بغير نصر الله	الْحَلْقَةُ ٢٢
9: 28	لا يقرب المشركون المسجد الحرام، «فسوف يُغنيكم الله»	الحلقة ٢٧ (الفصلان ١٦، ٣٥)
9: 29–35	أهل الكتاب والجزية، والوعيد على كنز الذهب والفضّة	الْحَلْقَةُ ٢٤
9: 36–37	اثنا عشر شهرًا، أربعةٌ حُرُم، تحريم النسيء	الحلقة ٢٧ (الفصل ١٧)
9: 38–72	النفير إلى تبوك، أعذار المنافقين، صفات المنافقين والمؤمنين	الْحَلْقَةُ ٢٤
9: 73–99	المنافقون والأعراب، النهي عن الصلاة على المنافقين (٩: ٨٤)	الحلقتان ٢٤، ٢٥، الحلقة ٢٧ (الفصل ٢٦)
9: 100–106	السابقون الأوّلون، الذين اعترفوا بذنوبهم	الْحَلْقَةُ ٢٥
9: 107–110	مسجد الضرار	الْحَلْقَةُ ٢٥
9: 111–116	البيع مع الله، النهي عن الاستغفار للمشركين (٩: ١١٣)	هذا الباب
9: 117–119	توبة الثلاثة الذين خُلّفوا	الْحَلْقَةُ ٢٥
9: 120–127	أجر كلّ خطوةٍ في سبيل الله، التفقّه في الدين (٩: ١٢٢)	هذا الباب

الآية	الموضوع	موضع النقاش
9: 128–129	صفة رسول الله ﷺ: عزيزٌ عليه ما عنتّم، بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم	هذا الباب

وفي صحيح البخاري قصّتان تتعلّقان بآخر السورة. الأولى: الآية ٩: ١١٣ — ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ — مرتبطةٌ بقصّة أبي طالب عمّ رسول الله ﷺ عند وفاته (صحيح البخاري ٤٦٧٥). والثانية: أنّ الآيتين الأخيرتين من السورة، ٩: ١٢٨-١٢٩، وجدهما زيد بن ثابت رضى الله عنه مع أبي خزيمة الأنصاريّ حين جمع القرآن في عهد أبي بكر (صحيح البخاري ٤٦٧٩).

أمّا الآية ٩: ١٢٢ فتوازن روح الجهاد في السورة كلّها: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ — تفسير ابن كثير ٩: ١٢٢. فهذه السورة الحازمة تؤكّد كذلك قيمة العلم.

المراجع: صحيح البخاري ٤٦٧٥؛ صحيح البخاري ٤٦٧٩؛ سورة التوبة (Quran.com).

العبرة

تبدأ سورة التوبة بنبذ العهود وتنتهي برأفة رسول الله ﷺ بالمؤمنين (٩: ١٢٨). فحزمها مع الغدر يسير جنبًا إلى جنبٍ مع الرحمة لكلّ من أراد الرجوع. ولا يجوز أن نقرأ جزءًا منها وننسى الباقي.

أعلام حجّة السنة التاسعة

في هذه القصّة أعلامٌ كثيرون — من قاد، ومن نادى، ومن روى، ومن مات في السنة نفسها. ويجمعهم هذا الجدول مع قبائلهم ومصادرهم.

العَلَم	القبيلة / الصلة	دوره في القصّة	المصدر
أبو بكر الصدّيق	قريش، بنو تَيْم	أمير الحجّ سنة ٩ هـ	صحيح البخاري ١٦٢٢، ٤٦٥٥
عليّ بن أبي طالب	قريش، بنو هاشم؛ ابن عمّ وصهر رسول الله ﷺ	قرأ البراءة بمنًى	صحيح البخاري ٤٦٥٥؛ جامع الترمذي ٣٠٩١
أبو هريرة	دَوْس (الأزد)	أحد المؤذّنين بمنًى؛ راوي القصّة	صحيح البخاري ٣٦٩، ٣١٧٧، ٤٦٥٥
حُمَيد بن عبد الرحمن	قريش، بنو زُهْرة؛ ابن عبد الرحمن بن عوف	تابعيّ؛ روى عن أبي هريرة	صحيح البخاري ٤٦٥٥
البراء بن عازب	الأنصار، الأوس (بنو حارثة)	روى أنّ براءة آخر سورةٍ نزلت	صحيح البخاري ٤٦٥٤
ابن عبّاس	قريش، بنو هاشم؛ ابن عمّ رسول الله ﷺ	روى قصّة الطواف عُريانًا وتلبية الشرك	صحيح مسلم ٣٠٢٨، ١١٨٥
جُبَير بن مُطعِم	قريش، بنو نوفل	رأى النبيَّ ﷺ واقفًا بعرفة قبل البعثة	صحيح البخاري ١٦٦٤
عبد الله بن أُبَيّ	الأنصار، الخزرج (بنو عوف بن الخزرج)	رأس المنافقين؛ مات سنة ٩ هـ	صحيح البخاري ١٣٦٦، ١٢٦٩
عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ	الخزرج؛ ابن ابن أُبيّ	صحابيّ مخلص؛ سأل قميصَ النبيّ ﷺ	صحيح البخاري ١٢٦٩

العَلَم	القبيلة / الصلة	دوره في القصّة	المصدر
عمر بن الخطّاب	قريش، بنو عديّ	اعترض حين أراد النبيّ ﷺ الصلاة على ابن أُبيّ	صحيح البخاري ١٣٦٦
النجاشي (أصحمة)	ملك الحبشة	مات؛ صُلّي عليه صلاة الغائب	صحيح البخاري ١٢٤٥، ٣٨٧٧
أمّ كلثوم بنت محمّد	ابنة رسول الله ﷺ؛ زوج عثمان	توفّيت سنة ٩ هـ	صحيح البخاري ١٢٨٥
عثمان بن عفّان	قريش، بنو أُميّة	زوج رقيّة ثمّ أمّ كلثوم؛ لُقّب ذا النورين	كتب السيرة
ابن اللُّتْبيّة	الأزد	عاملٌ على الصدقة أنكر عليه أخذ الهديّة	صحيح البخاري ٧١٧٤

فائدة حديثيّة: «ولا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو عليّ»

إلى جانب رواية أنس في جامع الترمذي ٣٠٩١ (الفصل ٥)، روى الترمذيّ أيضًا عن حُبْشيّ بن جُنادة أنّ رسول الله ﷺ قال: «عليٌّ منّي وأنا من عليّ، ولا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو عليّ» (جامع الترمذي ٣٧١٩).

قال الترمذيّ: حسنٌ صحيحٌ غريب، وحسّنه الألبانيّ بشواهده. وفي إسناده شريكٌ القاضي وهو سيّئ الحفظ، وأبو إسحاق وهو معروفٌ بالتدليس؛ فقوّته معتمدةٌ على الشواهد. وقد ربطه العلماء بحادثة البراءة: نبذ العهد يبلّغه القائد نفسه أو أقرب أهله.

المراجع: جامع الترمذي ٣٧١٩؛ جامع الترمذي ٣٠٩١؛ ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة.

العبرة

في سنةٍ واحدة نرى القائد الأمين، والمنادي المجتهد، والراوي المتقن، ورحيل الأحبّة. فالسيرة ليست قصّة رجلٍ واحد، بل قصّة مجتمعٍ لكلّ فردٍ فيه دور.

أحكامٌ من حجّة أبي بكر والبراءة

كانت حجّة السنة التاسعة وآيات البراءة مصدرًا لأحكامٍ كثيرة، في عبادة الحجّ وفي العلاقة مع غير المسلمين. ويلخّصها هذا الجدول مع الفصل الذي ناقشها.

الحكم	الدليل	الفصل
ستر العورة في الطواف؛ إبطال الطواف عُريانًا	صحيح البخاري ٣٦٩؛ صحيح مسلم ٣٠٢٨؛ الأعراف ٧: ٣١	6, 9
الطواف كالصلاة، لكن يُباح فيه الكلام بالخير	جامع الترمذي ٩٦٠	هذا الباب
نبذ العهد يجب أن يُعلَن بوضوح، لا مباغتةً	التوبة ٩: ١–٣؛ الأنفال ٨: ٥٨؛ صحيح البخاري ٣١٧٧	4, 6, 12
العهد مع الوفيّ يجب إتمامه إلى مدّته	التوبة ٩: ٤، ٩: ٧	12
تحريم قتل غير المسلم صاحب العهد (المعاهَد)	صحيح البخاري ٣١٦٦	هذا الباب
من استجار ليسمع الإسلام وجبت إجارته	التوبة ٩: ٦	14
يوم الحجّ الأكبر هو يوم النحر (١٠ ذي الحجّة)	صحيح البخاري ٣١٧٧	7
التلبية بلفظ التوحيد	صحيح البخاري ١٥٤٩؛ صحيح مسلم ١١٨٥	10
يقف الحجّاج جميعًا بعرفة؛ لا امتياز للأنساب	البقرة ٢: ١٩٩؛ صحيح البخاري ١٦٦٤، ١٦٦٥	11
تأمير أميرٍ على الحجّ	صحيح البخاري ١٦٢٢	3
لا يُصلّى على من ظهر نفاقه	التوبة ٩: ٨٤؛ صحيح البخاري ١٣٦٦	26
صلاة الغائب	صحيح البخاري ١٢٤٥	28

روى عبد الله بن عمرو رضى الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «من قتل معاهَدًا لم يرَحْ رائحة الجنّة، وإنّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا» (صحيح البخاري ٣١٦٦). وهذا الحديث يبيّن أنّ حزم البراءة إنّما هو على ناقضي العهود، لا على كلّ غير مسلم.

روى ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ قال: «الطواف حول البيت مثل الصلاة، إلّا أنّكم تتكلّمون فيه، فمن تكلّم فيه فلا يتكلّمنّ إلّا بخير» (جامع الترمذي ٩٦٠). صحّحه الألبانيّ، ورجّح بعض أهل الحديث أنّه من قول ابن عبّاس موقوفًا. ومنه أخذ العلماء حكم الطهارة وستر العورة في الطواف.

فائدة فقهيّة: غير المسلمين والمسجد الحرام (التوبة ٩: ٢٨)

اختلف العلماء في معنى ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾. فعند الشافعيّة والحنابلة لا يجوز لغير المسلم دخول حرم مكّة. وعند الحنفيّة يُمنعون من الحجّ والعمرة، ويجوز دخولهم لحاجةٍ بإذن. وعند المالكيّة يعمّ المنع المساجد كلّها إلّا لحاجة.

واختلفوا كذلك في ستر العورة في الطواف: فالجمهور على أنّه شرطٌ لصحّة الطواف، والحنفيّة على أنّه واجبٌ يُجبر تركه بدم. وهذا الملخّص من تفسير القرطبي وتفسير ابن كثير؛ وللعمل يُرجع إلى كتب الفقه في كلّ مذهب.

المراجع: صحيح البخاري ٣١٦٦؛ جامع الترمذي ٩٦٠؛ صحيح البخاري ٣٦٩؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، التوبة ٩: ٢٨.

العبرة

تُظهر هذه الأحكام وجهين لعدل الإسلام: في العبادة الناس سواءٌ أمام الله؛ وفي التعامل مع الآخرين يجب الوفاء بالعهد وحفظ النفس المعصومة. والحزم مع الغادر لا يُبيح ظلم الوفيّ قطّ.

الأماكن في هذه القصّة

تنتقل قصّة حجّة أبي بكر من المدينة إلى مكّة، ثمّ إلى مواضع المناسك حولها. ويسرد الجدول أدناه أهمّ الأماكن وما جرى فيها، مع التنبيه على ما لم يُعرف موضعه بدقّة.

المكان	المكانة	الحدث	المصدر
بِنَاءُ مُجْتَمَعِ الْمَدِينَةِ	الحجاز	بقي رسول الله ﷺ في المدينة؛ ومنها خرج أبو بكر وعليّ	صحيح البخاري ١٦٢٢
ذو الحُلَيفة	ميقات أهل المدينة، جنوبيّ المدينة	موضع إحرام الحجّاج القادمين من المدينة	صحيح البخاري ١٥٢٤
العَرْج	على طريق المدينة–مكّة؛ موضعه الدقيق غير معروف	أدرك عليٌّ أبا بكر (على رواية ابن إسحاق)	كتب السيرة
ضَجْنان	قرب مكّة؛ موضعه الدقيق غير معروف	روايةٌ أخرى في موضع لحاق عليّ	كتب السيرة
المسجد الحرام	مكة	موضع الطواف؛ إبطال الطواف عُريانًا	صحيح البخاري ٣٦٩
عرفة	نحو ٢٠ كم جنوب شرقيّ مكّة؛ خارج الحرم	وقوف الحجّاج جميعًا؛ زوال كبرياء الحُمْس	صحيح البخاري ١٦٦٥
مُزْدَلِفة	بين عرفة ومنًى	موضع المبيت بعد الوقوف	البقرة ٢: ١٩٨
منًى	نحو ٨ كم شرقيّ مكّة	إعلان البراءة يوم النحر	صحيح البخاري ٤٦٥٥
الحبشة	شرق إفريقيا (إثيوبيا اليوم)	وفاة النجاشيّ	صحيح البخاري ١٢٤٥

من كتب السيرة: العَرْج أم ضَجْنان؟

ذكر ابن إسحاق أنّ عليًّا أدرك أبا بكر بالعَرْج، وفي روايةٍ أخرى بضَجْنان. وكلاهما مذكورٌ في كتب السيرة والتفسير، ولا روايةَ صحيحةً تحدّد الموضع قطعًا. والثابت في صحيح البخاري أنّ عليًّا لحق وأذّن مع المؤذّنين بمنًى يوم النحر.

المراجع: ويكيبيديا، «منى»؛ ويكيبيديا، «جبل عرفات»؛ صحيح البخاري ١٥٢٤ (الميقات)؛ ابن هشام، السيرة النبوية.

العبرة

وما زالت الأماكن نفسها – منًى ومزدلفة وعرفة – يقصدها ملايين الحجّاج كلّ عام. فكلّما كنّا بمنًى فلنذكر أنّ هنا أُعلن التوحيد بصوتٍ جهير، وهنا رُدّ الحجّ إلى الله وحده.

التسلسل الزمنيّ للسنة التاسعة

يرتّب هذا الجدول أحداث الكتاب زمنيًّا، من العودة من تبوك إلى حجّة الوداع. وتواريخ الأشهر مأخوذةٌ من كتب السيرة وهي تقريبيّة.

الوقت	الحدث	المصدر
رجب ٩ هـ	وفاة النجاشيّ؛ صلّى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب	صحيح البخاري ١٢٤٥؛ التاريخ: كتب السيرة
رجب–رمضان ٩ هـ	غزوة تبوك والعودة إلى المدينة	الْحَلْقَةُ ٢٤
٩ هـ	وفاة أمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ	صحيح البخاري ١٢٨٥؛ التاريخ: كتب السيرة
شوّال–ذو القعدة ٩ هـ	وفودٌ من أنحاء العرب تقدم المدينة	الْحَلْقَةُ ٢٦
ذو القعدة ٩ هـ	وفاة عبد الله بن أبيّ؛ نزول النهي عن الصلاة على المنافقين	صحيح البخاري ١٣٦٦؛ التوبة ٩: ٨٤
ذو القعدة ٩ هـ	خروج أبي بكر أميرًا على الحجّ	صحيح البخاري ١٦٢٢؛ كتب السيرة
ذو القعدة–ذو الحجّة ٩ هـ	نزول آيات البراءة؛ بعث عليٍّ في إثره	جامع الترمذي ٣٠٩١؛ كتب السيرة
٩ ذي الحجّة ٩ هـ	الوقوف بعرفة	كتب السيرة
١٠ ذي الحجّة ٩ هـ	الأذان بمنًى: لا يحجّ مشرك، ولا يطوف عُريان	صحيح البخاري ٤٦٥٥، ٣١٧٧
ذو الحجّة ٩ هـ – ربيع الآخر ١٠ هـ	مهلة الأشهر الأربعة للمشركين	التوبة ٩: ٢؛ تفسير ابن كثير

الوقت	الحدث	المصدر
١٠ هـ	وفاة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ (التاريخ بحسب كتب السيرة)	صحيح البخاري ١٣٠٣
ذو الحجّة ١٠ هـ	حجّة الوداع؛ لم يحجّ مشركٌ واحد	صحيح البخاري ٣١٧٧؛ الحلقة ٢٨

العبرة

في عامٍ واحد تغيّر حال الحجّ تمامًا. فالتحوّلات الكبرى قد تقع سريعًا إذا بُني أساسها بصبرٍ سنين طويلة.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

أسئلة شائعة عن حجّة أبي بكر والبراءة

١. من أمّر على الحجّ سنة تسعٍ للهجرة؟

أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه، أمّره رسول الله ﷺ على الحجّ (صحيح البخاري ١٦٢٢؛ الفصل ٣).

٢. لماذا لم يحجّ رسول الله ﷺ تلك السنة؟

ذكر العلماء أسبابًا، منها أنّ المشركين ما زالوا يحجّون ويطوفون عُراة. وهذه الأسباب اجتهاد علماء وروايات سيرة، لا نصٌّ صريح (الفصل ٢).

٣. ما «البراءة»؟

إعلان نبذ العهود مع المشركين الناقضين لها، مع مهلة إنذارٍ أربعة أشهر (التوبة ٩: ١–٢؛ الفصل ٤).

٤. لماذا بُعث عليٌّ ليقرأها؟

في عُرف العرب لا ينقض العهدَ إلّا القائد نفسه أو أقرب أهله، وعليٌّ ابن عمّ رسول الله ﷺ وصهره (جامع الترمذي ٣٠٩١، ٣٧١٩؛ الفصلان ٥ و٣٤).

٥. ما الأمور الأربعة التي أُعلنت بمنًى؟

لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان له عهدٌ فهو إلى مدّته، ومن لا عهد له فله أربعة أشهر (صحيح البخاري ٤٦٥٥، ٣١٧٧؛ الفصلان ٦ و٣١).

٦. متى يوم الحجّ الأكبر؟

يوم النحر، العاشر من ذي الحجّة (صحيح البخاري ٣١٧٧؛ الفصل ٧).

٧. لماذا كان أهل الجاهليّة يطوفون عُراة؟

كان بعضهم يأبى الطواف في ثيابٍ عصى الله فيها، إلّا ثيابًا يستعيرها من قريش. فأنزل الله الأعراف ٧: ٣١ (صحيح مسلم ٣٠٢٨؛ الفصل ٩).

٨. هل الآية ٩: ٥ أمرٌ بقتال كلّ غير المسلمين؟

لا. هي خاصّةٌ بالمشركين الناقضين للعهود، بعد مهلة الإنذار. والآيات ٩: ٤ و٩: ٦ و٩: ٧ تستثني الأوفياء والمستجيرين، وقتل المعاهَد محرّم (صحيح البخاري ٣١٦٦؛ الفصلان ١٣ و٣٥).

٩. هل يجوز لغير المسلم دخول المسجد الحرام؟

اختلف العلماء في معنى التوبة ٩: ٢٨: فالشافعيّة والحنابلة يمنعونهم من دخول الحرم، والحنفيّة يمنعون الحجّ والعمرة فقط، والمالكيّة يعمّمون المنع على المساجد كلّها (الفصل ٣٥).

١٠. لماذا لا بسملة في سورة التوبة؟

للعلماء أقوال. ورواية عثمان في جامع الترمذي ٣٠٨٦ ضعيفة الإسناد؛ ومنهم من قال إنّ البسملة أمانٌ ورحمة، والسورة بدأت بنبذ العهود (الفصل ١٩).

١١. من مات سنة تسعٍ للهجرة؟

منهم النجاشيّ، وعبد الله بن أُبيّ، وأمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ (الفصول ٢٤–٢٩).

١٢. ما أثر حجّة أبي بكر في حجّة الوداع؟

في العام التالي لم يحجّ مشركٌ واحد، واستطاع رسول الله ﷺ أن يعلّم المناسك لأكثر من مئة ألف في جوّ توحيدٍ خالص (صحيح البخاري ٣١٧٧؛ الفصل ٢١).

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

العبرة

تذكّرنا هذه الأسئلة بأنّ الآيات الحازمة تُفهم مع سياقها وأسباب نزولها وما حولها من الآيات. وبذلك يُفهم القرآن كما فهمه الصحابة.

الدروس والخاتمة

كانت حجّة أبي بكر وإعلان البراءة **التطهيرَ الأخير** للحرم من الشرك – ذروةَ جهادٍ بدأ ببناء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الكعبةَ ودعائه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم ١٤: ٣٥).

العبرة	من هذه الحلقة
التطهير قبل الإكمال	حجّة أبي بكر قبل حجّة الوداع
قيادةٌ متناغمة	أبو بكر يقود، وعليّ يُعلن
الوفاء بالعهد	الأوفياء تُتمّ لهم عهودهم
قراءة الآية في سياقها	التوبة ٩: ٥–٧
إتاحة فرصة السماع	«فأَجِرْه حتّى يسمع كلام الله»
الرزق بيد الله	«فسوف يُغنيكم الله»
ردّ الجميل	قميصٌ لابن أبيّ
الصبر في الحزن	دموعٌ عند قبر أمّ كلثوم

البراءة في حياتنا

على كلّ مؤمنٍ أن يُعلن «براءةً» في حياته: **يقطع صلته بالشرك والمعاصي**، ويطهّر عبادته ممّا ليس من السنّة، ويجعل قلبه «حَرَمًا» لا يكون إلّا لله. لكن – كالبراءة الحقيقيّة – يكون ذلك **بعدلٍ وأدبٍ وفتحٍ لباب التوبة**، لا ببغض الناس.

وإن شاء الله نتواصل سلسلة **السيرة النبوية** بـ**الحلقة ٢٨ – حجّة الوداع**: الحجّة الوحيدة لرسول الله ﷺ بعد الهجرة، مع أكثر من مئة ألف صحابيّ، ومناسك عُلّمت مباشرة، ويوم عرفة الذي نزل فيه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. والله أعلم.

المراجع – الْحَلْقَةُ ٢٧

القرآن الكريم والتفسير

القرآن الكريم، بالرسم العثماني. https://quran.com/ms

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (التوبة ٩: ١–٧، ٩: ١٧–١٨، ٩: ٢٨، ٩: ٣٦–٣٧، ٩: ٨٠، ٩: ٨٤؛ الأعراف ٧: ٣١). https://tafsir.app/ibn-katheer/9/1

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن – تفسير سورة التوبة.

الحديث الشريف

صحيح البخاري ١١٨، ١١٩، ٣٦٩، ٦٦٤، ١٢٤٥، ١٢٦٩، ١٢٨٥، ١٣٠٣، ١٣٥٠، ١٣٦٦، ١٥٤٩، ١٦٢٢، ١٦٦٤، ١٦٦٥، ٣٠٠٨، ٣١٧٧، ٣٦٥٤، ٣٨٧٧، ٤٥٦٦، ٤٦٥٤، ٤٦٥٥، ٤٦٦٢، ٤٨٨٢، ٧١٧٤. https://sunnah.com/bukhari

صحيح مسلم ١١٨٥، ١٢٩٧، ١٣٤٧، ٣٠٢٨. https://sunnah.com/muslim

جامع الترمذي ٣٠٨٦، ٣٠٩١؛ سنن أبي داود ٧٨٦. https://sunnah.com

كتب السيرة والشروح

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب حجّ أبي بكر بالناس والبراءة.

الواقدي، المغازي؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى.

ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري – كتاب التفسير (سورة براءة) وكتاب الجنائز.

ابن كثير، البداية والنهاية؛ صفيّ الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم.

التاريخ العامّ

ويكيبيديا، «سورة التوبة». https://en.wikipedia.org/wiki/At-Tawba

ويكيبيديا، «الحج». https://en.wikipedia.org/wiki/Hajj

ويكيبيديا، «Abu Bakr». https://en.wikipedia.org/wiki/Abu_Bakr

ويكيبيديا، «Ali». https://en.wikipedia.org/wiki/Ali

ويكيبيديا، «عبد الله بن أبي بن سلول». https://en.wikipedia.org/wiki/Abd_Allah_ibn_Ubayy

ويكيبيديا، «أم كلثوم بنت محمد». https://en.wikipedia.org/wiki/Umm_Kulthum_bint_Muhammad

ويكيبيديا، «النسيء». https://en.wikipedia.org/wiki/Nasi%27

أحاديث ومصادر إضافية

صحيح البخاري ٣١٦٦ (تحريم قتل المعاهَد). https://sunnah.com/bukhari:3166

جامع الترمذي ٣٧١٩ («ولا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو عليّ»). https://sunnah.com/tirmidhi:3719

جامع الترمذي ٩٦٠ (الطواف مثل الصلاة). https://sunnah.com/tirmidhi:960

صحيح البخاري ٤٦٥٦ (المؤذّنون بمنًى). https://sunnah.com/bukhari:4656

صحيح البخاري ٤٦٧٥ (أبو طالب والتوبة ٩: ١١٣). https://sunnah.com/bukhari:4675

صحيح البخاري ٤٦٧٩ (آخر سورة التوبة عند أبي خزيمة). https://sunnah.com/bukhari:4679

صحيح البخاري ١٥٢٤ (ميقات ذي الحليفة). https://sunnah.com/bukhari:1524

سورة التوبة (Quran.com). https://quran.com/9

ويكيبيديا، «منى». https://en.wikipedia.org/wiki/Mina,_Saudi_Arabia

ويكيبيديا، «جبل عرفات». https://en.wikipedia.org/wiki/Mount_Arafat

الْجُزْءُ السَّابِعُ

حَجَّةُ الْوَدَاعِ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ — الْحَلْقَةُ ٢٨

الْحَجَّةُ الْوَحِيدَةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى عَرَفَةَ وَالْعَوْدَةُ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

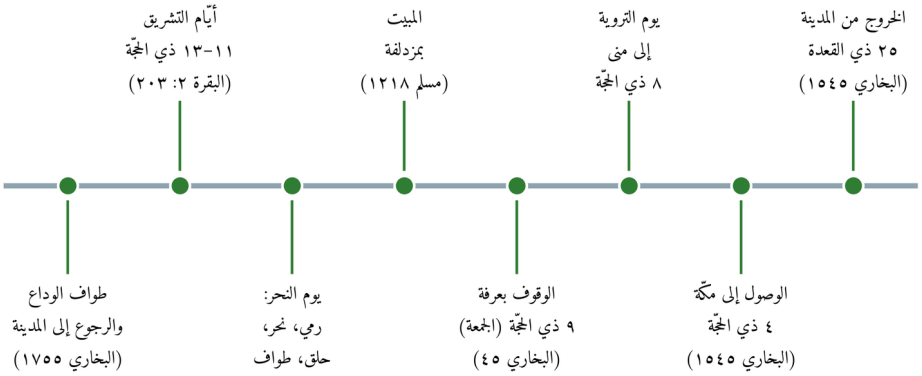
حجّة الوداع

حكت الحلقة السابعة والعشرون كيف طُهِّر الحجّ سنة تسعٍ للهجرة: أمَّ أبو بكر رضى الله عنه الناس، وأعلن عليٌّ رضى الله عنه البراءةَ بمنًى، ونودي بأنّه بعد ذلك العام **لا يحجّ مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان.** لقد صار الطريق إلى بيت الله نقيًّا.

وتحكي هذه الحلقة الثامنة والعشرون ما جرى بعد ذلك بعام: **حجّة الوداع** سنة عشرٍ للهجرة – **الحجّة الوحيدة** التي حجّها رسول الله ﷺ بعد الهجرة. سنتبعه خطوةً خطوة: الخروج من المدينة، والإحرام بذي الحُلَيفة، والطواف والسعي بمكّة، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، والرمي والنحر والحلق بمنًى، حتّى طواف الوداع والعودة.

المصدر الأوّل لهذه الحلقة هو **حديث جابر بن عبد الله** رضى الله عنهما في صحيح مسلم – أطول حديثٍ وأجمعه في صفة حجّة رسول الله ﷺ (صحيح مسلم ١٢١٨). وقد ذكر العلماء أنّه استُنبط من هذا الحديث وحده أكثرُ من مئة مسألةٍ فقهيّة. أمّا خطب رسول الله في هذه الحجّة فستُبسط بتفصيلٍ أوفى في **الحلقة التاسعة والعشرين**.

الخطّ الزمنيّ لحجّة الوداع (سنة ١٠ هـ)



جميع الأحداث مبنيّة على الأحاديث الصحيحة، ولا سيّما حديث جابر في صحيح مسلم ١٢١٨.

الرسم ١: التسلسل الزمنيّ لحجّة الوداع.

ملاحظة: ترجمة الآيات في هذا الكتاب هي ترجمة عبد الله محمّد بسميه في الأصل الملايويّ، وقد أُثبتت هنا الآيات بنصّها العربيّ. ودرجة كلّ حديثٍ مذكورة في إطار الحديث. أمّا ما نُقل من كتب السيرة — كتقدير عدد الحجّاج والأسماء الأخرى لهذه الحجّة — فقد وُضع في الإطار البنّيّ «من كتب السيرة»، لأنّ أكثره مرويٌّ بلا إسنادٍ متّصل أو بإسنادٍ فيه كلام.

الإعلان: رسول الله ﷺ حاجٌّ هذا العام

وصلتنا أتمُّ روايةٍ لحجّة الوداع من خلال لقاءٍ مؤثّر. فبعد وفاة رسول الله ﷺ بسنواتٍ جاء شابٌّ اسمه **محمّد بن عليّ بن الحسين** (محمّد الباقر)، من ذرّيّة رسول الله ﷺ، إلى الصحابيّ الشيخ الكفيف **جابر بن عبد الله** رضى الله عنهما. فوضع جابر يده على صدر الشابّ وقال: «مرحبًا بك يا ابنَ أخي، سَلْ عمّا شئت».

فسأله الشابّ عن حجّة رسول الله ﷺ. فعقد جابر بيده تسعًا ثمّ قال: «**إنّ رسول الله ﷺ مكث تسعَ سنين لم يحجّ، ثمّ أذّن في الناس في العاشرة أنّ رسول الله ﷺ حاجٌّ**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

انتشر هذا الإعلان في أرجاء جزيرة العرب. قال جابر: «**فقدم المدينةَ بشرٌ كثير، كلُّهم يلتمس أن يأتمّ برسول الله ﷺ ويعمل مثلَ عمله**». لم يأتوا لمجرّد أداء الحجّ، بل **ليروا بأعينهم كيف يحجّ رسول الله ﷺ حجَّه**.

هذه هي الروح التي ينبغي أن تكون في كلّ مسلم: العبادة ليست اختراعًا، بل **اقتداءً برسول الله ﷺ**. لقد تحمّل الصحابة سفرًا بعيدًا لا لشيءٍ إلّا ليتعلّموا السنّة من منبعها. ونحن اليوم بين أيدينا كتب الحديث التي حفظت تلك السنّة – وواجبنا أن نقرأها ونعمل بها.

أسماء هذه الحجّة

عُرفت هذه الحجّة بأسماءٍ عدّة، أشهرها **حجّة الوداع**، لأنّ رسول الله ﷺ كان فيها كأنّه يودّع أمّته. قال ابن عمر رضى الله عنهما :«**كنّا نتحدّث بحجّة الوداع والنبيُّ ﷺ بين أظهرنا، ولا ندري ما حجّة الوداع**» (صحيح البخاري ٤٤٠٢). ولم يُفهم معناه إلّا بعد وفاته بأشهرٍ قليلة.

من كتب السيرة: أسماءٌ أخرى لهذه الحجّة

ذكر العلماء أسماءً أخرى لهذه الحجّة، منها **حجّة الإسلام**، لأنّها الحجّة المفروضة الوحيدة التي حجّها رسول الله ﷺ بعد فرض الحجّ؛ و**حجّة البلاغ**، لأنّه سأل الناس: «ألا هل بلّغت؟»؛ و**حجّة التمام**، لنزول آية إكمال الدين.

ولا تعارض بين هذه الأسماء، فكلٌّ منها يُبرز جانبًا من هذه الحجّة العظيمة. وهي مذكورة في كتب السيرة وشروح الحديث، لا في نصٍّ خاصّ.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبويّة (رواية ابن إسحاق) – باب حجّة الوداع؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن القيّم، زاد المعاد.

متى فُرض الحجّ؟ اختلف العلماء: فمنهم من قال سنة ستٍّ للهجرة، ومنهم من قال سنة تسع. والمقطوع به أنّ فرضه ثابتٌ بقوله تعالى:

﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**﴾ (آل عمران ٣: ٩٧) – تفسير ابن كثير ٣: ٩٧.

اعتمر رسول الله ﷺ بعد الهجرة عُمَرًا – عمرة القضاء (الحلقة ١٨) والعمرة من الجِعْرانة (الحلقة ٢٣) – لكنّه لم يحجّ إلّا **حجّةً واحدة**. ولذلك صارت كلّ خطوةٍ له في هذه الحجّة **المرجعَ الأوّل** للمسلمين على مرّ العصور.

الخروج من المدينة

يروي ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ انطلق من المدينة مع أصحابه **بعدما ترجّل وادّهن، ولبس إزاره ورداءه**، ولم يَنْهَ عن شيءٍ من الأردية والأُزُر إلّا المزعفرة التي تَرْدَعُ على الجلد. وكان ذلك **لخمسٍ بقين من ذي القعدة** – أي نحو الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة عشرٍ للهجرة (صحيح البخاري ١٥٤٥).



الرسم ٢: خريطة تخطيطيّة لمسير حجّة الوداع.

استغرقت الرحلة من المدينة إلى مكّة – نحو ٤٥٠ كيلومترًا – **قرابة تسعة أيّام**، إذ قدم مكّة لأربعٍ خلون من ذي الحجّة. وكان معه **جميع أزواجه**، وابنته فاطمة، وآلافٌ من الصحابة – رجالًا ونساءً وشيوخًا وصبيانًا.

تأمّل استعداده: ترجّل وادّهن وهيّأ ثيابه. ليس الحجّ سفرًا أشعثَ مضطربًا؛ بل يبدأ **بالنظافة والترتيب والتخطيط**. وعلى المسلم الذي يريد الحجّ اليوم أن يستعدّ علمًا وصحّةً ومالًا وزادًا.

ولم يكن يشقّ على الناس **أيضًا**: أباح كلّ الثياب إلّا ما فيه ريح الزعفران. فمنذ الخطوة الأولى أظهرت حجّة الوداع طبيعة الشريعة – واضحةً في نواهيها، واسعةً في مُباحاتها.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

في ذي الحُلَيفة

نزل الركب بـ**ذي الحُلَيفة**، ميقاتِ أهل المدينة، على نحو عشرة كيلومترات من المدينة. وفيها وقع حدثٌ يُظهر يسر الشريعة. قال جابر: «**فولدت أسماءُ بنتُ عُمَيس محمّدَ بنَ أبي بكر**»، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟ قال: «**اغتسلي، واستثفري بثوب، وأحرمي**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

لم تؤمر المرأة النُّفَساء بالرجوع، بل **تمضي في حجّها** وتؤدّي المناسك كلّها إلّا الطواف حتّى تطهر. وكانت أسماء زوجةَ أبي بكر رضى الله عنه، وصار المولود محمّدُ بن أبي بكر فيما بعدُ من الأعلام المعروفين في التاريخ الإسلاميّ.

ثمّ قال جابر: «**فصلّى رسول الله ﷺ في المسجد، ثمّ ركب القَصْواء، حتّى إذا استوت به ناقتُه على البيداء نظرتُ إلى مدّ بصري بين يديه من راكبٍ وماشٍ، وعن يمينه مثلَ ذلك، وعن يساره مثلَ ذلك، ومن خلفه مثلَ ذلك**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

ومن ذي الحُلَيفة أيضًا **قلّد بُدْنَه وأشعرها** ليُعرف أنّها هديٌ للبيت. وقد ساق الهدي بنفسه من المدينة – وهو أمرٌ سيؤثّر في نوع النُّسُك الذي أدّاه، كما سنرى في الفصل الثالث عشر.

تلبية التوحيد

على ناقته بالبيداء بدأ رسول الله ﷺ يلبّي. قال جابر: «**فأهلّ بالتوحيد**» (صحيح مسلم ١٢١٨). وقد روى ابن عمر رضى الله عنهما لفظ تلبيته:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ١٥٤٩

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَنَّ تَلْبِيَةَ، رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ.

السند رواه الإمام البخاري: عن عبد الله بن يوسف التِّنِّيسي، عن الإمام مالك بن أنس، عن نافع مولى ابن عمر، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ، باب التلبية، حديث رقم ١٥٤٩؛ وأخرجه مسلم برقم ١١٨٤.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1549

دروسٌ من هذا الحديث

قارن هذه التلبية بتلبية الجاهليّة التي رأيناها في الحلقة السابعة والعشرين: «إلّا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك». أمّا تلبية رسول الله ﷺ فتكرّر «**لا شريك لك**» **مرّتين**، كأنّها تُغلق بإحكامٍ بابَ الشرك الذي فُتح من قبلُ في المكان نفسه.

وذكر جابر أنّ الناس كانوا يُهلّون بما يُهلّون به من ألفاظٍ زائدة، **فلم يردّ رسول الله ﷺ عليهم شيئًا منه**، ولزم تلبيته (صحيح مسلم ١٢١٨). وفي هذا سعة الشريعة في ألفاظ الذكر الحسن، مع بقاء لفظ السنّة هو الأفضل.

التلبية **إجابةٌ لنداء.** فقبل آلاف السنين أمر الله نبيَّه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ (الحجّ ٢٢: ٢٧). وكلّ حاجٍّ يقول «لبّيك» كأنّه يقول: **«أتيتُك يا ربّ، مجيباً نداءك».**

الحجّ المبرور

فما الموعود لمن أجاب هذا النداء على وجهه؟ روى أبو هريرة رضى الله عنه:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ١٥٢١

حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا سَيَّارٌ أَبُو الْحَكَمِ، قَالَ سَمِعْتُ أَبَا حَازِمٍ، قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ.

السند رواه الإمام البخاري: عن آدم بن أبي إياس، عن شعبة بن الحجّاج، عن سيّار أبي الحكم، عن أبي حازم الأشجعي، عن أبي هريرة رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ، باب فضل الحجّ المبرور، حديث رقم ١٥٢١؛ وانظر أيضًا رقم ١٨١٩، ١٨٢٠؛ وأخرجه مسلم برقم ١٣٥٠.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1521

دروسٌ من هذا الحديث

يذكر هذا الحديث شرطين: **ألّا يرفث** (الجماع وما يدعو إليه من القول حال الإحرام) **وألّا يفسق** (المعاصي). وكلاهما مذكورٌ في القرآن:

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة ٢: ١٩٧) – تفسير ابن كثير ٢: ١٩٧.

وتزيد الآية أمرًا ثالثًا: **لا جدال**. تخيّل مئات الآلاف من الناس المتعبين المتزاحمين في الحرّ – هناك تُمتحن الأخلاق. فالحجّ المبرور ليس صحيح الأركان فحسب، بل **نقيّ الأخلاق**.

وجزاؤه عظيم: أن يرجع «**كيومَ ولدته أمّه**»، نقيًّا من الذنوب. وفي حديثٍ آخر قال رسول الله ﷺ: «والحجّ المبرور ليس له جزاءٌ إلّا الجنّة» (صحيح البخاري ١٧٧٣). هذه هي الهديّة التي عاد بها حجّاج حجّة الوداع – وكلُّ حاجٍّ يسير على أثرهم.

وبيّن العلماء أنّ علامة الحجّ المبرور تظهر بعد الرجوع: **أن تصير حياته خيرًا ممّا كانت.** فيحافظ على الصلاة أكثر، ويلين مع أهله، ويصدق في معاملاته، ويبتعد عن المعاصي. ليس الحجّ لقبًا يُوضع أمام الاسم، بل تغيّرٌ دائمٌ في النفس.

ولذلك فالاستعداد للحجّ ليس مالًا وصحّةً فحسب، بل هو أيضًا **استعداد القلب**: تطهير المال من الحرام، والتحلّل ممّن ظلمناه، وقضاء الديون، والعزم على الرجوع إنسانًا جديدًا. والمال الحرام لا يليق أن يُحمل إلى بيت الله.

ولمن لم تُتَح له الفرصة بعدُ، فهذا الحديث يبعث الأمل: باب مغفرة الله مفتوحٌ دائمًا بالتوبة والصلاة والصيام والصدقة. غير أنّ للحجّ خصوصيّته، فادعُ الله أن يدعوك إلى بيته، واستعدّ من الآن.

بحرٌ من البشر

كلمات جابر – «مدَّ بصري» – ترسم صورةً لحجم الركب. أمامه ويمينه ويساره وخلفه: **بحرٌ من البشر** جاء من كلّ أنحاء العرب. وقبل عشر سنواتٍ فقط خرج رسول الله ﷺ من مكّة مستخفيًا مع صاحبٍ واحد (الحلقة ٧). واليوم يعود ومعه عشرات الآلاف.

من كتب السيرة: كم كان عدد حجّاج حجّة الوداع؟

لا يوجد حديثٌ صحيحٌ يذكر عددًا محدّدًا لحجّاج حجّة الوداع. وتذكر كتب السيرة تقديراتٍ مختلفة: **نحو تسعين ألفًا، ومئةً وأربعة عشر ألفًا**، ومنهم من ذكر أكثر من ذلك، بمن انضمّ إليهم من مكّة واليمن وغيرهما على الطريق.

هذه الأرقام **تقديراتٌ لأهل السيرة**، لا إحصاءٌ دقيق. والثابت من حديث جابر أنّ عددهم كان **كثيرًا جدًّا** حتّى ملؤوا مدّ البصر في كلّ اتّجاه.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبويّة (رواية ابن إسحاق) – باب حجّة الوداع؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن القيّم، زاد المعاد.

وأضاف جابر عبارةً بالغة الأهمّيّة: «**ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيءٍ عملنا به**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

هنا سرّ نجاح حجّة الوداع: عشرات الآلاف من خلفيّاتٍ وقبائل ولهجاتٍ مختلفة، لكنّ **القدوة واحدة**. لم يسألوا «ما رأي قبيلتنا؟» بل «**ماذا فعل رسول الله ﷺ؟**» والوحدة الحقيقيّة تولد حين يرجع الجميع إلى مصدرٍ واحد.

وتخيّل أيضًا التحدّي اللوجستيّ: الماء والطعام والمنازل والأمن لركبٍ بهذا الحجم، يقطع الصحراء تسعة أيّام. ومع ذلك لم يُرْوَ بإسنادٍ صحيحٍ وقوعُ فوضى كبيرة. لقد جعل انضباطُ الصحابة وقيادةُ رسول الله ﷺ ذلك المسيرَ منظّمًا.

بكاء عائشة بسَرِف

وفي أثناء الطريق وقع حدثٌ صغيرٌ إنسانيٌّ جدًّا. تحكي أمّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٣٠٥

حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لاَ نَذْكُرُ إِلاَّ الْحَجَّ، فَلَمَّا جِئْنَا سَرِفَ طَمِثْتُ، فَدَخَلَ عَلَىَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَأَنَا أَبْكِي فَقَالَ {مَا يُبْكِيكِ}. قُلْتُ لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنِّي لَمْ أَحُجَّ الْعَامَ. قَالَ {لَعَلَّكِ نُفِسْتِ}. قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ فَإِنَّ ذَلِكِ شَيْءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ، فَافْعَلِي مَا يَفْعَلُ الْحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لاَ تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي.

السند رواه الإمام البخاري: عن أبي نُعيم الفضل بن دُكَين، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن القاسم بن محمّد بن أبي بكر، عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب تقضي الحائض المناسك كلّها إلّا الطواف بالبيت، حديث رقم ٣٠٥؛ وانظر أيضًا رقم ٢٩٤؛ وأخرجه مسلم برقم ١٢١١.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:305

دروسٌ من هذا الحديث

سَرِف موضعٌ على نحو عشرة أميالٍ من مكّة. بكت عائشة، التي كانت تتشوّق للحجّ مع رسول الله ﷺ، ظنًّا منها أنّ حجّها قد فسد. فانظر كيف عاملها: **دخل عليها، وسألها عن سبب بكائها، وطيّب خاطرها** بكلماتٍ مُطَمْئِنة.

قوله – «**هذا شيءٌ كتبه الله على بنات آدم**» – يرفع عن المرأة الحرج والحزن. فالحيض ليس عيبًا ولا عقوبة، بل فطرةٌ كتبها الله. والحائض تؤدّي **المناسك كلّها إلّا الطواف بالبيت**.

وسنرى نهاية قصّة عائشة في الفصل الثلاثين: لم يدعها رسول الله ﷺ ترجع بقلبٍ كسير. فالزوج الصالح يفهم مشاعر زوجته، ولو كان مشغولًا بقيادة عشرات الآلاف من الناس.

الوصول إلى مكّة

قدم رسول الله ﷺ مكّة **لأربعٍ خلون من ذي الحجّة** (صحيح البخاري ١٥٤٥)، ومضى توًّا إلى المسجد الحرام. قال جابر: «**حتّى إذا أتينا البيتَ معه استلم الركنَ، فرمَل ثلاثًا ومشى أربعًا**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

هذا هو **طواف القدوم**. تخيّل مشاعره: مكّة، البلد الذي خرج منه مطاردًا، يدخلها اليوم رسولًا مكرّمًا، والكعبة التي أحاط بها من قبل ثلاثمئةٍ وستّون صنمًا صارت **خالصةً للتوحيد** (الحلقة ٢١).

الرَّمَل – الإسراع في المشي مع مقاربة الخطى – شُرِع أوّلَ مرّةٍ في عمرة القضاء، حين زعم مشركو مكّة أنّ المسلمين قد أوهنتهم حمّى يثرب (الحلقة ١٨). وفي حجّة الوداع، مع أنّه لم يبقَ مشركٌ يرقبهم، **أبقى الرَّمَل**. واستفاد العلماء من ذلك أنّ السنّة التي شُرعت لسببٍ قد تبقى عبادةً وإن زال سببها – **تذكيرًا بجهاد الجيل الأوّل**.

والرَّمَل خاصٌّ بالرجال، في الأشواط الثلاثة الأولى من طواف القدوم (أو طواف العمرة). أمّا المرأة فتطوف مشيًا عاديًّا، لأنّ الرَّمَل ينافي ما يُطلب منها من الستر والحشمة.

الحجر الأسود وكلمة عمر

بدأ رسول الله ﷺ طوافه وختمه عند **الحجر الأسود**، وذكر جابر أنّه بعد الصلاة عند المقام **رجع إلى الركن فاستلمه**) صحيح مسلم ١٢١٨). فلماذا يُقبَّل هذا الحجر ويُستلم؟ أجاب عمر رضى الله عنه جوابًا صار قاعدةً في العبادة:

حديث – صحيح البخاري، رقم ١٥٩٧

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَابِسِ بْنِ رَبِيعَةَ، عَنْ عُمَرَ - رضى الله عنه - أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الْحَجَرِ الأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ، فَقَالَ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ.

السند رواه الإمام البخاري: عن محمّد بن كثير، عن سفيان الثوري، عن سليمان الأعمش، عن إبراهيم النخعي، عن عابس بن ربيعة، عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ، باب ما ذُكر في الحجر الأسود، حديث رقم ١٥٩٧؛ وأخرجه مسلم برقم ١٢٧٠.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1597

دروسٌ من هذا الحديث

كلمة عمر هذه حاسمةٌ في التوحيد: الحجر **لا يضرّ ولا ينفع**. فالمسلم لا يعبد حجرًا، ولا يسأله، ولا يعتقد أنّ له قدرة. وإنّما يُقبِّل **اتّباعًا لرسول الله** ﷺ.

وهذا هو الفرق بين **العبادة والخرافة**: العبادة تُفعل لأنّ عليها دليلًا من الله ورسوله؛ والخرافة تُفعل لظنّ أنّ الشيء نفسه له قدرة. وقد قالها عمر بصوتٍ عالٍ أمام الناس – ولعلّ ذلك لأنّ كثيرًا منهم كانوا حديثي عهدٍ بعبادة الأصنام.

وفي زمن الزحام اليوم، تقبيل الحجر الأسود ليس واجبًا. فإن لم يستطع استلامه دون إيذاء الناس، كفاه أن **يشير إليه** من بعيد. أمّا دفع إخوانه وإيذاؤهم من أجل سنّةٍ فذلك **خطأٌ في ترتيب الأولويّات**.

عند مقام إبراهيم

بعد الطواف تقدّم رسول الله ﷺ إلى **مقام إبراهيم** وهو يقرأ:

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة ٢: ١٢٥) – تفسير ابن كثير ٢: ١٢٥.

قال جابر: فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلّى ركعتين، قرأ فيهما **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾** و**﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾**) صحيح مسلم ١٢١٨.(

ولاختيار هاتين السورتين معنًى عميق. **سورة الكافرون** سورة البراءة من الشرك: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. وسورة **الإخلاص** سورة التوحيد الخالص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وفي المكان نفسه الذي عُبدت فيه الأصنام من قبل، ﷺ **أعلن رسول الله التوحيدَ بالصلاة**.

مقام إبراهيم هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين بنى الكعبة. وقد ذكره الله من **الآيات البيّنات** في البيت (آل عمران ٣: ٩٧). والصلاة خلفه تصل كلَّ حاجٍّ بأبي الأنبياء، باني هذا البيت الأوّل، الذي بناه على التوحيد.

السعي: «أبدأُ بما بدأ الله به»

ومن المقام رجع فاستلم الركن، ثمّ خرج من الباب إلى **الصفا**. فلمّا دنا منه قرأ:

﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ (البقرة ٢: ١٥٨) – تفسير ابن كثير ٢: ١٥٨.

ثمّ قال: «**أبدأُ بما بدأ الله به**»، فبدأ السعي من الصفا لأنّ الله ذكره أوّلًا في الآية (صحيح مسلم ١٢١٨). درسٌ صغيرٌ لكنّه كبير: **الترتيب في القرآن له معنى**، ورسول الله ﷺ عمل به.

فرقي على الصفا حتّى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوحّد الله وكبّره، وقال: «**لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيءٍ قدير، لا إله إلّا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»، ثمّ دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرّات (صحيح مسلم ١٢١٨.).

تأمّل عبارة «**وهزم الأحزاب وحده**». إنّها تذكّر بغزوة الخندق (الحلقة ١٢)، حين حاصر عشرةُ آلافٍ من الأحزاب المدينةَ فردّهم الله بالريح. وعلى جبل الصفا – حيث دعا رسول الله ﷺ قومه جهرًا أوّلَ مرّة (الحلقة ٤) – يحمد الله الآن على وعدٍ قد أُنجز.

ثمّ نزل إلى المروة، حتّى إذا انصبّت قدماه في بطن الوادي **سعى**، حتّى إذا صعدتا مشى، حتّى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا (صحيح مسلم ١٢١٨). والسعي في بطن الوادي يذكّر بهاجر، أمّ إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، التي سعت تطلب الماء لابنها.

دخلت العمرة في الحجّ

وفي آخر طوافه على المروة أعلن رسول الله ﷺ أمرًا فاجأ كثيرين: «**لو أنّي استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لم أَسُقِ الهدي، وجعلتُها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هديٌ فليَحِلّ وليجعلها عمرة**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

لماذا كان ذلك مفاجئًا؟ لأنّ العرب في الجاهليّة كانوا يرون **العمرة في أشهر الحجّ من أفجر الفجور**. فأمرهم رسول الله ﷺ بها **إبطالًا لذلك الاعتقاد الجاهليّ**. وثقل ذلك على بعض الصحابة لأنّهم أرادوا موافقته في كلّ شيء، لكنّهم أطاعوا في النهاية.

سُراقة بن مالك بن جُعْشُم قام فقال: يا رسول الله، أَلِعامنا هذا أم لأبد؟ فشبّك رسول الله ﷺ أصابعه واحدةً في الأخرى، وقال مرّتين: «**دخلت العمرة في الحجّ، لا بل لأبدِ أبد**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

وسراقة هذا هو الرجل الذي طارد رسول الله ﷺ في الهجرة طمعًا في جائزة قريش (الحلقة ٧). واليوم يقف بمكّة صحابيًّا يسأل عن حكمٍ في الدين. هكذا يقلّب الله القلوب.

من كتب السيرة: أنواع النُّسُك الثلاثة

من حجّة الوداع عرف العلماء ثلاث صفاتٍ لأداء الحجّ: **الإفراد** (الحجّ وحده)، **والقِران** (الحجّ والعمرة بإحرامٍ واحد)، **والتمتّع** (العمرة أوّلًا ثمّ التحلّل، ثمّ الإحرام بالحجّ يوم الثامن من ذي الحجّة).

أمّا رسول الله ﷺ، وقد ساق الهدي، فبقي محرمًا إلى يوم النحر. وأكثر العلماء على أنّه حجّ **قارنًا**. وأُمر الصحابة الذين لم يسوقوا الهدي أن يجعلوها **تمتّعًا**. والصفات الثلاث كلّها صحيحة، واختلف العلماء في أفضلها.

المرجع:

ابن القيّم، زاد المعاد؛ النووي، شرح صحيح مسلم – باب حديث جابر.

عليٌّ يقدَم من اليمن

في ذلك الوقت قدم **عليّ بن أبي طالب** رضى الله عنه من اليمن، حيث بُعث داعيًا وجابيًا للزكاة (الحلقة ٢٦)، ومعه بُدْنٌ لرسول الله ﷺ. فلمّا قدم وجد زوجته **فاطمة** رضى الله عنها قد حلّت، ولبست ثيابًا صبيغًا، واكتحلت. فأنكر ذلك عليها، فقالت: «**إنّ أبي أمرني بهذا**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

فذهب عليٌّ إلى رسول الله ﷺ مُحرِّشًا على فاطمة ومستفتيًا، فقال: «**صدقتْ صدقتْ**». ثمّ سأل عليًّا: ماذا قلتَ حين فرضتَ الحجّ؟ قال: قلتُ: اللهمّ إنّي أُهِلّ بما أهلّ به رسولك. قال: «**فإنّ معي الهديَ فلا تَحِلّ**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

تُظهر القصّة أمورًا. أوّلها **فطنة عليّ**: لم يكن يعرف نوع إحرام رسول الله ﷺ، فنوى ما نواه – فقُبل منه (صحيح البخاري ١٥٥٧). وثانيها **صدق فاطمة** الذي صدّقه أبوها نفسه. وثالثها طريقة عليّ في رفع الخلاف: لا بالخصام، بل **بالرجوع إلى رسول الله** ﷺ.

وذكر جابر أنّ **جماعة الهدي** الذي قدم به عليٌّ من اليمن والذي أتى به رسول الله ﷺ من المدينة كانت **مئةً**. وسنرى ما صار إليه هذا الهدي يوم النحر (الفصل الرابع والعشرون).

يوم التروية

أقام رسول الله ﷺ بأطراف مكّة من الرابع إلى السابع من ذي الحجّة. ثمّ جاء **يوم التروية (الثامن من ذي الحجّة)**. قال جابر: «**فلمّا كان يومُ التروية توجّهوا إلى منًى فأهلّوا بالحجّ، وركب رسول الله ﷺ فصلّى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

ومعنى **التروية** الإرواء والتزوّد بالماء. ويذكر أهل التاريخ أنّ الحجّاج كانوا يملؤون فيه قِرَبهم زادًا لعرفة، إذ لم يكن بها ماءٌ يومئذ.

وبمنًى ﷺ **قصر الرباعيّة ركعتين**، ولم يجمع – كلّ صلاةٍ في وقتها. والمبيت بمنًى ليلة التاسع سنّةٌ لا ركن، لكنّه تهيئةٌ روحيّةٌ وبدنيّةٌ قبل يوم عرفة العظيم.

أمّا الصحابة الذين حلّوا بعد العمرة **فأحرموا بالحجّ من جديد** من أماكنهم. وهذه صفة حجّ التمتّع التي يفعلها أكثر الحجّاج اليوم.

مجاوزة مزدلفة إلى عرفة

صباح التاسع من ذي الحجّة، بعد طلوع الشمس، أمر رسول الله ﷺ **بقبّةٍ من شَعَر تُضرب له بنَمِرة، ثمّ** سار. وذكر جابر أمرًا بالغ الأهمّيّة: «**ولا تشكّ قريشٌ إلّا أنّه واقفٌ عند المشعر الحرام كما كانت قريشٌ تصنع في الجاهليّة**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

رأينا في الحلقة السابعة والعشرين أنّ قريشًا (الحُمْس) كانت ترى نفسها أشرف من أن تخرج من الحرم إلى عرفة مع الناس، فكانت تقف بمزدلفة والقبائل الأخرى تذهب إلى عرفة. واليوم يقوم رسول الله ﷺ، القرشيّ الهاشميّ، **فيجاوز مزدلفة** ماضيًا إلى عرفة، امتثالًا لأمر الله:

﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**﴾ (البقرة ٢: ١٩٩) – تفسير ابن كثير ٢: ١٩٩.

وبهذه الخطوة **ألغى امتيازات الطبقات** في العبادة. ففي عرفة يقف القرشيّ والبدويّ، والشريف والعبد، على أرضٍ واحدة. لا مكان خاصّ لمن يرى نفسه شريفًا.

فأتى نَمِرة فوجد القبّة قد ضُربت له، **فنزل بها حتّى إذا زاغت الشمس**) (صحيح مسلم ١٢١٨). واليوم يقوم مسجد نَمِرة في ذلك الموضع، بعضه داخل حدود عرفة وبعضه خارجها.

الخطبة ببطن عُرَنة

فلمّا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِلت له، فأتى **بطنَ الوادي (عُرَنة)** فخطب الناس (صحيح مسلم ١٢١٨). وهذه الخطبة – المعروفة بـ**خطبة عرفة** – ستُبسط كاملةً في **الحلقة التاسعة والعشرين**. وهنا نرى معالمها الكبرى فحسب، كما رواها جابر.

موضوع الخطبة	الخلاصة
حرمة الدماء والأموال	حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا
أمر الجاهليّة	كلّه موضوعٌ «تحت قدميّ»
دماء الجاهليّة	بدأ بدمٍ من أهل بيته
ربا الجاهليّة	بدأ بربا عمّه العبّاس
النساء	«اتّقوا الله في النساء»
الاعتصام	كتاب الله – لن تضلّوا ما اعتصمتم به
الإشهاد	«اللهمّ اشهد» (ثلاث مرّات)

تأمّل كيف **بدأ بأهل بيته**. فأوّل دمٍ وضعه دمُ ابنِ ربيعة بن الحارث، ابنِ ابنِ عمّه؛ وأوّل رِبًا وضعه رِبا العبّاس، عمِّه. فالقائد العادل **لا يستثني أقاربه** من حكم الشرع.

وفي آخر الخطبة سألهم: «**وأنتم تُسألون عنّي، فما أنتم قائلون؟**» قالوا: «نشهد أنّك قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ». فقال بإصبعه السبّابة يرفعها إلى السماء وينكُتها إلى الناس: «**اللهمّ اشهد، اللهمّ اشهد**» ثلاث مرّات (صحيح مسلم ١٢١٨).

ثمّ أذّن بلال ثمّ أقام فصلّى **الظهر**، ثمّ أقام فصلّى **العصر**، ولم يصلِّ بينهما شيئًا (صحيح مسلم ١٢١٨). وهذا هو **جمع التقديم** بعرفة، ليتفرّغ ما بقي من النهار إلى غروب الشمس للدعاء كلّه.

يومَ أُكمل الدين

وفي ذلك اليوم – يوم عرفة، وقد وافق يوم الجمعة – نزلت آيةٌ من أعظم آيات القرآن:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة ٥: ٣) – تفسير ابن كثير ٥: ٣.

وبلغت منزلة هذه الآية أن غبط رجلٌ من اليهود المسلمين عليها. قال عمر رضى الله عنه:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ٤٥

حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ الصَّبَّاحِ، سَمِعَ جَعْفَرَ بْنَ عَوْنٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الْعُمَيْسِ، أَخْبَرَنَا قَيْسُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّ رَجُلاً، مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. قَالَ أَىُّ آيَةٍ قَالَ {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا}. قَالَ عُمَرُ قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ.

السند رواه الإمام البخاري: عن الحسن بن الصبّاح، سمع جعفر بن عون، عن أبي العُمَيس، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، حديث رقم ٤٥؛ وأيضًا ٤٤٠٧، ٤٦٠٦، ٧٢٦٨؛ وأخرجه مسلم برقم ٣٠١٧.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:45

دروسٌ من هذا الحديث

وجواب عمر دقيقٌ لطيف: لم يكن بحاجةٍ إلى اتّخاذه عيدًا جديدًا، لأنّه **عيدٌ أصلًا**: فيوم عرفة يومٌ عظيم للحجيج، ويوم الجمعة عيد المسلمين الأسبوعي. فقد نزلت الآية في **يومَي عيدٍ معًا**.

ومعنى «أكملتُ لكم دينكم» أنّ **أصول الدين قد تمّت**: العقيدة والعبادة والحلال والحرام. فليس لأحدٍ بعد رسول الله ﷺ أن يزيد في الدين عبادةً جديدة أو ينقص منه. قال الإمام مالك: من ابتدع في الإسلام بدعةً يراها حسنة فقد زعم أنّ محمّدًا ﷺ خان الرسالة، لأنّ الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

من كتب السيرة: بكاء عمر

ورُوي في كتب التفسير والسيرة أنّه لمّا نزلت هذه الآية **بكى عمر**، فلمّا سُئل قال: **إنّه لم يكمل شيءٌ قطّ إلّا نقص**. وكأنّه أحسّ أنّ الآية تشير إلى دنوّ أجل رسول الله ﷺ.

ذكر هذه الرواية ابنُ جرير الطبري وابنُ كثير في تفسيريهما، وفي إسنادها كلام. ومعناها موافقٌ لكون رسول الله ﷺ تُوفّي بعد نزول الآية بنحو **ثلاثة أشهر**.

المرجع:

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المائدة ٥: ٣؛ الطبري، جامع البيان. https://tafsir.app/ibn-katheer/5/3

«الحجّ عرفة»

وبعد الصلاة ركب رسول الله ﷺ حتّى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حَبْل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، **فلم يزل واقفًا حتّى غربت الشمس**، وذهبت الصفرة قليلًا حتّى غاب القرص (صحيح مسلم ١٢١٨). ساعاتٍ طوالًا وهو يدعو ويذكر ويتضرّع إلى الله.

ولماذا كانت عرفة بهذه المنزلة؟ قال رسول الله ﷺ: **«الحجّ عرفة»**، من جاء ليلة جمعٍ قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحجّ (جامع الترمذي ٨٨٩ – صحيح). فالوقوف بعرفة **أعظم أركان الحجّ**؛ لا يصحّ الحجّ بدونه. وفي فضل هذا اليوم تروي عائشة رضى الله عنها:

الحديث – صحيح مسلم، رقم ١٣٤٨

حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ سَعِيدٍ الأَيْلِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ عِيسَى، قَالاَ حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي مَخْرَمَةُ بْنُ بُكَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ سَمِعْتُ يُونُسَ بْنَ يُوسُفَ، يَقُولُ عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ قَالَتْ عَائِشَةُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلاَئِكَةَ فَيَقُولُ مَا أَرَادَ هَؤُلاَءِ.

السند رواه الإمام مسلم: عن هارون بن سعيد الأيلي وأحمد بن عيسى، عن عبد الله بن وهب، عن مَخْرَمَة بن بُكَير، عن أبيه بُكَير بن الأشجّ، عن يونس بن يوسف، عن سعيد بن المسيّب، عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها.

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحجّ، باب في فضل الحجّ والعمرة ويوم عرفة، حديث رقم ١٣٤٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:1348

دروسٌ من هذا الحديث

تخيّل المشهد الذي يباهي الله به الملائكة: عشرات الآلاف من الناس، في لباسٍ واحد، شُعثًا غُبرًا، يرفعون أيديهم في صعيدٍ قاحل. لا يسألون مالًا ولا جاهًا، بل **المغفرة والرحمة**. ويقول الله – وهو أعلم –: «ما أراد هؤلاء؟»

ومن لم يحجّ فيومُ عرفة له يومٌ عظيم أيضًا. فقد أخبر رسول الله ﷺ أنّ **صيام يوم عرفة يكفّر السنة التي قبله والسنة التي بعده** (صحيح مسلم ١١٦٢). فرحمة هذا اليوم تعمّ الأمّة كلّها، لا أهل عرفة وحدهم.

«السكينةَ، أيّها الناس!»

فلمّا غربت الشمس دفع رسول الله ﷺ من عرفة، **وأردف أسامة بن زيد** رضى الله عنهما خلفه – أسامة بن زيد بن حارثة، مولاه وحِبّه. فأمام عشرات الآلاف من أشراف العرب كان رديفُ رسول الله ﷺ هو **شابٌّ أسمرُ، ابنُ مولًى مُعتَق**.

ويحكي جابر أنّه **شَنَقَ للقصواء الزمام حتّى إنّ رأسها ليصيب مَوْرِك رحله**، ويقول بيده اليمنى: «**أيّها الناس، السكينةَ السكينةَ**»، كلّما أتى حبلًا من الحبال أرخى لها قليلًا حتّى تصعد (صحيح مسلم ١٢١٨).

وحكى ابن عبّاس رضى الله عنهما أيضًا أنّه سمع وراءه زجرًا شديدًا وضربًا للإبل، فأشار بسوطه إليهم وقال: «**أيّها الناس، عليكم بالسكينة، فإنّ البرّ ليس بالإيضاع**» صحيح البخاري ١٦٧١).

وهذا الدرس شديد الصلة بزحام الحجّ اليوم، حين يتحرّك الملايين في وقتٍ واحد. **فالسكينة والانضباط** ليسا أدبًا فحسب، بل ينقذان الأرواح. والعبادة التي تُؤدّى بمزاحمة الناس وإيذائهم تفقد روحها وإن كمل ظاهرها.

الليلة في مزدلفة

ووصل الركب إلى **مزدلفة** بعد حلول الظلام. وهناك صلّى رسول الله ﷺ **المغرب والعشاء بأذانٍ واحد وإقامتين**، ولم يسبّح بينهما شيئًا. ثمّ **اضطجع حتّى طلع الفجر** (صحيح مسلم ١٢١٨). وهذا ما أمر الله به: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ**﴾ (البقرة ٢: ١٩٨) – تفسير ابن كثير ٢: ١٩٨.

تأمّل: بعد يومٍ كاملٍ من الدعاء بعرفة، إذا برسول الله ﷺ **ينام**. فلم يُحيِ تلك الليلة بقيامٍ طويل، لأنّ غدها أكثر أيّام الحجّ عملًا. فسنّته تعلّم **التوازن**: العبادة تحتاج إلى قوّة، وللبدن على صاحبه حقٌّ في الراحة.

وتحكي عائشة رضى الله عنها أنّ **سودة** رضى الله عنها، زوجَ النبيّ وكانت امرأةً ضخمةً ثَبِطة، **استأذنته أن تدفع قبله** من مزدلفة قبل حَطْمة الناس، فأذن لها (صحيح البخاري ١٦٨١). ومن هنا أخذ العلماء **الرخصة للضعفة** من النساء وكبار السنّ ومن يقوم عليهم، أن يدفعوا من مزدلفة بعد منتصف الليل.

المشعر الحرام ووادي مُحَسِّر

وبعد أن صلّى الفجر حين تبيّن له الصبح، ركب رسول الله ﷺ القصواء حتّى أتى **المشعر الحرام**، فاستقبل القبلة فدعا الله وكبّره وهلّله ووحّده، **فلم يزل واقفًا حتّى أسفر جدًّا، ثمّ دفع قبل أن تطلع الشمس**) صحيح مسلم ١٢١٨.(

والدفع قبل طلوع الشمس **تصحيحٌ لعادة الجاهليّة** أيضًا؛ فقد كان المشركون لا يُفيضون من جمعٍ حتّى تطلع الشمس على ثَبِير (صحيح البخاري ١٦٨٤). فخالفهم رسول الله ﷺ، كما خالفهم في الإفاضة من عرفة بعد غروب الشمس.

وكان رديفه هذه المرّة **الفضل بن العبّاس**، وكان شابًّا وسيمًا. فمرّت ظُعُنٌ يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهنّ، فإذا برسول الله ﷺ **يضع يده على وجه الفضل**، فحوّل الفضل وجهه إلى الشقّ الآخر ينظر، فحوّل يده إلى ذلك الشقّ أيضًا (صحيح مسلم ١٢١٨.(

تأمّل طريقته في التربية: **بلا غضبٍ ولا تشهير**، بيدٍ رفيقةٍ تصرف النظر فحسب. وغضّ البصر أمرٌ من الله، وفي قلب مناسك الحجّ حافظ عليه رسول الله ﷺ. فلمّا أتى **بطن مُحَسِّر حرّك قليلًا**) صحيح مسلم ١٢١٨) – وهذا الوادي يذكره العلماء موضعًا متّصلًا بقصّة أصحاب الفيل (قصص من القرآن، الحلقة ٣٩)، والسنّة الإسراع في المرور به.

رمي جمرة العقبة

ثمّ سلك الطريق الوسطى التي تخرج على **الجمرة الكبرى (جمرة العقبة)**، فرماها **بسبع حصيات**، يكبّر مع كلّ حصاةٍ منها، مثل حصى الخَذْف، رمى من بطن الوادي (صحيح مسلم ١٢١٨). وفي هذا اليوم لا يُرمى إلّا جمرة العقبة.

وفيما هو يرمي على راحلته قال كلمةً صارت قاعدةً لمناسك الحجّ كلّها. يروي جابر رضى الله عنه:

الحديث – صحيح مسلم، رقم ١٢٩٧

حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، وَعَلِيُّ بْنُ خَشْرَمٍ، جَمِيعًا عَنْ عِيسَى بْنِ يُونُسَ، - قَالَ ابْنُ خَشْرَمٍ أَخْبَرَنَا عِيسَى، - عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا، يَقُولُ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ وَيَقُولُ لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلِّي لاَ أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ.

السند رواه الإمام مسلم: عن إسحاق بن إبراهيم (ابن راهويه) وعليّ بن خَشْرَم، كلاهما عن عيسى بن يونس (قال ابن خشرم: أخبرنا عيسى)، عن ابن جُرَيج، عن أبي الزبير، أنّه سمع جابر بن عبد الله رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحجّ، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا، حديث رقم ١٢٩٧.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:1297

دروسٌ من هذا الحديث

«**لتأخذوا مناسككم**» – ولهذا روى الصحابة تفاصيل حجّة الوداع بهذه الدقّة؛ فقد فهموا أنّها ربّما كانت الفرصة الأخيرة. وصدقت كلمته: «**لعلّي لا أحجّ بعد حجّتي هذه**»؛ فقد تُوفّي بعدها بأقلّ من ثلاثة أشهر.

ليس رمي الجمار رميًا للشيطان بمعنى أنّ الحجر هو الشيطان، بل هو **عبادةُ طاعةٍ وذِكر**، اتّباعًا لسنّة رسول الله ﷺ، وتذكيرًا بعداوتنا للشيطان. فلا معنى للغضب، ولا لرمي النعال أو الحجارة الكبيرة، والسنّة حصى صغار، مع التكبير والسكينة.

ويربط بعض العلماء أصل رمي الجمار بقصّة نبيّ الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين دفع وسوسة الشيطان في تلك المواضع. وروايات هذه القصّة في كتب الآثار والتفسير، لكنّ الثابت عندنا: أنّ رسول الله ﷺ رمى، ونحن نرمي **اتّباعًا له**.

وحذّر رسول الله ﷺ من الغلوّ في ذلك؛ فقد التقط حصياتٍ صغارًا وقال: «**إيّاكم والغلوَّ في الدين، فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين**» سنن ابن ماجه ٣٠٢٩ – صحيح). قيلت في سياق اختيار حصى الرمي، لكنّها صارت قاعدةً عامّةً في الدين كلّه.

واليوم تتيح جسور الجمرات المتعدّدة الطوابق للملايين أن يرموا بأمانٍ أكبر. لكنّ الانضباط لا يزال لازمًا: اتّباع الجداول المقرّرة، وعدم الرجوع عكس السير، وحماية كبار السنّ والنساء. وهذا تطبيق قوله «السكينةَ السكينةَ» في سياقٍ معاصر.

مئةُ بدنةٍ هديًا

ثمّ انصرف رسول الله ﷺ إلى المنحر، **فنحر ثلاثًا وستّين بدنةً بيده**، ثمّ أعطى عليًّا فنحر ما غبر، وأشركه في هديه، ثمّ أمر **من كلّ بدنةٍ ببَضْعة** فجُعلت في قِدْرٍ فطُبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها (صحيح مسلم ١٢١٨).

ولاحظ العلماء عدد **ثلاثٍ وستّين**: فهو يوافق **عُمُرَ رسول الله** ﷺ يومئذٍ. ورأى بعضهم أنّه كأنّه بدنةٌ عن كلّ سنةٍ من عمره، شكرًا لله. وهذه **ملاحظةٌ من العلماء**، لا نصٌّ صريح، لكنّها جميلةٌ للتأمّل.

غير أنّ الله يذكّر بما يصل إليه حقًّا: ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ**﴾ (الحجّ ٢٢: ٣٧) — تفسير ابن كثير ٢٢: ٣٧.

ومئة بدنة مالٌ عظيمٌ جدًّا، لكنّ المعتبر ليس العدد، بل **التقوى التي وراء الهدي**. ثمّ وُزّع لحمها على الفقراء والمساكين، كما أمر الله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (الحجّ ٢٢: ٢٨).

وإنّ رسول الله ﷺ **نحر بيده** أكثر هديه. وفي هذا أنّ القائد لا يستنكف أن يعمل بيده، وأنّ الأفضل في الهدي والأضحية أن يذبحها صاحبها بنفسه إن قدر.

الدعاء للمحلّقين

وبعد النحر شرع رسول الله ﷺ **يحلق رأسه**، ودعا يومئذٍ: «**اللهمّ ارحم المحلِّقين**». قالوا: «والمقصِّرين يا رسول الله؟» قال: «اللهمّ ارحم المحلِّقين». فأعادوا السؤال، فقال في الأخيرة: «**والمقصِّرين**» (صحيح البخاري ١٧٢٧)

وتكرار الدعاء للمحلّقين يدلّ على أنّ **الحلق أفضل** للرجال، لأنّه أكمل في الخضوع، إذ يُلقي الشعرَ الذي هو زينةٌ لله. والتقصير صحيحٌ أيضًا ومدعوٌّ لأهله. وأمّا المرأة فالمشروع لها **التقصير اليسير** من أطراف شعرها، لا الحلق.

وبالحلق أو التقصير يحصل للحاجّ **التحلّل الأوّل**: فيحلّ له كلّ شيءٍ حُرِّم بالإحرام إلّا النساء. ويحصل التحلّل الكامل بعد طواف الإفاضة.

وذكرت كتب الحديث أنّ شعر رسول الله ﷺ الذي حلقه يومئذٍ **قُسِم بين الصحابة** (صحيح مسلم ١٣٠٥)، فحفظوه حبًّا له. وهذا خاصٌّ برسول الله ﷺ، لا يُقاس عليه غيره.

«افعل ولا حرج»

وفي يوم النحر أدّى رسول الله ﷺ أربعة أعمالٍ على الترتيب: **الرمي، ثمّ النحر، ثمّ الحلق، ثمّ الطواف.** لكن لم يتمكّن كلّ الناس من مراعاة هذا الترتيب أو لم يعلموه، فجاؤوا يسألون:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ١٧٣٦

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عِيسَى بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ لَمْ أَشْعُرْ فَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ. قَالَ اذْبَحْ وَلاَ حَرَجَ. فَجَاءَ آخَرُ فَقَالَ لَمْ أَشْعُرْ فَنَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ. قَالَ ارْمِ وَلاَ حَرَجَ. فَمَا سُئِلَ يَوْمَئِذٍ عَنْ شَىْءٍ قُدِّمَ وَلاَ أُخِّرَ إِلاَّ قَالَ افْعَلْ وَلاَ حَرَجَ.

السند رواه الإمام البخاري: عن عبد الله بن يوسف التِّنِّيسي، عن الإمام مالك بن أنس، عن ابن شهاب الزهري، عن عيسى بن طلحة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ، باب الفُتيا على الدابّة عند الجمرة، حديث رقم ١٧٣٦؛ وأيضًا ٨٣، ١٢٤؛ وأخرجه مسلم برقم ١٣٠٦.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1736

دروسٌ من هذا الحديث

وهذا الحديث من أعظم الأدلّة على **التيسير في الشريعة الإسلاميّة.** ففي زحامٍ شديد، وعشرات الآلاف يحجّون أوّل مرّة، لم يُعنّفهم رسول الله ﷺ ولم يشقّ عليهم، بل كان جوابه قصيرًا مطمئنًا: «**افعل ولا حرج**».

وتأمّل أنّه **وقف وأفرغ وقته** لأسئلة الناس في وسط أشدّ الأيّام زحمة. فالقائد والمعلّم الصالح لا يعدّ السؤال إزعاجًا. وعلى العلماء ومرشدي الحجّ اليوم أن يقتدوا بذلك: **يُيسّرون ولا يُعسّرون.**

لكنّ هذا التيسير لا يعني أن تُؤدّى العبادة كيفما اتّفق. فالسائلون قالوا «لم أشعر» – أخطؤوا ولم يتلاعبوا. فالشريعة تيسّر على **من يجتهد صادقًا**، وهذا المبدأ يشمل كلّ عبادةٍ في حياتنا.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

طواف الإفاضة وماء زمزم

ثمّ ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت، وطاف **طواف الإفاضة** – ركنَ الحجّ الذي لا يصحّ إلّا به – ثمّ **صلّى بمكّة الظهر** (صحيح مسلم ١٢١٨). وبهذا الطواف تحلّل التحلّل الكامل.

ثمّ أتى **بني عبد المطّلب** وهم يسقون على زمزم، فقال: «**انزعوا بني عبد المطّلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعتُ معكم**»، فناولوه دلوًا فشرب منه (صحيح مسلم ١٢١٨).

وتدلّ هذه الكلمة على **حكمة رسول الله** ﷺ. فقد أحبّ أن يُعين، لكنّه علم أنّه لو نزع بنفسه لظنّه الناس من سنن الحجّ **وتزاحموا على النزع**، فيضيع حقّ آل عبد المطّلب في السقاية – وقد ورثوها منذ زمن جدّه. فكان ينظر في **أثر فعله على الأمّة**.

وماء زمزم نعمةٌ من الله باقيةٌ منذ عهد نبيّ الله إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمّه هاجر. وقد أعاد جدّ رسول الله ﷺ، عبد المطّلب، حفر البئر بعد أن طُمرت قرونًا. واليوم يشرب حفيده من مائها في الحجّة التي كمل بها الدين.

أيّام التشريق في منى

ورجع رسول الله ﷺ إلى منى، فأقام بها **أيّام التشريق** (الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجّة). وقال الله تعالى في هذه الأيّام:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة ٢: ٢٠٣) – تفسير ابن كثير ٢: ٢٠٣.

وفي كلّ يومٍ من أيّام التشريق، بعد الزوال، **تُرمى الجمرات الثلاث**: الجمرة الصغرى (الأولى)، ثمّ الوسطى، ثمّ جمرة العقبة، كلّ واحدةٍ بسبع حصيات. وكان ابن عمر رضى الله عنهما، وهو شديد التحرّي للسنّة، يرمي الجمرة الأولى ثمّ يتقدّم حتّى يُسْهِل، **فيقوم طويلًا مستقبل القبلة رافعًا يديه يدعو**، ثمّ يفعل مثل ذلك بعد الوسطى، ولا يقف عند جمرة العقبة، ويقول: «هكذا رأيت النبيّ ﷺ يفعله» (صحيح البخاري ١٧٥١).

واستأذن عمّه **العبّاس** رضى الله عنه أن يبيت بمكّة ليالي منى من أجل سقايته، **فأذن له** (صحيح البخاري ١٦٣٤). ومن هنا أخذ العلماء الرخصة لأصحاب الأعمال التي فيها مصلحة الحجيج.

والآية نفسها خيّرت: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. وأقام رسول الله ﷺ نفسه إلى اليوم الثالث (الثالث عشر من ذي الحجّة)، ثمّ نفر إلى الأبطح (المحصَّب) بطرف مكّة.

من كتب السيرة: سورة النصر وأيّام التشريق

وذكرت بعض الروايات في كتب التفسير أنّ **سورة النصر** – ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ – نزلت بمنى في أيّام التشريق من حجّة الوداع، وأنّ رسول الله ﷺ فهم منها دنوّ أجله.

وروايات زمن نزولها ومكانه **في أسانيدها كلام** عند أهل الحديث. والصحيح تفسير ابن عبّاس رضى الله عنهما بحضرة عمر أنّ هذه السورة **إشارةٌ إلى دنوّ أجل رسول الله** ﷺ (صحيح البخاري ٤٩٧٠).

المرجع:

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، سورة النصر. https://tafsir.app/ibn-katheer/110/1

خطبة يوم النحر

وكما خطب بعرفة، خطب رسول الله ﷺ بمنى **يوم النحر**. يحكي ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّه قال: «**يا أيّها الناس، أيُّ يومٍ هذا؟**» قالوا: «يومٌ حرام». قال: «فأيّ بلدٍ هذا؟» قالوا: «بلدٌ حرام». قال: «فأيّ شهرٍ هذا؟» قالوا: «شهرٌ حرام». (صحيح البخاري ١٧٣٩(

ثمّ قال: «**فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا**». فأعادها مرارًا، ثمّ رفع رأسه فقال: «**اللهمّ هل بلّغت؟ اللهمّ هل بلّغت؟**» قال ابن عبّاس: «فوالذي نفسي بيده، إنّها لوصيّته إلى أمّته».

وختم الخطبة بقوله: «**فليبلّغ الشاهدُ الغائبَ، لا ترجعوا بعدي كفّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**» (صحيح البخاري ١٧٣٩). ووصيّة «**فليبلّغ الشاهدُ الغائبَ**» هي سبب وصول هذا العلم إلينا اليوم.

وستُجمع مضامين خطب حجّة الوداع – بعرفة، وبمنى يوم النحر، وفي أيّام التشريق – وتُشرح شرحًا أوفى في **الحلقة ٢٩: خطبة الوداع**، إن شاء الله. وهناك سنرى كيف صارت هذه الخطب **ميثاقًا لحقوق الإنسان** سبق زمانه.

عمرة عائشة وحيض صفيّة

أتذكرون بكاء عائشة رضى الله عنها بسَرِف؟ لقد طهرت وأدّت الحجّ، لكنّها حزنت لأنّ الناس يرجعون **بحجٍّ وعمرة**، وقد صارت عمرتها حجًّا بسبب الحيض. فأمر رسول الله ﷺ أخاها **عبد الرحمن بن أبي بكر** أن يخرج بها إلى **التنعيم**، فأحرمت واعتمرت بعد الحجّ (صحيح البخاري ١٧٨٥).

لم يقل رسول الله ﷺ: «يكفيكِ، فحجّكِ صحيح»، بل **حقّق رغبة زوجته** التي أرادت أن ترجع بمثل أجر غيرها. والموضع الذي أحرمت منه يُعرف اليوم بـ**مسجد عائشة** بالتنعيم، ومنه يُحرم كثيرٌ من أهل مكّة بالعمرة إلى اليوم.

وزوجه الأخرى **صفيّة بنت حُيَيّ** رضى الله عنها حاضت قبيل يوم النفر. فلمّا أُخبر رسول الله ﷺ قال: «**أحابستُنا هي؟**» قالوا: إنّها **قد أفاضت**. قال: «**فلا إذًا**» (صحيح البخاري ١٧٥٧)

وتدلّ القصّتان على **عناية رسول الله ﷺ بأحوال النساء** في الحجّ. فأحكام الحائض في الحجّ – أنّها تفعل المناسك كلّها إلّا الطواف، ويسقط عنها طواف الوداع إن كانت قد طافت للإفاضة – كلّها مأخوذةٌ من هذه الوقائع.

طواف الوداع

وقبل أن يغادر مكّة طاف رسول الله ﷺ **طواف الوداع** سَحَرًا، ثمّ خرج راجعًا إلى المدينة. وذكر ابن عبّاس رضى الله عنهما حكمه:

الحديث – صحيح البخاري، رقم ١٧٥٥

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ أُمِرَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِمْ بِالْبَيْتِ، إِلاَّ أَنَّهُ خُفِّفَ عَنِ الْحَائِضِ.

السند رواه الإمام البخاري: عن مسدَّد بن مُسَرْهَد، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه طاوس بن كيسان، عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ، باب طواف الوداع، حديث رقم ١٧٥٥؛ وأخرجه مسلم برقم ١٣٢٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1755

دروسٌ من هذا الحديث

وطواف الوداع يجعل **آخر عهد الحاجّ بالبيت.** فالضيف المتأدّب لا يغادر بيت مضيفه دون أن يودّعه. وكذلك يغادر الحاجّ بيت الله: بطوافٍ ودعاءٍ وقلبٍ يثقل عليه الفراق.

والرخصة للحائض، كما في قصّة صفيّة، تدلّ مرّةً أخرى على أنّ **الشريعة لا تكلّف الناس فوق طاقتهم.** فلا تحتاج المرأة إلى الانتظار أيّامًا أو حبس الركب كلّه.

وكان هذا الطواف لرسول الله ﷺ **طوافَ وداعٍ** حقًّا؛ فلن يرى الكعبة بعده. البيت الذي بناه جدّه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وطهّره هو من الأصنام، وصار قبلة الأمّة كلّها – تركه للمرّة الأخيرة في ذلك الصباح.

العودة إلى المدينة وغدير خُمّ

وفي طريق العودة نزل الركب بماءٍ يُدعى **خُمًّا**، بين مكّة والمدينة. ويحكي **زيد بن أرقم** رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قام خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكّر، ثمّ قال: «**أمّا بعد، ألا أيّها الناس، فإنّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسولُ ربّي فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلين: أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به... وأهلُ بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي**»، ثلاث مرّات (صحيح مسلم ٢٤٠٨).

وفي روايةٍ أخرى قال في عليّ رضى الله عنه :«**من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه**» (جامع الترمذي ٣٧١٣ – صحيح). وبيّن علماء أهل السنّة أنّ **الموالاة** هنا معناها **المحبّة والنصرة**. وكان بُرَيدة رضى الله عنه قد شكا عليًّا قبل ذلك في شأن الخُمُس باليمن، فقال رسول الله ﷺ :«**لا تُبغضه، فإنّ له في الخمس أكثر من ذلك**» (صحيح البخاري ٤٣٥٠).

فوصيّة غدير خمّ تتضمّن أمانتين: **التمسّك بكتاب الله، وإكرام أهل بيت رسول الله** ﷺ. ومحبّة آل البيت – عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين وأهله – من الإيمان، بلا غلوٍّ ولا انتقاصٍ لسائر الصحابة. والأمانتان تُكمّل إحداهما الأخرى.

ومضى الركب إلى المدينة. فلمّا رآها كبّر ودعا كعادته إذا قفل من سفر. ورجع إلى المدينة في أواخر ذي الحجّة سنة عشرٍ من الهجرة – وفي **أقلّ من ثلاثة أشهر** سيفارق الدنيا (الحلقة ٣٠).

الإفراد والقِران والتمتّع: كيف حجّ رسول الله ﷺ؟

ذكر الفصل ١٣ بإيجازٍ الأنساكَ الثلاثة المستفادة من حجّة الوداع، وهذا الفصل يبسطها أكثر، لأنّها أكثر سؤالٍ يطرحه من يعتزم الحجّ: بأيّ نسكٍ أُحرم؟ وبأيّ نسكٍ حجّ رسول الله ﷺ نفسه؟

النوع	الطريقة	الهدي (الدم)	الدليل الأساسي
الإفراد	الإحرام بالحجّ وحده؛ والعمرة (إن شاء) بعد الحجّ	لا يجب	صحيح مسلم ١٢١١ (عائشة: ومنّا من أهلّ بالحجّ)
القِران	الإحرام بالحجّ والعمرة معًا؛ والبقاء محرمًا إلى يوم النحر	يجب	صحيح مسلم ١٢٥١؛ صحيح البخاري ١٥٣٤
التمتّع	العمرة أوّلًا في أشهر الحجّ، ثمّ التحلّل، ثمّ الإحرام بالحجّ يوم الثامن من ذي الحجّة	يجب	البقرة ٢: ١٩٦؛ صحيح مسلم ١٢١٨

وقد ذكر القرآن نفسه التمتّع: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ – تفسير ابن كثير ٢: ١٩٦.

أدلّة حجّ رسول الله ﷺ

قال أنس بن مالك رضى الله عنه: «سمعتُ رسول الله ﷺ يُلبّي بالحجّ والعمرة جميعًا، يقول: لبّيك عمرةً وحجًّا» (صحيح مسلم ١٢٥١).

وروى عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال وهو بوادي العقيق: «أتاني الليلةَ آتٍ من ربّي فقال: صلِّ في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرةٌ في حجّة» (صحيح البخاري ١٥٣٤).

وفي المقابل روت عائشة رضى الله عنها أنّ رسول الله ﷺ «أهلّ بالحجّ» (صحيح مسلم ١٢١١)، وبهذه الرواية أخذ من قال إنّه حجّ مُفرِدًا.

فائدة فقهيّة: اختلاف العلماء

اختلف العلماء في نسك رسول الله ﷺ. وذهب كثيرٌ من المحقّقين، منهم النووي في شرح صحيح مسلم، وابن تيميّة، وابن القيّم في زاد المعاد، إلى أنّه حجّ قارنًا، لأنّه ساق الهدي ولم يحلّ إلى يوم النحر. وحُملت روايات الإفراد على ابتداء إحرامه أو على أعمال الحجّ نفسها.

واختلفت المذاهب في الأفضل للأمّة: فالحنفيّة يفضّلون القِران، والمالكيّة والشافعيّة يفضّلون الإفراد (بشروطٍ عند الشافعيّة)، والحنابلة يفضّلون التمتّع، استنادًا إلى قول رسول الله ﷺ: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لم أَسُق الهدي، ولجعلتُها عمرة» (صحيح مسلم ١٢١٨).

والأنساك الثلاثة صحيحةٌ بالإجماع. وأكثر حجّاج ماليزيا اليوم يحجّون متمتّعين لأنّهم يصلون إلى الحرمين مبكّرين. ويُنصح من يعتزم الحجّ باتّباع إرشاد دورات الحجّ في «تابونغ حجّي» والمذهب الذي يتّبعه.

المراجع: صحيح مسلم ١٢٥١؛ صحيح البخاري ١٥٣٤؛ صحيح مسلم ١٢١١؛ ابن القيّم، زاد المعاد؛ النووي، شرح صحيح مسلم.

العبرة

حجّةٌ واحدةٌ لرسول الله ﷺ أثمرت ثلاثة أنساكٍ صحيحة. وفي هذا سعة الشريعة: فالله لم يحصر العبادة في صورةٍ واحدة، والخلاف المبنيّ على الدليل يُحترم، ولا يُجعل سببًا للنزاع.

أعلام حجّة الوداع

شارك عشرات الآلاف في حجّة الوداع، لكنّ أسماءً معيّنة تتكرّر في الروايات الصحيحة. ويجمعهم هذا الجدول مع قبائلهم وصلاتهم ومصادرهم.

العَلَم	القبيلة / الصلة	دوره في القصّة	المصدر
جابر بن عبد الله	الأنصار، الخزرج (بنو سَلِمة)	راوي أطول حديثٍ في صفة حجّ رسول الله ﷺ	صحيح مسلم ١٢١٨
عائشة بنت أبي بكر	قريش، بنو تيم؛ زوج رسول الله ﷺ	حاضت بسَرِف؛ اعتمرت من التنعيم بعد الحجّ	صحيح البخاري ٣٠٥، ١٧٨٥
سودة بنت زمعة	قريش، بنو عامر بن لؤيّ؛ زوج رسول الله ﷺ	أذن لها في الدفع مبكّرةً من مزدلفة	صحيح البخاري ١٦٨١
صفيّة بنت حُيَيّ	بنو النضير؛ زوج رسول الله ﷺ	حاضت قبل النفر؛ سقط عنها طواف الوداع	صحيح البخاري ١٧٥٧
فاطمة بنت محمّد	بنت رسول الله ﷺ؛ زوج عليّ	تحلّلت بعد العمرة	صحيح مسلم ١٢١٨
عليّ بن أبي طالب	قريش، بنو هاشم؛ ابن عمّ وصهر رسول الله ﷺ	قدم من اليمن ومعه الهدي	صحيح مسلم ١٢١٨
العبّاس بن عبد المطّلب	بنو هاشم؛ عمّ رسول الله ﷺ	أذن له في المبيت بمكّة من أجل السقاية	صحيح البخاري ١٦٣٤
الفضل بن العبّاس	بنو هاشم؛ ابن عمّ رسول الله ﷺ	كان رديفه من مزدلفة إلى منى	صحيح البخاري ١٥٤٤، ١٥١٣
أسامة بن زيد	كلب (نسبًا)؛ ابن زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ	كان رديفه من عرفة إلى مزدلفة؛ وأظلّه بثوبه	صحيح البخاري ١٥٤٤؛ صحيح مسلم ١٢٩٨

العَلَم	القبيلة / الصلة	دوره في القصّة	المصدر
بلال بن رباح	أصله من الحبشة؛ أعتقه أبو بكر	أذّن بعرفة؛ وأمسك بخطام ناقته	صحيح مسلم ١٢١٨، ١٢٩٨
أمّ الحُصَين الأحمسيّة	بَجيلة (أحمس)	شهدت رميه جمرة العقبة وروته	صحيح مسلم ١٢٩٨
أبو طلحة الأنصاري	الأنصار، الخزرج (بنو النجّار)	أعطاه رسول الله ﷺ شعره بعد الحلق ليقسمه	صحيح مسلم ١٣٠٥
أسماء بنت عُمَيس	خثعم؛ زوج أبي بكر	ولدت محمّد بن أبي بكر بذي الحليفة	صحيح مسلم ١٢١٨
عبد الرحمن بن أبي بكر	قريش، بنو تيم؛ أخو عائشة	خرج بعائشة إلى التنعيم لتعتمر	صحيح البخاري ١٧٨٥
امرأة من خثعم	خَثْعَم	سألت عن الحجّ عن أبيها الشيخ الكبير	صحيح البخاري ١٥١٣

ردف رسولَ الله ﷺ شابّان في مرحلتين من الطريق: أسامة من عرفة إلى مزدلفة، والفضل من مزدلفة إلى منى (صحيح البخاري ١٥٤٤). وحكت أمّ الحصين أنّه لمّا رمى جمرة العقبة كان أحد الرجلين، أسامة وبلال، آخذًا بخطام ناقته، والآخر رافعًا ثوبه يستره من الحرّ (صحيح مسلم ١٢٩٨).

وبعد الحلق دفع رسول الله ﷺ شعره إلى أبي طلحة الأنصاري ليقسمه بين الناس (صحيح مسلم ١٣٠٥). وظهر حبّ الصحابة له حتّى صارت الشعرة الواحدة عندهم ذات قيمة.

المراجع: صحيح البخاري ١٥٤٤؛ صحيح مسلم ١٢٩٨؛ صحيح مسلم ١٣٠٥؛ ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة.

العبرة

في ركبٍ واحد اجتمع أهل البيت، والزوجات، والموالي، والأنصار، ونساءٌ من قبائل بعيدة، وشباب. وكلٌّ منهم نال مكانه وعناية رسول الله ﷺ. فالحجّ يجمع الناس بلا اعتبارٍ للمراتب.

أسئلة الحجيج والتيسير في الحجّ

وطوال حجّة الوداع كان الناس يأتون رسول الله ﷺ يسألونه عن أحوالهم. وقد حكى الفصل ٢٦ أسئلة يوم النحر، وهذا الفصل يجمع أسئلةً أخرى صارت أجوبتها أصلًا للأحكام إلى اليوم.

الحجّ عن الأب العاجز

روى ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّ امرأةً من خثعم جاءت عام حجّة الوداع فقالت: «يا رسول الله، إنّ فريضة الله على عباده في الحجّ أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحجّ عنه؟» قال: «نعم». (صحيح البخاري ١٥١٣)

وهذا الحديث دليلٌ على حجّ البدل: الحجّ عمّن عجز لعذرٍ دائم أو مات، ويشترط الشافعيّة والحنابلة أن يكون النائب قد حجّ عن نفسه أوّلًا.

حجّ الصبيّ

وروى ابن عبّاس أنّ رسول الله ﷺ لقي ركبًا بالرَّوحاء، فرفعت إليه امرأةٌ صبيًّا فقالت: «ألهذا حجّ؟» قال: «نعم، ولكِ أجر». (صحيح مسلم ١٣٣٦)

وبيّن العلماء أنّ حجّ الصبيّ صحيحٌ مأجور، لكنّه لا يُسقط حجّة الإسلام؛ فعليه أن يحجّ إذا بلغ واستطاع.

الحجّ مرّةً في العمر

روى أبو هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيّها الناس، قد فرض الله عليكم الحجّ فحجّوا». فقال رجل: «أكلَّ عامٍ يا رسول الله؟» فسكت حتّى قالها ثلاثًا، ثمّ قال: «لو قلتُ نعم لوجبت، ولما استطعتم». (صحيح مسلم ١٣٣٧)

من مات وهو محرم

روى ابن عبّاس أنّ رجلًا كان واقفًا بعرفة فوقع عن راحلته فمات، فقال رسول الله ﷺ: «اغسلوه بماءٍ وسدر، وكفّنوه في ثوبيه، ولا تُحنّطوه، ولا تُخمّروا رأسه، فإنّه يُبعث يوم القيامة مُلبّيًا». (صحيح البخاري ١٢٦٥)

وفي كلّ عامٍ يموت بعض الحجّاج في البلد الحرام، وهذا الحديث يطمئن أهليهم: فالموت في الإحرام خاتمةٌ كريمة.

فائدة: تيسيراتٌ أخرى في هذه الحلقة

وقد مرّت تيسيراتٌ أخرى في الفصول السابقة: النفساء تمضي في إحرامها (الفصل ٤)، والحائض تفعل المناسك كلّها إلّا الطواف (الفصل ٨)، والضعفة يدفعون مبكّرين من مزدلفة (الفصل ٢١)، والحائض التي طافت للإفاضة يسقط عنها طواف الوداع (الفصل ٣٠).

المراجع: صحيح البخاري ١٥١٣؛ صحيح مسلم ١٣٣٦؛ صحيح مسلم ١٣٣٧؛ صحيح البخاري ١٢٦٥.

العبرة

كان رسول الله ﷺ يجيب عن كلّ سؤالٍ بما ييسّر، ويكره السؤال الذي يزيد العبء. فشريعة الحجّ مبنيّةٌ على الاستطاعة: العاجز يُناب عنه، والصبيّ يُؤجَر، والفريضة مرّةٌ واحدةٌ في العمر.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

مواضع حجّة الوداع: بين الأمس واليوم

تكاد كلّ المواضع التي نزلها رسول الله ﷺ في حجّة الوداع باقيةً يزورها الملايين كلّ عام. ويربط هذا الجدول بين مواضع هذه القصّة وحالها اليوم.

المكان	الحدث في حجّة الوداع	حاله اليوم
ذو الحُلَيفة	الميقات؛ الصلاة وبدء التلبية؛ ولادة أسماء (الفصل ٤)	يُعرف بأبيار علي؛ مسجد الميقات (مسجد الشجرة) على نحو ١٤ كم من المسجد النبويّ
البَيداء	التلبية حين استوت به الناقة (الفصل ٤)	أرضٌ مرتفعة قرب ذي الحليفة
سَرِف	حاضت عائشة (الفصل ٨)	قرب التنعيم، شمال مكّة
المسجد الحرام	الطواف والسعي وطواف الإفاضة (الفصول ٩–١٢، ٢٧)	وُسّع مرّاتٍ عديدة؛ والمسعى اليوم متعدّد الطوابق
منًى	يوم التروية؛ أيّام التشريق (الفصلان ١٥، ٢٨)	مدينة الخيام؛ مسجد الخَيف
نَمِرة ووادي عُرَنة	قبّته؛ خطبة عرفة (الفصلان ١٦–١٧)	مسجد نمرة؛ جزءٌ من بنائه في وادي عرنة خارج حدود عرفة، وهو مُعلَّمٌ بلوحات
عرفة	الوقوف؛ ونزول الآية ٥: ٣ (الفصلان ١٨–١٩)	جبل الرحمة؛ والحدود مُعلَّمة
مزدلفة والمشعر الحرام	المبيت والذكر (الفصلان ٢١–٢٢)	مسجد المشعر الحرام
وادي مُحَسِّر	أسرع في سيره (الفصل ٢٢)	مُعلَّمٌ بين مزدلفة ومنى
جمرة العقبة والجمرات	الرمي (الفصلان ٢٣، ٢٨)	جسر الجمرات ذو الطوابق الخمسة، بُني بعد هدم الجسر القديم سنة ٢٠٠٦
التنعيم	عمرة عائشة (الفصل ٣٠)	مسجد عائشة؛ ميقات أهل مكّة للعمرة

المكان	الحدث في حجّة الوداع	حاله اليوم
غدير خُمّ	خطبةٌ في طريق العودة (الفصل ٣٢)	قرب الجُحفة، بين مكّة والمدينة

ولجسر الجمرات اليوم خمسة طوابق، وأُسُسه مصمّمة لتحمل حتّى اثني عشر طابقًا. وأمّا مسجد نمرة فتبلغ مساحته نحو ١١٠٬٠٠٠ متر مربّع، ويتّسع لأكثر من ٤٠٠٬٠٠٠ مصلٍّ. وفي داخله لوحاتٌ تبيّن حدود عرفة، لأنّ جزءًا من المسجد في وادي عُرَنة – الوادي الذي جاء في روايةٍ في الموطّأ وسنن ابن ماجه استثناؤه من موضع الوقوف.

المراجع: سعود يبيديا، «ميقات ذي الحليفة»؛ سعود يبيديا، «كم عدد طوابق جسر الجمرات؟»؛ اكتشف مكّة، «مسجد نمرة»؛ ويكيبيديا، «مسجد نمرة».

العبرة

لقد تغيّرت ملامح مواضع الحجّ اليوم، لكنّ المناسك باقيةٌ كما علّمها رسول الله ﷺ. والحاجّ الذي يعرف تاريخ كلّ موضعٍ يشعر كأنّه يتبع خطاه خطوةً خطوة.

الخطّ الزمني يومًا بيوم

يرتّب هذا الجدول رحلة حجّة الوداع يومًا بيوم، اعتمادًا على حديث جابر (صحيح مسلم ١٢١٨) وروايات أخرى. وبعض التواريخ تقديرٌ من أهل السيرة، وقد أُشير إلى ذلك.

التاريخ (١٠ هـ)	الحدث	المصدر
٢٥ ذو القعدة	الخروج من المدينة بعد الظهر؛ صلاة العصر ركعتين بذي الحليفة والمبيت بها	صحيح البخاري ١٥٤٥؛ كتب السيرة
٢٦ ذو القعدة	الإحرام والتلبية؛ ولادة أسماء بنت عُمَيس	صحيح مسلم ١٢١٨
نحو ٣ ذي الحجّة	حاضت عائشة بسَرِف	صحيح البخاري ٣٠٥
٤ ذو الحجّة	دخول مكّة؛ الطواف والسعي؛ وتحلّل من لم يسق الهدي	صحيح البخاري ١٥٤٥؛ صحيح مسلم ١٢١٨
٥–٧ ذو الحجّة	أقام بالأبطح؛ وقدم عليّ من اليمن	صحيح مسلم ١٢١٨
٨ ذو الحجّة (التروية)	إلى منى؛ صلّى بها الظهر إلى فجر الغد	صحيح مسلم ١٢١٨
٩ ذو الحجّة (الجمعة)	نمرة؛ الخطبة في وادي عرنة؛ جمع الظهر والعصر؛ الوقوف حتّى غروب الشمس؛ نزول المائدة ٥: ٣	صحيح مسلم ١٢١٨؛ صحيح البخاري ٤٥
ليلة ١٠ ذي الحجّة	مزدلفة: جمع المغرب والعشاء، والنوم حتّى الفجر	صحيح مسلم ١٢١٨
١٠ ذو الحجّة (النحر)	المشعر الحرام، وادي محسّر، جمرة العقبة، النحر، الحلق، طواف الإفاضة، خطبة يوم النحر	صحيح مسلم ١٢١٨؛ صحيح البخاري ١٧٣٩
١١–١٣ ذو الحجّة (التشريق)	رمي الجمرات الثلاث بعد الزوال	صحيح البخاري ١٧٥١
١٣ ذو الحجّة	النفر من منى والنزول بالمحصَّب (الأبطح)	كتب السيرة

التاريخ (١٠ هـ)	الحدث	المصدر
ليلة ١٤ ذي الحجّة	عمرة عائشة من التنعيم	صحيح البخاري ١٧٨٥
١٤ ذو الحجّة	طواف الوداع والرجوع إلى المدينة	صحيح البخاري ١٧٥٥
١٨ ذو الحجّة	الخطبة بغدير خمّ (التاريخ عند أهل السيرة)	صحيح مسلم ٢٤٠٨؛ كتب السيرة
أواخر ذي الحجّة	الوصول إلى المدينة	كتب السيرة

العبرة

استغرقت حجّة الوداع كلّها نحو شهر، وكلّ يومٍ منها مملوءٌ بالعبر. والحاجّ اليوم إذا فهم هذا الترتيب كان أكثر طمأنينة، لأنّه يعرف ما يفعل في كلّ يوم ولماذا.

أسئلةٌ شائعة عن حجّة الوداع

١. لماذا سُمّيت هذه الحجّة حجّة الوداع؟

لأنّ رسول الله ﷺ كأنّه ودّع الأمّة فيها، وتُوفّي بعدها بنحو ثلاثة أشهر (صحيح البخاري ٤٤٠٢؛ الفصل ٢).

٢. كم مرّةً حجّ رسول الله ﷺ بعد الهجرة؟

مرّةً واحدة، وهي حجّة الوداع سنة ١٠ هـ (الفصل ١).

٣. بأيّ نسكٍ حجّ رسول الله ﷺ؟

أكثر المحقّقين على أنّه حجّ قارنًا، لأنّه ساق الهدي ولبّى بالعمرة والحجّ؛ وقال بعضهم: مفردًا (صحيح مسلم ١٢٥١، ١٢١١؛ الفصل ٣٣).

٤. كم كان عدد الحجّاج في حجّة الوداع؟

لا يوجد عددٌ في الحديث الصحيح. وتذكر كتب السيرة تقديراتٍ مثل تسعين ألفًا ومئةٍ وأربعة عشر ألفًا؛ والثابت أنّهم كانوا كثيرين جدًّا (صحيح مسلم ١٢١٨؛ الفصل ٧).

٥. متى نزلت آية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؟

عشيّة يوم عرفة، يوم الجمعة، ورسول الله ﷺ واقفٌ بعرفة (صحيح البخاري ٤٥؛ الفصل ١٨).

٦. ما معنى «لتأخذوا مناسككم»؟

كلّ فعلٍ من أفعال حجّ رسول الله ﷺ قدوةٌ تُتّبع. وقالها وهو يرمي جمرة العقبة (صحيح مسلم ١٢٩٧؛ الفصل ٢٣).

٧. هل يجوز الحجّ عن الوالدين؟

نعم، إذا كان الوالد عاجزًا عجزًا دائمًا أو ميّتًا، وبشرط (عند الشافعيّة والحنابلة) أن يكون النائب قد حجّ عن نفسه (صحيح البخاري ١٥١٣؛ الفصل ٣٥).

٨. هل يصحّ حجّ الصبيّ؟

يصحّ ويُؤجَر عليه، لكن تجب عليه حجّة الإسلام إذا بلغ واستطاع (صحيح مسلم ١٣٣٦؛ الفصل ٣٥).

٩. ماذا لو اختلّ ترتيب المناسك يوم النحر؟

أجاب رسول الله ﷺ من قدّم شيئًا أو أخّره: «افعل ولا حرج» (صحيح البخاري ١٧٣٦؛ الفصل ٢٦).

١٠. هل تحجّ الحائض؟

نعم؛ تفعل المناسك كلّها إلّا الطواف حتّى تطهر، ويسقط عنها طواف الوداع إن كانت قد طافت للإفاضة (صحيح البخاري ٣٠٥، ١٧٥٧؛ الفصلان ٨، ٣٠).

١١. أين خطب رسول الله ﷺ يوم عرفة؟

في وادي عرنة، قرب موضع مسجد نمرة اليوم (صحيح مسلم ١٢١٨؛ الفصلان ١٧، ٣٦). ومضمون الخطبة مشروحٌ في الحلقة ٢٩.

١٢. كم بدنةً أهدى رسول الله ﷺ؟

مئة بدنة؛ نحر بيده ثلاثًا وستّين، ونحر عليٌّ ما بقي (صحيح مسلم ١٢١٨؛ الفصل ٢٤).

العبرة

لن تنتهي أسئلة الحجّ، لكنّ أجوبتها ترجع إلى مصدرٍ واحد: ما فعله رسول الله ﷺ وعلّمه. وتلك وصيّته في حجّة الوداع هذه.

الدروس والخاتمة

ليست حجّة الوداع عبادةً فحسب، بل هي **أكبر درسٍ مفتوح** في تاريخ الإسلام، علّم فيه رسول الله ﷺ عشرات الآلاف مباشرةً. ويمكن تلخيص مناسكه فيما يلي:

التاريخ والمكان	عمل رسول الله ﷺ
٢٥ ذو القعدة، ذو الحليفة	الغسل، الإحرام، الصلاة، التلبية
٤ ذو الحجّة، مكّة	طواف القدوم (الرَّمَل)، الصلاة عند المقام، السعي
٨ ذو الحجّة، منى	خمس صلوات، قصرًا بلا جمع
٩ ذو الحجّة، عرفة	الخطبة، جمع الظهر والعصر، الوقوف حتّى المغرب
ليلة ١٠، مزدلفة	جمع المغرب والعشاء، النوم، الفجر في أوّل وقته
١٠ ذو الحجّة، منى	رمي العقبة، النحر، الحلق، الخطبة
١٠ ذو الحجّة، مكّة	طواف الإفاضة، الشرب من زمزم
١١–١٣ ذو الحجّة، منى	رمي الجمرات الثلاث، والدعاء الطويل
١٤ ذو الحجّة، مكّة	طواف الوداع، الرجوع إلى المدينة

ومن هذه الرحلة نستخلص الدروس الآتية:

العبرة	من هذه الحلقة
اتّباع السنّة	«لتأخذوا مناسككم»
التوحيد الخالص	التلبية، الصفا، مقام إبراهيم
العبادة لا الخرافة	عمر والحجر الأسود
المساواة	الجميع وقفوا بعرفة، وأسامة رديفه
التيسير	«افعل ولا حرج»

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

العبرة	من هذه الحلقة
السكينة	«أيّها الناس، السكينةَ السكينةَ»
العناية بالنساء	عائشة، أسماء، سودة، صفيّة
كمال الدين	المائدة ٥: ٣ بعرفة

الحجّ في حياتنا

ليس كلّ أحدٍ قادرًا على الحجّ، لكنّ كلّ مسلمٍ يستطيع أن يحمل **روح الحجّ** في حياته: أن يجيب نداء الله بـ«لبّيك»، ويوحّده في كلّ أمر، ويحفظ لسانه من الجدال، ويسكن في زحام الحياة، **ويقتدي برسول الله** ﷺ في عبادته. ومن استطاع فلا يؤخّره.

إن شاء الله، تستمرّ سلسلة **السيرة النبويّة مع الحلقة ٢٩ – خطبة الوداع**: شرحٌ وافٍ لخطب رسول الله ﷺ بعرفة ومنى – حرمة الدماء والأموال والأعراض، ووضع ربا الجاهليّة ودمائها، وحقوق النساء، والمساواة بين الناس، والوصيّة بالاعتصام بكتاب الله. والله أعلم.

المراجع — الْحَلْقَةُ ٢٨

القرآن الكريم والتفسير

القرآن الكريم، بالرسم العثماني. https://quran.com/ms

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (البقرة ٢: ١٢٥، ٢: ١٥٨، ٢: ١٩٧–٢٠٣؛ آل عمران ٣: ٩٧؛ المائدة ٥: ٣؛ الحجّ ٢٢: ٢٧–٣٧؛ النصر). https://tafsir.app/ibn-katheer/5/3

الطبري، جامع البيان — تفسير المائدة ٥: ٣.

الحديث الشريف

صحيح البخاري ٤٥، ٣٠٥، ١٥٢١، ١٥٤٥، ١٥٤٩، ١٥٥٧، ١٥٩٧، ١٦٣٤، ١٦٧١، ١٦٨١، ١٦٨٤، ١٧٢٧، ١٧٣٦، ١٧٣٩، ١٧٥١، ١٧٥٥، ١٧٥٧، ١٧٧٣، ١٧٨٥، ٤٣٥٠، ٤٤٠٢، ٤٩٧٠. https://sunnah.com/bukhari

صحيح مسلم ١١٦٢، ١٢١٨، ١٢٩٧، ١٣٠٥، ١٣٤٨، ٢٤٠٨. https://sunnah.com/muslim

جامع الترمذي ٨٨٩، ٣٧١٣؛ سنن ابن ماجه ٣٠٢٩. https://sunnah.com

كتب السيرة والشروح

ابن هشام، السيرة النبويّة (برواية ابن إسحاق) — باب حجّة الوداع.

ابن القيّم، زاد المعاد في هدي خير العباد — فصل حجّ رسول الله ﷺ.

النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم — شرح حديث جابر (رقم ١٢١٨).

ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري — كتاب الحجّ.

محمّد ناصر الدين الألباني، حجّة النبيّ ﷺ كما رواها عنه جابر.

ابن كثير، البداية والنهاية؛ صفيّ الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم.

التاريخ العامّ

ويكيبيديا، «حجّة الوداع». https://en.wikipedia.org/wiki/Farewell_Pilgrimage

ويكيبيديا، «الحج». https://en.wikipedia.org/wiki/Hajj

ويكيبيديا، «يوم عرفة». https://en.wikipedia.org/wiki/Day_of_Arafah

ويكيبيديا، «مزدلفة». https://en.wikipedia.org/wiki/Muzdalifah

ويكيبيديا، «منى». https://en.wikipedia.org/wiki/Mina,_Saudi_Arabia

ويكيبيديا، «غدير خم». https://en.wikipedia.org/wiki/Ghadir_Khumm

أحاديث ومصادر إضافية

صحيح مسلم ١٢٥١ (التلبية بالعمرة والحجّ). https://sunnah.com/muslim:1251a

صحيح البخاري ١٥٣٤ (وادي العقيق: عمرةٌ في حجّة). https://sunnah.com/bukhari:1534

صحيح البخاري ١٥٤٤ (إرداف أسامة والفضل). https://sunnah.com/bukhari:1544

صحيح مسلم ١٢٩٨ (أمّ الحصين: رمي جمرة العقبة). https://sunnah.com/muslim:1298a

صحيح البخاري ١٥١٣ (الحجّ عن الأب العاجز). https://sunnah.com/bukhari:1513

صحيح مسلم ١٣٣٦ (حجّ الصبيّ). https://sunnah.com/muslim:1336a

صحيح مسلم ١٣٣٧ (الحجّ مرّةً في العمر). https://sunnah.com/muslim:1337

صحيح البخاري ١٢٦٥ (من مات محرمًا). https://sunnah.com/bukhari:1265

سعوديبيديا، «ميقات ذي الحليفة». https://saudipedia.com/en/miqat-dhu-al-hulayfah

اكتشف مكّة، «مسجد نمرة». https://discovermakkah.sa/en/places-worth-visiting/the-grand-mosque-and-the-holy-sites/namira-mosque

الْجُزْءُ الثَّامِنُ

خُطْبَةُ الْوَدَاعِ

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ — الْحَلْقَةُ ٢٩

وَصَايَا رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَرَفَةَ وَمِنىً: حُرْمَةُ الْإِنْسَانِ، وَحُقُوقُ الْمَرْأَةِ، وَالْمُسَاوَاةُ، وَالْوَصِيَّةُ لِلْأُمَّةِ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

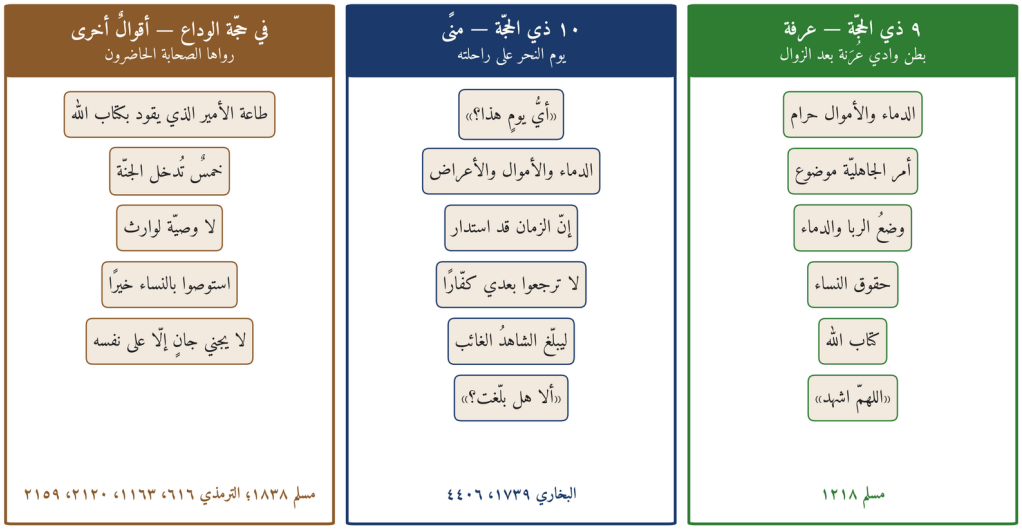
خطبة الوداع

تتبّعت الحلقة الثامنة والعشرون رسولَ الله ﷺ خطوةً خطوةً في حجّة الوداع — من المدينة إلى ذي الحُلَيفة، فمكّة، فمِنًى، فعرفة، فمزدلفة، ثمّ العودة. وفي أثناء تلك المناسك وقف مرّاتٍ عدّة **يخطب** عشرات الآلاف من الحجّاج. وهذه الخُطَب هي التي تُعرف بـ**خطبة الوداع**.

وتشرح هذه الحلقة مضمون تلك الخُطَب موضوعًا موضوعًا: **حُرمة الدماء والأموال والأعراض؛ ووضعُ الربا ودماء الجاهلية؛ وحقوق المرأة والأسرة؛ والنسب والوصيّة والدَّين؛ والاعتصام بكتاب الله؛ والمساواة والأخوّة**؛ والوصيّة الكبرى: «**لِيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ**».

لن نستعمل إلّا الألفاظ **الصحيحة أو الحسنة** من كتب الحديث. وهناك نصٌّ لـ«خطبة الوداع» منتشرٌ على هيئة خطبةٍ واحدةٍ طويلةٍ كاملة؛ بعضه صحيح، وبعضه من كتب السيرة بلا إسنادٍ قويّ. وسيتحقّق الفصل ٢٩ من تلك الألفاظ المشهورة واحدًا واحدًا.

خُطَب رسول الله ﷺ في حجّة الوداع



الرسم ١: خُطَب رسول الله ﷺ في حجّة الوداع.

ملاحظة: ترجمة آيات القرآن في هذا الكتاب ترجمة عبد الله محمّد بسميه في الأصل الملايوي، وأُثبتت هنا الآياتُ بلفظها العربيّ. ودرجة كلّ حديث مذكورة في إطار الحديث. والألفاظ المنسوبة إلى الخطبة في كتب السيرة بلا إسنادٍ قويّ موضوعة في الإطار البنّيّ «من كتب السيرة» مع بيان درجتها.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

خُطَب حجّة الوداع

يظنّ كثيرٌ من الناس أنّ خطبة الوداع خطبةٌ واحدة. والحقّ أنّ الأحاديث الصحيحة تدلّ على أنّ رسول الله ﷺ خطب **أكثر من مرّة** في تلك الحجّة. وأشهرها **خطبة عرفة** يوم التاسع من ذي الحجّة، في بطن وادي عُرَنة، بعد الزوال وقبل صلاة الظهر والعصر (صحيح مسلم ١٢١٨).

والخطبة الثانية **بمنًى يوم النحر** (العاشر من ذي الحجّة)، حين سأل: «أيُّ يومٍ هذا؟» (صحيح البخاري ١٧٣٩). وذكر أبو بكرة رضى الله عنه أنّه خطب على بعيره، وأمسك إنسانٌ بخِطامه (صحيح البخاري ٦٧). وذكر العلماء أيضًا خطبةً في **أيّام التشريق** بمنًى.

ثمّ إنّ الصحابة الذين شهدوا – جابرًا وأبا بكرة وابن عبّاس وابن عمر وجريرًا وأبا أمامة وعمرو بن الأحوص وأمَّ الحُصَين وغيرَهم كثيرًا – روى كلٌّ منهم **الجزءَ الذي سمعه**. فإذا جُمعت هذه الروايات تكوّنت صورةٌ كاملة لوصايا رسول الله ﷺ الأخيرة لأمّته.

لماذا خطب في هذه الأيّام؟ لأنّها كانت **أكبرَ مجمعٍ** للمسلمين في زمانه: ممثّلون عن كلّ قبيلةٍ تقريبًا في جزيرة العرب في مكانٍ واحد. وما يُبلَّغ هنا سيُحمل إلى أقاصي البلاد.

من أين نعرف هذه الخطبة؟

هذه أهمّ مصادر ألفاظ خطبة الوداع المستعملة في هذا الكتاب، مع رواتها ودرجاتها:

المصدر	الراوي وأهمّ المضمون
صحيح مسلم ١٢١٨	جابر – خطبة عرفة: الدماء، الأموال، الربا، النساء، كتاب الله
صحيح البخاري ٤٤٠٦، ٦٧	أبو بكرة – يوم النحر: استدارة الزمان، الحُرمة، التبليغ
صحيح البخاري ١٧٣٩	ابن عبّاس – «فواللهِ إنّها لَوصيّتُه إلى أمّته»
صحيح البخاري ١٢١	جرير – «لا ترجعوا بعدي كفّارًا»
صحيح مسلم ١٨٣٨	أمّ الحُصَين – طاعة الأمير الذي يقود بكتاب الله
الترمذي ١١٦٣، ٢١٥٩، ٣٠٨٧	عمرو بن الأحوص – النساء، الربا، لا يجني جانٍ إلّا على نفسه
الترمذي ٦١٦، ٢١٢٠	أبو أمامة – خمسة مفاتيح للجنّة، الوصيّة، النسب، الدَّين
مسند أحمد	رجلٌ من الصحابة – لا فضل لعربيّ على عجميّ

«استنصِتِ الناس»

كيف يبلغ صوتُ رجلٍ واحدٍ عشراتِ الآلاف من الناس بلا مكبّر للصوت؟ استعمل رسول الله ﷺ طريقين. الأوّل: أنّه طلب من الناس **الإنصات والاستماع**. روى جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال:

حديث – صحيح البخاري، رقم ١٢١

حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ مُدْرِكٍ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ جَرِيرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لَهُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ اسْتَنْصِتِ النَّاسَ فَقَالَ لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.

السند رواه الإمام البخاري: عن حجّاج بن منهال، عن شعبة بن الحجّاج، عن علي بن مُدرِك، عن أبي زُرعة بن عمرو بن جرير، عن جرير بن عبد الله البَجَلِيّ رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء، رقم ١٢١؛ وأيضًا رقم ٤٤٠٥، ومسلم رقم ٦٥.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:121

«أيُّ يومٍ هذا؟»

بمنًى يوم النحر افتتح رسول الله ﷺ خطبته بطريقةٍ عجيبة: **سأل سؤالًا يعرف الجميعُ جوابه.** روى أبو بكرة رضى الله عنه قال:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٤٠٦

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ الزَّمَانُ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاَثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، أَىُّ شَهْرٍ هَذَا قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ. قُلْنَا بَلَى. قَالَ فَأَىُّ بَلَدٍ هَذَا. قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ. قُلْنَا بَلَى. قَالَ فَأَىُّ يَوْمٍ هَذَا قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ. قُلْنَا بَلَى. قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ـ قَالَ مُحَمَّدٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَأَعْرَاضَكُمْ ـ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَسَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلاَ فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلاَّلاً، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ ـ فَكَانَ مُحَمَّدٌ إِذَا ذَكَرَهُ يَقُولُ صَدَقَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ قَالَ ـ أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ. مَرَّتَيْنِ.

السند رواه الإمام البخاري: عن محمّد بن المثنّى، عن عبد الوهّاب الثقفيّ، عن أيّوب السَّختيانيّ، عن محمّد بن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبي بكرة نُفَيع بن الحارث رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حجّة الوداع، رقم ٤٤٠٦، وأيضًا رقم ٦٧، ١٠٥، ١٧٤١، ٣١٩٧، ٤٦٦٢، ومسلم رقم ١٦٧٩.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4406

دروسٌ من هذا الحديث

تأمّل طريقته في التعليم: **سؤالٌ ثمّ سكوت.** أجاب الصحابة: «الله ورسوله أعلم»، فسكت حتّى ظنّوا أنّه سيسمّيه بغير اسمه. وهذا السكوت **يشدّ الانتباه** ويهيّئ العقل لتلقّي أمرٍ عظيم.

ثمّ ربط أمرًا **مسلَّمًا عندهم** – حرمة يوم النحر وشهر ذي الحجّة وبلد مكّة – بأمرٍ **ينبغي أن يُسلَّم به**: حرمة دم كلّ مسلم وماله وعرضه. لقد عظّم العرب ذلك اليوم والشهر والبلد زمنًا طويلًا، والآن يقول لهم: **الإنسان أعظم حرمةً من ذلك كلّه.**

تُعرف هذه الطريقة في التربية الحديثة بـ**ربط المعرفة الجديدة بالمعرفة السابقة.** وقد استعملها رسول الله ﷺ قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة، فكانت النتيجة أنّ كلامه حُفظ ورواه كثيرٌ من الصحابة بألفاظٍ متقاربة.

حُرمة النفس

أوّل ما ذُكر في خطبتي عرفة ومنًى **الدماء** – أي النفس الإنسانيّة. ففي الجاهليّة كانت النفس تُزهق بسبب ناقة، أو بيت شعر، أو ثأرٍ موروث. ويقال إنّ حرب البَسوس بين بكر وتغلب امتدّت عشرات السنين بسبب ناقة. فأعلن رسول الله ﷺ أنّ دم كلّ مسلم حرام كحرمة أعظم الأيّام والشهور والبلاد.

وقد قرّر القرآن هذا الأصل من قبل: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ (الإسراء ١٧: ٣٣) – تفسير ابن كثير ١٧: ٣٣.

بل جُعلت النفس الواحدة كالناس جميعًا: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (المائدة ٥: ٣٢) – تفسير ابن كثير ٥: ٣٢.

جعلت خطبةُ الوداع هذا الأصلَ القرآنيّ **قانونًا عامًّا** أُعلن أمام الأمّة كلّها. فلا تُؤخذ نفسٌ بعد اليوم بسبب قبيلةٍ أو منزلةٍ أو ثأر، ولا يحكم بالعقوبة إلّا **قضاءٌ عادل** قائمٌ على الشريعة، لا الأفراد ولا القبائل.

واليوم، حين رخصت النفس الإنسانيّة في أماكن كثيرة – في الحروب والجرائم والإرهاب – تبقى هذه الوصيّة حيّة. فالمسلم الذي يفهم خطبة الوداع لا يستحلّ دم أحدٍ باسم الدين، لأنّ رسول الله ﷺ نفسه قد أعلنه حرامًا.

حُرمة المال

وبعد الدماء ذكر **الأموال**. ففي الجاهليّة كان نهب القوافل وسلب أموال القبائل الأخرى مفخرة. والآن يعلن رسول الله ﷺ أنّ مال كلّ مسلم **يحرم أخذه بغير حقّ**، كحرمة نفسه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ (النساء ٤: ٢٩) – تفسير ابن كثير ٤: ٢٩.

وتشمل حرمة المال أمورًا كثيرةً في الحياة الحديثة: **ألّا يغشّ في البيع، ولا يرتشي، ولا يأخذ من المال العامّ، ولا يمطل في الدَّين بلا عذر**، ولا يعتدي على حقوق التأليف أو أرض غيره. كلّ ذلك داخلٌ في قوله: «إنّ أموالكم عليكم حرام».

ولاحظ أنّه ذكر **الدماء والأموال معًا**. فحفظ مال الغير في الإسلام ليس أمرًا هيّنًا، بل هو قرين حفظ نفسه. بل قال رسول الله ﷺ: «مَن قُتل دون ماله فهو شهيد» (صحيح البخاري ٢٤٨٠).

حُرمة العِرض

وفي رواية أبي بكرة وابن عبّاس زاد أمرًا ثالثًا: **العِرض** – أي الكرامة والسمعة. ويُدنَّس عرض الإنسان حين **يُغتاب أو يُهتَك أو يُحتقَر أو يُفضَح**. وقد قرنه رسول الله ﷺ بالدم والمال.

وقال في حديثٍ آخر: «**كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمُه ومالُه وعِرضُه**» (صحيح مسلم ٢٥٦٤). وفي الحديث نفسه: «التقوى ها هنا» – ويشير إلى صدره ثلاث مرّات – «بحسب امرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم».

وفي زمن وسائل التواصل الاجتماعيّ صارت هذه الوصيّة ملحّة جدًّا. فمنشورٌ واحد، أو صورة شاشة، أو إشاعة قد **تهدم عِرض إنسان** في دقائق وتنتشر بين الآلاف. والمسلم الذي يفهم خطبة الوداع يفكّر مرّتين قبل أن ينشر ما يشين غيره.

الدماء والأموال والأعراض – هذه الثلاثة تشمل **الأمن البدنيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ** للإنسان. ثمّ صاغ العلماء **مقاصد الشريعة**: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. وخطبة الوداع من أوضح أسس هذا البناء.

«تحت قدميَّ موضوع»

بعرفة قال رسول الله ﷺ: «**ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهليّة تحت قدميَّ موضوع**» (صحيح مسلم ١٢١٨). وعبارة «تحت قدميّ» أسلوبٌ عربيّ معناه **الإبطال التامّ** وأنّه لم تعد له قيمة.

وما «أمر الجاهليّة»؟ يشمل **التفاخر بالأنساب، والثأر الموروث، والربا الظالم، وظلم المرأة، والتلاعب بالتقويم، وعادات الشرك في العبادة.** وقد عولج ذلك كلّه شيئًا فشيئًا في ثلاث وعشرين سنة من الدعوة، وأُعلن الآن انتهاؤه رسميًّا.

وليس معنى ذلك إلغاء كلّ عادات العرب؛ فالعادات الحسنة – الكرم، وإكرام الضيف، والوفاء بالعهد، والشجاعة – **أُبقيت وطُهِّرت.** وإنّما أُلغي ما خالف التوحيد والعدل. وهذا موقف الإسلام من الثقافة: **التنقية لا المحو.**

ولكلّ مجتمعٍ اليوم «جاهليّته»: رشوةٌ تُعدّ أمرًا عاديًّا، وعصبيّة، وإسرافٌ في الولائم، وعاداتٌ تظلم المرأة. وروح خطبة الوداع تدعونا إلى أن نجعل ذلك كلّه «**تحت القدمين**».

إبطال دماء الجاهليّة

ثمّ قال: «**ودماءُ الجاهليّة موضوعة، وإنّ أوّلَ دمٍ أضعُ من دمائنا دمُ ابنِ ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هُذَيل**» (صحيح مسلم ١٢١٨)

وابن ربيعة **من قرابة رسول الله** ﷺ **نفسه** من بني هاشم؛ فأبوه ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب ابنُ عمّ النبيّ. وكان لأهله بحسب عرف الجاهليّة حقُّ الثأر من هُذيل، وكان الثأر يُورَث جيلًا بعد جيل. فاختار رسول الله ﷺ أن **يبدأ العفوَ بأهل بيته** قبل أن يطلبه من غيرهم.

هذه هي **القيادة بالقدوة**. فالقائد الذي يطلب من الناس التضحية ويستثني أهله يفقد ثقتهم. وفعل رسول الله ﷺ عكس ذلك: وضع العبء الأوّل على عاتق أهل بيته.

وأنهى إبطالُ هذا الثأر **دائرةَ العنف** التي أهلكت قبائل العرب قرونًا. وجعل الإسلام مكانه القصاص العادل على يد وليّ الأمر، مع باب **العفو والدية** مفتوحًا على مصراعيه.

إبطال ربا العبّاس

ثمّ قال: «وربا الجاهليّة موضوع، وأوّلُ ربًا أضعُ ربانا: ربا عبّاس بن عبد المطّلب، فإنّه موضوعٌ كلُّه» (صحيح مسلم ١٢١٨). والعبّاس عمّ النبيّ، وكان تاجرًا غنيًّا يُقرض بالربا في الجاهليّة.

وقد أمر القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٢: ٢٧٨) – تفسير ابن كثير ٢: ٢٧٨.

وفي رواية عمرو بن الأحوص بيّن: «لكم رؤوسُ أموالكم، لا تَظلِمون ولا تُظلَمون» (جامع الترمذي ٣٠٨٧ – حسن). وهو لفظ الآية ٢: ٢٧٩. فالدائن لا يخسر رأس ماله، وإنّما يُبطَل الزائد الظالم وحده.

ومرّةً أخرى بدأ بأهل بيته. فلعلّ ربا العبّاس كان مالًا كثيرًا، لكنّه وُضع قبل ربا غيره. واليوم، والنظام الماليّ العالميّ قائمٌ في كثيرٍ منه على الفائدة، يواصل المسلمون السعي لبناء التمويل الإسلاميّ العادل – سعيٌ تمتدّ جذوره إلى هذا الإعلان بعرفة.

«إنّ الزمان قد استدار»

افتُتحت خطبة منًى بكلامٍ عن الزمن: «**إنّ الزمانَ قد استدار كهيئته يومَ خلق اللهُ السماواتِ والأرض**» (صحيح البخاري ٤٤٠٦). فما معناه؟

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا**﴾ (التوبة ٩: ٣٦) – تفسير ابن كثير ٩: ٣٦.

وكما رأينا في الحلقة السابعة والعشرين، كان العرب في الجاهليّة يعملون **بالنسيء** – تأخير الأشهر الحُرُم وزيادة الشهور – حتّى لم يعد التقويم موافقًا للشهور الحقيقيّة. وفي عام حجّة الوداع، بتقدير الله، **عادت الدورة مطابقة** لأصلها: فوقع الحجّ في ذي الحجّة الحقيقيّ.

ثمّ ذكر الأشهر الحرم الأربعة: **ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم ورجب**. وبهذا الإعلان صار التقويم الهجريّ القمريّ **ثابتًا** – لا زيادة ولا تأخير. وهو التقويم الذي يعتمده المسلمون في الصيام والحجّ والزكاة إلى اليوم.

ولاحظ أنّ رسول الله ﷺ افتتح خطبته عن حرمة الإنسان **بحرمة الزمان**. فالأشهر الحرم زمنٌ عظّمه الله، وإذا كان للزمان حرمة، فالإنسان الذي يعيش فيه أولى بها.

«فاتّقوا الله في النساء»

في وسط خطبة عرفة، وأمام عشرات الآلاف من رجال العرب، خصّ رسول الله ﷺ النساء بعنايةٍ خاصّة: «**فاتّقوا الله في النساء، فإنّكم أخذتموهنّ بأمان الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله**» (صحيح مسلم ١٢١٨).

فالزوجة **أمانةُ الله** في يد الزوج. وعقد النكاح ليس بيعًا، بل ميثاقٌ أُبرم باسم الله؛ فمن خان هذه الأمانة فقد خان الله. وقد روى هذه الوصيّة عمرو بن الأحوص رضى الله عنه بتفصيلٍ أكثر:

حديث – جامع الترمذي، رقم ١١٦٣

حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْخَلاَّلُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْجُعْفِيُّ، عَنْ زَائِدَةَ، عَنْ شَبِيبِ بْنِ غَرْقَدَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الأَحْوَصِ، قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ، شَهِدَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَّرَ وَوَعَظَ فَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ قِصَّةً فَقَالَ أَلاَ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً أَلاَ إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ أَلاَّ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ وَلاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ أَلاَ وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ. قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ. يَعْنِي أَسْرَى فِي أَيْدِيكُمْ.

السند رواه الإمام الترمذي: عن الحسن بن عليّ الخلّال، عن الحسين بن عليّ الجُعفيّ، عن زائدة بن قدامة، عن شبيب بن غرقدة، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه عمرو بن الأحوص رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام الترمذي في جامعه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حقّ المرأة على زوجها، رقم ١١٦٣؛ وأيضًا رقم ٣٠٨٧، وسنن ابن ماجه رقم ١٨٥١.

الدرجة: صحيح – قال الإمام الترمذيّ: حسنٌ صحيح؛ وصحّحه محقّقو دار السلام.

المصدر: https://sunnah.com/tirmidhi:1163

دروسٌ من هذا الحديث

تخيّل أثر هذه الوصيّة في مجتمعٍ كان قبل الإسلام **يئد البنات أحياء**، ويرث زوجة الأب كما يُورث المتاع، ولا يورّث المرأة. وفي مجلس الوداع اختار رسول الله ﷺ أن **يذكّر الرجال بحقوق النساء**.

وقال رسول الله ﷺ في حديثٍ آخر: «**خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي**» (جامع الترمذي ٣٨٩٥ – صحيح). فمقياس خيريّة الرجل ليس خارج البيت، بل **كيف يعامل زوجته وأهله**.

حقّ الزوج وحقّ الزوجة

تؤكّد خطبة الوداع أنّ **الحقّ متبادل**: «ألا إنّ لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حقًّا». وهذا موافقٌ لقوله تعالى:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة ٢: ٢٢٨) – تفسير ابن كثير ٢: ٢٢٨.

حقّ الزوج	حقّ الزوجة
ألّا تأذن الزوجة في بيته لمن يكره	أن يُحسَن إليها في طعامها
أن تحفظ الزوجة عرضها وبيتها	أن يُحسَن إليها في كسوتها
ألّا تنفق من ماله إلّا بإذنه	أن تُعاشَر بالمعروف ولا تُظلَم

وأمر القرآن الزوج أيضًا: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء ٤: ١٩) – تفسير ابن كثير ٤: ١٩.

وذُكر حقّ الزوجة في الخطبة بلفظ «**بالمعروف**» – أي بما جرى به العرف الحسن. فليس هو مجرّد طعامٍ وكسوةٍ بقدر الكفاف، بل معاملةٌ تليق بقدرة الزوج وكرامة الزوجة. والبيت في الإسلام قائمٌ على **المودّة والرحمة** (الروم ٣٠: ٢١)، لا على السلطة وحدها.

فهم التأديب في البيت

ذكر حديث خطبة الوداع خطواتٍ إذا أتت الزوجة **بفاحشةٍ مبيّنة**: الهجر في المضاجع، ثمّ «**ضربًا غير مبرِّح**». وكثيرًا ما يُساء فهم هذا النصّ، فلا بدّ أن يُفهم مع **سياقه وهدي رسول الله ﷺ نفسه**.

أوّلًا: هو خاصٌّ بـ**المعصية الكبيرة الظاهرة**، لا بالخلاف العاديّ. ثانيًا: هو **آخر الخطوات** بعد الموعظة والهجر. ثالثًا: بيّن أئمّة التفسير كابن عبّاس أنّه **غير مؤلم**، كالضرب بالسواك – فهو إشارة عتابٍ أقرب منه إلى العقوبة. وهو **حرام** على الوجه، وحرامٌ إن ترك أثرًا أو جرحًا.

رابعًا – وهو الأهمّ – قالت عائشة رضى الله عنها :«**ما ضرب رسولُ الله ﷺ شيئًا قطُّ بيده، ولا امرأةً ولا خادمًا، إلّا أن يجاهد في سبيل الله**» (صحيح مسلم ٢٣٢٨). فهدي رسول الله ﷺ هو **ترك الضرب أصلًا**.

ولذلك فالعنف الأسريّ الذي يؤذي أو يجرح أو يُهين **لا مكان له في الإسلام**، ومن فعله خالف الخطبة نفسها التي أمرت بالإحسان إلى النساء. وقال رسول الله ﷺ في الذين يضربون نساءهم: «**ليس أولئك بخياركم**» (سنن أبي داود ٢١٤٦ – صحيح).

النسب والوصيّة وحقّ الوارث

وتناولت خطبة الوداع أيضًا **أحكام الأسرة والمواريث.** روى أبو أمامة الباهليّ رضى الله عنه ما سمعه:

حديث – جامع الترمذي، رقم ٢١٢٠

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ، وَهَنَّادٌ، قَالاَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ، حَدَّثَنَا شُرَحْبِيلُ بْنُ مُسْلِمٍ الْخَوْلاَنِيُّ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي خُطْبَتِهِ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ وَمَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوِ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ التَّابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ تُنْفِقُ امْرَأَةٌ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلاَّ بِإِذْنِ زَوْجِهَا. قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ الطَّعَامَ قَالَ ذَلِكَ أَفْضَلُ أَمْوَالِنَا. ثُمَّ قَالَ الْعَارِيَةُ مُؤَدَّاةٌ وَالْمِنْحَةُ مَرْدُودَةٌ وَالدَّيْنُ مَقْضِيٌّ وَالزَّعِيمُ غَارِمٌ.

السند رواه الإمام الترمذي: عن علي بن حُجر وهنّاد بن السَّريّ، عن إسماعيل بن عيّاش، عن شرحبيل بن مسلم الخولانيّ، عن أبي أمامة الباهليّ رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام الترمذي في جامعه، كتاب الوصايا، باب ما جاء لا وصيّة لوارث، رقم ٢١٢٠؛ وأيضًا سنن أبي داود رقم ٢٨٧٠، وسنن ابن ماجه رقم ٢٧١٣.

الدرجة: حسن – قال الإمام الترمذيّ: حسنٌ صحيح؛ وحسّنه محقّقو دار السلام.

المصدر: https://sunnah.com/tirmidhi:2120

دروسٌ من هذا الحديث

«إنّ الله قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه» – أي بآيات المواريث في سورة النساء. ولذلك **لا وصيّة لوارث:** فلا يجوز أن يُزاد نصيب وارثٍ بعينه بالوصيّة، لأنّ في ذلك ظلمًا لسائر الورثة. وإنّما الوصيّة لغير الوارث، ولا تزيد على الثلث.

«**الولدُ للفراش**» معناه أنّ الولد المولود في نكاحٍ صحيح يُنسب إلى الزوج. وهذا **يحمي الطفل والأسرة** من التهم والنزاعات التي تهدم البيوت. وفي الجاهليّة كان الرجل قد يدّعي ولد غيره من الزنا؛ فأغلق الإسلام ذلك الباب.

ولعن مَن **ادّعى إلى غير أبيه**. فتغيير النسب لمصلحةٍ دنيويّة – منزلةٍ أو مالٍ أو فخر – كبيرةٌ من الكبائر. وهذا يفسّر عناية الإسلام بـ**علم الأنساب**.

الأمانة والدَّين والكفالة

وفي آخر رواية أبي أمامة ذكر أربعة أصولٍ في المعاملات موجزةٍ واسعة المعنى: «**العاريةُ مؤدّاة، والمِنحةُ مردودة، والدَّينُ مَقضيّ، والزعيمُ غارم**» (جامع الترمذي ٢١٢٠).

المبدأ	المعنى ومثاله اليوم
العارية مؤدّاة	الكتاب أو السيّارة أو الأداة المستعارة تُردّ سليمة
المنحة مردودة	ما أُعطي للانتفاع المؤقّت (كالناقة الحَلوب) يُرَدّ
الدَّين مقضيّ	القرض الشخصيّ وبطاقة الائتمان وقرض الدراسة يجب سدادها
الزعيم غارم	مَن كفل دَين غيره تحمّل تَبِعته

المجتمع القويّ يقوم على **الثقة**. فإذا لم تُردّ العواريّ ولم تُقضَ الديون ضاعت الثقة، وكفّ الناس عن عون بعضهم بعضًا. وقد شدّد رسول الله ﷺ في الدَّين حتّى كان في أوّل الأمر لا يصلّي على الميّت المدين الذي لم يترك وفاءً (صحيح البخاري ٢٢٨٩).

وقد أُلقيت هذه الوصيّة في خطبة الحجّ – العبادة التي تمحو الذنوب. ومع ذلك بيّن العلماء أنّ **حقوق العباد، ومنها الدَّين، لا تسقط** بالحجّ؛ بل لا بدّ من أدائها أو عفو أصحابها.

كتاب الله: العصمة من الضلال

وقرب نهاية خطبة عرفة ترك رسول الله ﷺ أعظم ما يُعتصم به: «**وقد تركتُ فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به: كتابَ الله**» (صحيح مسلم ١٢١٨)

﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ (آل عمران ٣: ١٠٣) – تفسير ابن كثير ٣: ١٠٣.

ولاحظ الشرط: «**إن اعتصمتم به**». فاقتناء المصحف على الرفّ، أو قراءته بلا فهمٍ ولا عمل، ليس «اعتصامًا» بعد. الاعتصام هو **تلاوته وفهمه والعمل به والتحاكم إليه**.

وفي خطبة غدير خُمّ بعد ذلك بأيّام (الحلقة الثامنة والعشرون) ذكر **كتاب الله** وأوصى **بأهل بيته** (صحيح مسلم ٢٤٠٨). وتدلّ وصيّة رسول الله ﷺ هذه على أنّ طريق نجاة الأمّة يبدأ دائمًا بالقرآن.

«كتاب الله وسنّتي»

يسمع كثيرٌ من الناس لفظ: «**تركتُ فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسّكتم بهما: كتابَ الله وسنّةَ نبيّه**». فهل هذا اللفظ من خطبة الوداع؟ وهل هو صحيح؟

من كتب السيرة: درجة لفظ «كتاب الله وسنّتي»

روى هذا اللفظ الإمام مالك في **الموطّأ بلاغًا** («أنّه بلغه») بلا إسناد، ورواه الحاكم في المستدرك بإسنادٍ متكلَّمٍ فيه. وحسّنه بعض العلماء بمجموع طرقه. أمّا في صحيح مسلم فلفظ خطبة عرفة لم يذكر إلّا «**كتاب الله**».

ومع ذلك **فمعناه حقٌّ متّفقٌ عليه**: فالقرآن نفسه يأمر بطاعة الرسول والردّ إلى سنّته، ولا يُفهم كتاب الله ولا يُعمل به على وجهه إلّا ببيان رسول الله ﷺ.

المرجع:

مالك، الموطّأ، كتاب القدر؛ الحاكم، المستدرك؛ الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة.

قال الله تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ (النساء ٤: ٥٩) – تفسير ابن كثير ٤: ٥٩.

كيف نعرف كيفيّة الصلاة، وعدد الركعات، ومقادير الزكاة، وصفة الحجّ؟ القرآن أمر بها إجمالًا، **والسنّة بيّنتها تفصيلًا**. وحجّة الوداع نفسها مثالٌ على ذلك: قال الله ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «لتأخذوا مناسككم» (الحلقة الثامنة والعشرون).

ولذلك فمن زعم أنّ القرآن وحده يكفيه وردّ السنّة فهو في الحقيقة **غير معتصمٍ بالقرآن**، لأنّ القرآن نفسه أمر بطاعة الرسول. فهما **عصمةٌ واحدة** لا تنفصل.

خمسة مفاتيح للجنّة

وحفظ أبو أمامة رضى الله عنه – وكان ابن ثلاثين سنة يوم حجّة الوداع – وصيّةً موجزةً جامعةً في طريق الجنّة:

حديث – جامع الترمذي، رقم ٦١٦

حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْكِنْدِيُّ الْكُوفِيُّ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، أَخْبَرَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنِي سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ، قَالَ سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ، يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ. قَالَ فَقُلْتُ لأَبِي أُمَامَةَ مُنْذُ كَمْ سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم هَذَا الْحَدِيثَ قَالَ سَمِعْتُهُ وَأَنَا ابْنُ ثَلاَثِينَ سَنَةً. قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

السند رواه الإمام الترمذي: عن موسى بن عبد الرحمن الكنديّ الكوفيّ، عن زيد بن الحُباب، عن معاوية بن صالح، عن سُليم بن عامر، عن أبي أمامة الباهليّ رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام الترمذي في جامعه، أبواب الجمعة (أبواب السفر)، رقم ٦١٦؛ وقال الترمذي: حسنٌ صحيح.

الدرجة: حسن – قال الإمام الترمذيّ: حسنٌ صحيح؛ وحسّنه محقّقو دار السلام.

المصدر: https://sunnah.com/tirmidhi:616

دروسٌ من هذا الحديث

هذه الخمسة هي **أساس حياة المسلم**: التقوى (صلة القلب بالله)، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، والزكاة، وطاعة وليّ الأمر في المعروف. لا تعقيد فيها ولا خفاء؛ فطريق الجنّة **واضحٌ مفتوح** لكلّ أحد.

ولاحظ قوله: «**وصلّوا خمسكم**» و«**وصوموا شهركم**». فقد أضاف العبادة إلى الأمّة – «لكم» – كأنّه يقول: هذه لكم فاحفظوها. وبعد رحيله ستكون هذه العبادات هي التي تربط الأمّة بهديه.

وتذكّرنا هذه الوصيّة أيضًا بأنّ الأعمال الأساسيّة مع **الاستقامة** أعظم قيمةً من النوافل المتقطّعة. فالمسلم الذي يحفظ هذه الخمسة بإخلاص سائرٌ على الطريق الذي دلّ عليه رسول الله ﷺ في أيّامه الأخيرة.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

طاعة الأمير الذي يقود بكتاب الله

في مجتمعٍ قبليٍّ يعظّم النسب، ألقى رسول الله ﷺ مبدأً ثوريًّا في القيادة. وسمعته أمّ الحُصَين رضى الله عنها:

حديث – صحيح مسلم، رقم ١٨٣٨

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ سَمِعْتُ جَدَّتِي، تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يَقُولُ وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا.

السند رواه الإمام مسلم: عن محمّد بن المثنّى، عن محمّد بن جعفر (غُندَر)، عن شعبة بن الحجّاج، عن يحيى بن حُصَين، عن جدّته أمّ الحُصَين الأحمسيّة رضى الله عنها.

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم ١٨٣٨؛ وأيضًا رقم ١٢٩٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:1838a

دروسٌ من هذا الحديث

في هذا الحديث درسان عظيمان. الأوّل: **أهليّة القيادة ليست بالنسب.** فحتّى العبد إذا قاد بكتاب الله وجبت طاعته. وهذا يهدم كبرياء القبائل التي ترى أنّ الحكم للأشراف وحدهم.

الثاني: الطاعة **مشروطة**: «يقودكم بكتاب الله». وقال في حديثٍ آخر: «**لا طاعة في معصية، إنّما الطاعة في المعروف**» (صحيح البخاري ٧٢٥٧). فالإسلام لا يعلّم الطاعة العمياء، ولا الخروج الذي يسفك الدماء.

وهذا التوازن – الطاعة في الخير، وردّ المعصية، وحفظ الجماعة – أساس **استقرار المجتمع المسلم**. وقد اشتدّت الحاجة إليه عقب وفاة رسول الله ﷺ، حين احتاجت الأمّة إلى اختيار قائدٍ جديد (الحلقة الثلاثون).

ويحمي هذا المبدأ المجتمع من خطرين. الأوّل: **الحاكم الظالم** الذي يطلب طاعةً مطلقة حتّى فيما يُسخط الله. والثاني: **الفوضى** حين يرفض كلّ أحدٍ أيّ قائد، فيتفرّق المجتمع وتُسفك الدماء. والطريق الوسط في الإسلام: الطاعة في المعروف، والنصح بالحكمة، وردّ المعصية دون إثارة الفتنة.

وفي الحياة اليوميّة يسري هذا المبدأ في كلّ مؤسّسة: الأسرة والمسجد والشركة والجمعيّة. فالرئيس العادل المتمسّك بقيم الإسلام جديرٌ بالنصرة والطاعة أيًّا كان أصله. والمعيار **الأمانة والكفاءة**، لا شرف النسب ولا الثراء.

وقد طبّق الصحابة هذا المبدأ أحسن تطبيق. فقد أمّر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وهو شابٌّ، ابنُ مولًى، على جيشٍ فيه كبار الصحابة. فلمّا طعن بعض الناس في إمارته أكّد أنّه خليقٌ بالإمارة (صحيح البخاري ٤٤٦٩).

لا فضل لعربيٍّ على عجميّ

من أعظم المبادئ المنسوبة إلى خطبة الوداع **المساواة بين الناس**. وأصلها قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (الحجرات ٤٩: ١٣) – تفسير ابن كثير ٤٩: ١٣.

من كتب السيرة: «لا فضل لعربيٍّ على أعجميّ»

روى الإمام أحمد في المسند عن رجلٍ من الصحابة سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيّام التشريق: «**يا أيّها الناس، ألا إنّ ربَّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميّ، ولا لعجميٍّ على عربيّ، ولا لأحمرَ على أسود، ولا أسودَ على أحمر، إلّا بالتقوى**».

صحّح هذا الحديثَ **الشيخ الألبانيّ** (السلسلة الصحيحة ٢٧٠٠)، وصحّح إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند. ومعناه موافقٌ تمامًا للآية ٤٩: ١٣ السابقة.

المرجع:

أحمد بن حنبل، المسند (رقم ٢٣٤٨٩)؛ الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٧٠٠.

تخيّل هذه الكلمات تُقال في قومٍ كانوا **أشدَّ الأمم فخرًا بالأنساب** في ذلك الزمان. كان العرب يسمّون غيرهم «العجم» – أي الذين لا يُفصحون. والآن يُقال لهم إنّ اللغة واللون والنسب **لا تُعطي فضلًا** عند الله.

وقد طُبّق هذا المبدأ قبل أن يُعلَن: **فبلال** الحبشيّ مؤذّن رسول الله ﷺ، **وسلمان** الفارسيّ قيل فيه: «سلمانُ منّا أهلَ البيت»؛ **وصهيب** الروميّ **وأسامة** ابن المولى قادوا وأُكرموا. وبعرفة أُعلن هذا المبدأ للأمّة كلّها.

المسلم أخو المسلم

في رواية عمرو بن الأحوص لخطبة حجّة الوداع قال: «**ألا إنّ المسلمَ أخو المسلم، فليس يحلُّ لمسلمٍ من أخيه شيءٌ إلّا ما أحلَّ من نفسه**» (جامع الترمذي ٢١٥٩ – حسن).

ليست الأخوّة الإسلاميّة شعارًا فحسب. فقد بيّن معناها في حديثٍ آخر: المسلم **لا يظلم أخاه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره** (صحيح مسلم ٢٥٦٤). فللأخوّة **حقوقٌ وواجبات**.

وقد بُنيت هذه الأخوّة منذ اليوم الأوّل في المدينة، حين آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار (الحلقة الثامنة). وبعرفة اتّسعت: فصار **كلّ مسلمٍ في العالم** أخًا، بلا اعتبارٍ لقبيلةٍ أو قوم.

واليوم يقارب عدد المسلمين ملياري إنسان، من أعراقٍ ولغاتٍ ومذاهب شتّى. ووصيّة خطبة الوداع تذكّر بأنّ **ما يجمعنا أعظم** ممّا يفرّقنا.

«لا ترجعوا بعدي كفّارًا»

وصيّةٌ كرّرها كثيرٌ من الصحابة بألفاظٍ متقاربة: «**لا ترجعوا بعدي كفّارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعض**».

وأقسم ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّها وصيّته إلى أمّته:

حديث – صحيح البخاري، رقم ١٧٣٩

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا فُضَيْلُ بْنُ غَزْوَانَ، حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضى الله عنهما ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ. أَىُّ يَوْمٍ هَذَا. قَالُوا يَوْمٌ حَرَامٌ. قَالَ فَأَىُّ بَلَدٍ هَذَا. قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ. قَالَ فَأَىُّ شَهْرٍ هَذَا. قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا. فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ـ رضى الله عنهما ـ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ ـ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.

السند رواه الإمام البخاري: عن عليّ بن عبد الله المدينيّ، عن يحيى بن سعيد القطّان، عن فُضَيل بن غزوان، عن عكرمة مولى ابن عبّاس، عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحجّ، باب الخطبة أيّام منًى، رقم ١٧٣٩.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:1739

دروسٌ من هذا الحديث

لماذا سُمّي الاقتتال «كفرًا»؟ بيّن العلماء أنّه لا يعني الخروج من الإسلام مطلقًا، بل هو **من فعل الكفّار** – لأنّ الاقتتال من صفات الجاهليّة قبل أن يؤلّف الله بين قلوبهم بالإسلام. وهو يدلّ على **عِظَم** ذنب المسلم الذي يقتل أخاه.

وكأنّ رسول الله ﷺ رأى ما سيكون. فبعد عقودٍ قليلةٍ من وفاته ابتُليت الأمّة **بالفتن والحروب الداخليّة.** وتبقى هذه الوصيّة نذيرًا لكلّ جيل: الخلاف السياسيّ أو المذهبيّ أو المصلحيّ **لا يُحلّ الدماء أبدًا** بين المسلمين.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

الشيطان والذنوب المحقَّرة

وفي رواية عمرو بن الأحوص حذّر تحذيرًا دقيقًا: «**ألا وإنّ الشيطانَ قد أيِسَ من أن يُعبَد في بلادكم هذه أبدًا، ولكن ستكون له طاعةٌ فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به**» جامع الترمذي ٢١٥٩ – حسن).

وقال في حديثٍ آخر: «**إنّ الشيطانَ قد أيِسَ أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**» صحيح مسلم ٢٨١٢.)

يكشف هذان الحديثان **خطّة الشيطان** بعد انتصار التوحيد. فلمّا عجز عن حمل الناس على عبادة الأصنام تحوّل إلى طريقين: **الصغائر** التي تُستهان، **والعداوة بين المسلمين**. كلاهما يبدو صغيرًا، لكنّه قد يهدم الأمّة.

وقد مثّل رسول الله ﷺ الصغائر **بأعوادٍ من الحطب** يجمعها قومٌ مسافرون عودًا عودًا حتّى يُوقدوا نارًا ينضجون عليها طعامهم: «إيّاكم ومحقَّراتِ الذنوب» (مسند أحمد – صحيح). فالذنب المستهان إذا دام أهلك.

كلّ امرئٍ يحمل ذنبه

وفي الرواية نفسها قال: «**ألا لا يجني جانٍ إلّا على نفسه، ألا لا يجني جانٍ على ولده، ولا مولودٌ على والده**» جامع الترمذي ٢١٥٩.(

في النظام القبليّ الجاهليّ، إذا قتل رجلٌ صارت **قبيلته كلّها** هدفًا للثأر – أخوه وابنه، بل مَن لا ذنب له أصلًا. فأبطل رسول الله ﷺ فكرة **العقوبة الجماعيّة** هذه، وصار كلّ امرئٍ مسؤولًا عن عمله.

وهذا الأصل في القرآن أيضًا: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ (الأنعام ٦: ١٦٤). وصار أساسًا للعدالة الجنائيّة المعترف بها اليوم في العالم كلّه: **العقوبة على الجاني وحده**، لا على أهله.

«ليُبلِّغ الشاهدُ الغائب»

تكاد كلّ روايةٍ لخطبة الوداع تُختم بالأمر نفسه: «**ليُبلِّغ الشاهدُ الغائب**». وزاد: «**فإنّ الشاهدَ عسى أن يبلِّغَ مَن هو أوعى له منه**» (صحيح البخاري ٦٧).

وضع الإمام البخاريّ هذا الحديث في كتاب العلم تحت باب: «**قول النبيّ ﷺ: رُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامع**». وهذا أساس **رواية الحديث**: بلّغ الصحابةُ التابعين، والتابعون مَن بعدهم، حتّى وصل إلينا.

ودعا للمبلِّغين: «**نضَّر اللهُ امرأً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلَّغها**» (جامع الترمذي ٢٦٥٨ – صحيح). فكلّ مَن يعلّم أو يكتب أو ينشر علمًا صحيحًا **داخلٌ في هذا الدعاء**.

وفي هذا الأمر أمانة: أن يكون المبلَّغ **دقيقًا**. ولذلك تشدّد علماء الحديث في تمحيص الأسانيد والألفاظ. وفي زمن النشر السريع اليوم لا بدّ من **التثبّت قبل التبليغ**، ولا سيّما إذا نُسب شيءٌ إلى رسول الله ﷺ.

«اللهمّ اشهد»

في آخر خطبة عرفة سأل رسول الله ﷺ: «**وأنتم تُسألون عنّي، فما أنتم قائلون؟**» قالوا: «نشهد أنّك قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ». فقال بإصبعه السبّابة يرفعها إلى السماء وينكُتها إلى الناس: «**اللهمّ اشهد، اللهمّ اشهد**» – ثلاث مرّات (صحيح مسلم ١٢١٨).

وهذا أداءٌ لأمر الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ (المائدة ٥: ٦٧) – تفسير ابن كثير ٥: ٦٧.

ثلاثًا وعشرين سنة بلّغ رسول الله ﷺ الرسالة في العسر واليسر – سُخر منه في مكّة، وحوصر في شِعب أبي طالب، ورُجم بالحجارة في الطائف، وقوتل في بدر وأحد والخندق. والآن، أمام أكثر من مئة ألف شاهد، يسأل: «**ألا هل بلّغت؟**» فيشهدون: «**نعم**».

وهذه الشهادة **أمانةٌ علينا** أيضًا. فيوم القيامة تشهد هذه الأمّة أنّ رسول الله ﷺ قد بلّغ. وسنُسأل: **ماذا صنعنا بما بُلّغنا؟**

إشارات الوداع

كانت في حجّة الوداع إشاراتٌ إلى أنّها **اللقاء الأخير**. فعند جمرة العقبة قال: «**لتأخذوا مناسككم؛ فإنّي لا أدري لعلّي لا أحجُّ بعد حجّتي هذه**» (صحيح مسلم ١٢٩٧).

من كتب السيرة: «لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا»

في رواية ابن إسحاق افتُتحت خطبة عرفة بقوله: «**أيّها الناس، اسمعوا قولي، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا**». وهذا اللفظ في كتب السيرة بإسنادٍ متكلَّمٍ فيه.

ومعناه يشهد له حديث مسلم ١٢٩٧ الصحيح السابق، واسمُ «حجّة الوداع» نفسه (صحيح البخاري ٤٤٠٢).

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبويّة (رواية ابن إسحاق) – باب حجّة الوداع؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن القيّم، زاد المعاد.

وفهم بعض الصحابة من نزول قوله تعالى ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ (المائدة ٥: ٣) بعرفة إشارةً إلى قرب انتهاء مهمّة رسول الله ﷺ. وكذلك تفسير ابن عبّاس لسورة النصر (صحيح البخاري ٤٩٧٠).

وبعد أقلّ من ثلاثة أشهر، في ربيع الأوّل سنة ١١ هـ، تُوفّي رسول الله ﷺ بالمدينة. فكانت خطبة الوداع حقًّا **وصيّته الأخيرة** للأمّة مجتمعة. وستُروى قصّة مرضه ووفاته في **الحلقة الثلاثين** إن شاء الله.

ألفاظٌ مشهورة تحتاج إلى تحقيق

يُتداول نصّ خطبة الوداع كثيرًا في وسائل التواصل والمحاضرات والكتب. وهذه أشهر ألفاظه مع **مصادرها ودرجاتها**، لنبلّغ بأمانة:

اللفظ	المصدر والدرجة
«إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام...»	البخاري ٦٧، ١٧٣٩، ٤٤٠٦؛ مسلم ١٢١٨ — صحيح
«كلّ شيءٍ من أمر الجاهليّة تحت قدميّ موضوع»؛ الربا والدماء	مسلم ١٢١٨ — صحيح
«اتّقوا الله في النساء»	مسلم ١٢١٨ — صحيح؛ الترمذي ١١٦٣ — صحيح
«تركتُ فيكم... كتاب الله»	مسلم ١٢١٨ — صحيح
«كتاب الله وسنّتي»	الموطّأ (بلاغًا)، الحاكم — متكلَّمٌ فيه؛ المعنى صحيح
«لا فضل لعربيّ على أعجميّ...»	مسند أحمد — صحيح (الألباني)
«لا ترجعوا بعدي كفّارًا»	البخاري ١٢١، ١٧٣٩ — صحيح
«لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا...»	ابن إسحاق — إسناده متكلَّمٌ فيه؛ يشهد لمعناه مسلم ١٢٩٧
«وستلقون ربَّكم...»	البخاري ٤٤٠٦ — صحيح

يتبيّن من هذا الجدول أنّ **جلَّ المضامين الكبرى** لخطبة الوداع المشهورة لها أصلٌ صحيح. والذي ينبغي التنبّه له هو **اللفظ الدقيق** والزيادات التي لا مصدر لها.

قال رسول الله ﷺ: «**مَن كذب عليَّ متعمِّدًا فليتبوّأ مقعده من النار**» (صحيح البخاري ١١٠). فقبل نشر «النصّ الكامل لخطبة الوداع» نثبّت من مصدره، وقدّم اللفظ الصحيح.

خطبة الوداع وحقوق الإنسان

يذكر كثيرٌ من الباحثين خطبة الوداع بوصفها من أقدم **إعلانات حقوق الإنسان** في التاريخ. قارن مبادئها بالوثائق الحديثة:

مبدأ خطبة الوداع (١٠ هـ / ٦٣٢ م)	الوثيقة الحديثة المشابهة
حرمة النفس والمال والعرض	الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان ١٩٤٨، المواد ٣، ١٢، ١٧
لا فضل لعِرقٍ ولا لون	الإعلان العالميّ ١٩٤٨، المادّتان ١–٢؛ اتّفاقيّة القضاء على التمييز العنصريّ ١٩٦٥
حقّ المرأة على زوجها	اتّفاقيّة القضاء على جميع أشكال التمييز ضدّ المرأة ١٩٧٩
كلّ امرئٍ يحمل ذنبه	مبدأ العدالة الجنائيّة الحديثة (المسؤوليّة الشخصيّة)
إبطال الربا الظالم	قوانين حماية المستهلك ومكافحة القروض الربويّة غير المرخّصة

والفرق جوهريّ. فالإعلان العالميّ ١٩٤٨ وُلد بعد حربين عالميّتين أزهقتا عشرات الملايين من الأرواح، وهو وثيقةٌ بشريّة قابلةٌ للتعديل. أمّا خطبة الوداع فأُلقيت **قبله بأكثر من ١٣٠٠ سنة**، ومصدرها **الوحي** – فالحقوق فيها منحةٌ من الله لا من اتّفاق البشر، فلا تملك أيّ سلطةٍ سحبها (الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان، الأمم المتّحدة).

لكن ينبغي أن نكون صادقين: ليست هذه المقارنة للتفاخر فحسب. فقيمة خطبة الوداع في **العمل** بها. فإن لم يحفظ المسلمون أنفسهم الدماء والأموال والأعراض فيما بينهم، بقيت تلك الخطبة العظيمة نصًّا يُقرأ لا منهج حياة.

خلاصة مضمون الخطبة

يمكن تلخيص مضمون خطبة الوداع في ثمانية محاور كبرى، كما في الرسم الآتي:

ثمانية محاور كبرى لخطبة الوداع



تدور المحاور كلّها حول أصلٍ واحد: تقوى الله.

الرسم ٢: المحاور الثمانية الكبرى لخطبة الوداع.

الموضوع	الوصيّة الكبرى ومصدرها
حرمة الإنسان	الدماء والأموال والأعراض حرام (البخاري ٤٤٠٦)
إبطال الجاهليّة	الثأر والربا، بدءًا بأهل بيته (مسلم ١٢١٨)
النساء	أمانة الله، حقّ متبادل (مسلم ١٢١٨؛ الترمذي ١١٦٣)

الموضوع	الوصيّة الكبرى ومصدرها
الأسرة والمال	النسب، الوصيّة، الدَّين، العارية (الترمذي ٢١٢٠)
الاعتصام	كتاب الله، طاعة الأمير العادل (مسلم ١٢١٨، ١٨٣٨)
المساواة	التقوى ميزان الكرامة (الحجرات ٤٩: ١٣؛ أحمد)
تحذير	لا تقتتلوا، احذروا الصغائر (البخاري ١٢١؛ الترمذي ٢١٥٩)
أمانة الدعوة	ليبلّغ الشاهد، «اللهمّ اشهد» (البخاري ٦٧؛ مسلم ١٢١٨)

هذه المحاور الثمانية لا يقوم كلٌّ منها وحده، بل تدور كلّها حول أمرٍ واحد: **تقوى الله**. فحرمة الإنسان والعدل وحقوق المرأة والمساواة كلّها تنبع من اليقين بأنّ كلّ إنسانٍ **سيلقى ربَّه فيسأله عن عمله** (صحيح البخاري ٤٤٠٦).

ويبيّن الجدول أيضًا أنّ خطبة الوداع شملت **جوانب الحياة كلّها**: الصلة بالله، وبالنفس، وبالأسرة، وبالمجتمع، وبوليّ الأمر. فالإسلام ليس عبادةً في المسجد فحسب، بل منهج حياةٍ كامل – موافقًا للآية التي نزلت في اليوم نفسه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

ويستطيع المعلّم أو الوالد أو الواعظ أن يتّخذ هذه المحاور الثمانية **إطارًا تعليميًّا موجزًا** لخطبة الوداع – محورًا لكلّ أسبوع، مع الحديث الصحيح المتعلّق به وأمثلةٍ عمليّة من الحياة.

خطبة الوداع لنا اليوم

ليست خطبة الوداع تاريخًا فحسب. فكلّ وصيّةٍ فيها يمكن أن تُترجم إلى **عملٍ يوميّ** للمسلم اليوم:

الوصيّة	عملنا اليوم
حرمة الدماء	نبذ العنف، والحفاظ على السلامة في الطرق وأماكن العمل
حرمة الأموال	الصدق في التجارة، ونبذ الرشوة، وحفظ المال العامّ
حرمة الأعراض	ترك الغيبة والبهتان والتشهير بالناس في وسائل التواصل
حقوق المرأة	الإحسان إلى الزوجة والأمّ والبنت والعاملة
الدَّين والأمانة	سداد الديون في وقتها، وردّ العواريّ
كتاب الله	قراءة القرآن وفهمه والعمل به كلّ يوم
المساواة	نبذ العصبيّة والفخر بالأنساب
البلاغ	نشر العلم الصحيح، والتثبّت قبل النشر

ألقى رسول الله ﷺ هذه الخطبة على أمّةٍ خرجت لتوّها من الجاهليّة. واليوم، مع تقدّم التقنية والعلم، تختلف تحدّياتنا لكنّ الأساس واحد: **حفظ الإنسان**، لأنّ الإنسان خلقٌ كرّمه الله.

وفوق ذلك كلّه، أُلقيت هذه الخطبة في اليوم الذي قال الله فيه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ (المائدة ٥: ٣). فهذا الدين قد كمل؛ ومهمّتنا ليست الزيادة فيه ولا النقص منه، بل **العمل به وتبليغه** بأمانة.

الخريطة الكاملة لخطبة الوداع: اللفظ والمصدر والدرجة

سرد الفصل الثاني المصادر الرئيسة لخطبة الوداع، وحقّق الفصل التاسع والعشرون درجات ألفاظها المشهورة. ويجمع هذا الفصل الأمرين في خريطةٍ واحدة: كلّ لفظٍ مهمّ، والصحابيّ الذي رواه، ومصدره ودرجته، والآية القرآنيّة التي هي أصله، والفصل الذي يشرحه في هذا الكتاب.

لفظ الخطبة	الراوي والمصدر	الدرجة	الآية المتعلّقة	الفصل
«استنصِتِ الناس»	جرير — البخاري ١٢١	صحيح	—	3
«أيّ يومٍ هذا؟ أيّ شهرٍ هذا؟»	أبو بكرة — البخاري ٤٤٠٦، ٦٧	صحيح	التوبة ٩: ٣٦	4
«إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»	جابر — مسلم ١٢١٨؛ أبو بكرة — البخاري ٦٧؛ ابن عبّاس — البخاري ١٧٣٩	صحيح	الإسراء ١٧: ٣٣؛ النساء ٤: ٢٩	5–7
«كلّ شيءٍ من أمر الجاهليّة تحت قدميّ موضوع»	جابر — مسلم ١٢١٨	صحيح	المائدة ٥: ٥٠	8
وضعُ دم ابن ربيعة بن الحارث	جابر — مسلم ١٢١٨	صحيح	—	9
وضعُ ربا العبّاس	جابر — مسلم ١٢١٨	صحيح	البقرة ٢: ٢٧٨–٢٧٩	10
«إنّ الزمان قد استدار»؛ الأشهر الحرم الأربعة	أبو بكرة — البخاري ٤٤٠٦	صحيح	التوبة ٩: ٣٦–٣٧	11

لفظ الخطبة	الراوي والمصدر	الدرجة	الآية المتعلّقة	الفصل
«اتّقوا الله في النساء»	جابر — مسلم ١٢١٨؛ عمرو بن الأحوص — الترمذي ١١٦٣	صحيح	النساء ٤: ١٩؛ البقرة ٢: ٢٢٨	12–14
الوصيّة والنسب والعارية والدَّين	أبو أمامة — الترمذي ٢١٢٠	حسن	النساء ٤: ١١–١٢	15–16
«تركتُ فيكم… كتاب الله»	جابر — مسلم ١٢١٨	صحيح	آل عمران ٣: ١٠٣	17
«كتاب الله وسنّتي»	مالك، الموطّأ (بلاغًا)؛ الحاكم	متكلَّمٌ فيه؛ المعنى صحيح	النساء ٤: ٥٩	18
«وصلّوا خمسكم…»	أبو أمامة — الترمذي ٦١٦	صحيح	—	19
طاعة الأمير الذي يقود بكتاب الله	أمّ الحُصَين — مسلم ١٨٣٨	صحيح	النساء ٤: ٥٩	20
«لا فضل لعربيٍّ على أعجميّ»	رجلٌ من الصحابة — أحمد ٢٣٤٨٩	صحيح (الألباني؛ الأرناؤوط)	الحجرات ٤٩: ١٣	21
«لا ترجعوا بعدي كفّارًا»	جرير — البخاري ١٢١؛ ابن عبّاس — البخاري ١٧٣٩	صحيح	آل عمران ٣: ١٠٣	23
«ليُبلِّغ الشاهدُ الغائب»	أبو بكرة — البخاري ٦٧، ١٠٥	صحيح	المائدة ٥: ٦٧	26

تُبيّن هذه الخريطة أنّ كلّ لفظٍ رئيسٍ في خطبة الوداع تقريبًا يستند إلى حديثٍ صحيحٍ أو حسن، وأنّ كلّ وصيّةٍ فيها متجذّرةٌ في آيةٍ من القرآن. فالخطبة ليست تعليمًا جديدًا، بل خلاصةُ القرآن بلّغها الرسول الذي بُعث به.

من كتب السيرة: ألفاظٌ لا مصدر لها

وغير الألفاظ السابقة، تنتشر في وسائل التواصل عباراتٌ بعنوان «خطبة الوداع» لا توجد في أيّ كتابٍ معتمدٍ من كتب الحديث أو السيرة، كالعبارات الطويلة عن حقوق العمّال أو البيئة أو تقدّم العلوم المكتوبة بأسلوبٍ حديث.

والقاعدة الآمنة: إذا لم يُمكن بيان مصدر اللفظ – اسم الكتاب ورقم الحديث ودرجته – فلا يُنسب إلى رسول الله ﷺ وإن كان معناه حسنًا. ويُبلَّغ معناه نصيحةً، لا حديثًا عنه.

المراجع: صحيح مسلم ١٢١٨؛ صحيح البخاري ٦٧؛ صحيح البخاري ٤٤٠٦؛ جامع الترمذي ٢١٢٠؛ الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٧٠٠.

العبرة

أمانة البلاغ تقتضي الدقّة. فقبل أن تكرّر «حديثًا نبويًّا» اسأل ثلاثة أسئلة: مَن رواه؟ وفي أيّ كتاب؟ وما درجته؟ وخريطةٌ كهذه تعين على تبليغ خطبة الوداع بثقةٍ وصدق.

رواة خطبة الوداع

وصلت إلينا خطبة الوداع عن طائفةٍ من الصحابة جاؤوا من قبائل وأقاليم شتّى: منهم من مكّة والمدينة، ومنهم من الطائف واليمن وبوادي نجد. وهذا التنوّع نفسه دليلٌ على سعة انتشار الخطبة منذ يومها الأوّل.

الصحابي	القبيلة / الأصل	الجزء الذي رواه	المصدر
جابر بن عبد الله	الخزرج (بنو سلِمة)، المدينة	خطبة عرفة الطويلة	مسلم ١٢١٨
أبو بكرة (نُفَيع بن الحارث)	من الطائف؛ مولى رسول الله ﷺ	خطبة يوم النحر: استدارة الزمان، الحرمة، «ليبلّغ»	البخاري ٦٧، ٤٤٠٦؛ مسلم ١٦٧٩
عبد الله بن عبّاس	بنو هاشم، قريش؛ ابن عمّ رسول الله ﷺ	خطبة يوم النحر؛ «إنّها لوصيّته»	البخاري ١٧٣٩
عبد الله بن عمر	بنو عديّ، قريش	خطبة يوم النحر؛ «لا ترجعوا بعدي كفّارًا»	البخاري ١٧٤٢
جرير بن عبد الله	بَجيلة، اليمن	«استنصِت الناس»؛ «لا ترجعوا بعدي كفّارًا»	البخاري ١٢١
أبو أمامة الباهليّ	باهلة	خمسة مفاتيح للجنّة؛ الوصيّة، النسب، الدَّين	الترمذي ٦١٦، ٢١٢٠
عمرو بن الأحوص	جُشَم	النساء؛ لا يجني جانٍ إلّا على نفسه	الترمذي ١١٦٣، ٢١٥٩، ٣٠٨٧
أمّ الحُصَين	أحمس (بجيلة)	طاعة الأمير الذي يقود بكتاب الله	مسلم ١٨٣٨
رافع بن عمرو	مُزَيْنة	عليٌّ يُعبِّر عنه بمنًى	أبو داود ١٩٥٦
زيد بن أرقم	الخزرج، المدينة	خطبة غدير خُمّ	مسلم ٢٤٠٨

ولاحظ أنّ من الرواة امرأة: أمّ الحُصَين رضى الله عنها، التي حجّت مع رسول الله ﷺ وروت وصيّته في طاعة الأمير (صحيح مسلم ١٨٣٨؛ وانظر الحلقة الثامنة والعشرين). فلم تكن المرأة مستمعةً لخطبة الوداع فحسب، بل حافظةً لها ومبلِّغة.

ووصف رافع بن عمرو المزنيّ رضى الله عنه مشهد الخطبة بمنًى: «رأيتُ رسول الله ﷺ يخطب الناسَ بمنًى حين ارتفع الضحى على بغلةٍ شهباء، وعليٌّ يُعبِّر عنه، والناس بين قاعدٍ وقائم» (سنن أبي داود ١٩٥٦؛ صحّحه الألباني). وهذه الرواية تؤيّد ما ذُكر في الفصل الثالث عن المبلِّغين لصوته.

المراجع: سنن أبي داود ١٩٥٦؛ صحيح مسلم ١٨٣٨؛ صحيح البخاري ١٧٤٢؛ صحيح مسلم ١٦٧٩.

العبرة

العلم الصحيح يحفظه كثيرون لا واحد. فكلّ صحابيٍّ حفظ جزءًا، فإذا جُمعت الأجزاء تكوّنت الصورة الكاملة. وكذلك نحن: كلّ مَن تعلّم وبلّغ ولو حديثًا واحدًا صار حلقةً في سلسلة هذه الأمانة.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

فنّ البلاغ في خطبة الوداع

شرحت الفصول السابقة ما بُلِّغ في خطبة الوداع، وينظر هذا الفصل في كيف بُلِّغ. فقد استعمل رسول الله ﷺ أساليب متنوّعة جعلت وصاياه تستقرّ في قلوب عشرات الآلاف من السامعين — أساليب ما زالت صالحةً للخطباء والمعلّمين والآباء اليوم.

الأسلوب	مثاله في الخطبة	المصدر
تهيئة المجلس	«استنصِتِ الناس»	البخاري ١٢١
مكانٌ مرئيّ	الخطبة على البعير أو البغلة ليراه الناس	البخاري ٦٧؛ أبو داود ١٩٥٦
سؤالٌ يفتح الذهن	«أيَّ يومٍ هذا؟» — ثمّ السكوت حتّى ظنّوا أنّه سيسمّيه بغير اسمه	البخاري ١٧٣٩، ٤٤٠٦
تشبيهٌ قريب	حرمة النفس «كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»	مسلم ١٢١٨
القدوة من النفس	وضعُ دم أهل بيته ورباهم أوّلًا	مسلم ١٢١٨
التكرار للتأكيد	«ألا هل بلّغت؟» مكرَّرًا مرّات	البخاري ١٧٣٩
إشارة اليد	رفع السبّابة إلى السماء ثمّ نكتُها إلى الناس: «اللهمّ اشهد»	مسلم ١٢١٨
تحميل المسؤوليّة	«ليُبلِّغِ الشاهدُ الغائب»	البخاري ٦٧

وفي حديث جابر وصفٌ للحظة ختام خطبة عرفة: سأل رسول الله ﷺ: «وأنتم تُسألون عنّي، فما أنتم قائلون؟» قالوا: «نشهد أنّك قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ». فقال بإصبعه السبّابة يرفعها إلى السماء وينكُتها إلى الناس: «اللهمّ اشهد، اللهمّ اشهد» — ثلاث مرّات (صحيح مسلم ١٢١٨).

ليست هذه الأساليب فنَّ خطابةٍ فحسب، بل يهدف كلٌّ منها إلى أن يفهم السامع ويتذكّر ويعمل. فالسؤال يفتح الذهن، والتشبيه يقرّب المعنى، والقدوة تبرهن على الصدق، والتكرار يقوّي الحفظ، وتحميل الأمانة يجعل كلّ سامعٍ مبلِّغًا.

العبرة

المضمون الحقّ يحتاج إلى أسلوبٍ حسن. ويستطيع الخطيب أو المعلّم أن يقتدي بخطبة الوداع: يبدأ بشدّ الانتباه، ويستعمل السؤال والتشبيه، ويبدأ القدوة بنفسه، ويكرّر المهمّ، ويختم بتحميل السامعين الأمانة.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

غدير خُمّ: اللفظ الصحيح وفهمه

ذكرت الحلقة الثامنة والعشرون نزول رسول الله ﷺ بغدير خُمّ، وهو ماءٌ بين مكّة والمدينة، في طريق العودة من حجّة الوداع، وفيه خطب مرّةً أخرى. ولأنّ هذه الخطبة كثيرًا ما يُتكلَّم فيها، يجمع هذا الفصل ألفاظها الصحيحة مع فهم علماء أهل السنّة والجماعة.

اللفظ في صحيح مسلم

روى زيد بن أرقم رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قام خطيبًا بماءٍ يُدعى خُمًّا بين مكّة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكّر، ثمّ قال: «أمّا بعد، ألا أيّها الناس، فإنّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسولُ ربّي فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَين: أوّلُهما كتابُ الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به... وأهلُ بيتي، أُذكِّركم اللهَ في أهل بيتي» – ثلاث مرّات (صحيح مسلم ٢٤٠٨).

اللفظ في جامع الترمذي

روى الترمذيّ عن أبي سَريحة أو زيد بن أرقم أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه» (جامع الترمذي ٣٧١٣). وقال الترمذيّ: حسنٌ غريب، وصحّحه الألبانيّ لكثرة طرقه (سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٧٥٠).

> **من كتب السيرة: خلفيّة خطبة غدير خُمّ**
>
> ذكر أهل السيرة والحديث خلفيّة هذه الخطبة. فقد رجع عليٌّ رضى الله عنه من اليمن ولقي رسول الله ﷺ بمكّة في الحجّ (الحلقة الثامنة والعشرون). ولم يرضَ بعض أفراد سريّته في اليمن بشدّة عليٍّ في أمر الخُمس فشكوه. واعترف بُريدة رضى الله عنه نفسه: «وكنتُ أُبغض عليًّا»، فقال رسول الله ﷺ: «يا بُريدة، أتُبغض عليًّا؟» قال: نعم، قال: «لا تُبغضه، فإنّ له في الخُمس أكثرَ من ذلك» (صحيح البخاري ٤٣٥٠). وبيّن العلماء، ومنهم ابن كثير في البداية والنهاية، أنّ خطبة غدير خُمّ جاءت لبيان منزلة عليٍّ وإزالة ذلك العتب.

فهم أهل السنّة والجماعة

فهم علماء أهل السنّة كلمة «مولى» في هذا الحديث بمعنى المحبّة والنصرة والموالاة: فمن أحبّ رسول الله ﷺ ونصره فليحبَّ عليًّا ولينصره. وحبّ عليٍّ وأهل البيت من الإيمان، وبغضهم علامة النفاق (صحيح مسلم ٧٨، في عليّ).

جمعت وصيّة غدير خُمّ أمانتين: الاعتصام بكتاب الله، وإكرام أهل بيت رسول الله ﷺ. ولا تعارض بينهما وبين محبّة سائر الصحابة. فأهل السنّة يُكرمون أهل البيت جميعًا والصحابة جميعًا، ويكفّون ألسنتهم عن الطعن في أحدٍ منهم.

المراجع: صحيح مسلم ٢٤٠٨؛ جامع الترمذي ٣٧١٣؛ صحيح البخاري ٤٣٥٠؛ صحيح مسلم ٧٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية – حادثة غدير خُمّ.

العبرة

عالج رسول الله ﷺ سوء الفهم بين الصحابة ببيانٍ علنيّ وثناءٍ على مَن أُسيء فهمُه. وهكذا تُطفأ الخلافات: ببيان الحقيقة، وإكرام صاحب الحقّ، ودعوة الجميع إلى المحبّة.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

الخطّ الزمنيّ لخُطَب حجّة الوداع

انتظمت خُطَب رسول الله ﷺ في آخر حياته في أسابيع قليلة. ويرتّبها هذا الجدول بحسب التاريخ، مع المكان والمصدر.

التاريخ	المكان	الحدث / المضمون	المصدر
٩ ذي الحجّة ١٠ هـ (الجمعة)	بطن وادي عُرَنة، عرفة	خطبة عرفة: الدماء، الأموال، الربا، النساء، كتاب الله	مسلم ١٢١٨
٩ ذي الحجّة ١٠ هـ، العصر	عرفة	نزول ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾	البخاري ٤٥؛ المائدة ٥: ٣
١٠ ذي الحجّة (يوم النحر)	منًى	خطبة: «أيُّ يومٍ هذا؟»؛ استدارة الزمان؛ «ليبلّغ»	البخاري ١٧٣٩، ٤٤٠٦، ٦٧
١٠ ذي الحجّة	جمرة العقبة	«لتأخذوا مناسككم»	مسلم ١٢٩٧
أيّام التشريق (١١–١٣ ذي الحجّة)	منًى	«لا فضل لعربيٍّ على أعجميّ»	أحمد ٢٣٤٨٩
أيّام التشريق (في بعض روايات التفسير)	منًى	فُهمت سورة النصر إشارةً إلى الأجل	البخاري ٤٩٧٠؛ كتب التفسير
١٨ ذي الحجّة ١٠ هـ (في كتب السيرة)	غدير خُمّ	«وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَين»	مسلم ٢٤٠٨؛ الترمذي ٣٧١٣
أواخر ذي الحجّة ١٠ هـ	المدينة	عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة	كتب السيرة
أواخر صفر ١١ هـ	المدينة	بدء مرض رسول الله ﷺ	كتب السيرة؛ الحلقة الثلاثون

التاريخ	المكان	الحدث / المضمون	المصدر
ربيع الأوّل ١١ هـ	المدينة	وفاة رسول الله ﷺ – بعد أقلّ من ثلاثة أشهر من خطبة الوداع	البخاري ٤٤٦٦؛ الحلقة الثلاثون

من كتب السيرة: التواريخ في الجدول

تاريخا ٩ و١٠ ذي الحجّة ثابتان بالأحاديث الصحيحة. أمّا تاريخ ١٨ ذي الحجّة لغدير خُمّ، وتاريخ الوصول إلى المدينة، وبدء المرض، فمأخوذةٌ من كتب السيرة وهي تقديراتٌ مشهورة. وتاريخ وفاة رسول الله ﷺ الدقيق في ربيع الأوّل مختلَفٌ فيه بين العلماء؛ والمشهور يوم الاثنين ١٢ ربيع الأوّل سنة ١١ هـ.

العبرة

في أقلّ من ثلاثة أشهر بلّغ رسول الله ﷺ وصاياه الأخيرة بعرفة ومنًى وغدير خُمّ، ثمّ رجع إلى ربّه. واغتنم كلّ فرصةٍ لنصح الأمّة. وأعمارنا محدودة كذلك؛ فلنغتنم كلّ فرصةٍ لتبليغ الخير ما دام في الوقت متّسع.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

أسئلة شائعة عن خطبة الوداع

١. كم مرّةً خطب رسول الله ﷺ في حجّة الوداع؟

على الأقلّ بعرفة (٩ ذي الحجّة)، وبمنًى يوم النحر (١٠ ذي الحجّة)، وفي أيّام التشريق، ثمّ بغدير خُمّ في طريق العودة (الفصلان ١، ٣٧).

٢. هل النصّ الطويل الكامل لخطبة الوداع صحيح؟

النصّ الكامل المتّصل أكثره من كتب السيرة (ابن إسحاق). وجلّ مضمونه تشهد له الأحاديث الصحيحة، لكنّ بعض ألفاظه بلا إسنادٍ متّصل. فقدّم ألفاظ كتب الحديث (الفصول ٢، ٢٩، ٣٣).

٣. هل لفظ «كتاب الله وسنّتي» صحيح؟

في صحيح مسلم ذكرت خطبة عرفة «كتاب الله» وحده. أمّا زيادة «وسنّتي» فرواها مالك بلاغًا والحاكم، ودرجتها متكلَّمٌ فيها، لكنّ معناها حقّ بدلالة النساء ٤: ٥٩ (الفصل ١٨).

٤. هل «لا فضل لعربيٍّ على أعجميّ» من كلام النبيّ ﷺ؟

نعم. رواه الإمام أحمد (المسند ٢٣٤٨٩)، وصحّحه الألبانيّ وشعيب الأرناؤوط (الفصل ٢١).

٥. مَن الذي كان يُبلِّغ صوتَ رسول الله ﷺ إلى الناس؟

بمنًى كان عليٌّ رضى الله عنه يُعبِّر عنه (سنن أبي داود ١٩٥٦، صحّحه الألبانيّ). وبعرفة ذكر ابن إسحاق ربيعة بن أميّة بن خلف (الفصلان ٣، ٣٤).

٦. ما معنى «إنّ الزمان قد استدار»؟

أنّ التقويم عاد مطابقًا كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، بعد أن أفسده نسيء الجاهليّة؛ وثُبّتت الأشهر الحرم الأربعة (صحيح البخاري ٤٤٠٦؛ التوبة ٩: ٣٦–٣٧؛ الفصل ١١).

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

٧. لماذا بدأ رسول الله ﷺ بدماء أهل بيته ورباهم؟

لئلّا يقول أحدٌ إنّه استثنى قرابته. فالقائد العادل يبدأ بنفسه (صحيح مسلم ١٢١٨؛ الفصلان ٩، ١٠).

٨. ما حقّ الزوجة المذكور في الخطبة؟

الزوجة أمانة الله؛ وعلى الزوج رزقها وكسوتها بالمعروف. ولكلٍّ من الطرفين حقوقٌ وواجبات (صحيح مسلم ١٢١٨؛ جامع الترمذي ١١٦٣؛ الفصول ١٢–١٤).

٩. ماذا قيل في غدير خُمّ؟

الثَّقَلان: كتاب الله والتذكير بأهل بيته (صحيح مسلم ٢٤٠٨)، و«مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه» (جامع الترمذي ٣٧١٣) (الفصل ٣٦).

١٠. ما صلة خطبة الوداع بالمائدة ٥: ٣؟

نزل قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ عشيّة يوم عرفة نفسه (صحيح البخاري ٤٥). فالخطبة خلاصة الدين الذي كمل (الفصلان ٣٢، ٣٧).

١١. هل يجوز نشر «النصّ الكامل لخطبة الوداع» في وسائل التواصل؟

نعم، إذا قُرن كلّ لفظٍ يُنسب إلى رسول الله ﷺ بمصدره. واجتنب الألفاظ التي لا مصدر لها، فالكذب عليه كبيرةٌ من الكبائر (صحيح البخاري ١١٠؛ الفصلان ٢٩، ٣٣).

١٢. مَن «الغائب» في قوله «ليُبلِّغِ الشاهدُ الغائب»؟

كلّ مسلمٍ لم يكن هناك، ومنهم نحن اليوم. وذكر أبو بكرة أنّه قال: «فإنّ الشاهدَ عسى أن يبلِّغَ مَن هو أوعى له منه» (صحيح البخاري ٦٧؛ الفصل ٢٦).

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

العبرة

تدلّ هذه الأسئلة على أنّ خطبة الوداع ما زالت حيّةً في نقاش الأمّة إلى اليوم. والجواب يرجع دائمًا إلى المصدر الصحيح — وذلك خير ما تُؤدّى به أمانة «ليبلّغ».

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

الدروس والخاتمة

خطبة الوداع **خلاصة رسالة** رسول الله ﷺ في ثلاثٍ وعشرين سنة، أُلقيت على أكبر مجمعٍ للأمّة في زمانه. ومنها نأخذ الدروس الآتية:

العبرة	من هذه الحلقة
أسلوب التعليم المؤثّر	«أيّ يومٍ هذا؟» – سؤال، فسكوت، فربط
القيادة بالقدوة	وضعُ دم أهل بيته ورباهم أوّلًا
العدل للجميع	الدماء والأموال والأعراض؛ لا يجني جانٍ إلّا على نفسه
كرامة المرأة	«اتّقوا الله في النساء»
المساواة	التقوى هي الميزان الوحيد
الاعتصام بالوحي	كتاب الله، تبيّنه السنّة
أمانة البلاغ	ليبلّغ الشاهد الغائب – بدقّة

نحن «الغائب»

حين قال رسول الله ﷺ: «ليُبلِّغ الشاهدُ الغائب»، **كنّا نحن ذلك الغائب.** وقد عبرت هذه الوصيّة أكثر من أربعة عشر قرنًا لتصل إلينا. والآن جاء دورنا لنكون **«الشاهد»** للأجيال القادمة – بالعمل بها وتبليغها.

وإن شاء الله تستمرّ سلسلة **السيرة النبويّة بالحلقة الثلاثين – مرض رسول الله** ﷺ ووفاته: أيّامه الأخيرة في المدينة، ووصاياه الأخيرة، وإمامة أبي بكر في الصلاة، وأحزن يومٍ في تاريخ الأمّة الإسلاميّة. والله أعلم.

المراجع – الْحَلْقَةُ ٢٩

القرآن الكريم والتفسير

القرآن الكريم، بالرسم العثماني. https://quran.com/ms

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (البقرة ٢: ٢٢٨، ٢: ٢٧٨–٢٧٩؛ آل عمران ٣: ١٠٣؛ النساء ٤: ١٩، ٤: ٢٩، ٤: ٥٩؛ المائدة ٥: ٣، ٥: ٣٢، ٥: ٦٧؛ التوبة ٩: ٣٦؛ الحجرات ٤٩: ١٣). https://tafsir.app/ibn-katheer/49/13

الحديث الشريف

صحيح البخاري ٦٧، ١٠٥، ١١٠، ١٢١، ١٧٣٩، ١٧٤١، ٢٢٨٩، ٢٤٨٠، ٤٤٠٢، ٤٤٠٦، ٤٤٦٩، ٤٩٧٠، ٧٢٥٧. https://sunnah.com/bukhari

صحيح مسلم ١٢١٨، ١٢٩٧، ١٦٧٩، ١٨٣٨، ٢٣٢٨، ٢٤٠٨، ٢٥٦٤، ٢٨١٢. https://sunnah.com/muslim

جامع الترمذي ٦١٦، ١١٦٣، ٢١٢٠، ٢١٥٩، ٢٦٥٨، ٣٠٨٧، ٣٨٩٥؛ سنن أبي داود ٢١٤٦. https://sunnah.com

أحمد بن حنبل، المسند (تحقيق شعيب الأرناؤوط)؛ مالك، الموطّأ؛ الحاكم، المستدرك.

الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة.

كتب السيرة والشروح

ابن هشام، السيرة النبويّة (برواية ابن إسحاق) – خطبة حجّة الوداع.

النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم – شرح حديث جابر (رقم ١٢١٨).

ابن حجر العسقلاني، فتح الباري – كتاب العلم، وكتاب الحجّ، وكتاب المغازي.

ابن القيّم، زاد المعاد؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ صفيّ الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم.

وثائق وتاريخ عامّ

الأمم المتّحدة، الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان (١٩٤٨). https://www.un.org/en/about-us/universal-declaration-of-human-rights

ويكيبيديا، «خطبة الوداع». https://en.wikipedia.org/wiki/Farewell_Sermon

ويكيبيديا، «حجّة الوداع». https://en.wikipedia.org/wiki/Farewell_Pilgrimage

ويكيبيديا، «التقويم الهجري». https://en.wikipedia.org/wiki/Hijri_year

ويكيبيديا، «مقاصد الشريعة». https://en.wikipedia.org/wiki/Maqasid

ويكيبيديا، «الربا». https://en.wikipedia.org/wiki/Riba

أحاديث ومصادر إضافية

سنن أبي داود ١٩٥٦ (عليٌّ يُعبِّر عنه بمنًى). https://sunnah.com/abudawud:1956

صحيح البخاري ١٧٤٢ (ابن عمر: خطبة يوم النحر). https://sunnah.com/bukhari:1742

صحيح مسلم ١٦٧٩ (أبو بكرة: خطبة يوم النحر). https://sunnah.com/muslim:1679a

صحيح مسلم ٢٤٠٨ (خطبة غدير خُمّ). https://sunnah.com/muslim:2408a

جامع الترمذي ٣٧١٣ («مَن كنتُ مولاه...»). https://sunnah.com/tirmidhi:3713

صحيح البخاري ٤٣٥٠ (بريدة وعليّ). https://sunnah.com/bukhari:4350

صحيح مسلم ٧٨ (حبّ عليٍّ من الإيمان). https://sunnah.com/muslim:78

صحيح البخاري ٤٥ (نزول المائدة ٥: ٣ بعرفة). https://sunnah.com/bukhari:45

صحيح البخاري ٤٤٦٦ (وفاة رسول الله ﷺ). https://sunnah.com/bukhari:4466

ويكيبيديا، «حادثة غدير خُمّ». https://en.wikipedia.org/wiki/Event_of_Ghadir_Khumm

الْجُزْءُ التَّاسِعُ

الرَّفِيقُ الْأَعْلَى

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ — الْحَلْقَةُ ٣٠

مَرَضُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَوَفَاتُهُ، وَوَصَايَاهُ الْأَخِيرَةُ، وَأَحْزَنُ يَوْمٍ فِي تَارِيخِ الْأُمَّةِ، فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

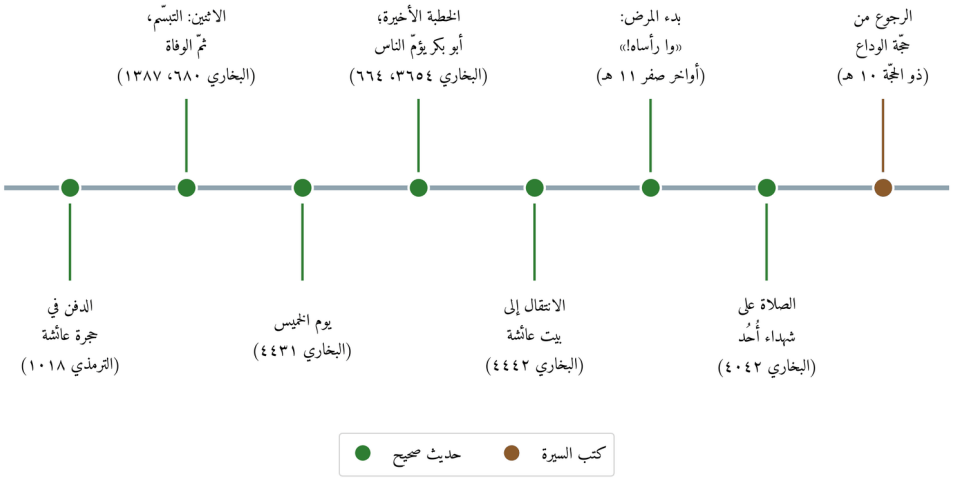
الرفيق الأعلى

حملتنا الحلقتان الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون إلى عرفة ومنًى، فسمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**لعلّي لا أحجّ بعد حجّتي هذه**». وقد صدقت هذه الكلمة؛ فلم تمضِ ثلاثة أشهر على رجوعه إلى المدينة حتّى مرض، وفي **يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل سنة ١١ للهجرة** لحق بربّه.

وتحكي هذه الحلقة تلك الأيّام الأخيرة مستندةً إلى الأحاديث الصحيحة، ولا سيّما رواية عائشة رضى الله عنها، التي مرّضته في بيتها حتّى اللحظة الأخيرة. وسنرى **صبره على الألم، ووصاياه الأخيرة، وابتسامة صباح الاثنين**، وكلمته الأخيرة «**اللهمّ الرفيقَ الأعلى**»، وكيف ثبّت أبو بكر رضى الله عنه أمّةً كادت تنهار من شدّة الحزن.

إنّها قصّةٌ تُقطّع القلوب، لكنّها أيضًا قصّةٌ **تقوّي الإيمان**: فرسول الله ﷺ بشرٌ مات كما يموت سائر البشر، وهذا الدين قائمٌ على **الله الحيّ الذي لا يموت**، لا على أحدٍ سواه.

الخطّ الزمنيّ للأيّام الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ



مدّة المرض نحو ١٠–١٤ يومًا بحسب كتب السيرة؛ والتاريخ الدقيق محلّ بحثٍ عند العلماء.

الرسم ١: الخطّ الزمنيّ للأيّام الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ

ملاحظة: ترجمة آيات القرآن في هذا الكتاب ترجمة عبد الله محمّد بسميه في الأصل الملايوي، وأُثبتت هنا الآياتُ بلفظها العربيّ. ودرجة كلّ حديث مذكورة في إطار الحديث. والروايات عن أيّامه الأخيرة الواردة في كتب السيرة بلا إسنادٍ قويّ وُضعت في الإطار البنّيّ «من كتب السيرة»، أمّا القصص غير الصحيحة — كالحوار الطويل مع ملك الموت — فلم تُدرج.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة — Hj Che Alim Hj Che Haron — مجاني للمسلمين

المدينة بعد حجّة الوداع

رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة في أواخر ذي الحجّة سنة ١٠ للهجرة. وقد انتشر الإسلام في أنحاء جزيرة العرب؛ وتوالت الوفود تدخل في الإسلام (الحلقة ٢٦)؛ وطُهّر الحجّ (الحلقة ٢٧)؛ وأُكمل الدين (الحلقة ٢٨). وفي الظاهر لم تكن هناك علامةٌ على أنّ أمرًا عظيمًا سيقع.

ومضى شهرا المحرّم وصفر من سنة ١١ كالمعتاد؛ يعلّم ويؤمّ الناس في الصلاة ويدبّر شؤون الدولة. وجهّز كذلك **جيشًا بقيادة أسامة بن زيد** ليبعثه إلى تخوم الشام – حيث استُشهد أبو أسامة، زيد بن حارثة، في مؤتة (الحلقة ١٩).

غير أنّ **إشارات الوداع** كانت قد ظهرت منذ زمنٍ لمن تأمّل: اسم «حجّة الوداع»، وآية إكمال الدين، وسورة النصر، وكلماته بمنًى. وأحسّ بها أقربُ الصحابة – أبو بكر وابن عبّاس وفاطمة – قبل غيرهم.

إشارات الوداع

من أوضح هذه الإشارات ما كان في رمضان السابق، حين عارضه جبريل القرآنَ مرّتين. وفي مرضه الأخير أسرّ رسول الله ﷺ إلى فاطمة: «**إنّ جبريل كان يعارضني القرآنَ كلَّ سنةٍ مرّة، وإنّه عارضني العامَ مرّتين، ولا أُراه إلّا حضر أجلي**» (صحيح البخاري ٣٦٢٤)

ومن الإشارات أيضًا سورة النصر: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ (النصر ١١٠: ١) – تفسير ابن كثير ١١٠: ١.

سأل عمر رضى الله عنه أشياخ بدرٍ عن معنى هذه السورة، فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا. ثمّ سأل ابنَ عبّاس وهو حديث السنّ، فقال: «**هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له**». فقال عمر: «ما أعلم منها إلّا ما تعلم» (صحيح البخاري ٤٩٧٠)

فإذا تمّت المهمّة – فُتحت مكّة ودخل الناس في دين الله أفواجًا – حان وقت **التسبيح والاستغفار والرجوع إلى الله**. وهذا من جمال حياة رسول الله ﷺ: لم يعش لنفسه؛ فلمّا أدّى الأمانة تهيّأ للرحيل.

توديع شهداء أُحُد

قُبيل آخر حياته خرج رسول الله ﷺ إلى **أُحُد** – حيث استُشهد سبعون من الصحابة قبل ثماني سنين، ومنهم عمّه حمزة (الحلقة ١٠). ويحكي عقبة بن عامر رضى الله عنه ما رآه:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٠٤٢

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ، أَخْبَرَنَا زَكَرِيَّاءُ بْنُ عَدِيٍّ، أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ حَيْوَةَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ أَبِي الْخَيْرِ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ، كَالْمُوَدِّعِ لِلأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْضُ، وَإِنِّي لأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا. قَالَ فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم.

السند رواه الإمام البخاري: عن محمّد بن عبد الرحيم، عن زكريّا بن عديّ، عن عبد الله بن المبارك، عن حَيْوة بن شُريح، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير مَرثَد بن عبد الله، عن عقبة بن عامر الجُهَنيّ رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أُحُد، رقم ٤٠٤٢؛ وأيضًا رقم ١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٦٥٩٠، ومسلم رقم ٢٢٩٦.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4042

دروسٌ من هذا الحديث

«**كالمودِّع للأحياء والأموات**» – أحسّ عقبة بجوّ الوداع في دعائه وخطبته؛ زار أصحابه الذين سبقوه، وأوصى الأحياء منهم.

تأمّل خشيته: **ليست الشرك**، فقد رسخ التوحيد، بل **الدنيا**. كان يعلم أنّ الغنى والسلطان سيأتيان هذه الأمّة – وقد كان؛ ففي عقودٍ قليلة خضعت فارس والروم. وليس أعظمُ ابتلاءٍ للأمّة المنتصرة الفقرَ، بل **التنافسَ على الدنيا**.

وذكر أيضًا **الحوض**، حوضَه يوم القيامة، **موعدًا للقاء**. ولكلّ مسلمٍ يشتاق إليه هذا هو الوعد: سنلقاه عند الحوض إن ثبتنا على طريقه.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

الدعاء في مقبرة البقيع

كان من عادة رسول الله ﷺ أن يزور مقبرة **بقيع الغَرْقَد** بالمدينة ليلًا. روت عائشة رضى الله عنها أنّه كان يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «**السلام عليكم دارَ قومٍ مؤمنين، وأتاكم ما توعدون... وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهمّ اغفر لأهل بقيع الغرقد**» صحيح مسلم ٩٧٤)

من كتب السيرة: زيارة البقيع في أوّل المرض

روى ابن إسحاق عن **أبي مُوَيْهِبة**، مولى رسول الله ﷺ، أنّه أيقظه ليلةً في أوّل مرضه وقال: «إنّي قد أُمرتُ أن أستغفر لأهل البقيع». فاستغفر لهم، وذكر أنّه خُيّر بين مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثمّ الجنّة، وبين لقاء ربّه والجنّة، فاختار **لقاء ربّه**.

هذه الرواية في سيرة ابن هشام ومسند أحمد؛ وضعّف بعض العلماء إسنادها. ومعناها يشهد له الحديث الصحيح في «العبد الذي خُيِّر» (الفصل ٩).

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية؛ أحمد، المسند (بتحقيق الأرناؤوط).

زيارة القبور **سُنّةٌ** تذكّرنا بالموت. قال رسول الله ﷺ:«**زوروا القبور فإنّها تُذكّر الموت**» (صحيح مسلم ٩٧٦). وكان هو نفسه في آخر حياته يُكثر الدعاء لمن سبقوا.

«وا رأساه!»

بدأ مرضه **بصداعٍ في الرأس**. فقد حكت عائشة رضى الله عنها أنّها اشتكت يومًا فقالت: «وا رأساه!» فمازحها رسول الله ﷺ ثمّ قال: «**بل أنا وا رأساه!**» (صحيح البخاري ٥٦٦٦). وتذكر كتب السيرة أنّ ذلك كان بدءَ المرض الذي تُوفّي فيه، في آخر صفر أو أوّل ربيع الأوّل.

تأمّل كيف كان – مع ألمه – **يمازح زوجته بلطف**. فقد كانت علاقته بعائشة مملوءةً بالمودّة والرحمة إلى آخر لحظاته. وفي هذا درسٌ لنا: ألّا يجعلنا المرض غلاظًا على من نحبّ.

وأصابته كذلك حُمّى شديدة. ففي روايةٍ أنّ عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مسّه فقال: «يا رسول الله، إنّك لتُوعَك وعكًا شديدًا». قال: «**أجل، إنّي أُوعَك كما يُوعَك رجلان منكم**». قال: «ذلك أنّ لك أجرين؟» قال: «أجل». ثمّ قال: «**ما من مسلمٍ يصيبه أذًى إلّا حاتّ الله عنه خطاياه كما تَحاتُّ ورقُ الشجر**» (صحيح البخاري ٥٦٤٨).

الأنبياء **أشدُّ الناس بلاءً**. ولم يكن مرض رسول الله ﷺ علامةَ ضعفٍ أو غضبٍ من الله، بل **رفعًا للدرجات**. ولكلّ مسلمٍ مريضٍ في هذا الحديث سلوى: فكلّ ألمٍ يُصبر عليه يحطّ الخطايا.

أثر سُمّ خيبر

في مرضه أحسّ رسول الله ﷺ بألمٍ يعود إلى حادثةٍ قديمة. روت عائشة رضى الله عنها أنّه قال: «**يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوانُ وجدتُ انقطاعَ أَبْهَري من ذلك السُّمّ**» (صحيح البخاري ٤٤٢٨)

وكما مرّ في الحلقة ١٦، أهدت امرأةٌ يهوديّة اسمها زينب بنت الحارث – بعد فتح خيبر – **شاةً مشويّةً مسمومة**. فلاك رسول الله ﷺ منها مُضغةً ثمّ لفظها، لكنّ أثر السمّ بقي في جسده **نحو أربع سنين**.

ومن هذا الحديث ذهب بعض العلماء – كابن مسعود والزهريّ – إلى أنّ رسول الله ﷺ مات **شهيدًا** بأثر سمّ العدوّ، فجمع الله له شرف **النبوّة والشهادة** معًا.

ومع ذلك فإنّ رسول الله ﷺ **لم ينتقم** من تلك المرأة أوّل الأمر، ولم يُحمّل اليهود عامّةً الوزر. بل احتمل ذلك الألم سنين صابرًا، دون أن يشكو إلى الناس.

«أين أنا غدًا؟»

كان رسول الله ﷺ زوجًا عادلًا جدًّا بين أزواجه، يقسم لهنّ في المبيت. فلمّا مرض بقي يدور عليهنّ، لكنّه كان يسأل: «**أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟**» – يريد يوم عائشة (صحيح البخاري ٤٤٥٠).

ففهم أزواجه رغبته، فأذِنّ له – في رحمةٍ ومودّة – **أن يُمرَّض في بيت عائشة**. وتحكي عائشة نفسها:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٤٤٢

حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ، قَالَ حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، قَالَ حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَتْ لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي، فَأَذِنَّ لَهُ، فَخَرَجَ وَهُوَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ تَخُطُّ رِجْلاَهُ فِي الأَرْضِ، بَيْنَ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَبَيْنَ رَجُلٍ آخَرَ. قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ فَأَخْبَرْتُ عَبْدَ اللَّهِ بِالَّذِي قَالَتْ عَائِشَةُ، فَقَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ هَلْ تَدْرِي مَنِ الرَّجُلُ الآخَرُ الَّذِي لَمْ تُسَمِّ عَائِشَةُ قَالَ قُلْتُ لاَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ عَلِيٌّ. وَكَانَتْ عَائِشَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم تُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا دَخَلَ بَيْتِي وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ قَالَ هَرِيقُوا عَلَىَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ. فَأَجْلَسْنَاهُ فِي مِخْضَبٍ لِحَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْقِرَبِ، حَتَّى طَفِقَ يُشِيرُ إِلَيْنَا بِيَدِهِ أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ قَالَتْ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَصَلَّى لَهُمْ وَخَطَبَهُمْ.

السند رواه الإمام البخاري: عن سعيد بن عُفَير، عن الليث بن سعد، عن عُقَيل بن خالد، عن ابن شهاب الزهريّ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها، وعبيد الله عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبيّ ﷺ ووفاته، رقم ٤٤٤٢؛ وأيضًا رقم ١٩٨، ٦٦٥، ومسلم رقم ٤١٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4442

دروسٌ من هذا الحديث

انظر كيف دقّق رسول الله ﷺ في **العدل** بين أزواجه: فمع مرضه وضعفه لم ينتقل إلى بيت عائشة إلّا بعد أن **استأذن** سائر أزواجه. وهذا درسٌ عظيم للزوج المعدِّد – ولكلّ من حمل أمانة العدل.

وتأمّل كذلك الرجلين اللذين حملاه: **العبّاس** عمّه، و**عليّ** ابن عمّه وصهره. ورجلاه تخطّان في الأرض – صورةٌ تُقطّع القلب تُبيّن شدّة ضعفه يومئذ.

سبعُ قِرَب والخطبة الأخيرة

وفي الحديث نفسه تحكي عائشة أنّ رسول الله ﷺ طلب أن يُصبّ عليه **من سبع قِرَبٍ لم تُحلَل أَوكيتُهنّ، «لعلّي أعهد إلى الناس».** فخفّف الماء البارد حُمّاه قليلًا، فخرج إلى المسجد فصلّى بهم وخطبهم (صحيح البخاري ٤٤٤٢).

ومع شدّة الألم كانت أعظمُ رغبته أن **يوصي الأمّة.** لم يطلب الراحة فحسب، بل طلب قوّةً على البلاغ. وتلك صفة الرسول **الحريص على أمّته** (التوبة ٩: ١٢٨).

وكانت تلك **آخرَ خطبةٍ** له على المنبر. ومن مضمونها في الروايات الصحيحة: **العبد الذي خُيِّر،** وفضل **أبي بكر،** والوصيّة **بالأنصار، والتحذير من اتّخاذ القبور مساجد.** وسنراها واحدةً واحدةً في الفصول الآتية.

وقال في الأنصار: «**أوصيكم بالأنصار، فإنّهم كَرِشي وعَيبتي، وقد قضَوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**» (صحيح البخاري ٣٧٩٩).

العبد الذي خُيِّر

على المنبر قال رسول الله ﷺ كلامًا ظاهرُه عامّ، لكنّ صحابيًّا واحدًا فقط فهم مراده الحقيقيّ. روى أبو سعيد الخدريّ رضى الله عنه:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٣٦٥٤

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ، حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ، قَالَ حَدَّثَنِي سَالِمٌ أَبُو النَّضْرِ، عَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم النَّاسَ وَقَالَ إِنَّ اللَّهَ خير عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ. قَالَ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَعَجِبْنَا لِبُكَائِهِ أَنْ يُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ عَبْدٍ خُيِّرَ. فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم هُوَ الْمُخَيَّرَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ، لاَ يُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ باب إِلاَّ سُدَّ، إِلاَّ باب أَبِي بَكْرٍ.

السند رواه الإمام البخاري: عن عبد الله بن محمّد المُسنَديّ، عن أبي عامر العَقَديّ، عن فُلَيح بن سليمان، عن سالم أبي النَّضر، عن بُسر بن سعيد، عن أبي سعيد الخدريّ رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ، باب قول النبيّ «سُدّوا الأبواب إلّا باب أبي بكر»، رقم ٣٦٥٤؛ وأيضًا رقم ٤٦٦، ٣٩٠٤، ومسلم رقم ٢٣٨٢.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:3654

دروسٌ من هذا الحديث

تعجّب سائر الصحابة: لماذا يبكي أبو بكر إذا حدّث رسول الله ﷺ عن «عبدٍ»؟ لم يظنّوا أنّ **ذلك العبد هو رسول الله ﷺ نفسه**، وأنّ اختياره **الرجوعُ إلى الله**. أمّا أبو بكر، أقرب الأصحاب إليه، ففهم الإشارة في الحال.

ويدلّ هذا الحديث على أنّ رسول الله ﷺ **اختار الآخرة راضيًا**. عُرضت عليه الدنيا فاختار ما عند الله. وقد عاش حياته كلّها متقلّلًا – ينام على الحصير، وتمرّ الأيّام لا يُوقد في بيته نار – وفي النهاية اختار لقاء ربّه.

منزلة أبي بكر

وفي الخطبة نفسها أثنى رسول الله ﷺ على أبي بكر **أعظمَ الثناء**:«**إنّ أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنتُ متّخذًا خليلًا غيرَ ربّي لاتّخذتُ أبا بكرٍ خليلًا**» (صحيح البخاري ٣٦٥٤)

وأمر كذلك: «**لا يبقينّ في المسجد بابٌ إلّا سُدّ، إلّا بابَ أبي بكر**». فقد كانت للبيوت المحيطة بالمسجد أبوابٌ صغيرة تفضي إليه، فسُدّت كلّها إلّا باب أبي بكر. ورأى العلماء في ذلك **إشارةً** إلى منزلة أبي بكر في خلافته من بعده.

وقد بدأت صحبة أبي بكر منذ أوّل الدعوة: فهو أوّل من آمن من الرجال (الحلقة ٣)، وصاحبه في الغار ليلة الهجرة (الحلقة ٧)، وأنفق ماله في عتق المعذَّبين من العبيد، وجاء **بماله كلّه** في تجهيز تبوك (الحلقة ٢٤). فثناء رسول الله عليه في آخر حياته **شهادةٌ** لتلك الحياة كلّها.

«مُروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس»

فلمّا اشتدّ مرضه حتّى عجز عن الخروج إلى المسجد قال: «**مُروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس**». فحاولت عائشة رضى الله عنها أن تصرفه إلى غيره فقالت: «**إنّ أبا بكرٍ رجلٌ رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع**». فأعاد أمره ثلاثًا، فصلّى أبو بكر بالناس (صحيح البخاري ٦٦٤).

وصلّى أبو بكر بالناس **سبعَ عشرةَ صلاة** بحسب روايات السيرة. وفي روايةٍ صحيحة أنّ رسول الله ﷺ وجد خِفّة، فخرج يُهادى بين رجلين حتّى جلس إلى جنب أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاته، والناس يقتدون بصلاة أبي بكر (صحيح البخاري ٦٦٤).

ثمّ احتجّ الصحابة بعد ذلك: «**رضيه رسول الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا؟**» فقد كانت إمامة الصلاة أشرف منزلةٍ في المجتمع الإسلاميّ الأوّل، فصار تقديم أبي بكر إليها من **أقوى الحجج** في مبايعته بالخلافة.

الوصيّة في القبور

ومن الوصايا التي كرّرها رسول الله ﷺ في مرضه التحذيرُ من **تعظيم القبور**. روت عائشة رضى الله عنها:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٤٤١

حَدَّثَنَا الصَّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ هِلاَلٍ الْوَزَّانِ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ ـ رضى الله عنها ـ قَالَتْ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ. قَالَتْ عَائِشَةُ لَوْلاَ ذَلِكَ لأُبْرِزَ قَبْرُهُ. خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.

السند رواه الإمام البخاري: عن الصَّلْت بن محمّد، عن أبي عَوانة الوضّاح، عن هلال الوزّان، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبيّ ﷺ ووفاته، رقم ٤٤٤١؛ وأيضًا رقم ٤٣٥، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ومسلم رقم ٥٢٩.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4441

دروسٌ من هذا الحديث

لماذا كانت هذه الوصيّة بهذه الأهمّيّة في اللحظات الأخيرة؟ لأنّه كان يعلم أنّ **الغلوّ في محبّة الصالحين** قد يجرّ إلى الشرك. فقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بدؤوا بعبادة الأصنام حين صوّروا صالحيهم تماثيل، وأهل الكتاب اتّخذوا قبور أنبيائهم مواضع عبادة.

لقد كان رسول الله ﷺ **يحرس توحيد أمّته إلى آخر نفَس**. لم يُرد أن يصير قبره هو مكانًا يُعبد. وقد فهم الصحابة ذلك: فدُفن في حجرة عائشة لا في مكانٍ مكشوف. وزيارة قبره والسلام عليه مشروعة، لكنّ **الدعاء والسؤال لا يكونان إلّا لله**.

وقد فهم الصحابة هذه الوصيّة حقّ الفهم؛ فلمّا دفنوه لم يبنوا على قبره بناءً فخمًا، ولم يتّخذوه عيدًا، وبقوا يصلّون في مسجده مستقبلين القبلة لا القبر.

وهذه الوصيّة كذلك من **رحمته** بأمّته؛ إذ لم يُرد أن تقع في الخطأ الذي أهلك الأمم قبلها. والقائد الذي يحبّ أتباعه حقًّا يسدّ الأبواب التي قد تفضي بهم إلى الضلال، وإن بدت تلك الأبواب حسنةً في أوّل الأمر.

ولنا فيها تذكيرٌ بأنّ محبّة رسول الله ﷺ والصالحين ينبغي أن تكون **في حدود الشرع**: باتّباع هديهم، والدعاء لهم، وزيارة القبور بأدب – لا بسؤالهم ما لا يقدر عليه إلّا الله.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

يوم الخميس

روى ابن عبّاس رضى الله عنهما الحادثةَ المعروفة **بيوم الخميس**: اشتدّ وجعه فقال: «**ائتوني أكتبْ لكم كتابًا لن تضلّوا بعده أبدًا**». فتنازع الحاضرون؛ فبعضهم أراد أن يأتي به، وبعضهم قال: قد غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبُنا. فقال: «**دعوني، فالذي أنا فيه خيرٌ ممّا تدعونني إليه**» (صحيح البخاري ٤٤٣١)

ثمّ أوصاهم **بثلاث**: إخراج المشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفد بنحو ما كان يجيزهم، والثالثة نسيها الراوي (صحيح البخاري ٤٤٣١).

من كتب السيرة: فهمُ حادثة يوم الخميس

بيّن علماء أهل السنّة أنّ تلك الكتابة لو كانت **واجبة** لما تركها رسول الله ﷺ لاختلاف أحد، كما لم يترك تبليغ الوحي قطّ مع المعارضة. وقد عاش **أيّامًا بعد** يوم الخميس، وأوصى فيها بأمورٍ كثيرة مشافهةً.

والقرآن نفسه قد قرّر أنّ الدين قد كمل (المائدة ٥: ٣)، وقد ترك فينا كتاب الله عصمةً (الحلقة ٢٩). فلا يجوز أن تُتّخذ هذه الحادثة ذريعةً للطعن في الصحابة أو التشكيك في كمال الدين.

المرجع:

النوويّ، شرح صحيح مسلم؛ ابن حجر، فتح الباري – كتاب العلم وكتاب المغازي.

«الصلاةَ، الصلاةَ!»

ما الوصيّة الأخيرة لرسول الله ﷺ لأمّته؟ قال عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه :«**كان آخرُ كلام رسول الله ﷺ: الصلاةَ الصلاةَ، اتّقوا الله فيما ملكت أيمانكم**» سنن أبي داود ٥١٥٦ – صحيح)

أمران: **الصلاة** – حقّ الله وعمود الدين، **والمماليك** – أضعف فئات المجتمع. ففي اللحظات الأخيرة جمع **حقَّ الله وحقَّ أضعف الناس** في وصيّةٍ واحدة.

واليوم يدخل في «ما ملكت أيمانكم» كذلك من هم تحت نفقتنا وسلطاننا: **العمّال، وخدم البيوت، والعمّال الوافدون**، وكلّ من يعتمد علينا. فظلمهم، أو حبس أجورهم، أو إهانة كرامتهم، يخالف الوصيّة الأخيرة لرسول الله ﷺ.

وماذا عن صلاتنا؟ إذا كانت الوصيّة الأخيرة لأبٍ يحفظها أبناؤه، **فالوصيّة الأخيرة لرسول الله ﷺ** أحقّ بالحفظ. والمحافظة على الصلوات الخمس أوضح دليلٍ على محبّة المسلم له.

بعث أسامة

قبل مرضه أمّر رسول الله ﷺ **أسامة بن زيد** – وهو شابّ في نحو الثامنة عشرة بحسب أهل السيرة – على جيشٍ إلى تخوم الروم. فطعن بعض الناس في إمارة هذا الشابّ على كبار الصحابة، فقام فقال: «**إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وايمُ الله إن كان لخليقًا للإمارة... وإنّ هذا لمن أحبّ الناس إليّ بعده**» (صحيح البخاري ٤٤٦٩)

وكان جيش أسامة يتجهّز بالجُرف خارج المدينة حين اشتدّ مرضه، فأخّروا المسير. وبعد وفاته أنفذ **أبو بكر** – في أوّل قراراته خليفةً – ذلك الجيش رغم خوف الكثيرين، لأنّ **ذلك أمرُ رسول الله** ﷺ.

والدرس: أنّ القيادة في الإسلام تقوم على **الكفاءة والأمانة**، لا على السنّ أو النسب وحدهما. وأنّ أمر رسول الله ﷺ **يُنفَّذ ولو بعد غيابه** – وهذا هو الوفاء الحقّ.

بكاء فاطمة وضحكها

حكت عائشة رضى الله عنها أنّ **فاطمة** جاءت تعود أباها، **كأنّ مشيتها مشيُ رسول الله** ﷺ. فرحّب بها: «مرحبًا بابنتي»، ثمّ أجلسها إلى جنبه وأسرّ إليها حديثًا، **فبكت.** ثمّ أسرّ إليها حديثًا آخر، **فضحكت.** قالت عائشة: «ما رأيتُ كاليوم فرحًا أقربَ من حزن» (صحيح البخاري ٣٦٢٣).

وأبت فاطمة أن تفشي السرّ ما دام أبوها حيًّا. فلمّا قُبض أخبرت: أنّه في المرّة الأولى أخبرها أنّ **جبريل عارضه القرآن العامَ مرّتين، وأنّ أجله قد حضر**، فبكت. وفي الثانية قال: «**أما ترضين أن تكوني سيّدةَ نساء أهل الجنّة**»، وأنّها **أوّلُ أهل بيته لحوقًا به** – فضحكت (صحيح البخاري ٣٦٢٤).

وقد تحقّق الخبران كلاهما: فتُوفّي رسول الله ﷺ بعد أيّام، **وتُوفّيت فاطمة بعد أبيها بنحو ستّة أشهر.** ولم يكن ضحكها فرحًا بالفراق، بل **فرحًا بقرب اللقاء** بأبيها الحبيب.

وتأمّل كذلك **أمانة فاطمة**: كتمت سرّ أبيها وإن سألتها عائشة، أقربُ أزواجه إليه. وحفظ السرّ من الخلق الذي وُرث من بيت النبوّة.

ابتسامة صباح الاثنين

في صباح يوم الاثنين، آخر يومٍ في حياة رسول الله ﷺ، وقعت حادثةٌ لم ينسها الصحابة قطّ. يحكي أنس بن مالك رضى الله عنه:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٦٨٠

حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، قَالَ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ - وَكَانَ تَبِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَخَدَمَهُ وَصَحِبَهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الاِثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلاَةِ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا، وَهْوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم خَارِجٌ إِلَى الصَّلاَةِ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ أَتِمُّوا صَلاَتَكُمْ، وَأَرْخَى السِّتْرَ، فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ.

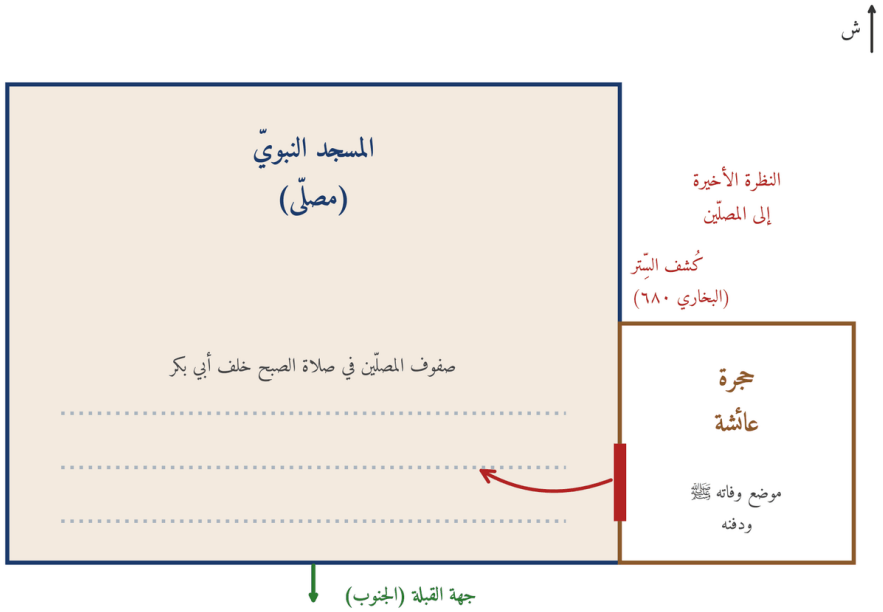
السند رواه الإمام البخاري: عن أبي اليمان الحكم بن نافع، عن شعيب بن أبي حمزة، عن ابن شهاب الزهريّ، عن أنس بن مالك الأنصاريّ رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحقّ بالإمامة، رقم ٦٨٠؛ وأيضًا رقم ٦٨١، ٧٥٤، ٤٤٤٨، ومسلم رقم ٤١٩.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:680

مخطّط تقريبيّ: حجرة عائشة بجوار المسجد النبويّ



صورة مبسّطة، لا مخطّط حقيقيّ؛ كانت حُجُرات أمّهات المؤمنين متّصلة بالمسجد من جهة الشرق.

الرسم ٢: مخطّطٌ تقريبيّ لحجرة عائشة بجوار المسجد النبويّ.

دروسٌ من هذا الحديث

تخيّل المشهد الذي رآه رسول الله ﷺ ذلك الصباح: **صفوفَ أمّته** قائمةً مستويةً نحو القبلة خلف أبي بكر في صلاة الصبح جماعة. قبل ثلاثٍ وعشرين سنة كان يصلّي وحده أو مع نفرٍ قليل سرًّا في مكّة. والآن **امتلأ المسجد** بأمّةٍ مؤمنةٍ منتظمة.

كانت تلك البسمة **بسمةَ رسولٍ يرى ثمرة دعوته**. فقد أُدّيت الأمانة، وقامت الأمّة على قدميها، وأُقيمت الصلاة وإن لم يكن هو إمامها. وكانت تلك آخر نظرةٍ للصحابة إلى وجهه وهو حيّ.

وظنّ الصحابة الذين رأوه ذلك الصباح أنّه قد برئ. فانصرف كثيرٌ منهم إلى بيوتهم أو أشغالهم فرحين، ومنهم أبو بكر الذي ذهب إلى منزله بالسُّنْح. ولم يعلموا أنّ **ذلك كان الوداع**.

أمّ أبو بكر الناسَ بمرأى من رسول الله ﷺ نفسه، وهو راضٍ به. وكان ذلك المشهد – رسول الله ﷺ ينظر إلى أمّته تصلّي خلف أبي بكر – كأنّه **تسليمٌ للأمانة** صامتٌ لكنّه واضحٌ لمن فهم.

وأخذ العلماء من ذلك أنّ **الاستمرار** علامة نجاح القائد. فالقائد الناجح لا يقود في حياته فقط، بل يُعدّ أمّةً قادرةً على الثبات بعد غيابه. وقد ربّى رسول الله ﷺ جيلًا قادرًا على إقامة الصلاة والدعوة والحكم من بعده.

ويعلّمنا صباح الاثنين ذاك أن **نُقدّر كلّ لقاء**. فنحن لا ندري متى تكون النظرة الأخيرة إلى الوالدين أو الأصحاب أو المعلّمين. ظنّ الصحابة أنّ رسول الله ﷺ قد برئ، فإذا هي نظرتهم الأخيرة إلى وجهه.

السواك الأخير

قُبيل ظهر ذلك الاثنين كان رسول الله ﷺ في حجرة عائشة، **مسندًا إلى صدرها**. فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر – أخو عائشة – ومعه **سواكٌ رطب** يستنّ به، فأبدّه رسول الله ﷺ بصره (صحيح البخاري ٤٤٣٨).

ففهمت عائشة نظرته، فأخذت السواك **فقضمته وطيّبته** ثمّ دفعته إلى رسول الله ﷺ، فاستنّ به. قالت عائشة: «**فما رأيتُ رسول الله ﷺ استنّ استنانًا قطّ أحسنَ منه**» (صحيح البخاري ٤٤٣٨)

ثمّ كانت عائشة تذكر ذلك شاكرةً: «**إنّ من نعم الله عليّ أنّ رسول الله ﷺ تُوفّي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحْري ونَحْري، وأنّ الله جمع بين ريقي وريقه عند موته**» (صحيح البخاري ٤٤٤٩)

وإلى اللحظات الأخيرة حافظ رسول الله ﷺ على **النظافة** – وهي من أحبّ السنن إليه. وقد قال: لولا أن أشقّ على أمّتي لأمرتهم بالسواك عند كلّ صلاة (صحيح البخاري ٨٨٧). فكانت هذه السنّة الصغيرة من آخر أعماله في الدنيا.

«اللهمّ الرفيقَ الأعلى»

كان بين يدي رسول الله ﷺ ركوةٌ فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «**لا إله إلّا الله، إنّ للموت سكرات**») صحيح البخاري ٤٤٤٩) ثمّ نصب يده وشخص بصره. وتحكي عائشة رضى الله عنها تلك اللحظات الأخيرة:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٤٦٣

حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ، قَالَ يُونُسُ قَالَ الزُّهْرِيُّ أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، فِي رِجَالٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ وَهْوَ صَحِيحٌ إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرَ. فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى. فَقُلْتُ إِذًا لاَ يَخْتَارُنَا. وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهْوَ صَحِيحٌ قَالَتْ فَكَانَتْ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى.

السند رواه الإمام البخاري: عن بِشر بن محمّد، عن عبد الله بن المبارك، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب الزهريّ، عن سعيد بن المسيّب، عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب آخر ما تكلّم به النبيّ ﷺ، رقم ٤٤٦٣؛ وأيضًا رقم ٤٤٣٧، ٦٣٤٨، ٦٥٠٩، ومسلم رقم ٢٤٤٤.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4463

دروسٌ من هذا الحديث

مَن «الرفيق الأعلى»؟ يبيّنه القرآن: ﴿**فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا**﴾ (النساء ٤: ٦٩) – تفسير ابن كثير ٤: ٦٩.

وروت عائشة أنّه دعا أيضًا: «**اللهمّ اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى**» (صحيح البخاري ٤٤٤٠) ثمّ مالت يده، **وفاضت روحه الشريفة إلى بارئها**. إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

إنّ رسول الله ﷺ **خُيِّر** فاختار الله – كما كان يختار الله طوال حياته. ولم تكن كلماته الأخيرة عن مالٍ أو سلطانٍ أو أهل، بل عن **لقاء ربّه** ورفقاء الجنّة.

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

حزن فاطمة

لم يكن أحدٌ أشدَّ إحساسًا بالفقد من ابنته الباقية على قيد الحياة، **فاطمة** رضى الله عنها. روى أنس بن مالك رضى الله عنه:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٤٦٢

حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ ـ عَلَيْهَا السَّلاَمُ ـ وَاكَرْبَ أَبَاهُ. فَقَالَ لَهَا لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ. فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ يَا أَبَتَاهْ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ، يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهُ. فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ ـ عَلَيْهَا السَّلاَمُ ـ يَا أَنَسُ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم التُّرَابَ

السند رواه الإمام البخاري: عن سليمان بن حرب، عن حمّاد بن زيد، عن ثابت البُنانيّ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبيّ ﷺ ووفاته، رقم ٤٤٦٢.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4462

دروسٌ من هذا الحديث

«ليس على أبيكِ كربٌ بعد اليوم» – كلمةٌ تُسلّي كلّ مؤمنٍ فقد حبيبًا. فالموت للمؤمن نهايةُ آلام الدنيا وبدايةُ حياةٍ خيرٍ منها.

وكلمة فاطمة **«أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟»** تصوّر ثِقَل ذلك الفقد. ومع ذلك لم تَنُح ولم تشقّ ثوبًا، بل عبّرت عن حزنها بكلامٍ مؤدّبٍ مملوءٍ إيمانًا – لأنّ رسول الله ﷺ علّمهم: «إنّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلّا ما يرضى ربُّنا» (صحيح البخاري ١٣٠٣).

أظلمُ يوم

وصف أنس بن مالك رضى الله عنه، الذي خدم رسول الله ﷺ عشر سنين، الفرقَ بين يومين في حياته: «**لمّا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينةَ أضاء منها كلَّ شيء، فلمّا كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلَّ شيء**» (جامع الترمذي ٣٦١٨ – حسن)

وزاد أنس: «**وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيديَ وإنّا لفي دفنه حتّى أنكرنا قلوبنا**». فلم يكن فقده فقدَ قائدٍ فحسب، بل **فقدَ النور** الذي كان يضيء حياتهم كلّ يوم.

امتلأت المدينة ذلك اليوم بالبكاء، فمن الصحابة من قعد لا يستطيع القيام، ومنهم من خرس لا يستطيع الكلام، ومنهم من لم يستطع تصديق الخبر. وذكر العلماء أنّ **أعظم مصيبةٍ** أصابت المسلمين وفاةُ رسول الله ﷺ، لأنّ بها انقطع الوحي من السماء.

وفي روايةٍ أنّ رسول الله ﷺ قال: إذا أُصيب أحدكم بمصيبةٍ فليذكر مصيبته بي، فإنّها **أعظم المصائب** (سنن ابن ماجه ١٥٩٩ – في إسناده كلام، وصحّحه الألبانيّ بشواهده). فكلّ حزنٍ لنا يهون إذا قيس بذلك الفقد.

ذهولُ عمر

لمّا انتشر خبر الوفاة لم يستطع **عمر بن الخطّاب** رضى الله عنه – أشدّ الصحابة حزمًا وشجاعة – أن يقبله. فقام يقول: «**والله ما مات رسول الله** ﷺ! وقال: ليبعثنّه الله (صحيح البخاري ٣٦٦٧).

ثمّ قال عمر بعد ذلك: «**والله ما كان يقع في نفسي إلّا ذاك**» (صحيح البخاري ٣٦٦٧). وليس هذا ضعفَ إيمان، بل علامةُ حبٍّ بالغ العمق؛ فقد كانت الصدمة أعظم من أن يحتملها عقله.

وتعلّمنا هذه القصّة أنّ **أقوى الناس قد يضطرب** في المصيبة العظمى. والمهمّ الرجوع إلى الحقّ عند التذكير – وذلك ما فعله عمر حين تلا أبو بكر آية القرآن.

«مَن كان يعبد محمّدًا...»

وبينما المدينة في ذهولها أقبل أبو بكر رضى الله عنه من منزله بالسُّنح، فلم يكلّم أحدًا حتّى دخل حجرة عائشة فوجد صاحبه الحبيب. وتحكي عائشة وابن عبّاس ما كان بعد ذلك:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٤٤٥٤

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ، أَنَّ عَائِشَةَ، أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ـ رضى الله عنه ـ أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَتَيَمَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهْوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى. ثُمَّ قَالَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَاللَّهِ لاَ يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا. قَالَ الزُّهْرِيُّ وَحَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ، خَرَجَ وَعُمَرُ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ. فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمَّا بَعْدُ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَىٌّ لاَ يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} إِلَى قَوْلِهِ {الشَّاكِرِينَ} وَقَالَ وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلاَّ يَتْلُوهَا. فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلاَىَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَدْ مَاتَ.

السند رواه الإمام البخاري: عن يحيى بن بُكَير، عن الليث بن سعد، عن عُقَيل بن خالد، عن ابن شهاب الزهريّ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة رضى الله عنها وعبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما؛ وعن الزهريّ عن سعيد بن المسيّب.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبيّ ﷺ ووفاته، رقم ٤٤٥٢-٤٤٥٤، وأيضًا رقم ١٢٤١، ٣٦٦٧، ٣٦٦٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:4454

دروسٌ من هذا الحديث

والآية التي تلاها أبو بكر: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران ٣: ١٤٤) – تفسير ابن كثير ٣: ١٤٤.

تأمّل ثبات أبي بكر: بكى وقبّل وجه صاحبه – **فلم يكن حزنه أقلّ من حزن غيره.** لكنّه لمّا خرج إلى الأمّة تكلّم **بسكينةٍ ووضوحٍ مستندًا إلى الوحي**، ولم يدع العاطفة تُغرق الحقّ.

إنّ كلمة «**مَن كان يعبد محمّدًا فإنّ محمّدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت**» من أهمّ الكلمات في تاريخ الإسلام. فقد **حفظت توحيد الأمّة** في أحرج اللحظات، وصارت أصلًا في أنّ هذا الدين قائمٌ بالله لا بأحدٍ من البشر.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾

وفي روايةٍ أخرى تلا أبو بكر أيضًا هذه الآية (صحيح البخاري ٣٦٦٧):

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر ٣٩: ٣٠) – تفسير ابن كثير ٣٩: ٣٠.

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ (الأنبياء ٢١: ٣٤) – تفسير ابن كثير ٢١: ٣٤.

نزلت هذه الآيات قبل ذلك بسنين، وقرأها الصحابة مرّاتٍ كثيرة. ومع ذلك قال ابن عبّاس: «**والله لكأنّ الناس لم يكونوا يعلمون أنّ الله أنزلها حتّى تلاها أبو بكر**» (صحيح البخاري ٤٤٥٤). فالحزن قد يُنسي المرءَ ما يعلمه – ودور العالِم **التذكير**.

وتؤكّد هذه الآيات كذلك **بشريّةَ رسول الله** ﷺ. فهو أكرم البشر، وحبيب الله، وسيّد الأنبياء – لكنّه بشرٌ يموت. وهذا ما يميّز الإسلام عن العقائد التي ترفع الأنبياء أو الصالحين إلى مرتبة الألوهيّة. فنحن نحبّه من كلّ قلوبنا، لكنّنا **لا نعبد إلّا الله**.

ولنا في هذه الآية تذكير: إذا كان رسول الله ﷺ قد مات، فكيف بنا؟ ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ (آل عمران ٣: ١٨٥). فالسؤال ليس هل نموت، بل **على أيّ حالٍ** نلقى الله.

البيعة لأبي بكر

قبل دفنه كان على المسلمين أن يحسموا أمرًا بالغ الأهمّيّة: **مَن يتولّى الأمر؟** فاجتمع الأنصار في **سقيفة بني ساعدة**، وذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة (صحيح البخاري ٣٦٦٨).

وبعد المحاورة قال عمر رضى الله عنه لأبي بكر: «**بل نبايعك أنت، فأنت سيّدنا وخيرنا وأحبّنا إلى رسول الله ﷺ**». فأخذ عمر بيده فبايعه، وبايعه الناس (صحيح البخاري ٣٦٦٨).

وفي وقتٍ قصير عادت الأمّة التي كادت تتفرّق من الحزن **مجتمعةً على قيادةٍ واحدة**. وقد أعانت الإشارات التي تركها رسول الله ﷺ – إمامة أبي بكر في الصلاة، وبابه الذي تُرك مفتوحًا، وثناؤه عليه – الصحابةَ على الاتّفاق.

أمّا خلافة أبي بكر والخلفاء الراشدين فخارجةٌ عن نطاق سلسلة «السيرة النبوية» هذه، ولعلّها تكون – إن شاء الله – سلسلةً مستقلّة في المستقبل.

غُسل رسول الله ﷺ

يوم الثلاثاء شرع أهل بيته في **غسل رسول الله** ﷺ. وتحكي عائشة رضى الله عنها أنّهم لم يدروا: أيجرّدونه من ثيابه كما يجرّدون موتاهم أم يغسلونه وعليه ثيابه؟ فلمّا اختلفوا ألقى الله عليهم النوم، ثمّ كلّمهم مكلّمٌ من ناحية البيت لا يدرون مَن هو: «**أنِ اغسلوا النبيَّ وعليه ثيابه**». فغسلوه وعليه قميصه (سنن أبي داود ٣١٤١ – حسن).

من كتب السيرة: مَن غسّله؟

تذكر كتب السيرة أنّ الذي غسّل رسول الله ﷺ **عليُّ بن أبي طالب**، وأعانه **العبّاس** وابناه **الفضل وقُثَم**، **وأسامة بن زيد**، **وشُقران** مولاه. وقال عليّ وهو يغسله: «بأبي أنت وأمّي، طِبتَ حيًّا وميّتًا».

وهذه الرواية في سنن ابن ماجه وسيرة ابن هشام بأسانيد فيها كلام، لكنّ معناها مشهور عند أهل السيرة.

المرجع:

ابن هشام، السيرة النبوية (رواية ابن إسحاق) – باب مرضه ووفاته؛ ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن القيّم، زاد المعاد.

وذكر العلماء أنّ غسله في ثيابه **إكرامٌ خاصّ** برسول الله ﷺ. أمّا سائر موتى المسلمين فالسنّة أن يُغسَّلوا مع ستر العورة، يغسّلهم أقرب أهلهم أو أعلمهم بغسل الميّت.

الكفن والصلاة عليه

روت عائشة رضى الله عنها :«**كُفّن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثوابٍ يمانيّةٍ بيضٍ سَحوليّةٍ من كُرسُف، ليس فيهنّ قميصٌ ولا عمامة**» (صحيح البخاري ١٢٦٤). فقد بقيت بساطته حتّى في كفنه.

من كتب السيرة: الصلاة عليه بلا إمام

تذكر كتب السيرة وبعض الروايات أنّ الصحابة **صلّوا على رسول الله ﷺ أرسالًا**، يدخلون حجرة عائشة جماعةً بعد جماعة – الرجال ثمّ النساء ثمّ الصبيان – **بلا إمامٍ** يؤمّهم.

ورواية ابن ماجه في ذلك ضعيفة، لكن تشهد لها رواياتٌ أخرى في الموطّأ وكتب السيرة. وبيّن العلماء أنّ ذلك لأنّ **رسول الله ﷺ إمامُهم** حيًّا وميّتًا، وليحظى كلُّ واحدٍ بشرف الصلاة عليه.

المرجع:

سنن ابن ماجه ١٦٢٨ (ضعيف)؛ مالك، الموطّأ؛ ابن هشام، السيرة النبوية.

ولكثرة من أراد الصلاة عليه استغرق ذلك يوم الثلاثاء كلّه إلى ليلة الأربعاء؛ فكلّ صحابيٍّ أراد أن يغتنم **الفرصة الأخيرة** للدعاء له.

ونتعلّم من هذه الروايات سنّةَ تكفين الرجل في **ثلاثة أثوابٍ بيض** بلا إسراف. فالكفن الغالي لا يزيد الميّت كرامة؛ وإنّما القيمة في **العمل الذي يحمله**.

الدفن حيث قُبض

اختلف الصحابة في **موضع** دفن رسول الله ﷺ. فقال أبو بكر رضى الله عنه :«**سمعتُ من رسول الله ﷺ شيئًا ما نسيتُه، قال: ما قبض الله نبيًّا إلّا في الموضع الذي يحبّ أن يُدفن فيه**». فدفنوه **في موضع فراشه** في حجرة عائشة (جامع الترمذي ١٠١٨ – صحيح).

وحُفر له **لَحد** (شقٌّ في جانب القبر)، ودُفن **ليلة الأربعاء**. واليوم تقع تلك الحجرة داخل المسجد النبويّ، وتُعرف **بالحجرة النبويّة**. ودُفن إلى جانبه بعدُ أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، صاحباه في الحياة والممات.

وتذكّر وصيّته في مرضه: لا تتّخذوا القبور مساجد (الفصل ١٢). ولذلك **لم يُبرَز قبره في مكانٍ مكشوف**. وزيارة مسجده والسلام عليه سنّة، لكنّ الدعاء والسؤال **لله وحده**.

ما تركه رسول الله ﷺ

ماذا ترك القائد الذي وحّد جزيرة العرب كلّها؟ قال عمرو بن الحارث رضى الله عنه، أخو أمّ المؤمنين جُويرية: «**ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهمًا ولا دينارًا ولا عبدًا ولا أمةً ولا شيئًا، إلّا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضًا جعلها صدقة**» (صحيح البخاري ٢٧٣٩)

بل تُوفّي وهو **مَدين**. روت عائشة رضى الله عنها:

حديث – صحيح البخاري، رقم ٢٩١٦

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها - قَالَتْ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلاَثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ. وَقَالَ يَعْلَى حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ دِرْعٌ مِنْ حَدِيدٍ. وَقَالَ مُعَلًّى حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ وَقَالَ رَهَنَهُ دِرْعًا مِنْ حَدِيدٍ.

السند رواه الإمام البخاري: عن محمّد بن كثير، عن سفيان الثوريّ، عن سليمان الأعمش، عن إبراهيم النَّخَعيّ، عن الأسود بن يزيد، عن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها.

التخريج: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسِّيَر، باب ما قيل في درع النبيّ ﷺ، رقم ٢٩١٦؛ وأيضًا رقم ٢٠٦٨، ٤٤٦٧، ومسلم رقم ١٦٠٣.

الدرجة: صحيح – أخرجه البخاري في صحيحه، أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم بإجماع أهل الحديث.

المصدر: https://sunnah.com/bukhari:2916

دروسٌ من هذا الحديث

الدرع التي كان يلبسها في الحروب – رمز القوّة – **مرهونةٌ في طعامٍ لأهله**. هذا هو الرسول الذي كان بيده فيءُ خيبر وحنين والعرب جميعًا، واختار أن يعيش **فقيرًا متقلّلًا**؛ يقسم المال على الناس ويعيش بالكفاف.

وتأمّل كذلك أنّه عامل يهوديًّا – ممّا يدلّ على جواز المعاملة العادلة مع غير المسلمين، وأنّه لم يستغلّ مكانته. ولم يستدن من أغنياء أصحابه لئلّا يحرجهم فيتنازلوا له عن الدين.

«لا نُورَث»

قال رسول الله ﷺ:«**لا نُورَث، ما تركنا صدقة**» (صحيح البخاري ٦٧٢٧). فلمّا سألت فاطمة رضى الله عنها أبا بكر نصيبها من فَدَك ومن الفيء، روى لها أبو بكر هذا الحديث، وأكّد أنّه **سينفق ذلك المال كما كان رسول الله ﷺ ينفقه** على أهل بيته ومصالح الأمّة (صحيح البخاري ٣٧١٢).

والحكمة في ذلك عظيمة: فالأنبياء بُعثوا **لتبليغ الرسالة لا لجمع المال** لذرّيّاتهم. ولو وُرث مال النبيّ لربّما ظنّ ظانٌّ أنّ الدعوة كانت لبناء ثروة الأسرة. وقد قال رسول الله ﷺ إنّ الأنبياء **ورّثوا العلم**، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر (سنن أبي داود ٣٦٤١).

وذلك هو **الميراث الحقّ** لرسول الله ﷺ: القرآن والسنّة والخلق الكريم. وهو ميراثٌ لا تملكه أسرةٌ واحدة، بل **الأمّة كلّها** إلى يوم القيامة.

عمره وتاريخ وفاته

روت عائشة رضى الله عنها :«**تُوفِّي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاثٍ وستّين**» (صحيح البخاري ٤٤٦٦). وذكرت كذلك أنّه **تُوفِّي يوم الاثنين** (صحيح البخاري ١٣٨٧). وهذا ملخّص المعلومات عن وفاته:

البند	المعلومة والمصدر
العمر	٦٣ سنة (صحيح البخاري ٤٤٦٦)
يوم الوفاة	الاثنين (صحيح البخاري ١٣٨٧)
الوقت	الضحى / قُبيل الظهر، بعد الصبح (البخاري ٦٨٠)
الشهر والسنة	ربيع الأوّل ١١ هـ (يونيو ٦٣٢ م)
التاريخ	١٢ ربيع الأوّل على القول المشهور عند أهل السيرة؛ وهناك أقوال أخرى
المكان	بيت عائشة بجوار المسجد النبويّ (البخاري ٤٤٥٠)
مدّة المرض	نحو ١٠–١٤ يومًا بحسب كتب السيرة
الدفن	ليلة الأربعاء، في موضع وفاته (الترمذي ١٠١٨)

ومن العجب: أنّ رسول الله ﷺ وُلد يوم الاثنين، وأُنزل عليه الوحي أوّلَ مرّةٍ يوم الاثنين (صحيح مسلم ١١٦٢)، وتُوفِّي يوم الاثنين. ولذلك رغّب في **صيام يوم الاثنين تطوّعًا**.

الصلاة عليه ومحبّته

مات رسول الله ﷺ، لكنّ صلتنا به **لم تنقطع**. فقد أمر الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب ٣٣: ٥٦) – تفسير ابن كثير ٣٣: ٥٦.

قال رسول الله ﷺ:«**مَن صلّى عليّ واحدةً صلّى الله عليه عشرًا**» (صحيح مسلم ٤٠٨). فالصلاة عليه **طريقُنا للتعبير عن المحبّة والشكر** للرسول الذي بذل عمره كلّه ليبلّغنا الهداية.

ووصف الله رحمته بأمّته: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة ٩: ١٢٨) – تفسير ابن كثير ٩: ١٢٨.

ومحبّة رسول الله ﷺ ليست شعورًا فحسب، بل **اتّباعٌ لسنّته**. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ (آل عمران ٣: ٣١). فكلّما صلّينا كما صلّى، وتخلّقنا بخلقه، وبلّغنا هديه، كنّا **نُحيي ميراثه**.

الخطّ الزمنيّ لمرضه يومًا بيوم

حكت الفصول السابقة الأيّامَ الأخيرة لرسول الله ﷺ بحسب الموضوعات. وهذا الفصل يعيد ترتيب تلك الأحداث بحسب الزمن، ليرى القارئ مسار مرضه من أوّله إلى دفنه. وأكثر الأحداث مرويّة في الأحاديث الصحيحة، غير أنّ اليوم والتاريخ الدقيقين لبعضها تقديرٌ من أهل السيرة؛ وعمود «الحال» يبيّن ذلك.

ومن القرائن المهمّة ما جاء عن عائشة رضى الله عنها نفسها: أنّ مرضه بدأ في بيت ميمونة، إحدى أزواجه، قبل أن يستأذن في أن يُمرَّض في بيت عائشة (صحيح مسلم ٤١٨؛ صحيح البخاري ٤٤٤٢).

الوقت	الحدث	المصدر	الدرجة
رمضان ١٠ هـ	عارضه جبريل القرآنَ مرّتين	البخاري ٣٦٢٤	صحيح
ذو الحجّة ١٠ هـ	حجّة الوداع؛ فُهمت سورة النصر إشارةً إلى أجله	البخاري ٤٩٧٠؛ الحلقة ٢٩	صحيح
صفر ١١ هـ	تجهيز بعث أسامة؛ زيارة شهداء أُحُد والبقيع	البخاري ٤٤٦٩، ٤٠٤٢؛ مسلم ٩٧٤	صحيح؛ الشهر بحسب كتب السيرة
آخر صفر / أوّل ربيع الأوّل	بدء المرض في بيت ميمونة؛ «وا رأساه!»	مسلم ٤١٨؛ البخاري ٥٦٦٦	صحيح؛ التاريخ تقريبيّ
الأيّام الأولى من المرض	ما زال يدور على أزواجه؛ «أين أنا غدًا؟»؛ الانتقال إلى بيت عائشة بين العبّاس وعليّ	البخاري ٤٤٤٢، ٤٤٥٠	صحيح
قبل الوفاة بأيّام	سبع قِرَب؛ الخطبة الأخيرة: العبد الذي خُيِّر، الوصيّة بالأنصار	البخاري ٤٤٤٢، ٣٦٥٤، ٣٧٩٩	صحيح

الوقت	الحدث	المصدر	الدرجة
قبل الوفاة بخمس	«إنّي أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل»؛ النهي عن اتّخاذ القبور مساجد	مسلم ٥٣٢	صحيح
الخميس (قبلها بأربعة أيّام)	حادثة الكتاب؛ الوصايا الثلاث	البخاري ٤٤٣١	صحيح
المغرب، في الأيّام الأخيرة	آخر صلاةٍ أمّ فيها: سورة المرسلات	البخاري ٤٤٢٩	صحيح؛ اليوم بحسب كتب السيرة
العشاء، في اليوم نفسه	إغماءةٌ متكرّر؛ «مُروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس»	البخاري ٦٨٧، ٦٦٤	صحيح
قبل الوفاة بثلاث	«لا يموتنّ أحدكم إلّا وهو يُحسن الظنّ بالله»	مسلم ٢٨٧٧	صحيح
السبت أو الأحد	وجد خِفّة؛ خرج لصلاة الظهر بين رجلين، وجلس إلى جنب أبي بكر	البخاري ٦٨٧	صحيح؛ اليوم بحسب كتب السيرة
الأحد	عتق الغلمان والتصدّق بما بقي من المال	كتب السيرة	من كتب السيرة
الاثنين، وقت الصبح	كشف ستر الحجرة والتبسّم لرؤية الصفوف	البخاري ٦٨٠	صحيح
الاثنين، وقت الضحى	السرّ إلى فاطمة؛ السواك؛ «الرفيق الأعلى»؛ الوفاة	البخاري ٣٦٢٣، ٤٤٣٨، ٤٤٦٣	صحيح
الاثنين، بعد الوفاة	ذهول عمر؛ كلمة أبي بكر؛ آل عمران ٣: ١٤٤؛ السقيفة	البخاري ٣٦٦٧، ٣٦٦٨	صحيح

الوقت	الحدث	المصدر	الدرجة
الثلاثاء	البيعة العامّة؛ غسله وتكفينه والصلاة عليه	أبو داود ٣١٤١؛ البخاري ١٢٦٤	حسن / صحيح؛ التفاصيل من كتب السيرة
ليلة الأربعاء	الدفن في موضع وفاته، في حجرة عائشة	الترمذي ١٠١٨؛ كتب السيرة	صحيح؛ الليلة بحسب كتب السيرة
بعد الدفن	أبو بكر يُنفذ بعث أسامة	الفصل ١٥؛ كتب السيرة	مشهور في السيرة

من كتب السيرة: مدّة المرض وتاريخ الوفاة

اختلف أهل السيرة في مدّة مرضه؛ والذي عليه الأكثر أنّها نحو ثلاثة عشر يومًا، وفي بعض الروايات اثنا عشر، أو أربعة عشر، أو عشرة أيّام.

أمّا أنّ يوم الوفاة كان يومَ الاثنين فصحيح (صحيح البخاري ١٣٨٧). وفي تاريخه: المشهور أنّه ١٢ ربيع الأوّل، وهو قول ابن إسحاق وابن سعد وكثيرٍ من العلماء. وقيل: ١ أو ٢ ربيع الأوّل. وقد ناقش السُّهيليّ وابن حجر صعوبة الجمع بين ١٢ ربيع الأوّل ويوم الاثنين، لأنّ يوم عرفة سنة ١٠ هـ كان يوم جمعة؛ ورجّح ابن حجر القول بـ ٢ ربيع الأوّل. وهذا اختلافٌ اجتهاديّ في الحساب، لا يمسّ شيئًا من أصول الدين.

ورواية أنّه أعتق غلمانه وتصدّق بما بقي عنده من دنانير يومَ الأحد مذكورةٌ في كتب السيرة، ومعناها موافقٌ للحديث الصحيح أنّه لم يترك دينارًا ولا درهمًا (صحيح البخاري ٢٧٣٩).

المراجع: صحيح مسلم ٤١٨؛ صحيح البخاري ٤٤٢٩؛ صحيح مسلم ٥٣٢؛ صحيح مسلم ٢٨٧٧؛ ابن حجر، فتح الباري — كتاب المغازي، باب مرض النبيّ ﷺ ووفاته؛ HadithAnswers، «The Date of the Passing of Rasulullah».

الأشخاص في الخطّ الزمنيّ

ذُكرت أسماءٌ كثيرة في أيّامه الأخيرة. ويبيّن هذا الجدول صلة كلّ واحدٍ منهم برسول الله ﷺ، لئلّا يلتبس على القارئ نسبهم.

الاسم	صلته به	دوره في الأيّام الأخيرة
عائشة بنت أبي بكر	زوجه، بنت أبي بكر	مرّضته، وتُوفّي مسندًا إلى صدرها
ميمونة بنت الحارث	زوجه	بدأ مرضه في بيتها (مسلم ٤١٨)
أمّ الفضل لُبابة بنت الحارث	زوج العبّاس، أخت ميمونة، أمّ ابن عبّاس	روت آخر صلاة مغرب (البخاري ٤٤٢٩)
فاطمة بنت محمّد	ابنته، الوحيدة الباقية من أولاده	تلقّت السرّين، «وا أبتاه»
عليّ بن أبي طالب	ابن عمّه (ابن أبي طالب) وصهره	حمله وأسنده، غسّله
العبّاس بن عبد المطّلب	عمّه	حمله إلى بيت عائشة
الفضل وقُثَم ابنا العبّاس	ابن عمّه	أعانا على غسله (كتب السيرة)
عبد الله بن عبّاس	ابن عمّه	روى حادثة يوم الخميس (البخاري ٤٤٣١)
أسامة بن زيد	ابن زيد بن حارثة وأمّ أيمن	أمير الجيش إلى تخوم الشام
أبو بكر الصدّيق	أقرب أصحابه، صهره (أبو عائشة)	إمام الصلاة، خطبته بعد الوفاة، الخليفة
عمر بن الخطّاب	صاحبه، صهره (أبو حفصة)	يوم الخميس، ذهوله بعد الوفاة

الاسم	صلته به	دوره في الأيّام الأخيرة
عبد الرحمن بن أبي بكر	أخو عائشة الشقيق	جاء بالسواك الأخير
أنس بن مالك	أنصاريّ (بنو النجّار، من الخزرج)؛ خادمه	روى النظرة الأخيرة إلى الصفوف (البخاري ٦٨٠)
جابر بن عبد الله	أنصاريّ (بنو سَلِمة، من الخزرج)	سمع الوصيّة بحسن الظنّ (مسلم ٢٨٧٧)
جُندب بن عبد الله البَجَليّ	صحابيٌّ من قبيلة بَجيلة	سمع الوصيّة قبل الوفاة بخمس (مسلم ٥٣٢)

العبرة

يُظهر هذا الخطّ الزمنيّ أنّ الأيّام الأخيرة لرسول الله ﷺ لم تكن فارغة؛ ففي كلّ يومٍ وصيّة، وعبادة، وتهيئةٌ للأمّة. لم يُوقفه المرض عن البلاغ، بل غيّر طريقته فقط – من المنبر إلى الحجرة، ومن الخطبة إلى السِّرار.

ويعلّمنا كذلك التمييز بين الثابت والتقريبيّ. فأحداثه الكبرى ثابتة في الأحاديث الصحيحة، أمّا اليوم والتاريخ الدقيقان لبعضها فاجتهادٌ من أهل السيرة، ونذكر ذلك بأمانة.

محاولة القيام والصلاة الأخيرة

من أشدّ المشاهد تأثيرًا في الأيّام الأخيرة لرسول الله ﷺ حرصُه على الصلاة مع أمّته وإن بلغ به الضعف مبلغه. سأل عبيد الله بن عبد الله عائشةَ رضى الله عنها عن مرضه، فحدّثته:

ثقُل النبيّ ﷺ فقال: «أصلّى الناس؟» قلنا: «لا، هم ينتظرونك يا رسول الله». قال: «ضعوا لي ماءً في المِخضَب». فاغتسل، ثمّ ذهب لينوء فأُغمي عليه، ثمّ أفاق فقال: «أصلّى الناس؟» – وتكرّر ذلك ثلاث مرّات. والناس عكوفٌ في المسجد ينتظرونه لصلاة العشاء الآخرة. ثمّ أرسل إلى أبي بكرٍ أن يصلّي بالناس (صحيح البخاري ٦٨٧).

وكان أبو بكر رجلًا رقيقًا، فقال لعمر: «يا عمر، صلِّ بالناس». فقال عمر: «أنت أحقّ بذلك». فصلّى أبو بكر تلك الأيّام. ثمّ وجد النبيّ ﷺ من نفسه خِفّة، فخرج بين رجلين – أحدهما العبّاس – لصلاة الظهر. فذهب أبو بكر ليتأخّر، فأومأ إليه ألّا يتأخّر، وجلس إلى جنبه. فكان أبو بكر يصلّي بصلاة النبيّ ﷺ، والناس يصلّون بصلاة أبي بكر (صحيح البخاري ٦٨٧).

آخر صلاةٍ أمّ فيها

روت أمّ الفضل بنت الحارث – زوج العبّاس وأمّ ابن عبّاس –: «سمعتُ النبيّ ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات، ثمّ ما صلّى لنا بعدها حتّى قبضه الله» (صحيح البخاري ٤٤٢٩)

سورة المرسلات سورةٌ عن يوم البعث، بتكرارٍ يهزّ القلوب: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ (المرسلات ٧٧: ١٥) – تفسير ابن كثير ٧٧: ١٥. فكانت آخر قراءته إمامًا تذكيرًا بالآخرة – وصيّةٌ في غاية المناسبة من رسولٍ يتهيّأ للرجوع إلى ربّه.

الرقية بيده الشريفة

روت عائشة رضى الله عنها أنّ رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوّذات ونفث، ومسح عنه بيده. فلمّا اشتكى وجعه الذي تُوفّي فيه كانت هي تقرأ بالمعوّذات التي كان ينفث، وتمسح بيده رجاءَ بركتها (صحيح البخاري ٤٤٣٩).

المراجع: صحيح البخاري ٦٨٧؛ صحيح البخاري ٤٤٢٩؛ صحيح البخاري ٤٤٣٩؛ المرسلات ٧٧: ١٥.

العبرة

ثلاث مرّاتٍ حاول القيام، وثلاث مرّاتٍ أُغمي عليه – كلّ ذلك من أجل صلاة الجماعة. فكيف بنا ونحن أصحّاء نسمع الأذان ثمّ نتباطأ؟ إنّ هذه القصّة عتابٌ لطيفٌ لكلّ من يتهاون بالصلاة.

وتُظهر القصّة كذلك أدب أبي بكر وعمر: كلٌّ منهما يقدّم صاحبه، لا يتنازعان المنزلة. ولمّا خرج رسول الله أراد أبو بكر أن يتأخّر في الحال – توقيرٌ لم يتغيّر وإن كان قد قُدّم إمامًا.

وأخيرًا، فالرقية بالقرآن سنّةٌ عند المرض؛ لا تنافي الدواء والعلاج، بل تكمّلهما بالتوكّل على الله.

مجموع الوصايا الأخيرة لرسول الله ﷺ

الوصيّة الأخيرة للمرء تكون في الغالب أهمَّ الأمور عنده. وقد ترك رسول الله ﷺ وصايا في أيّامه الأخيرة، تفرّقت في روايات متعدّدة، وهذا الفصل يجمعها في موضعٍ واحد.

قال جُندب بن عبد الله البجليّ رضى الله عنه: سمعتُ النبيّ ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ وهو يقول: «إنّي أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإنّ الله تعالى قد اتّخذني خليلًا كما اتّخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنتُ متّخذًا من أمّتي خليلًا لاتّخذتُ أبا بكرٍ خليلًا. ألا وإنّ مَن كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتّخذوا القبور مساجد، إنّي أنهاكم عن ذلك» (صحيح مسلم ٥٣٢)

وقال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما: سمعتُ رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيّامٍ يقول: «لا يموتنّ أحدكم إلّا وهو يُحسن الظنّ بالله عزّ وجلّ» (صحيح مسلم ٢٨٧٧)

الوصيّة	المصدر	الفصل
لا خليل إلّا الله؛ منزلة أبي بكر	مسلم ٥٣٢؛ البخاري ٣٦٥٤	9, 10
لا تتّخذوا القبور مساجد	مسلم ٥٣٢؛ البخاري ٤٤٤١	12
الإحسان إلى الأنصار	البخاري ٣٧٩٩	8
إخراج المشركين من جزيرة العرب	البخاري ٤٤٣١	13
إجازة الوفود وإكرامهم	البخاري ٤٤٣١	13
إنفاذ بعث أسامة	البخاري ٤٤٦٨، ٤٤٦٩	15
إمامة أبي بكر في الصلاة	البخاري ٦٦٤، ٦٨٧	11, 34
حسن الظنّ بالله عند الموت	مسلم ٢٨٧٧	35
الصلاةَ الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم	أبو داود ٥١٥٦	14

وإذا رُتّبت هذه الوصايا وُجدت تشمل التوحيد (لا تتّخذوا القبور مساجد، وأحسنوا الظنّ بالله)، والعبادة (الصلاة)، والعدل الاجتماعيّ (المماليك والضعفاء)، ووحدة الأمّة (الأنصار، وإمامة أبي بكر)، وأمن الدولة (بعث أسامة، وجزيرة العرب). وكلّها خلاصةٌ للرسالة التي بُلّغت ثلاثًا وعشرين سنة.

المراجع: صحيح مسلم ٥٣٢؛ صحيح مسلم ٢٨٧٧؛ صحيح البخاري ٤٤٣١؛ سنن أبي داود ٥١٥٦.

العبرة

لم تكن واحدةٌ من وصاياه الأخيرة في مالٍ أو مصلحةٍ لأهل بيته. كلّها عن الله والصلاة والناس – ولا سيّما الضعفاء. وهذا هو ميزان القائد الحقّ: بماذا يفكّر في لحظاته الأخيرة.

ووصيّة «حسن الظنّ بالله» تعلّمنا أنّ المؤمن لا يستقبل الموت باليأس. وليس حسن الظنّ تركًا للعمل، بل عملٌ مع رجاء رحمته.

سُنن المرض والموت

ليست الأيّام الأخيرة لرسول الله ﷺ تاريخًا فحسب، بل هي دليلٌ عمليّ لكلّ أسرةٍ مسلمة تمرّض مريضًا أو تواجه الموت. فكثيرٌ من سنن المرض والجنائز تُرى في حجرة عائشة في تلك الأيّام، وتشهد لها أحاديث أخرى.

السنّة	المثال من الأيّام الأخيرة	الدليل العامّ
الصبر واحتساب الأجر	حُمّى شديدة كما يُوعَك رجلان (الفصل ٥)	البخاري ٥٦٤٨
الرقية بالقرآن	قرأت عائشة بالمعوّذات	البخاري ٤٤٣٩
كتابة الوصيّة مبكّرًا	أوصى مشافهةً	البخاري ٢٧٣٨
حسن الظنّ بالله	وصيّته قبل الوفاة بثلاث	مسلم ٢٨٧٧
التذكير بكلمة التوحيد	«لا إله إلّا الله، إنّ للموت سكرات»	مسلم ٩١٦؛ البخاري ٤٤٤٩
المحافظة على النظافة	السواك الأخير	البخاري ٤٤٣٨، ٨٨٧
تغطية بدن الميّت	سُجّي ببُردٍ حِبَرة	البخاري ٥٨١٤
إغماض العينين والدعاء للميّت	دعا الصحابة له	مسلم ٩٢٠
البكاء بلا نياحة	فاطمة؛ أنس؛ الصحابة	البخاري ١٣٠٣
الإسراع في تجهيز الجنازة	الغسل والتكفين والدفن	أبو داود ٣١٤١؛ البخاري ١٢٦٤

قال رسول الله ﷺ: «لقّنوا موتاكم لا إله إلّا الله» (صحيح مسلم ٩١٦). وبيّن العلماء أنّ التلقين يكون برفق، ولا يُلحّ عليه بالتكرار حتّى يشقّ على المحتضر.

وروى ابن عمر رضى الله عنهما قوله: «ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يوصي فيه، يبيت ليلتين، إلّا ووصيّته مكتوبةٌ عنده» (صحيح البخاري ٢٧٣٨)

وذكرت عائشة رضى الله عنها أنّ رسول الله ﷺ حين تُوفّي سُجّي ببُردٍ حِبَرة – ثوبٍ يمانيٍّ مخطَّط (صحيح البخاري ٥٨١٤). ولمّا مات أبو سلمة أغمض هو عينيه وقال: «إنّ الروح إذا قُبض تبعه البصر»، ثمّ دعا له (صحيح مسلم ٩٢٠).

المراجع: صحيح مسلم ٩١٦؛ صحيح مسلم ٩٢٠؛ صحيح البخاري ٢٧٣٨؛ صحيح البخاري ٥٨١٤؛ صحيح البخاري ٤٤٣٩.

العبرة

الموت أمرٌ محتوم، لكنّ كثيرًا من الأسر لا تتهيّأ له. فكتابة الوصيّة، وبيان الديون، وتعلّم تجهيز الجنازة، تهيئةٌ علّمتها السنّة – ليست علامةَ يأس، بل علامةَ مسؤوليّة.

ولمن يمرّض مريضًا في عائشة وفاطمة وأهل بيته قدوةٌ في الصبر والرفق والدعاء. ولمن فقد حبيبًا: البكاء فطرة، والممنوع النياحة والاعتراض على قدر الله.

روايات مشهورة تحتاج إلى تحقيق

لأنّ وفاة رسول الله ﷺ حدثٌ بالغ التأثير، انتشرت عنها قصصٌ كثيرة في المواعظ والكتب ووسائل التواصل؛ بعضها صحيح، وبعضها ضعيف، ومنها الموضوع. وهذا الفصل يحقّق بعض الروايات المشهورة، لنحدّث عنه بأمانة.

الرواية	المصدر	الدرجة	الثابت الصحيح
استئذان ملك الموت عليه، وزيارة جبريل له أيّامًا متتابعة	الطبرانيّ، المعجم الكبير؛ البيهقيّ، دلائل النبوّة	أسانيدها ضعيفة (مرسل / معضل؛ وفيها رواةٌ ضعفاء)؛ ورأى بعض العلماء أنّ طرقها يقوّي بعضها بعضًا	«إنّه لم يُقبض نبيٌّ قطّ حتّى ... ثمّ يُخيَّر» (البخاري ٤٤٦٣)
طلب عُكّاشة القصاصَ منه أمام الناس	الطبرانيّ	موضوع (ابن الجوزيّ، السيوطيّ)؛ وراويه عبد المنعم بن إدريس متّهمٌ بالكذب	عدله ثابتٌ في أحاديث صحيحة كثيرة
آخر كلامه: «أمّتي، أمّتي»	لم يثبت في رواية صحيحة عند الوفاة	لا مصدر صحيحٌ لهذا السياق	آخر كلامه: «اللهمّ الرفيقَ الأعلى» (البخاري ٤٤٦٣)
صلّى أبو بكر بالناس سبعَ عشرةَ صلاةً بالضبط	كتب السيرة	العدد من روايات السيرة	صلّى أبو بكر بالناس «تلك الأيّام» (البخاري ٦٨٧، ٦٨٠)

الرواية	المصدر	الدرجة	الثابت الصحيح
تُوفّي في ١٢ ربيع الأوّل	ابن إسحاق؛ ابن سعد	القول المشهور؛ وقيل ١ أو ٢ ربيع الأوّل	يوم الاثنين (البخاري ١٣٨٧)

أمّا لفظ «أمّتي، أمّتي»: فرحمته بأمّته ثابتة. روى عبد الله بن عمرو أنّه تلا آيةً في إبراهيم وآيةً في عيسى عليهما السلام، فرفع يديه وقال: «اللهمّ أمّتي أمّتي» وبكى، فأرسل الله جبريل وقال: «إنّا سنُرضيك في أمّتك ولا نسوءك» (صحيح مسلم ٢٠٢). لكنّ ذلك لم يكن عند الوفاة؛ وآخر كلامه الصحيح في الرفيق الأعلى.

من كتب السيرة: منهج رواية قصّة الوفاة

الرواية الضعيفة في السيرة يجوز أن يذكرها العلماء مع بيان ضعفها، ولا سيّما إذا لم يخالف معناها الصحيح. أمّا الموضوعة فلا تجوز روايتها إلّا لبيان وضعها.

وقصّة وفاته في الأحاديث الصحيحة مؤثّرةٌ بما يكفي دون زيادة: النظرة الأخيرة إلى الصفوف، والسواك الأخير، و«الرفيق الأعلى»، وبكاء فاطمة، وكلمة أبي بكر. فالأَولى أن نحفظ هذه الروايات ونبلّغها بدقّة.

المراجع: صحيح مسلم ٢٠٢؛ صحيح البخاري ٤٤٦٣؛ مكتب المفتي للأقاليم الاتّحاديّة (ماليزيا)، إرشاد الحديث ٢٩٥ (قصّة عكّاشة)؛ إرشاد الحديث ٤٤١ (استئذان ملك الموت)؛ الهيثميّ، مجمع الزوائد.

العبرة

قال رسول الله ﷺ: إنّ كذبًا عليّ ليس ككذبٍ على أحد (صحيح البخاري ١٢٩١). ولذلك ينبغي أن تقترن محبّته بالتثبّت في رواية سيرته؛ فالمحبّة الحقّة أن تُبلّغ الحقّ.

أسئلة شائعة عن وفاة رسول الله ﷺ

١. كم مكث رسول الله ﷺ مريضًا؟

على قول أكثر أهل السيرة نحو ثلاثة عشر يومًا؛ وقيل من عشرة إلى أربعة عشر يومًا (الفصلان ٣١، ٣٣).

٢. أين بدأ مرضه؟

في بيت ميمونة رضى الله عنها (صحيح مسلم ٤١٨). ثمّ مُرّض في بيت عائشة بإذن سائر أزواجه حتّى تُوفّي (صحيح البخاري ٤٤٥٠؛ الفصل ٧).

٣. ما سبب مرضه؟

ذكرت الأحاديث حُمّى شديدة جدًّا (صحيح البخاري ٥٦٤٨)، وألمًا من الطعام المسموم بخيبر (صحيح البخاري ٤٤٢٨). وذهب بعض العلماء إلى أنّه مات شهيدًا بأثر ذلك السمّ (الفصل ٦).

٤. مَن أمّ الناس في مرضه؟

أبو بكر الصدّيق، بأمره هو (صحيح البخاري ٦٦٤، ٦٨٧؛ الفصلان ١١، ٣٤).

٥. ما آخر صلاةٍ أمّ فيها؟

صلاة المغرب، قرأ فيها بسورة المرسلات، كما روت أمّ الفضل (صحيح البخاري ٤٤٢٩؛ الفصل ٣٤).

٦. كيف نفهم حادثة يوم الخميس؟

طلب الكتاب، فاختلف الصحابة رغبةً في التخفيف عنه وهو مريض. وعاش بعدها أيّامًا ولم يُعِد الطلب، بل أوصى مشافهةً. وبيّن أهل السنّة أنّ الدين قد كمل (المائدة ٥: ٣)، وأنّ هذه الحادثة لا تُتّخذ ذريعةً للطعن في الصحابة (صحيح البخاري ٤٤٣١؛ الفصل ١٣).

٧. ما آخر كلامه؟

«اللهمّ الرفيقَ الأعلى» (صحيح البخاري ٤٤٦٣). أمّا آخر وصيّته للأمّة فكانت في الصلاة وما ملكت الأيمان (سنن أبي داود ٥١٥٦). ولا تعارض بينهما: فإحداهما آخر وصيّته للناس، والأخرى آخر دعائه لله (الفصلان ١٤، ١٩).

٨. هل صحّ أنّ ملك الموت استأذن عليه؟

رواها الطبرانيّ والبيهقيّ بأسانيد ضعيفة. والصحيح أنّ كلّ نبيٍّ يُرى مقعده من الجنّة ثمّ يُخيَّر، فاختار الرفيق الأعلى (صحيح البخاري ٤٤٦٣؛ الفصل ٣٧).

٩. متى كان تاريخ وفاته بالضبط؟

أمّا أنّه يوم الاثنين من ربيع الأوّل سنة ١١ هـ فمقطوعٌ به. و١٢ ربيع الأوّل هو القول المشهور؛ وقيل ١ أو ٢ ربيع الأوّل (صحيح البخاري ١٣٨٧؛ الفصلان ٣١، ٣٣).

١٠. لماذا دُفن في حجرة عائشة؟

لأنّ أبا بكر روى قوله: إنّ النبيّ يُدفن حيث يُقبض (جامع الترمذي ١٠١٨؛ الفصل ٢٨).

١١. لماذا لم يكن في الصلاة عليه إمام؟

ذكرت كتب السيرة أنّ الصحابة دخلوا أرسالًا جماعةً بعد جماعة فصلّوا عليه بلا إمام، ليحظى كلُّ واحدٍ بشرف الصلاة عليه. ورواية ابن ماجه في ذلك ضعيفة، لكنّ لها شواهد (الفصل ٢٧).

١٢. كيف «نلقاه» اليوم؟

بالصلاة عليه (الأحزاب ٣٣: ٥٦)، واتّباع سنّته (آل عمران ٣: ٣١)، ورجاء أن نكون من «إخوانه» الذين اشتاق إليهم – الذين آمنوا به ولم يروه (صحيح مسلم ٢٤٩؛ الفصل ٣٢).

© ٢٠٢٦ م / ١٤٤٨ هـ جميع الحقوق محفوظة – Hj Che Alim Hj Che Haron – مجاني للمسلمين

العبرة

تدلّ هذه الأسئلة على أنّ وفاة رسول الله ﷺ ما زالت محلّ حديث الأمّة إلى اليوم. والجواب يجب أن يرجع إلى القرآن والحديث الصحيح، ويُبلَّغ بأدبٍ ومحبّة، بلا زيادةٍ ولا نقصان.

الدروس والخاتمة

في الأيّام الأخيرة لرسول الله ﷺ دروسٌ لا تُحصى، ومن أهمّها:

العبرة	من هذه الحلقة
الاستعداد للموت	زيارة أُحُد والبقيع؛ «العبد الذي خُيِّر»
الصبر على المرض	حُمّى شديدة، وسمّ خيبر، ومع ذلك يوصي
العدل في الأهل	استئذان أزواجه في أن يُمرَّض في بيت عائشة
حراسة التوحيد	النهي عن اتّخاذ القبور مساجد
الصلاة والضعفاء	«الصلاةَ الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم»
القيادة	إمامة أبي بكر؛ بعث أسامة
ثبات الإيمان	«مَن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت»
الزهد	الدرع المرهونة؛ «لا نُورَث»

وصيّةٌ لنا

رحل رسول الله ﷺ، لكنّ القرآن وسنّته باقيان. وكلّما حزنّا لأنّنا لم ندركه فلنتذكّر قوله: «**وددتُ أنّا قد رأينا إخواننا**». قالوا: «أولسنا إخوانك يا رسول الله؟» قال: «**أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد**» (صحيح مسلم ٢٤٩). نسأل الله أن نكون من أولئك الذين اشتاق إليهم، وأن يجمعنا به على **الحوض**.

وتستمرّ سلسلة **السيرة النبوية** إن شاء الله بـ**الحلقة ٣١ — شمائل رسول الله** ﷺ صفاته الخَلْقيّة، وأخلاقه، وعبادته، وحياته اليوميّة، كما رواها الصحابة الذين رأوه — لنعرفه وإن لم نلقه. والله أعلم.

المراجع – الْحَلْقَةُ ٣٠

القرآن الكريم والتفسير

القرآن الكريم، بالرسم العثماني. https://quran.com/ms

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (آل عمران ٣: ١٤٤، ٣: ١٨٥؛ النساء ٤: ٦٩؛ التوبة ٩: ١٢٨؛ الأنبياء ٢١: ٣٤؛ الأحزاب ٣٣: ٥٦؛ الزمر ٣٩: ٣٠؛ النصر). https://tafsir.app/ibn-katheer/3/144

الحديث الشريف

صحيح البخاري ٦٦٤، ٦٨٠، ٨٨٧، ١٢٦٤، ١٣٠٣، ١٣٨٧، ٢٧٣٩، ٢٩١٦، ٣٦٢٣، ٣٦٢٤، ٣٦٥٤، ٣٦٦٧، ٣٦٦٨، ٣٧١٢، ٣٧٩٩، ٤٠٤٢، ٤٤٢٨، ٤٤٣١، ٤٤٣٨، ٤٤٤٠، ٤٤٤١، ٤٤٤٢، ٤٤٤٩، ٤٤٥٠، ٤٤٥٤، ٤٤٦٢، ٤٤٦٣، ٤٤٦٦، ٤٤٦٩، ٤٩٧٠، ٥٦٤٨، ٥٦٦٦، ٦٧٢٧. https://sunnah.com/bukhari

صحيح مسلم ٢٤٩، ٤٠٨، ٩٧٤، ٩٧٦، ١١٦٢. https://sunnah.com/muslim

جامع الترمذي ١٠١٨، ٣٦١٨؛ سنن أبي داود ٣١٤١، ٣٦٤١، ٥١٥٦؛ سنن ابن ماجه ١٥٩٩، ١٦٢٨. https://sunnah.com

كتب السيرة والشروح

ابن هشام، السيرة النبوية (برواية ابن إسحاق) – باب مرض رسول الله ﷺ ووفاته.

ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري – كتاب المغازي، باب مرض النبيّ ﷺ ووفاته.

ابن كثير، البداية والنهاية؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى.

صفيّ الرحمن المباركفوريّ، الرحيق المختوم؛ الألبانيّ، سلسلة الأحاديث الصحيحة.

التاريخ العامّ

ويكيبيديا، «وفاة النبي محمد». https://en.wikipedia.org/wiki/Death_of_Muhammad

ويكيبيديا، «Al-Masjid an-Nabawi». https://en.wikipedia.org/wiki/Al-Masjid_an-Nabawi

ويكيبيديا، «Abu Bakr». https://en.wikipedia.org/wiki/Abu_Bakr

ويكيبيديا، «سقيفة بني ساعدة». https://en.wikipedia.org/wiki/Saqifa

ويكيبيديا، «أسامة بن زيد». https://en.wikipedia.org/wiki/Usama_ibn_Zayd

أحاديث ومصادر إضافية

صحيح مسلم ٤١٨ (بدء المرض في بيت ميمونة). https://sunnah.com/muslim:418

صحيح البخاري ٦٨٧ (محاولة القيام؛ إمامة أبي بكر). https://sunnah.com/bukhari:687

صحيح البخاري ٤٤٢٩ (آخر صلاة مغرب: المرسلات). https://sunnah.com/bukhari:4429

صحيح البخاري ٤٤٣٩ (الرقية بالمعوّذات). https://sunnah.com/bukhari:4439

صحيح مسلم ٥٣٢ (الوصيّة قبل الوفاة بخمس). https://sunnah.com/muslim:532

صحيح مسلم ٢٨٧٧ (حسن الظنّ بالله). https://sunnah.com/muslim:2877a

صحيح مسلم ٩١٦ (التلقين بلا إله إلّا الله). https://sunnah.com/muslim:916a

صحيح البخاري ٢٧٣٨ (الوصيّة المكتوبة). https://sunnah.com/bukhari:2738

صحيح البخاري ٥٨١٤ (التسجية بالحِبَرة). https://sunnah.com/bukhari:5814

صحيح مسلم ٢٠٢ («اللهمّ أمّتي أمّتي»). https://sunnah.com/muslim:202

الدعم والتبرّع

يُنشر هذا الكتاب **مجّانًا بالكامل** للأمّة الإسلامية، **ولا يجوز بيعه أبدًا.** والتبرّعات مرحّبٌ بها للمساعدة في تكاليف البحث، واستضافة الموقع quranscience.my، ونشر مزيدٍ من الكتب – لكنّها **ليست واجبة.** نسأل الله أن يتقبّل كلّ تبرّعٍ صدقةً جارية.

سورة البقرة (٢): ٢٦١

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١

المصدر: quran.com/2:261

سورة سبأ (٣٤): ٣٩

قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩

المصدر: quran.com/34:39

حديث – صحيح مسلم، رقم ٢٥٨٨

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، وَقُتَيْبَةُ، وَابْنُ، حُجْرٍ قَالُوا حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، - وَهُوَ ابْنُ جَعْفَرٍ - عَنِ الْعَلاَءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ ».

السند: رواه الإمام مسلم: عن يحيى بن أيّوب، وقتيبة بن سعيد وعلي بن حُجر، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عبد الرحمن بن يعقوب، عن أبي هريرة رضى الله عنه .

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، حديث رقم ٢٥٨٨.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:2588

حديث – صحيح مسلم، رقم ١٦٣١

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، وَقُتَيْبَةُ، - يَعْنِي ابْنَ سَعِيدٍ - وَابْنُ حُجْرٍ قَالُوا حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، - هُوَ ابْنُ جَعْفَرٍ - عَنِ الْعَلاَءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ».

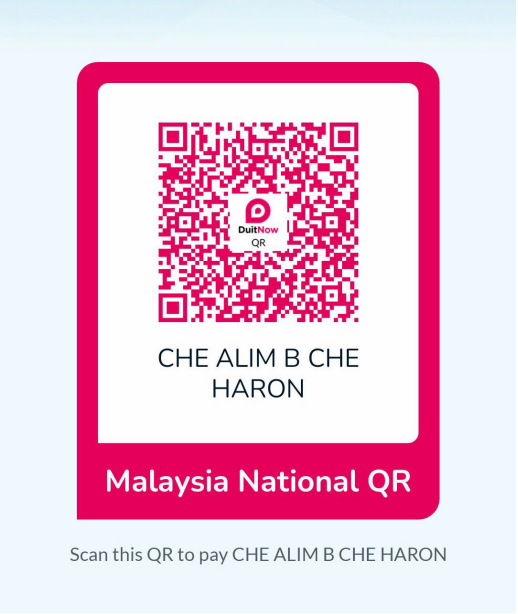
السند: رواه الإمام مسلم: عن يحيى بن أيّوب، وقتيبة بن سعيد وعلي بن حُجر، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عبد الرحمن بن يعقوب، عن أبي هريرة رضى الله عنه .

التخريج: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الوصيّة، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم ١٦٣١.

الدرجة: صحيح – أخرجه مسلم في صحيحه.

المصدر: https://sunnah.com/muslim:1631

جزاكم الله خيرًا كثيرًا



امسح رمز QR أعلاه (DuitNow، ماليزيا) للتبرّع.

للمتبرّعين من خارج ماليزيا: امسح رمز QR الخاص بـ PayPal أعلاه أو انقر عليه، أو زُر
paypal.me/quranscience